سلامبو

أو فتاة قرطاجة

جوستاف فلوبير

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

سلامبو

أو فتاة قرطاجه

تأليف جوستاف فلوبير

ترجمة بولس غانم

مراجعة الدكتور ريمون فرنسيس

وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

هذه ترجمة كاملة لرواية :

SALAMMBÔ

par

Gustave Flaubert

الوليمة

كان ذلك فى حي « ميجار » فى ضواحى قرطاجة وفى حدائق هاميلكار . وكان الجنود ، الذين قادهم هذا الزعيم القائد إلى النصر فى صقلية ، قد أولموا فى ما بينهم وليمة شائقة ليحتفلوا بذكرى يوم إنتصارهم فى معركة «إيريكس[1]» وكان قائدهم غائبا وكانوا كثيرى العدد ، فخلالهم الجو وأقبلوا يأكلون ويشربون أحرارا .

وكان الضباط منتعلو الأحذية المصنوعة من القلز (برونز) قد تخيروا لهم مكانا فى الطريق الوسطى تحت ستر من الأرجوان أهدابه من ذهب يمتد من جدار الاصطبل المعد للخيل حتى أول سطح من سطوح القصر .

وانتشر الجند صفوفاً تحت ظلال الأشجار حيث كانت تنبسط المبانى الكثيرة ذات السقوف المستوية المبسوطة ، من معاصر ، للزيوب وأقبية للخمور ، ومخابز ومخازن ومصانع للاسلحة المختلفة ، وإلى جانب ذلك كله حظائر للفيلة وحفائر للوحوش الضارية وسجون للعبيد الأرقاء .

ويحيط بالمطابخ أشجار التين ثم يليها غابة من شجر الجميز تمتد حتى تتصل ببساط كثيف من الخضرة إلى حيث الرمان يزهى بحمرته بين القطن المعتز ببياض غدائره ، وحيث دوالى العنب المثقلة بعناقيدها تتسلق أغصان الصنوبر ، وحقول الورد تتفتح أزاهيرها تحت أشجار الدلب ، وحيث هنا وهناك ، ما بين الشعب الأخضر ، تتمايل الزنابق ، وأما السبل والمعابر فقد كانت مكسوة بالرمل الأسود الممزوج برشاش من المرجان المسحون ،

---

(١) إيريكس ، مدينة قديمة من مدن سيسيل أو صقلية اشتهرت بهذه المعركة وبالمعبد المقام فيها للزهرة الهة الحب عند الفينيقيين والقرطاجيين . (المترجم)

وبين تلك المعابر يمتد شارع السرو وكأنه ــ والسرو على جانبيه ــ مجموعة من عمد المسلات الخضر .

وكان القصر ، المبنى بالرخام المستخرج من مقالع « نوميديا » المرقش باللون الأصفر ، قائماً بعيداً على قواعد عريضة تحمل فوقها أربعة طوابق منضدة ذات سطوح متساوية . وكان هذا القصر يبدو للجند بعظمته وأبهته ومكنون ما حواه كأنه وجه هاميلكار البادى الجلال الغامض ، وكان السلم الذى يتدرج به إليه مصنوعاً من خشب الأبنوس الأسود يحمل فى كل زاوية من زوايا درجاته قطعة من مقدم كل سفينة من سفن عدو مغلوب ، وابواب القصر حمر بلون الدم يتخللها رسم صليب كسواد الليل ، ولها شبكات حديدية تمنع تسلل العقارب من أسفل ، وللنوافذ قضبان من الحديد المذهب متشابكة مثبتة فيها تسد من الأعلى فتحاتها .

« ومجلس القدماء » ، وهو مجلس الأمة ، قد اختار لهم ذلك القصر مكانا لمأدبتهم ، فأخذوا يفدون إليه زرافات ووحدانا من كل حدب وصوب حتى الجرحى منهم الناقهون الذين كانوا يتداوون فى معبد أشمون بدأوا يتوافدون منذ انبثاق الفجر ، يجرون أنفسهم جراً محمولين على عكازاتهم مغتبطين ، وهكذا امتلأت المعابر والسبل بالوافدين وكأنهم سيول تسير مندفعة إلى بحيرات الماء ، وكان الأرقاء المولجون بالمطابخ يتخبطون بين الأشجار جيئة وذهابا،أنصاف عراة مذعورين ، ونفرت الغزلان وهى ترسل ثغاءها خائفة ، ودنت الشمس من المغيب وامتزج عرف أزهار أشجار الليمون ببخار العرق المتصاعد من هذا الجمع فزاده ثقلا .

كان هناك أمشاج وأخلاط من جميع أمم الأرض من « ليجوريين » و«لوزيتانين» «وباليار» إلى زنوج وروماني فارين من بلادهم، يسمع منهم شتى اللغات. فمن لغة عامية ثقيلة لسكان مقاطعة «الدوريد» (من أعمال اليونان) الى مقاطع من لغة « السلتيك » الصاخبة كضجيج مركبات القتال ، الى أصوات نهايات حروف لغة الايونيين تصطدم بحروف أهل القفر الساكنة ذات النبرات الجشاء الشبيهة بعواء بنات آوى . وكان المشاهد يستدل على

الاغريقي بقامته النحيفة ، وعلى المصرى بعلو منكبيه ، وعلى « الكنتبرى » باتساع ربلتيه ، وهناك « كاريون » يلاعبون الهواء بريش خوذاتهم تيهاً وكبراً ، ورماة سهام من « كابادوس » قد رسموا مختلف رسوم الأزهار على أجسادهم بمزيج من عصير الأعشاب ، وبعض « الليديين » بملابس النساء يتحلون بأقراط فى آذانهم ، فيتناولون عشاءهم وهم ينتعلون الشباشب وآخرون دعاهم حب الظهور فصبغوا أجسامهم بلون القرمز فأشبهوا تماثيل صنعت من المرجان .

وكانوا يتكئون على الوسائد ، ويأكلون وهم يجلسون القرفصاء حول طباق كبيرة أو وهم على بطونهم منبطحون ، ينتزعون قطع اللحم ويبدأون بمضغها وازدرادها وهم على مرافقهم معتمدون ، كما يربض الأسد الهادىء ليمزق فريسته بأنيابه ، وكان المتباطؤون فى الحضور يقفون صفوفاً مستندين إلى الأشجار ينتظرون دورهم وهم يرمقون موائد الطعام الوطيئة التى كانت تختفى أنصافها تحت بسط حمر .

ولما كانت مطابخ هاميلكار غير كافية لاطعام هذا الجيش اللجب ، فان المجلس أمدهم بالعبيد وبالأوانى والطباق والأسرة ، وكانت النيران المتأججة ترتفع بلهبها ودخانها وسط تلك الحديقة لشى الأبقار ، كتلك النيران التى تشب بعد المعارك لحرق جثث القتلى ، وكان الخبز معطراً بالأنسيون ، والجبن المقدم يوزن بالقناطير ، والخمر تسقى بالدنان والميـــاه العذبة بالأباريق والأزهار تقدم بسلال مزركشية بالخيوط المذهبة ، وعلت فرحة الجند لما نالهم بعد طول زمان من شبع ورى ، وبدا فرحهم فى عيونهم وسرى هو والحميا فى رؤوسهم فارتفعت أصوات بالغناء من هنا وهناك .

وأول ما قدم لهم العصافير المغموسة بالمرق الأخضر فى صحاف من الفخار الأحمر المخططة الرسوم باللون الأسود . ثم جميع أنواع الأصداف التى تزخر بها شواطىء بلاد القرطاجيين ، ثم حساء القمح والفول والشعير والجعلان المطيب بالكمون وكل هذا فى صحون من العنبر الأصفر .

ثم اختفت الموائد تحت أكداس من اللحوم المتنوعة : فهنا أبقار وحشية بقرونها ، وطواويس بريشها ، وهناك أكباش بكاملها ، مطهية بالنبيذ الحلو وأفخاذ نوق ، وجواميس ، وقنافذ متبلة ، وجنادب مقلية ، ونموس محلاة بالسكر ، وكل هـــذه الأطعمة طافحة بالكمأه ، والمرىء ، وأنواع التوابل المشهية ، وكان الشحم يقدم فى جفان من الخشب النفيس مغموساً بالزعفران وتلت ذلك جميعه أكداس من الثمار المتنوعة الأجناس والأصناف ، نثرت على أقراص من العســل ، ولم ينس الطهـاة أن يقدموا فى ما قدموه بعض تلك الكلاب الصغيرة المسمنة ذات البطون المنتفخة والوبر الوردى التى كانوا يغذونها بثفل الزيتون والتى كانت من أشهى طعام القرطاجيين ومما يعافه غيرهم من الأمم ، وكان « الجوليون » يتخاطفون البطيخ والليمون فيقضمونه مع قشره ، وكان الزنوج ، وقد رأوا سمك السرطان » لأول مرة يمزقون وجوههم بحمته ، وكان الاغريق حليقو اللحى ذوو البشر الرخامية البيض ، يرمون القشور وراءهم ، وينظفون صحونهم ، بينما كان رعاة « بريتيوم » لابسو جلود الذئاب يزدردون مايقـدم إليهم ولا يحولون وجوههم عن صحافهم .

ومد الليل رواقه فرفعوا السجاف الذى كان ممدوداً فوق شارع السرو وجاؤوا بالمشاعل وبدأ وميض سراج الزيت المصنوع من البرفير يتلألأ فى الظلام فأرعب القردة المكرسة للقمر وهى تأوى إلى مضاجعها فى ذرى شجر الأرز ، فأخذت تصرخ وتولول، فزاد ذلك فى فرح الجنود ومرحهم .

وخوذات الجنود تتلألأ بانعكاس الأضواء والصوانى والصحاف المرصعة بالحجارة الكريمة تتوهج بمختلف الالوان ، والأكواب الملبسة بالمرائى المحدبة تكبر صور الأشياء وتعددها ، فيزدحم الجنود حوالها مترئين فيها مبهورين ، عاجين بوجوههم ، مكشرين عن أنيابهم ليثيروا الضحك ويرسلوا القهقهات وكانوا يقفزون فوق الموائد والمواطىء المصنوعة من العاج ، ما بين أكداس من الملاعق المذهبة ، ويحتسون ماطاب لهم أن يحتسوه من الخمور الاغريقية التى كانت تقدم إليهم بالقرب ، أو من « أنبذة كانبانى » فى أكواب

كبيرة أو من خمور « كانتابر » المعتقة فى الدنان أو من عصير العناب أو الدارصينى ، أو نبق السدر ، والخمر تسيل على الأرض سيل المياه ، وروائح الشواء والدخان تتصاعد إلى الجو ممتزجة بأنفاس الشاربين . وبين هذا وذاك يصل إلى أذني المستمع صوت صريف أسنان الآكلين وصراخ المتكلمين وصدى أصوات المغنين ورنين الأوانى الفضية المتلامسة وتكسر الأكواب والأقداح وتطاير شظاياها . وكلما زاد سكرهم ، زاد إحساسهم بظلم قرطاجنة إياهم ، فلقد كانت الحروب المتوالية قد أنهكت قوى الدولة واستنفدتها وأصبحت الجمهورية تترك أبواب قرطاجنة مفتوحة لمن يفد إليها من العصابات ، وكان القائد « جيسكون » قد فطن إلى الخطر فأخذ يخرج من المدينة العصابة تلو العصابة من المرتزقة ، ليتمكن من دفع اعطياتهم شيئا فشيئا ، كما كان يدور فى خلد مجلس القدماء أنه بالامكان حمل الجند على التجاوز عن جزء مما أستحق لهم من الأجور ، وكان هذا أصلا مدعاة إلى التباغض والتنافر ، وقرطاجنة عاجزة عن أن تدفع لروما الدين المطلوب منها ، كمثل عجزها عن دفع أجور الجند المرتزقة ، فاضمروا لها عداء كعدائهم لروما ، سواء بسواء ، وأخذوا يتوعدون ويتهددون ويحملون قرطاجنة أثقالهم وعبء إقامتهم بها ، وبعد مساومات غلبت فكرة التصافى والسلام على عاطفة العداء والخصام ، واستجابت قرطاجة لرغبتهم بأن يجتمعوا فيها للاحتفال بذكرى يوم من أيام انتصاراتهم ، وأن يكون ذلك فى حدائق هاميلكار وقصره تشفيا منه وانتقاما ، لأنه أطال الحروب وكان من دعاتها ، ولأنه - يوم تداركه اليأس من قرطاجة الجاحدة - ألقى مقاليد الأمر وقيادة الجنود المرتزقة إلى « جيسكون » وغادرها غاضبا . ولذلك رأى مجلس القدماء أن تقام تلك الوليمة فى قصره ليصرفوا عنهم وإليه شيئا من البغضاء التى كان يكنها المرتزقة لشعب قرطاجنة ومجلسها ، ولكي يحملوا هاميلكار وحده عبء النفقات الباهظة .

وزاد فى عنفوان المرتزقة وغيهم أن نزلت قرطاجة على إرادتهم ، فازدادوا يقينا بأنه قد أصبح بامكانهم أن يعودوا إلى ديارهم حاملين فى طراطير

معاطفهم أجورا استحقوها بسفك دمائهم . على أنهم ، وقد لعبت الخمر رؤوسهم ، قاسوا تلك الأجور بما بذلوه وسفكوه فعدوها ضئيلة جائرة ، وكان بعضهم يكشف للاخرين عن جراحه والبعض الآخر يقص على سامعيه أنباء المواقع التى شهدها واستبسل فيها أو أنباء الأسفار والصيد والطرد فى بلاده مقلدا أصوات الوحوش الضارية ووثباتها .

وجاء دور اللاعبين والحواة فأدخلوا رؤوسهم فى فوهات جرات الخمور وأخذوا يعبونها كأنهم جمال عطشى ، ووقف منهم رجل « لويز يتانى » يحمل رجلين على ذراعيه الممدودتين وأخذ يطوف بين الموائد وهو ينفث لهب النار من منخريه ، ومشى بعض « اللاسد يمونيين » ، وهم بأذرعهم مثقلون ،متباطئين فى مشيتهم يقلدون النساء بمشاهدخلاعية يعافها الحياء ، ووقف البعض عراة بين الكؤوس يقلدون المصارعين،وكان فريق من الاغريق يرقص أمام إناء كبير يحمل رسم حورية على دقات يخرجها زنجى بضربه بقطعة من عظام البقر على خوذة فولاذية .

وإذا بغناء عذب رغم قوته ينخفض رخيماً ثم يرتفع أخاذاً إلى الأجواء شبيها بتصفيق جناحى طائر جريح ، وكان مصدر ذلك الغناء أصوات العبيد الأرقاء نزلاء السجن المظلم ، فهب بعض الجنود مسرعين لفكاكهم وعادوا بعد حين يسوقون أمامهم قطيعا من الآدميين تدل صفرة وجوههم عليهم وعلى شقائهم ، تعلو رؤوسهم أغطية مخروطية الشكل من أطمار اسود بالية ، وبأرجلهم نعال من الخشب وكانوا فى مشيهم يحدثون قعقعة من تلامس أغلالهم أشبه بقعقعة مركبات النقل الجادة فى المسير . ووصلوا إلى شارع السرو واختلطوا بالزحام،وأخذ الجند يسألونهم مستفسرين. وانتحى أحدهم مكانا قصيا وأطماره المهلهلة تشف عن آثار تمزق فى لحم الكتفين وعن جروح وقروح ، ووقف محنى الرأس ، وآثار الخوف بادية عليه ، وعيناه مطبقتان إجتنابا منه لوهج نور بعد عهده به ، حتى إذا رأى أن أحداً من الجندلا يريد به أذى ، صعد زفرة فرج بها عن صدره وأخذ لسانه المتلعثم

يردد ألفاظا لا تكاد تفهم ، وأخذت الدموع تتدفق من عينيه ، ثم تناول كوبا مليئا بالخمر ورفعه بين يديه المثقلتين بالأغلال ونظر إلى السماء والكوب بين يديه وصاح بملء شدقيه :

« سلام عليك قبل كل سلام أنت يا بعل أشمون المخلص ، أنت يا من يدعوه أهل وطني : « اسكيلاب » وسلام عليكم أنتم يا آلهة الينابيع والنور والغاب وأنتم أيها الأرباب المختبئون تحت الجبال وفي ثنايا الكهوف وسلام لكم أنتم أيها الرجال الأشداء الغائصون في حلق الحديد اللامعة، أنتم الذين أنقذتموني وفككتم أساري » .

ثم ألقى بالكوب جانبا وأخذ يحدث بحديثه : فاسمه « سبنديوس » والقرطاجيون قد أسروه في معركة «أجنيوز» وهو يجيد اللغات الاغريقية والليجورية والقرطاجية ، فأخذ يكرر شكره بهذه اللغات لمنقذيه ويقبل يدي هذا وذاك ويهنئهم بالذكرى المجيدة ، ثم صاح بهم مستغربا قائلا : « أين أكواب الكتيبة المقدسة ؟ » وكانت هذه الأكواب مسدسة الزوايا تحمل على كل منها رسم دالية من العنب منقوشة بالزمرد خصت بها فرقة من الجنود طوال القامات ليس فيهم سوى فتيان مثقفين من أبناء قرطاجة ومواطنيها ، وهي مقدسة لديهم كأثواب الكهنوت يشرف بها مالكوها ، ولذلك كان المرتزقة يتطلعون إلى امتلاكها وحيازتها أكثر من تطلعهم إلى أي كنز آخر من كنوز الجمهورية، وكانوا يكرهون الكتيبة الوطنية ويحسدونها لحيازتها هذه الأكواب ويعدون الشرب فيها شرفا ، حتى إن البعض منهم خاطر بحياته في سبيل الوصول إلى تعاطي الراح بهذه الأقداح .

وأثار كلام سبنديوس حفيظتهم وشهوتهم ، أمروا باحضار الأكواب المودعة لدى جماعة التجار الذين كانوا يتناولون الطعام مجتمعين في دار « السيسيت » وعاد الرسل فقالوا : « إنهم نائمون » .

فضج الجند وأهابوا بالرسل أن يوقظوهم، فرجع الرسل مرة ثانية يقولون: إن الأكواب مودعة في حقائب مقفلة في المعبد .

فصاح الجند « افتحوا المعبد والحقائب » ولكن العبيد المذعورين اعترفوا بأن تلك الأكواب مودعة لدى الزعيم القائد جيسكون .

وأصر الجند على طلب الأكواب وصاحوا : « قولوا لجيسكون أن يحضرها بنفسه ، وأطل جيسكون من باب الحديقة يحدق به حرس من الكتيبة المقدسة وكان مرتديا وشاحه الأسود الذي يعلو رأسه ، يمسك به تاج ذهبي ، مرصع بالجواهر الثمينة ، وهذا الوشاح الفضفاض يتدلى حتى حوافر جواده كأنه قد امتزج بالليل بوشاحه لا يبدو منه للناظرين إلا لمعان تاجه ولحيته البيضاء والقلادة الزرقاء المثلثة اللفات التي كانت تتدلى حتى صدره .

ولم يكد يبلغ صفوف المرتزقة حتى حيوه بأصوات شقت عنان السماء قائلين :

— الأكواب ! أين الأكواب ؟ .

فابتدرهم بقوله: « إذا كانت الشجاعة تؤهل صاحبها لامتلاك هذه الأكواب فأنتم أحق الناس بها » .

فصفق الجند وهللوا فرحا واعتزازا .

أجل كان جيسكون يعرفهم حق المعرفة ، وكيف لا ، وهو الذي قادهم فى أيام الزعازع وهو الذى رجع مع آخر كتيبة منهم على آخر سفينة .

واستطرد جيسكون فقال : « إن الجمهورية قد احترمت فرقكم على اختلاف شعوبكم وعاداتكم وعباداتكم ، وتركتكم أحراراً فى قرطاجة . وأما الآنية المقدسة فانها ملك خاص ، قال هذا وإذا بجندى جولى كان قريبا من سبنديوس أقبل يقفز فوق الموائد حتى اقترب من جيسكون مهدداً إياه بسيفين مصلتين ، فعالجه القائد بضربة على رأسه من صولجان من العاج كان فى يده فسقط الجولى على الحضيض ، وضج مواطنوه الجوليون وزمجروا وأزبدوا ، فانصلت العدوى بالآخرين ، وأوشكوا أن يوقعوا بالجرس القرطاجي والتفت

جيسكون فاذا بوجوههم قد علاها الاصفرار وقدر أن شجاعته ستكون تهوراً وستذهب عبثا بين هؤلاء الوحوش الهائجين المتحمسين ، وأنه إذا كظم الغيظ وصبر فسيتمكن من الانتقام منهم يوما ما بسعة حيلته وكيده ، فأوعز إلى حرسه بالعودة وسار على رأسهم متباطئا فى سيره حتى إذا بلغ باب الحديقة التفت إلى المرتزقة وصاح بهم : « ستندمون ولات ساعة مندم » .

واستؤنفت الوليمة وعاد الجند إلى القضم والسكر والعربدة ، ولكنهم فى قرارة أنفسهم أصبحوا يخشون احتمال عودة جيسكون إليهم وضربه الحصار عليهم ، وهم بين الأسوار المحصنة ثم سحقهم حتى آخر رجل منهم ، فأحسوا بوحدتهم على كثرة عددهم ونظروا إلى المدينة المستغرقة بنومها فى ظلام الليل ، فتسرب الخوف إلى قلوبهم ، وزادهم رعبا مرأى تلك المعابر الضيقة والسلالم المتزاحمة والأبنية السود العالية، ولا سيا إذ مر بخواطرهم ذكر تلك الالهة الغامضة التى هى أشد قسوة وضراوة من شعب قرطاجة الذى يمجدها ويعبدها .

ولاح لهم من بعيد أضواء فوانيس السفن فى الميناء وأنوار معبد «خامون» وساقتهم الذكرى إلى هاميلكار فتساءلوا أين هو الآن ولم ابتعد عنهم وخذلهم بعد توقيع معاهدة الصلح ؟ لا ، إن إشاعة خلافه مع مجلس الجمهورية كاذبة قد انتحلها هو ليعجل فى ضياعهم . وهكذا فقد أخذوا يلعنونه وأخذ غضبهم يزكى حقدهم وضغينتهم عليه .

وإنهم لكذلك وإذا بنفر منهم يتجمعون تحت شجرة من شجر الدلب حول زنجيّ يتلوى ويشكو ويتألم مرتميا على الحضيض ممسكا بمراق بطنه، وحدقتا عينيه جامدتان وعنقه ملتوية ، والزبد يخرج من فمه ، فصاح صاحبهم: لقد سقى السم وصدقه الآخرون، فثار ثائرهم وأوقعوا بالعبيد ، وسرت فى نفوس القوم موجة غضب وشهوة تدمير وتقتيل وتخريب زادها السكر عنفا وحدة واحتداما، فأقبلوا يضربون على غير هدى وأخذوا يحطمون ويقتلون : هذا نفر منهم يلقى

بالمشاعل بين الأوراق ، وهـذا يحيط بحظيره الاسود فيرميها بالنبال حتى يميتها وذاك نفر آخر ، دفعته الجرأة نحو الفيلة فقطع خراطيمها ، وشد بنواجذه على عاجها كأنه يريد قضمه .

ودفع حب السلب والنهب فريقاً من جند الباليار المسلحين بالمقاليع فداروا وراء القصر وقطعوا بخناجرهم حواجز الخشب وكسروا الأقفال ، وإذا بهم فى حديقة أخرى مليئة بالنباتات المشذبة : فهناك صفوف من الزهر الأبيض متناسقة متتابعة تخط على بساط من الأرض أزرق خطوطاً عدسية وكأنها سهام شهب فى السماء . وكانت أشواك العوسج والعليق تنشر عرفا زكيـا يملأ النفوس حرارة ، وجذوع الأشجار المرقشة بالزنجفر تشبه الأعمدة الملطخة بالدماء . وهناك اثنتا عشرة قاعدة من النحاس يعلو كلا منها كرة من الزجاج تشف عن أشعة محمرة وكأنها حدقات عيون قد احمرت وزادت خفقانا ورفا .

وكان الجنود يستنيرون بالمشاعل فأبصروا بحيرة صغيرة مقسمة إلى برك عديدة ، بجدران صفت من الحجارة الزرق المنحوتة ، وكان المـاء فيها زلالا صافيا حتى أن اضطراب نور المشاعل كان مرئيا فى قاعها المفروش بالحصى البيض وبالتبر ، وفار المـاء فطفت على سطحه شذرات متوهجـة وبدت على صفحاته أسمـاك كبيرة حليت خراشيمها بالحجارة الـكريمة ، فالتقط الجند هـذه الأسمـاك وحملوها إلى موائد الطعام وهم يضحكون ويمرحون .

وكانت هذه الأسماك جزءاً لايتجزأ من أسرة « بركا » وكلها ينحدر من نوع اللوط الأصلي الذى منه تفتحت البيضة السرية التى كانت إلهة النسل مختبئة فيها .

وسر المرتزقة لفكرة ارتكاب إثم انتهاك قدسية السمك الآلهى ، وزادتهم هـذه الفـكرة نهماً فغلوا مقدارا من المـاء فى إناء حديدى

وطرحوا فيه الاسماك حية وأخذوا يستمتعون برؤيتها تتخبط وتتقلى في الماء الساخن .

وزاد لغب الجند وهياجهم وزايلهم الخوف فعادوا إلى معاقرة الخمر ، وكانت روائح العطور التى أغرقوا بها جباههم تبلل أرديتهم الرثة ، وكان يخيل إليهم وهم يستندون بمرافقهم إلى الموائد ، أنها تميل بهم وتتهادى تهادى السفن فى البحار ، وكانوا يجيلون عيونهم التى اتسعت بالسكر حدقاتها ، ذات اليمين وذات اليسار ليزدردوا بأبصارهم ما لم يعد بامكانهم أن يزدردوه بأفواههم . وكان بعضهم يمشى متثاقلا على الأسمطة الأرجوانية الممدودة على الأرض فيكسر المواطىء العاجية والصحاف المصنوعة من زجاج صور . والأغانى تمتزج بحشرجة نزع العبيد المطروحين بين شظايا الزجاج المنكسر ، وكلهم يطلبون المزيد من الخمر ويلحون بطلب الذهب والنساء . وملكتهم سورة الخمر فأخذوا يهذون ، فظن البعض منهم أنهم فى أتون من نار وظن الآخرون أنهم فى صيد وطرد ، لما يرونه حولهم من الأشجار والأوراق ، فهجم الواحد منهم على الاخر هجوم الوحوش المفترسة وانتقل الحريق من شجرة إلى شجرة ومن نبات إلى نبات فملأ الجو دخاناً أبيض أشبه شىء بدخان البركان فى بدء ثورته ، وساد الضجيج والصخب ، وعلا زئير الأسود الجريحة فى حفائرها .

وأضىء القصر فجأة من أعلى سطوحه ، وفتح الباب الأوسط وبدت على عتبته فتاة هى ابنة « هاميلكار » متشحة بالأثواب السود ، .وتدركت سلم الطابق الأعلى ثم الثانى ثم الثالث واستقرت على الشرفة التى تعلو سجن العبيد ، ووقفت محنية الرأس لاحراك بها ، تنظر إلى الجنود . وكان يقف وراءها وعلى جنبيها أشباه رجال ممدودو القامة شاحبو اللون يرتدون ملابس بيض ذات أحمال حمر ، تنحدر حتى تمس الأقدام ، لالحى لهم ولا شعر ولا حواجب ، والخواتم تتلألأ فى أصابعهم ، وبين أيديهم أعواد كبيرة يوقعون على موسيقاها أناشيد السبح لآلهة قرطاجة ، وكانوا من كهنة

معبد « تانيت » ومن الخصيان الذين طالما كانت « سلامبو » تدعوهم إلى منزلها لاقامة الصلاة فيه .

وبعد لأى ، نزلت من سلم السجن وتبعها الكهنة فمشت متباطئة سالكة شارع السرو مابين موائد الضباط الذين كانوا يوسعون لها في مرورها وهم يرمقونها واجمين .

وكانت تبدو أكبر سنا مما هى عليه ، لأن فرع رأسها المرشوش بنوع من الرمل البنفسجى ، بدا مصففا بشكل برج ، تبعا لزى عذارى الكنعانيين ، وغدائر اللؤلؤ اللاصقة بصدغيها تنحدر حتى زاويتى شفتيها الورديتين الشبيهتين بالرمانة المتفتحة . وعلى صدرها مجموعة من الحجارة المتوهجة اللامعة ، وذراعاها المغطيتان بالماس تمتدان عاريتين من ثوبها العاطل من الأكمام ، المتألق الجمال بأزهار حمر ازين بها الثوب الأسود . ويمتد بين كعبيها سلسلة ذهبية صغيرة تربطهما فتضبط خطاها ، ومعطفها بلون الأرجوان القاتم ومن نسيج نادر مجهول ، يتماوج فضفاضا وهى تجره وراءها كأنه المد من موج البحر يتتبع خطاها . وكان الكهنة من وقت إلى آخر يضربون على أعوادهم أنغاما خافتة ، فاذا توقفوا عن الضرب سمع رنين السلسلة الذهبية خفيفا متناسقاً مع وقع خفيها المصنوعتين من البردى .

ولم يكن أحد قد عرفها من قبل ، وكل ماكان يعرف عنها أنها منقطعة إلى الصلاة والعبادة ، وكثيرا مارآها الجنود في الليل من بعيد جاثمة على ركبتيها فى أعلى قصرها ضارعه إلى الكواكب ، إلى جانب مجامر يحرق فيها الطيب ، وكأن القمر هو الذى خلع عليها شحوب اللون وألبستها الآلهة غلالة من السحب رقيقة ، وكانت حدقاتها تبدو وكأنها تنظر إلى ماوراء الفضاء . وأخذت تمشى الهوينا محنية الرأس ممسكة بيسراها بعود صغير من خشب الأبنوس ، وكانوا يسمعون منها ماترده همسا : « أموات ! كلكن أموات ! لن تعدن فتسمعن صوتى كما كنتن تسمعنه فتطعن لى فى الأمس

الغابر ، يوم كنت أجلس على شاطىء البحيرة فألقمكن بذور البطيخ! يوم كانت أسرار « تانيت » تترقرق فى عيونكن الصافية صفاء حباب مياه الأنهار . ثم بدأت تناديهن بأسمائهن التى كانت أسماء الشهور : ياسيف ، ياسيفان « ياتموز ، وأيلول وتشرين وشباط ! آه ثم آه ! رحمة بى أيتها الآلهة الرحيمة ! » .

وكان الجنود يتجمعون حولها وهم لا يفهمون ماتقول ، ولكنهم كانوا معجبين بجمال حلاها ، فألقت عليهم واحدا بعد واحد نظرات ملؤها الرعب وحنت رأسها بين كتفيها ومدت ذراعيها وصاحت بهم مراراً : ماهذا الذى فعلتموه ؟ ما الذى فعلتموه ، كان لديكم مايكفى لتوفير أسباب سروركم ومتعتكم : الخبز والزيت واللحوم وما حوت الأهراء من الحبوب والأقبية من الخمور ، وقد أحضرت لكم الأبقار المسمنة من أقاصى البلاد ، وأرسلت الصيادين إلى القفر . وانتفخ صوتها واحمر خداها ثم صاحت : « أين أنتم هنا؟ أفى مدينة مغزوة مغلوبة على أمرها أم أنتم فى قصر سيدكم الآمر المطاع ؟ هو سيد وأى سيد ، هو الزعيم هاميلكار والدى خادم الالهة البعول ، هذه أسلحتكم مخضبة بدم عبيده ، هل عرفتم قائداً فى أوطانكم يساويه حنكة فى تسيير الجيوش وكسب المعارك ، انظروا إلى سلالم قصرنا هذا تروها مليئة بآثار انتصاراتنا . هيا أتموا مابدأتم بة ! احرقوا هذا القصر! سأحمل معى طلسم بيتى وعبقريته ، حيتى السوداء الراقدة على أوراق السدر! سأخرج صفيرا من شفتى فتلتحق بى ، وإذا صعدت إلى سفينتى تسيرا وراءها منسابة على زبد الأمواج .

قالت هذا وأرنبة أنفها ترتعش وهى تكسر أظفارها على الجواهر المتلألئة على صدرها وقد بدأ الذبول فى عينيها .

ثم استطردت قائلة : « آه لك ياقرطاجة المسكينة ! أيتها المدينة الجديرة بالنوح والبكاء ، لم يبق لك ليدافع عنك ، رجال كرجال الأمس الأشداء

الاقوياء الذين كانوا يقتحمون البحار المحيطة فيبنون ماوراءها وعلى شطوطها المعابد والهياكل ! آه ياقرطاجة لقد كانت جميع أمم الأرض تعمل لك وتدور فى فلكك وكانت سهول البحار التى تحرثها مجاذيف سفنك تحمل إليك الحصاد ! » .

ثم أخذت تحدثهم متغنية بمغامرات « مالكاريث(١) » إله الصيدونيين ومنجب أسرتها وكيف تغلب على « ماسينزبال » وعلق رأسه على مقدم السفينة وكيف كان الرأس تغطيه الأمواج كلما ثارت الأنواء ، وكيف حنطته الشمس بأشعتها حتى أصبح أقسى من الذهب ، وكيف أن عينيه ظلتا تذرفان الدمع مدرارا ، تتغنى بهذا وغيره من أمجاد « مالكاريث » بلغة كنعانية قديمة لايفهمها البربر الذين أحدقوا يتساءلون ماالذى تقوله لهم هذه الفتاة وما الذى تعنيه تلك الحركات التى كانت ترافق غناءها ، وكانوا قد أحدقوا بها من كل صوب وصعدوا على الموائد والأسرة أو تسلقوا الأشجار ومدوا الرؤوس وفتحوا العيون والأشداق ، لعلهم يلتقطون شيئا من تلك التواريخ أو الأساطير التى كانت تمر ضئيلة فى مخيلاتهم ، من خلال ظلمات طقوس دينية تبدو أشباحا بين غيوم كثيفة .

وكان الكهنة الذين يصحبون سلامبو هم وحدهم الذين يفهمون معانى أغانيها ومراميها إذ كانت أيديهم الهزيلة المليئة بالغضون ترتجف من وقت إلى وقت وهى ترافق بضربها على الأعواد تلك الأغانى الحزينة التى كانت تهيج فيهم الذكريات المقدسة ، كما يملأ مرأى أولئك الجنود نفوسهم هيبة ورعبا .

والبربر لايلتفتون إلى أولئك المخنثين من حملة الأعواد ، بل أن اهتمامهم منصرف إلى الفتاة وسماع أقوالها والنظر إليها . وكان أكثرهم تحديقا بها

---

(١) مالكاريث : اله من بعول الكنعانيين .

والتفاتاً إليهـــا فتى من الضباط النوميديين[1] يجلس إلى مائدة من الموائد المخصصة للضباط بين جنود من أبناء وطنه ، ويحمل ، مشكوكاً في منطقتة عدداً كبيراً من الحراب يغطيها رداؤه ، فيبدو وكأن في ظهره حدبة كسنام الجمل ، والرداء يكاد يخفي وجهه فلا يبدو منه إلا بريق عينيه المحدقتين بوجه الفتاة ، وقد اشترك في الوليمة عرضا واتفاقاً لأنه لم يكن من قدماء المحاربين ، بل كان والده قد بعث به ضيفاً يحل على أسرة « بركا » عملا بالعادات المرعية لدى ملوك أفريقية أن يرسلوا أبناءهم ليختلطوا بفتيات الأسر الـكبيرة تمهيداً لارتباط بزواج ، ولـكن الفتى واسمه « نارهافاس[2] » لمـا يكن قد رأى سلامبو قبل هذه المأدبة ، وكان يجلس على عقبيه وعيناه متجهتان إلى كنانة حرابه لا يحولها إلا للتحديق بالفتاة وهو منتفخ المنخرين حديد البصر كأنه الببر مختبئاً مقعيـاً بين أعواد الخيزران .

وغير بعيد ، وفي صف آخر من الموائد ، يجلس ليبي مديد القـامة ضخم الهيكل مجعد شعر الرأس قصيره ، لا يرتدي إلا سترته الحربية التي كانت النصال الحديدية المثبتة فيها تمزق أرجوان السرير المتكىء إليه ، ويتدلى من رقبته إلى صدره الأشعر قلادة في طرفيها قمر من الفضة يضل بين شعر صدره ، وفي وجهه بقع من الدم تنقطه هنا وهناك وهو متكىء على مرفقـه فاغر الفم يبتسم من حين إلى آخر .

وانقطعت سلامبو عن ترديد الأنغـام المقدسة ، وأخذت تتحدث إلى البربر بلغاتهم لتهـدىء ثائرتهم وتسكن غضبهم ، وكان صوتها عذبا رقيقا ، والبربر وهم يصغون إليها يذكرون عذوبة العيش في أوطانهم ، ثم هاجتها ذكريات قرطاجة فعادت تتغنى ولـكن بأمجاد معاركها القديمة وانتصاراتها على روما ، فصفق لها الجند فزادت حماساً لرؤية السيوف المسلولة وأخذت ترجع في صوتها وترفعه في الغناء ، وهي مبسوطة الذراعين . ثم سقط العود من

---

(١) نوميديا : هي الجزائر اليوم .

(٢) اسمه الافريقي : نارهوى كما يشير المؤلف الى ذلك في ذيل كتابه .

يدها ولزمت الصمت وضمت يديها إلى صدرها وظلت بضع دقائق مطبقة الجفون تتلذذ بهياج أولئك الرجال واضطرابهم .

وكان الليبي « ماتو » مقبلا عليها منعطفا إليها ، فتقدمت نحوه بحركة لاإرادية ، مدفوعة بعاطفة من الكبرياء ممزوجة بعرفان الجميل ، وتناولت كأسا من الذهب وسكبت فيها كثيراً من الخمر ، ظنا منها أنها تتصافى بذلك مع الجيش ، وقدمته لليبي وقالت : « خذ واشرب » فتناول الكأس من يدها ورفعها إلى شفتيه وهم بشربها ، وإذا بالجولي - ذلك الذي ضربه جيسكون - يربت على كتفيه ويخاطبه وهو يضحك بلغة لم يفهمها الليبي ، فيتطوع العبد السابق سبنديوس بالترجمة فقال : « ان الآلهة تحميك وترعاك وستصبح غنيا . متى يكون الزواج ؟ فقال الليبي « وأي زواج تعني ؟ »

فقال الجولي : زواجك أنت ، فنحن الجوليين نعتقد أن المرأة التي تقدم للرجل كأساً من الخمر تقدم له بوقت معاً فراشها » .

ولم يكد الجولي يفرغ من كلامه حتى انتصب نارهافاس واقفاً وأخرج من منطقته حربة واستند بقدمه اليمنى على حافة الطاولة ورمى بها ماتو فمرت وهي تصفر ما بين الأكواب ونفذت من ذراع الليبي الى السماط ، فسمرته فيه تسميرا أليماً حتى أن قبضة « ماتو » أخذت تهتز في الفضاء .

فأسرع ماتو بانتزاع الحربة ، ولم يكن لديه سلاح بل كان أعزل عارياً فحمل المائدة المثقلة بالصحاف والأكواب بكلتا يديه وقذف بها نارهافاس ، وهو بين حشد الجموع التي ارتمت ما بينهما ، وكان الجند والنوميديون متراصين حتى كان الواحد منهم لا يستطيع سل خنجره لشدة الزحام ، ورغم هذا كان ماتو يتقدم شاقا طريقة بضربات من رأسه ثم نظر ذات اليمين وذات اليسار واذا بنارهافاس قد اختفى عن العيان . واختفت كذلك سلامبو .

فتلفت نحو القصر فرأى أعلاه الباب الأحمر المرقش بالصليب الأسود يغلق فجرى مسرعاً يتدرج على السلم المصنوع جلفقه من مقدمات السفن ،

المنصوبة على جانبيه فاجتازه وبدأ أمام الباب يدافعه بهيكله الضخم لاهثا مستنداً إلى الجدار خشية أن يسقط ، وكان قد التحق به رجل عرفه رغم حلك الظلام وتبين أنه سبنديوس فصاح به : « عـد من حيث أتيت » فلم يجب العبد بل أخذ يمزق ثوبه بأسنانه وجثا على ركبتيه قريبا من ماتو وأمسك بذراعه الجريح يجسها فى الظلام ، ليستبين موضع الجرح ، وبدأ ضياء القمر من خلال الغيوم ، فرأى سبنديوس جرحاً فى الذراع بليغاً فلفه بقطعة القماش التى انتزعها من ثوبه ، ولـكن هياج ماتو كان يشتد وهـو يصيح به : « دعنى وشأنى واذهب » فأجابه العبد قائلا : لا ، لا لن أذهب إنك قد فـككت أسرى ، وأنقذتنى من ظلمات السجون فأنا لك عبد وأنت سيد لى فمر بما تشاء .

وأخذ ماتو وهو يتحسس الحائط يدور على السطح وينصت إلى وقع الخطى وينظر من كوى النوافذ المذهبة الى داخل الحجرات الصامتة ، ثم توقف أخيراً واليأس يعلو وجهه . فقال له العبد : « أصغ الى ولا تحتقرنى لضعفى ، لقد عشت فى القصر وبامكانى أن أنسل ما بين الحيطان كالأرقم . تعال معى فان هناك فى حجرة الأجداد سبيكة من ذهب تحت كل بلاطة وهناك أعرف سردابا يوصل الى قبورهم .

فقال ماتو : « وأية أهمية لذلك ؟ » وسكت سبنديوس . وكانا ـ وهما على السطح يريان ما دونهما سجافا كثيفاً من الظلام يمتد وكأنه محيط أسود تنتو الى أمواجه ، وامتد لسان من النور من جهة الشرق ، وبدت تحتهما من اليسار ، أقنية الماء التى تسقى حى « ميجارا » تضىء بلونها الفضى خضرة الحدائق ، وكانت السقوف الصنوبرية الشكل التى تعلو المعابد المسبعة الزوايا والسلالم والحصون والسطوح قد أخذت تنجلى معالمها بطلوع الفجر الشاحب اللون ، وبدت شبه جزيرة قرطاجنة متمنطقة من كل صوب بمنطقة متموجة من الزبد الأبيض ، بينما كان البحر تحتها بلون الزمرد ساكنا وكأن لفحة برد الصباح قد مسته فجمد فى مكانه ، ولما بدأت الشمس تتشح رويدا رويدا بوشاحها

الوردى ، اخذت المبانى العالية المنحنية على منحدرات الأرض تبدو متراصة متتابعة ، متدركة الواحد منها أسفل الآخر ، كقطيع من الماعز الأسود ينحدر من الجبال . وكانت الشوارع القفرة تتطاول وأشجار النخل هنا وهناك تبرز وراء الجدران جامدة لا حراك بها . وخرزات الابار التى حفلتها المياه تبدو كأنها خوذ من الفضة مفقودة ضائعة فى دور المنازل ، ومنارة السفن المرفوعة فوق مشرق « هرمايوم » قد أخذ نورها الوهاج بالشحوب وهناك فى أعلى ملعب « الأكروبول » وفى غابة السرو أحست خيل أشمون باقبال الضياء فأخذت تضرب بحوافرها ثم ترفعها فوق الحواجز الرخامية ، معالية فى الصهيل ، موجهة أبصارها نحو الشمس . وبزغت الغزالة : فرفع سبنديوس ذراعيه وأخرج صيحة من فيه .

وكل شيء يتحرك فى حمرة منتشرة ، لأن الاله مزق حجابه ، فأمطر قرطاجنة بكامل أشعته فيضا من الذهب المتساقط من عروقه ، وأخذ الشرر يتطاير من مهاميز السفن وبدأ سطح معبد خامون مليئا باللهب ، ولمح قبس من نور فى صدور المعابد التى أخذت تفتح أبوابها ، وأقبلت مركبات النقل من الحقول تترنح دواليها على بلاط الشوارع ، والجمال المثقلة بالأحمال تتدرك متهادية على درجها . وأخذ الصيارفة يرفعون واجهات حوانيتهم ، وارتفعت طيور البجع إلى السماء بأجنحتها وخفقت أشرعة بيض وسمعت فى غابة الالهه « تانيت » أصوات طبول المحظيات المقدسات . وفى مرتفعات « مابال » بدا دخان الأفران المعدة لطبخ توابيت الخزف .

وكان سنديوس منحنيا على الشرفة وأسنانه تصرف وهو يدمدم : لا : أجل : أيها السيد لقد بدأت أفهم السبب الذى من أجله استنكرت منذهنيهة نهب هذا المنزل . . . آه لهم ما أوفر ثروتهم وغناهم ! وهؤلاء الناس الذين يملكون هذة الثروات ليس لديهم من الحديد ما يحمون به هذه النفائس ! ثم أشار بيده الممدودة إلى أفراد من أبناء الشعب كانوا يزحفون على بطونهم على الارض إلى جانب البحر بحثا عن شذرات الذهب وقال « إن

الجمهورية أشبه شيء بهؤلاء : أنها تنحنى على شواطىء محيطات البحور وتغمس ذراعيها الجشعتين فى جميع الشواطيء ولـكن هدير الامواج يملأ أذنيها صما بحيث لا تسمع وراءها وقع أقدام السيد الذى سيسودها يوما . ثم أخذ بيد ماتو وجره إلى الجهة الاخرى من الشرفة وأراه باشارة من يده الحديقة التى كانت تلمع فيها سيوف الجند المعلقة على الاشجار ، وقال له .

« وأما هنا فرجال أقوياء أشداء بلغ بهم البغض الذى يحملونه لقرطاجنة حدا قصيا وأوشك مرجل هذا الحقد أن ينفجر ! لا شيء يربطهم بها ، لا الاسرة ولا الالهة ، ولا الأيمان المغلظة .

ولم يحر ماتو جوابا بل ظل مستندا إلى الجدار ، فاقترب منه سبنديوس وهمس فى أذنه :

« أتعى ما أقول أيها الجندى ؟ إننا لسوف نروح ونغدو لابسين ثياب الأرجوان كأننا حكام الأقاليم ، إننـا لو أردت سنغتسل بالعطور ونوافج المسك ، وسيكون لى أنا عبيد أرقاء ، أما آن لك أن تمل النوم على الغبراء ، وشرب خل المعسكرات وسماع أصوات النفخ بالأبواق صباح مســاء ، أو تحسب أنك ستخلد يوماً إلى الراحة ؟ أجل قد يكون ذلك يوم ينزعون عنك درعك ليلقوا بجثتك طعاما لجوارح الطير ، أو يوم تتكيء على عكاز وأنت أعمى أعرج عاجز ، تقرع الأبواب متسولا وتقص أحاديث شبابك على الصغار وعلى بائعي الأسمـاك . اذكر اذكر مظـالم رؤسائك وقيامك ومنـامك على الثلوج ، وسيرك فى الارض الرمضاء تحت وهج الشمس ، اذكر مساوىء النظام وصرامته واستبداده ، وما يتعرض له كل جندى من التعذيب والصلب ! وبمـاذا جزوك عما قاسيت وتحملت ؟ إنهم أدلوا فى عنقك « قلادة الشرف . كما يعلق فى رقبة عير حبل من الجلاجل ، ليجد فى السير وينسى التعب . إن رجلا مثلك أشجـــع من بيرهيس(١) » لو أراد ! أجل لو اردت لأصبحت

(١) ملك ابيروس ، اشتهر بشجاعتـه وهزم الرومان فى هيراقلى وقتل بيد امرأة فى حصار سنة ٢٧٢ ق.م.

سعيداً تجلس فى القاعات الفسيحة الرطبة الهواء تستمع إلى أصوات الأعواد المطربة والأنغام الشجية وأنت مستلق على المناضد الوثيرة بين الأزهار المتضوعة وحولك الحسان والمضحكون ! . . لا تقل لى أن المغامرة فاشلة. ألم يستول الجنود المرتزقة مثلنا على مدينة « ريجيوم » وغيرها من حصون روما ! وما الذى يقف فى وجهك ؟ إن هاميلكار بعيد متغيب وإن الشعب يمقت الأغنياء وجيسكون لا يملك أية حيلة بمن حوله من الجبناء ! أما أنت فشجاع باسل فسر على رأسهم وكن لهم نعم القائد ، فانهم ليأتمرون بأمرك ! إن قرطاجنة لنـا ، فهيا بنا ننقض عليها ! » .

فقال ماتو : لا ، إن لعنة «مولوخ»(١) قد حلت على ، لقد تبينت ذلك فى عينيه . ولقد رأيت منذ هنيهة فى معبده كبشاً أسود يمشى القهقرى إلى الوراء ثم تلفت ذات اليمين وذات اليسار وقال « أين هى ؟ » .

فأحس سبنديوس أن نفس ماتو قلقة مضطربة فلم يعد يجرؤ على الكلام .

وكانت الأشجار لا تزال تحترق وبقايا جثث القردة المحترقة تتساقط من وقت إلى آخر من خلال الأغصـان السود فتقـع على الموائد وفى وسـط الصحاف والجفان . والجنود السكارى يغطون فى نومهم وأفواههم مفتوحة، والصاحون منهم يغضون بأبصارهم اجتناباً لوهج أشعة الشمس ، والأرض مغطاة ببقع الدم الحمراء ، والفيلة يمسحن بقايا خراطيمهن المقطوعة الدامية على أوتاد حظائرهن ، وهنا وهناك على أبواب الأهراء أكياس من الحنطـة مبعثرة وقد ذر ما فيها من دقيق ، وعلى باب الحديقة مركبات نقل لا عداد لها قد كدسها البربر ، ومن أعالى أشجار الأرز تخرج أصوات الطواويس التى كانت تنشر أجنحتها وتبسط ذيولها . وزادت دهشة سبنديوس إذ التفت فرأى ماتو جامد الحركة شاحب اللون سـاكن الحدقتين يمدها إلى شىء فى الافق وهو يشـد بقبضتيه على حاجز الشرفة ، فتتبع سبنديوس مرمى نظر

---

(١) مولوخ : آله السكنعانيين الرهيب كانوا اذا ألمت بهم شدة يدفعون بابكارهم الى جوف صنمه فيحرقونهم فيه دفعاً لغضبه.

ماتو وإذا به يرى من بعيد مركبة مذهبة تسير فى اتجاه أوتيك (٢) . وقد أرتفع فوقها غبار الطريق وجلست فيها امرأتان ، وأمامهما عبد يجرى على رأس مجرها وناصيتا الجوادين مضفرتان بين آذانهما على الزى الفارسى ، وقد زينتا بالخرز الأزرق . وعرف سبنديوس من هما المرأتان وأوشك أن يبعث صرخته لولا أنه تمالك نفسه .

ويبدو فى مؤخرة المركبة حجاب كبير يخفف مع الريح .

---

(٢) أوتيك مدينة من مدن قرطاجنة قتل فيها كاتون الرومانى بعد هزيمته فى « تابسيس » المترجم

(٢)
فى سيكا

وبعد يومين خرج الجند المرتزقة من قرطاجنة .

كان كل منهم قد نقدته الجمهورية قطعة من ذهب واشترطت عليهم أن يرتحلوا عن المدينة ويعسكروا فى « سيكا » وكان أولو الأمر قد منوهم بالآمال ، وقالوا لهم متملقين :

« أنتم منقذو قرطاجنة وحماتها ولكن المجاعة تحل فيها لو ظللتم بها تقيمون فينوبها الافلاس فابتعدوا عنها ، وستقدر لكم الجمهورية هذا العمل قدره ، فها نحن أولاء سنجمع الخراج وندفع لكم أعطياتكم كاملة وسنجند لكم السفن الكافية لنعيدكم إلى أوطانكم سالمين » .

فانطلت عليهم الحيلة ولم يجدوا رداً على تلك الوعود الخلابة فضلا عن أنهم كانوا رجالا قد اعتادوا الحروب فى فضاء الارض ، وأن الملل كان قد استحوذ عليهم لاقامتهم فى المدينة ، وهكذا بدأت مواكبهم تغادر قرطاجنة وأقبل الشعب على الاسوار يتابع رحيلهم بأنظاره .

خرجوا صفوفاً من شارع خامون ومن باب « سيرتا » ولكنها كانت صفوفا غير منتظمة فاختلط حابلهم بنابلهم : الفرسان مع المشاة والضباط مع الجنود « واللوزيتانيون »(١) مع الاغريق ، ولكنهم يسيرون بخطى ثابتة ويضربون بأحذيتهم النحاسية على بلاط الشوارع ، وكان بأسلحتهم فلول

---

(١) لوزيتانيا : هو اسم البرتغال القديم .

من قراع الكتائب وحجارة « المنجنيق » ووجوهم مسودة من عجاج المعامع ، وكانت تخرج الصيحات الجشاء من بين اللحى الكثه ودروعهم الممزقة تتلاقى بمقابض خناجرهم فتحدث صليلا ، وأجسامهم العارية تبدو من وراء ذلك مخيفة مرعبة كثل أدوات الحرب المبيدة ، وكانت عصى الفشوش وعوالي الرماح وقصارها وقبعات اللبد وخوذ النحاس تتقدم كلها وتتذبذب بحركة واحدة . ملئوا الشوارع حتى ضاقت بهم وحتى كادت تتقوض جدرانها ، ومروا كتلا متراصة أمام البيوت العالية ذات الطوابق الستة المطلية بالقار وكانت النساء الواقفات وراء الاسوار الحديدية يشهدن رحيل البربر وهن مغطيات الرؤوس صوامت .

وغطت جماهير القرطاجيين الذين كانوا يرتدون سواد الثياب السطوح والتحصينات والجدران فأثواب البحارة الحمر تبدو بقعاً من الدماء فى وسط ذلك الجمع المحتشد القاتم الملابس وحتى الأطفال والغلمان اشتركوا فى هذا الزحام وأكثرهم أنصاف عرايا وقد وضعوا فى أيديهم الأساور النحاسية اللماعة وتسلقوا الأعمدة أو اختبئوا بين أغصان الأشجار .

وكان بعض رجال مجلس القدماء قد وقفوا على مصاطب الأبراج يشهدون هذا الجلاء وبينهم رجل طويل اللحية انتحى مكانا بعيداً عنهم ووقف كالحالم وبلا حراك كالحجر الأصم ولاح للناس من بعيد وكأنه شبح من الأشباح .

ولقد كان الشعب كله قلقا يخشى أن يمتنع البربر عن الجلاء عن المدينة ولكنه إذ وثق من رحيلهم أخذ الكثير من أفراده يمتزجون بالجيش ويرددون أمامه الأقسام ، ويعانقون الجند حتى إن البعض منهم ، مدفوعاً بعامل الكبرياء ، كان يحثهم على البقاء فى المدينة مبالغة فى إظهار الأسف والعطف .

وكان القرطاجيون يلقون عليهم مياه العطور وقطع النقود الفضية ويعطونهم تمائم تقى من الأمراض ولكنهم كانوا قد بصقوا عليها ثلاث مرات لتجلب على حاملها الموت أو أودعوها وبراً من وبر بنات آوى لاعتقادهم

أنه يحيل الشجاع إلى جبان ، وكانوا يزودونهم علانية ببركات «مالكاريت» وفى السرشر لعنانه .

وتلا الجيش حملة الأمتعة وحيوانات النقل والمتباطئون : فهناك المرضى المحمولون على الجمال يئنون ، والمشاة منهم يعرجون وعلى عصيهم يتكئون ، وهناك السكيرون يحملون قرب الخمر والشرهون النهمون يثقلون بقطع اللحم وأقراص الحلوى وبالثمار وبالزبدة ملفوفة بورق التين وبالثلج محفوظاً بالأكياس .

وكان الكثير منهم يحملون المظلات فى أيديهم أو طيور الببغاء على أكتافهم وآخرون يجرون وراءهم كلابا أو غزلانا أو نمورا وبعض النسوة الليبيات يركبن الحمر ويشتمن الزنجيات ، والبعض الآخر منهن يرضعن أطفالهن المعلقين على صدورهن بسير من جلد البغال تنوء تحت أثقال من الخيام فيخزها سائقوها بالابر ، والأرقاء يحملون الماء وهم صفر الوجوه هزيلو الأجسام قذرون وأخيراً تجيء حثالة القرطاجيين الملتصقين بالبربر وعلى أجسادهم تسرح الهوام وصغار الحشرات .

ولما تم خروجهم أقفلت الأبواب وراءهم وظل الشعب على الأسوار وانتشر جيش البربر فى عرض البرزخ وانقسم إلى جماعات غير متساوية العدد ، وأعرضت عنهم قرطاجة ولاحت رماحهم من بعيد كأنها سوق الأعشاب واختفى كل شىء تحت ستر كثيف من الغبار .

وسمع البربر صيحة عظيمة وراءهم فظنوها صراخ جماعة من المتأخرين منهم ينهبون هيكلا من الهياكل فسروا لهذه الفكرة ولم ينتبهوا إلى سبب آخر . واصلوا طريقهم وهم يضحكون فرحين لعودتهم كسابق عهدهم إلى السير مجتمعين فى فجاج الأرض ، وأخذ الاغريق ينشدون أغنيتهم القديمة المفضلة :

« برمحى وسيفى أحرث وأحصد ، وأنا رب بيتى ، والأعزل من السلاح يجثو أمام ركبتى ويناديني أيها السيد أيها الملك الكبير» .

وكلهم فرح مرح يتبادلون النكات ورواية الأساطير لاعتقادهم بزوال زمان بؤسهم ، ولما بلغوا تونس لحظوا أن كتيبة من رجال «الباليار[1]» من حملة المقاليع لم تكن بين صفوفهم فظنوا أنها قدتأخرت فى سيرها فترقبوا قرب وصولها .

وتفرقوا فى تونس جموعاً ، فهؤلاء أووا إلى البيوت وأولئك ضربوا الخيام حوالى الأسوار ، وأقبل أهل المدينة يتحدثون إلى الجند .

وظل الجند طوال الليل يرون من بعيدالنيران ترتفع إلى الفضاء من ناحية قرطاجة فتمتد كأنوار المشاعل إلى البحيرة الراكدة ، ولم يتأت لأحد منهم أن يعلل أسباب تلك النيران ولا الاهتداء لاسم العيد الذى كان القرطاجيون يعيدونه .

وفى الغداة اجتاز البربر حقـــولا فيها مختلف المزروعات لأن مزارع المواطنين كانت تمتد متتابعة على جانبى الطريق : فالسواقى تخصب بمائها غابات النخل وشجر الزيتون يؤلف صفوفا طويلةخضراء ، وكان يرتفع إلى الجو بخار وردى اللونى يتاوج بين ثنايا الآكام . ووراء ذلك تبدو الجبال الزرقاء ، والريح تهب حارة وأسراب الحرباء تلجأ إلى أوراق الصبار .

وخفف البربر سيرهم وأخذوا يتقدمون متباطئين زرافات منقطعة ، يأكلون العنب من أطراف الكروم ويضطجعون على الاعشاب ويعجبون لمرأى الثيران ذات القرون الـكبيرة المعوجة والأغنام المكسية بالجلود للمحافظة على صوفها والاثلام المشقوقةفى الأرض والمحاريث الشبيهة بحراس السفن ، وأشجار الرمان التى كان المزارعون يرشونها بمادة « السيلفيوم » ، وكان مرأى هذا الخصب وخيرات هذه الارض تدهشهم وتلك الاختراعات الحـكيمة تملاهم إعجابا .

---

(1) الباليار . جزائر واقعة غربى البحرالمتوسط اشتهر أهلها قديما بالرمى بحجارة المقاليع.

وفى منتصف اليوم التالى حطوا رحالهم ليستريحوا على ضفاف نهر بين أغراس الدفلى المتشابكة ، فألقوا جانبا برماحهم ودروعهم ومجناتهم وخوذهم ومناطقهم وأخذوا يغتسلون فى النهر وهم يضجون ويشربون الماء بخوذهم أو ينبطحون على الأرض على بطونهم ليعبوه عباً وهم بين حيوانات النقل ومعها يتزاحمون .

وكان سبنديوس يركب قعوداً سرقه من حدائق هاميلكار فى زحمة الفتنة فلمح غير بعيد ماتو يسوق بغله وهو عارى الرأس كئيب ، وذراعه الجريح مشدودة بالرباط إلى صدره ، فترجل عن قعوده وجرى نحوه وهو يناديه : « مولاى ، مولاى ! » .

ولم يلتفت ماتو إليه بل اكتفى بأن رد عليه بكلمة شكر لما كان العبد يردده من الدعاء له وما يكيله من المديح والثناء عليه ، ولم يأبه سبنديوس لهذا الاعراض والجفاء بل ظل يسير وراءه وهو يوجه النظرات القلقة نحو قرطاجة ، وكان سبنديوس هذا قد نسل من معلم إغريقى ، ومن جارية مومس « كامبانية » وأحرز بادىء ذى بدء ثروة من الاتجار بالرقيق ثم ذهبت ثروته وضاع ماله لغرق سفينة له ، فتطوع فى جيش رعاة السمنيوم لمحاربة الرومانيين فأخذ أسيراً واستعبد رقيقاً يعمل فى المقالع وفى الأفران، وذاق التعذيب ألواناً وصنوفاً ، وبيع من سيد إلى سيد ، ودفعه اليأس يوماً وهو يجدف فى سفينة رومانية ، فرمى بنفسه إلى البحر فالتقطه بعض بحارة هاميلكار وقادوه إلى قرطاجة فألقى فى سجن العبيد فى « ميجارا » على أن يعاد إلى عبوديته لدى الرومان بصفته آبقاً ، وقد أنقذه جند البربر من ذل الاسار كما تقدم ، فانتهزها فرصة ليفر معهم متسللا بين جموعهم .

وظل طوال السير على مقربة من ماتو ، يأتيه بالطعام ويساعده على النزول عن ظهر بغله ويفرش له البساط عند النوم ، وظل هذا دأبه حتى اكتسب عطف ماتو وأزال من انقباضه .

وكانت ولادة ماتو فى خليج سيرتس[1] ، وقد حج مع ابيه إلى معبد آمون واشتغل بصيد الفيلة فى غابات « جارامانتس » ثم تطوع فى جيش قرطاجة وترقى إلى رتبة زعيم بعد فتح حصون « دريسبانوم » وكانت الجمهورية مدينة له بأربعة أفراس وثلاث وعشرين كيلة من الطحين وبأجره النقدى عن أشهر الشتاء ، وكان يخاف الالهة ، ويتمنى أن يموت ويدفن فى وطنه .

وأخذ سبنديوس يحدثه عن أسفاره وعن الشعوب التى تعرف إليها والمعابد التى زارها وعما يحذق صنعه من النعال وأدوات الحرب وشباك الأسماك وطهو الطعام ، وظل القلق بادياً على وجه سبنديوس حتى مساء اليوم الرابع وكانت أحلام الانتقام من قرطاجة قد عادت تراوده ليل نهار فيكتم أنفاسه بيده كى لا تسمع زفراته ، وكان ماتو يسير إلى جانبه وقد عاودته كآبته وساقاه تتدليان على بغله حتى تكادا تمسان الارض .

وطالت الطريق كأن ليس لها نهاية فكلما انطوى سهل بدت أكمة يليها واد حواليه جبال تبدو كأنها تحاول حجب الأفق ، ومن وقت إلى وقت تقع العين على نهر يسيل بين أشجار الأثل ثم يغيب متوارياً فى ثنايا الاكام او على جلمود صخر شبيه بمقدم السفن أو بقاعدة لشىء ضخم كان يعلوه ثم توارى مع الزمن ، وهناك هياكل مربعة الشكل بنيت كمحطات لاستراحة الحجاج الذين ييممون سيكا ، وكان الليبيون يقرعون أبواب هذه المعابد ليفتح لهم فلا يجيبهم مجيب .

واختفت المزارع شيئا فشيئاً وبدأ الجيش يسير بين كثبان قفراء من الرمال نبت فيها الشوك ، على أن قطعانا من الغنم كانت ترعى بين تلك الأشواك تحرس كلا منها امرأة متمنطقة بمنطقة زرقاء تسارع فى الهرب مولولة إذا بدت لها رماح ذلك الجيش .

---

(١) سيرتس : خليج واقع على شواطىء ليبيا على مقربة من طرابلس .

ولما بلغوا فى سيرهم الى مضيق عريض واقع بين أكمتين محمرتى اللون علقت بأنوفهم رائحة كريهة وإذا بهم يرون على ذروة شجرة خروب رأس أسد معلق بين أوراقها على صليب، وقوائمه الأربع مشدودة الى ذلك الصليب كما يشد المجرم ، وقد تدلى شدقاه على صدره واختفت قائمتاه الخلفيتان وراء لبده الكثيف وتباعدتا مبسوطتين كجناحى الطائر فى طيرانه وبدت أضلاعه ناتئة تحت جلده ، ويجمد الدم الاسود بين لبده وعلى أسفل ذيله الذى كان يتدلى على الصليب ، فأخذ الجند يتلهون بهذا المشهد المخيف وينادون الاسد . « يا قنصل روما ! أيها المواطن الرومانى » ويرمونه بالحصى بين عينيه ليبعدوا عنه الذباب المتجمع الحائم .

ثم يرون غير بعيد أسدين آخرين على تلك الصورة ثم صفا طويلا من الصلبان تحمل أسوداً مصلوبة فمنها ما أصبح جثثا بالية لم يبق منها الا هياكل العظم ومنها لايزال طعاما للهوام والجوارح، وكان بينها أسود ضخمة الجثث قد أمال ثقلها الأشجار التى صلبت عليها فأخذت تتهاوى مع الريح ، وفوقها أسراب الغربان والعقبان تدور فى الجو دون توقف .

بمثل هذا كان مزارعو قرطاجة ينتقمون لسائمتهم من الوحوش الضارية ليجعلوا هذه الوحوش المصلوبة عبرة لغيرها ويوقعوا فى قلوبها الرعب فيأمنوا شرها .

وعقدت الدهشة ألسنة البربر واستحالت ضحكاتهم الى وجوم وأخذوا يقولون لأنفسهم : « أى شىء هو هذا الشعب الذى يلهو بصلب الاسود !؟ »

وكانوا — ولا سيما أهل البلاد الواقعة فى الشمال — قلقين مضطربين لاسباب خفية لا يتبينونها وأصبح الكثيرون مرضى فان مرض الزحار انتشر بينهم وتخدشت أيديهم من شوك الصبر وأنهكهم التعب ولسع البعوض، وأوشكوا أن ييأسوا من الوصول الى سيكا وخشوا أن يضلوا الطريق فيرتموا فى أحضان الصحراء المخيفة ، وتمنع البعض عن متابعة السير وسلك البعض طريق قرطاجة راجعين .

واخيراً وبعد مسيرة سبعة أيام فى ثنايا الجبال داروا جهة اليمين واذاهم بصف من الأسوار قائم على صخور بيض ووراءه مدينة سيكا تخفق على جدرانها براقع زرق وصفر وبيض ، تلك هى براقع محظيات « تانيت » اللائى خففن لاستقبال الرجال وقد وقفن بانتظام على مدى الأسوار ينقرن على الدفوف ويضربن على الأعواد والصنوج ويرقصن بالصاجات والجلاجل وكانت أشعة الشمس الغاربة وراء جبال نوميديا تمر بين أوتار المزاهر والمثالث والقيثارات التى تلعب بين الأذرع ، العارية. وكانت آلات الموسيقى تكف عن الضرب من وقت إلى وقت فيخرج من أفواههن صراخ حاد سريع متتابع عنيف يبعثنه كالعواء بتحريك السنتهن فى زوايا شفاههن ، وكان البعض منهن يقفن متكئات الى السور وظهر اكفهن على خدودهن وهن صامتات ساكتات كأبى الهول يرمين الجيش المقبل بسهام من عيونهن السود .

ولم تكن سيكا المدينة المقدسة معدة لاستقبال الجماهير الغفيرة ومن باب أولى هذا الجيش العرمرم ، لان المعبد وحده كان يملأ نصفها ، فاستقر البربر خارجها فى السهل المحيط بها وتفرقوا جماعات جماعات فالجيش النظامى استقر فى جانب وأبناء الوطن الواحد فى جانب آخر ، ونصب الاغريق فى صفين متوازيين خيامهم المصنوعة من الجلد ، ورفع «الايباريون» بشكل دائرة قبابهم المحاكة من النسيج وأقام الجوليون مظال من ألواح الخشب ، وبنى الليبيون أكواخا من الحجر ، وأما الزنوج فحفروا بأصابعهم حفراً أووا اليها ، وظل الكثيرون بلا مأوى فناموا بمعاطفهم الرثة يلتحفون السماء .

وكان السهل منبسطا أمامهم تعلو أطرافه الجبال ، وهنا وهناك على كثبان الرمال ترتفع بعض أشجار الشربين والبلوط ، وكان الصفاء والسكون يخيم على الحقول رغم هبوب الزوابع وسقوط الامطار فى بعض الأحيان والرياح تهب دافئة فتثير الغبار .

ومن أعالى سيكا حيث يرتفع ، بأعمدته الحديدية وسطوحه الذهبية ، معبد الزهرة سيدة الاقليم ، ينحدر شلال ماء . وكان هذا المعبد وقد ملأته

تانيت بروحها يبعث الحياة الى المكان والسكان . أجل أن اضطراب طبيعة الارض وتبدل طقسها وتقلباته وتنوع النور وأشكاله كانت كلها مظاهر قوتها وجمالها الساحر ، حتى أن قمم الجبال بدا بعضها بشكل أهلة والبعض الآخر بصور صدور نساء برزت أثداؤهن المليئة مما ملأ نفوس البربر فيضا من المتعة واللذة رغم ما نالهم من تعب .

واشترى سبنديوس عبداً بثمن الجمل الذى باعه ، وكان طوال النهار ينام مستلقيا أمام خيمة ماتو ، وكثيراً ما يصحو من نومه مذعوراً لتخيله سماع صفير سوط يمزق لحمه ثم يعود فينام مبتسما بعد أن يتحسس ندوب جراحه القديمة المندملة .

ورضى ماتو بأن يصحبه فكان سبنديوس يسير وراءه كحرسى وفى منطقته خنجر يتدلى حتى فخذيه وكثيرا ما يتكىء ماتو على كتفه لأن سبنديوس كان قصير القامة .

وحدث ذات يوم أنهما كانا يجتازان المعسكر فأبصرا رجالا يرتدون المعاطف البيضاء وبينهم نارهافاس أمير ليبيا ، فتجهم وجه ماتو غضبا وصاح به : خذ سيفك بيدك فانى أريد أن اقتلك « فأردف سبنديوس قائلا: «لما يحن بعد الاوان » وأسرع نارهافاس فتقدم من ماتو وقبل إبهام يديه اشارة الى رغبته بعقد حلف بينهما واعتذر عما بدر منه بأنه كان سكران يوم الوليمة ، ثم أخذ يقذف قرطاجة بأشنع التهم والسباب دون أن يشير الى السبب الذى دعاه الى القدوم على البربر .

وكان سبنديوس يسأل نفسه عن هذا السبب أهو لخيانتهم أم لخيانة قرطاجة ولكنه ، وهو يضمر الحقد وينوى الاستفادة من كل فتنة قد تقع ، أحس بالرضا لانقلاب نارهافاس عل قرطاجة ، وعقد العزم على الاستفادة من خيانته .

وأقام أمير نوميديا بين المرتزقة وكأنه كان يود أن يكتسب صداقة

ما تو فأخذ يرسل إليه المعزى المسمنة والتبر وريش النعام ، ودهش الليبى لهذه الهدايا وحار فى أمره : أيبادل هذا النوميدى ودابود أم يصرفه عنه، ولكن سبنديوس كان يهدىء روعه ويوحى إليه أن يأمن جانب نارهافاس، وأصبح ماتو يلقى مقاليد اموره إلى سبنديوس وهو فاقد العزيمة مترددا مخدر الجسم كمن اعتاد تناول المسكنات وهو يعلم أنها ستقوده حتى إلى القبر .

وحدث ذات يوم أن ذهب الثلاثة إلى صيد الأسود فرأى سبنديوس نارهافاس يخبىء خنجرا فى معطفه فأخذ يتتبع خطاه ويراقبه ولكن الخنجر ظل مكانه .

وحدث يوماً آخر أن نارهافاس أستدرجهم بعيداً عن حدود مملكته ولما بلغوا مضيقا ما بين جبلين إدعى نارهافاس أنه قد ضل الطريق ولكن سبنديوس عرف أن يهتدى إليها .

كان ماتو طوال الوقت كئيباً يسير فى الحقول على غير هدى فيفترش الرمل حتى المساء وهو جامد الحركة .

وأخذ يستشير عرافى الجيش الواحد تلو الآخر : أولئك الذين يرقبون سير الحيات والذين يقرأون ما هو مسطر على الكواكب، والذين ينفخون رماد الأموات . وشرب من كل سقية يصفها العرافون حتى من سموم الافاعى ورضى أن تنخزه الزنجيات برؤوس المدى المذهبة فى جبينة وهن يتغنين فى ضوء القمر بأناشيد البربر ، وملأ عنقه بالتمائم والقلائد والأحراز ، ورفع الاكف ضراعة لبعل خامون ولمدولوخ وللسبعة الكبار ولتانيت الكنعانيين ولزهرة الاغريق وحفر اسمه على لوح من نحاس غمره بالرمال على باب خيمته . وكان سبنديوس يسمع أنينه وهو يخاطب نفسه بنفسه ، فدخل عليه ذات ليلة وإذا به يراه أشبه بالجثة منبطحا على بطنه على جلد أسد، ووجهه بين يديه ، فقال له : « إنك تتعذب وتتالم ، فقل لى ما الذى تريده » وأخذ يهز كتفيه ويناديه « مولاى ! » .

وأخيراً رفع ماتو رأسه ومال نحوه بعينين معكرتين ، وقال له بصوت خفيف أجش وقد وضع سبابته على شفتيه . « إن ما بى هو من غضب الآلهة إن ابنة هاملكار تتقفى خطاى فأنا منها خائف وجل يا سبنديوس » وكان يشد على نفسه ويضم يديه إلى صدره كطفل أرعبه حلم مزعج ـ « بحقك يا سبنديوس خاطبنى. تكلم فأنى مريض وأريد أن أشفى ، لقد حاولت وجربت كل شيء ، ولكنك أنت قد تعرف آلهة اشد وأقوى أو تحفظ أدعية مستجابة » .

ـ فقال له سبنديوس : ولم كل هذا ؟ .

فضرب رأسه بقبضتيه وأجاب : « لكى أتخلص منها ؟ ثم أخذ يتمتم « لا شك بأنى ضحية محرقات وعدت بها الالهة . إنها تربطنى بقيد خفى غير منظور . إذا مشيت مشت وإن وقفت وقفت . ان عينيها تحرقانى ، أنهـا تحدق بى ، انها قد حلت بى وملكتنى ، لقد أصبحت هى ذات نفسى ،ومع ذلك فان بينى وبينها أمواج بحر محيط لا حد له ولا قرار ، ان سنى جمالها يحوطها بلهب شعاع من نور . . لتتلاشى من الوجود . . . ولكن كل هذا حلم من الأحلام ، وأخذ ماتو يبكى هكذا شجوه فى ظلام الليل والبربر نيام حوله . وتذكر سبنديوس وهو ينظر اليه أولئك الفتيان الذين كانوا يجرون وراءه وبأيديهم الأوانى الذهبية يوم كان نخاسا يسوق أمامه فى المدن قطيعا من المحظيات الحسان المعروضات للبيع ، تذكر هذا فأخذته الشفقة بماتو وقال له : كن رجلا قويا يامولاى واستعن بارادتك وتسلح بعزيمتك ولا تعودن الى استصراخ الالهة لأنهم لا يلتفتون الى صراخ الناس ، يعز على أن أراك تبكى كما تبكى النساء والجبناء ، أو لم يحقرك أمام عينيك أن تتعذب وتتلوى فى سبيل امرأة ؟ » .

ـ أتحسبنى طفلا يا سبنديوس؟ اتظن أن طلعة الحسان تسبينى وأن غناءهن يستهوينى ؟ . لقد كان لى فى « دريبانوم » عشرات يكنسن اصطبلات خيلى ، ولقد ضاجعت منهن الكثيرات وسط المعارك المحتدمة وتحت البيوت

التى كانت سقوفها تنهار،وعلى أصوات منجنيقات الحصار ولكن: هذه المراة آهمن هذهالمرأة ياسبنديوس ... »

— فقاطعه سبنديوس قائلا : « لو لم تكن ابنة هاميلكار ! ».

فصاح به ماتو : « لا . لا . ليس فيها ما بغيرها من بنات الأنس أرأيت عينيها الكبيرتين تشعان تحت حاجبيها المقوسين كتلك الشموس تحت أقواس النصر ؟ .

ألا تذكر أنها ساعة طلعت تضآلت أنوار المشاعل وأصفرت ، ألا تذكر كيف كانت تلمع مواضع من صدرها العارى بين ماسات عقدها المنضود ، وكيف كان شذا المعابد يتضوع وراء أديالها المجرورة ، وكيف كان ينبعث من كلها وكل ما فيها شيء ألذ من الخمر وأشد هولا من الموت ؟ ومع ذلك فقد كانت تسعى على قدمين كما كانت تتوقف عن السير .

وظل مشدوقا مطرق الرأس جامد الحدقتين ثم صاح :

« أجل أريدها وأتوق إليها ولا بد لى منها لأنى أكاد أموت شوقا وحنينا إليها ، وإذا تخيلت أنى ضام لها بين ذراعي تملكنى سورة الفرح وهزة الطرب ، ومع ذلك أنى أمقتها . أجل ياسبنديوس إنى أود أن أشبعها ضربا . ما العمل ياسبنديوس ؟ إنى أود أن أبيع نفسى لأصبح عبداً لها رقيقا . لقد كنت أنت عبداً لها وكان بامكانك أن تلمحها : فحدثنى عنها إنها تصعد كل ليلة على سطح قصرها . أليس كذلك ؟ إن الحجارة تهتز شوقا تحت قدميها والكواكب تنحط لتنظر إليها » وعاد فاستلقى على الأرض وأخذ يعج عجيج الثور الجريح . ثم أخذ يتغنى بقول الشاعر الليبى: « كان يتتبع فى الغابة خطى الأنثى التى كان ذيلها يترقرق على الأوراق المتألقة ترقرق جدول من فضة » وأخذ وهو يرجع فى صوته يقلد صوت سلامبو ، بينما كانت يداه المبسوطتان تتكلفان الخفة كأنهما تمران على أوتار عود .

وكلما حاول سبنديوس أن يعزيه ويؤاسيه عاد هو فردد ذات الاقوال والشكوى ، وهكذا فقد كانت لياليهما تنقضى طويلة بين التنهدات وبين عبارات المؤاساة .

وأحب ماتو أن يتداوى بمعاقرة الراح ، فكان إذا استفاق من سكره عاد حزينا أكثر من ذى قبل ، وجرب أن يلهو بلعب الاقداح فخسر جميع صفائح قلادته الذهبية الواحدة بعد الأخرى ، ورضى بأن يتابع قائديه ليلتمس السلوى لدى البنات المكرسات للزهرة إلهة العشق ، فكان يعود من الأكمة وهو يعقد الزفرات كمثل أولئك الذين يتبعون سير المآتم والجنازات .

وأصبح سبنديوس على خلاف ذلك ، فزاد مرحه وفرحه وجرأته ، وكان يرى فى الحوانيت والمواخير محدثا متحدثا بين الجنود وكان يصلح من الخوذات القديمة ويمارس رياضة لعب الخناجر ويرتاد الحقول بحثا عن الأعشاب الطبية ليداوى بها المرضى ، وكان فكها لبقا حاضر النكتة سريع الخاطر ، وهكذا راقت خدماته للبربر وعرف أن يحملهم على محبته .

وكان البربر ينتظرون مندوبا من قرطاجة يحمل إليهم على ظهور البغال سلالا ملؤها الذهب وهم يعيدون حساب ما لهم عندها من الأجور على صفحات الرمال أو عداً على أصابع اليد .

فكل منهم ينظم بمخيلته حياته فى غده ويمنى النفس بأن يقتنى العبيد والجوارى والأملاك وبأن يكتنز المال ويطمره أو يجازف به على ظهر سفن البحار ، وكان يتخلل هذا وذاك مشاجرات بين الفرسان والمشاة أو بين الاغريق والبربر لأنهم أصبحوا شديدى الانفعال سريعى الغضب بتأثير البطالة وطول الانتظار وسماع أصوات النساء المريرة المزعجة . وعدد هذا الجيش يتكاثر بما يقدم إليه من مدينى أغنياء قرطاجة الذين فرضت عليهم زراعة أرض أولئك الاغنياء فلجأوا إلى الفرار . فمنهم الليبى والأفاق والمجرم

والمزارع الذى جرته الضرائب الفادحة إلى الخراب ، ومنهم أفواج التجار وباعة الخمر والزيت الذين لم يستوفوا ثمن بضاعتهم من البربر فثارت ثائرتهم على الجمهورية وامتلأت نفوسهم بالحقد عليها، لأنهم عدوها مسؤولة عن ذلك لحبسها الأجور عن الجند ، وكان سبنديوس يستغل ذلك جميعه . ثم نقصت المؤن وقل الزاد ، فأخذ الجند يحدثون أنفسهم بالزحف على قرطاجة وبالاستنجاد بالرومان .

* * *

وحدث ذات ليلة أن سمعت جلبة تقترب من المعسكر ورأى الجند من بعيد كتلة حمراء تقترب فى ثنايا الطريق .

وإذا هم بمفحة كبيرة مكسوة بالأرجوان ومزدانة الجوانب بريش النعام ، وعلى الاستار المدلاة فوق فتحاتها سلاسل من البلور وأكاليل من اللآلئ ، ووراء هذه المحفة جمال يرن صدى أصوات جلاجلها المتدلية من رقابها ، وعلى جوانبها فرسان ، شكك سلاحهم كلها من الأصداف الذهبية من المناكب حتى أخمص القدم ، ولما شارفوا المعسكر وقفوا وأخرجوا من أخراج كانوا يردفونها وراءهم ، مجناتهم المستديرة وحرابهم العريضة وخوذاتهم الثقيلة ، ثم ظهرت وراءهم شارات الجمهورية القرطاجية وهى قضبان من الخشب زرق فى أعلاها رؤوس أفراس أو شبه ثمار شجر الصنوبر .

فانتصب البربر كلهم وقوفا يصفقون وارتمت النساء على فصيلة الحرس يقبلن أقدام جنودها .

وكانت المحفة محمولة على مناكب اثنى عشر زنجياً رقيقاً يسيرون متوافقين بخطى سريعة وينحرفون بسيرهم ذات اليمين وذات اليسار لما كان يعترضهم فى طريقهم من الخيام أو من الحيوانات السارحة أو من الأثافى ومواقد النار التى كانت تطهى عليها اللحوم ، وكان يحدث من وقت إلى آخر ، أن تبدو

يد سمينة مثقلة بالخواتم من وراء سجاف المحفة تزيل السجاف ثم يسمع صوت أجش يكيل السباب ، فيقف حملة المحفة ثم يسلكون سبيلا آخر في ثنايا المعسكر .

وارتفعت سجف الأرجوان وبدا وراءها رأس آدمى منتفخ الأوداج جامدالحركة ملتقياً على وسادة ، وكان حاجباه شبيهين بقوس من الأبنوس يلتقيان عند طرفيهما ، وشذرات من ذهب تلمع بين شعره المجعد ، ووجهه بالغاً من الشحوبة مبلغا يدعو إلى الظن بأنه مرشوش بمسحوق المرمر وما تبقى من ذلك الجسم البالى يختفى وراء شارات وأوسمة تملأ المحفة .

وعرف الجند بذلك الرجل الزعيم القائد « هنون » الذى كان جموده وبطؤه سبباً فى خسارة معركة جزر « أجات » والذى نسب إليه الحلم بعد انتصاره فى معركة « هيكاتومبيل » عن خطأ وجهل ، لأنه تصرف تصرف الجشع لا تصرف الحليم . فباع لحسابه جميع الأسرى ثم ادعى أنهم قد لقوا حتفهم .

ولما اهتدى هنون إلى مشرف من الأرض ملائم للخطابة أشار إلى رجال المحفة فوقفوا ونزل منها يحمله عبدان ثم وقف وهو لايكاد يطيق الوقوف .

وكان يحتذى حذاء من اللبد الأسود مرصعا بأقمار من فضة وساقاه ملفوفتان بأربطة كتلك التى تلف بها المومياء ، واللحم يبدو هنا وهناك من خلال هذه الأربطة ، وكان منتفخ البطن وطيات عنقه المترهلة ترهل رقاب الثيران تهبط حتى تمس صدره ، وكان مرتدياً رداءاً أسود ومرسلا على كتفيه وشاحاً ومتمنطقاً حزاما ،وكثرة ملابسه وما يتقلدهمن عقود زرق الحجارة ومن أقراط ضخمة ومن مشابك ذهبية ، تزيد جسده المشوه بشاعة وقبحا ، فيبدو وكأنه ملامح صنم بدأ فى نحته نحات غير ماهر فى جلمد من صخر،ذلك أن مرض الجذام الذى كان متفشياً فى كل جسمه يظهره بمظهر الجماد

لا يظهر الجى ، على أن انفه الأقنى كأنف العقاب يتمدد ويتسع بعنف ليتمكن من استنشاق الهواء ، وعيناه الصغيرتان الملتصقتا الأهداب تخرجان بريقاً قاسياً صلباً كبريق المعادن ، وفى يده محكة يحك بها جلده .

وبعد لأى نفخ جنديان ببوقيهما فسكنت الضوضاء وأخذ هنون يتكلم:

بدأ حديثه برفع آى السبح والحمد إلى آلهة قرطاجنة ، وقال إنه لمن حسن طالع البربر أنهم مشوا فى خدمة هذه الآلهة ، ثم أشار عليهم بأن يحكموا العقل والقناعة ، ومما قال : « إذا لم يكن للسيد إلا ثلاث ثمرات من الزيتون ، أليس من العدل أن يحتفظ لنفسه باثنين منها ؟ » .

واستشهد فى خطابه بالأمثال والأقوال المأثورة وهو يشير برأسه ويديه لعله يلقى موافقة بعض السامعين ، وكان يخطب بلغة قرطاجنة التى لم تكن مفهومة لدى معظم الجيش وأنس هنون ذلك فرأى أن يتحدث إلى ضباط الجيش منفردين فأوعز بذلك إلى المنادين فنادوا بلغة الاغريق لأنها وهى لغة الحرب عند القرطاجيين منذ أيام « كساتنيب » .

فأخذ الحرس ينحى الجند بقوة السياط والتأم ضباط الكتائب ورؤساء عشائر البربر يحملون شارات رتبهم وأسلحة بلادهم . واقبل الليل وسرت الاشاعات وكثر تساؤل المتسائلين : « لم لا يشرع القائد بتوزيع النقود ؟ »

وانفرد هنون بالضباط وأخذ يبسط لهم المسؤوليات والأعباء الملقاة على عاتق الجمهورية ، وكيف أن خزائنها خاوية لأن الجزية التى تدفع لروما قد أفقرتها وكيف أنهم حائرون لا يدرون ما يصنعون . وكان وهو يخاطبهم يمسك أجزاء جسده بمحكة من الصبر أو يشرب بكوب من الفضة ماءاً ساخنا ممزوجا برماد ابن عرس أو مستخرجا منه الهليون الممزوج بالخل ، ثم يمسح شفتيه بمنديل قرمزى ويعود إلى الكلام فيقول : « إن ما كان يساوى بالأمس درهما من الفضة أصبح اليوم يساوى ثلاثة دنانير من الذهب ولم تعد الأرض تأتى نتاجها لهجر المزارعين اياها كنتيجة حتمية لتتابع الحروب ولم يعد صيد أصداف الأرجوان مجديا وقل عدد العبيد لأن بلاد صقلية أقفلت بوجوهنا أبوابها وهى البلاد التى كانت تمدنا بأكبر عدد

من الارقاء ، ثم نشر ورقة كبيرة من البردى وأخذ يقرأ ما يؤيد بالأرقام أقواله ويبين النفقات التي تنفقها الحكومة على إصلاح المعابد والطرقات وبناء السفن ومصايد الأسماك وعلى مشترى الأدوات اللازمة لمناجم بلاد « كانتبر » .

ولم يكن الضباط ليفهموا اللغة القرطاجية ـ شأنهم فى ذلك شأن الجنود ـ ولو أن السلام يؤدى فى هذه اللغة، وكان بعض الضباط القرطاجيين ينتدبون عادة في صفوف البربر ليقوموا بوظائف المترجمين ، ولكن هؤلاء الضباط تواروا عن العيان بعد الحرب خشية الانتقام كما أن هنون لم يفطن إلى اصطحاب بعضهم معه ، وعلى كل حال فان صوته الخافت كان يضيع مع الريح .

وكان الاغريق المتمنطقون بمناطق الجديد يمدون آذانهم وهم يحاولون مجتهدين أن يحلوا لغز ما يقول ، كان الجبليون المغطون باللبد كالدببة ينظرون إليه شذراً غير واثقين أو يتثاءبون ، والجوليون الساهون يحركون شعور رءوسهم وهم يتأففون ، ورجال الصحراء يصغون جامدين وهم ملتحفون بثيابهم الصوفية الرمادية اللون، وآخرون غيرهم يقبلون من الوراء، والحرس على جيادهم يتمايلون لشدة ضغط الزحام ، والزنوج يحملون بأيديهم أغصانا من الشربين مشتعلة ، بينما كان القرطاجي الجسيم الضخم يتابع خطابه وهو واقف على نشز من الأرض مفروش بالخضرة .

وعيل صبر البربر وارتفعت أصوات التذمر بينهم وأخذ كل منهم يوجه الخطاب العنيف وهنون يتابع على غير هدى حركاته وأشارته ومحكته بيده ، وضج البعض يريد إسكات البعض الاخر فزادت الضوضاء وعلت الجلبة .

وإذا برجل قصير القامة نحيلها يخرج من صفوف الجند ويتقدم نحو حرس هنون فينتزع البوق من يد أحدا المنادين وينفخ فيه داعيا إلى الصمت والاستماع ، وكان ذلك الرجل العبد السابق سبنديوس أخذ يخاطب الجند بمختلف لغاتهم طالبا منهم أن يستمعوا إليه ، فارتفعت أصوات تقول : « تكلم ، تكلم » .

فتردد قليلا ثم اتجه بكلامه إلى مقر الليبيين الذين كانو على مقربة منه وقال : « اسمعتم كلكم ما يهدد به هذا الرجل من عظائم الأمور ؟ » .

وكان هنون يجهل اللغة الليبية فلم يعترض على أقوال سبنديوس فتشجع هذا وردد ما قال بلغات البربر جميعا وأردف قائلا :

« لقد قال لكم إن جميع أرباب شعوب الأرض كلها ليست إلا أحلاما إذا قيست بأرباب قرطاجة وقد دعاكم أنذالا ولصوصا وكذابين وكلابا وأبناء كلبات ، وذكر أنه لولاكم لما اضطرت الجمهورية لأن تدفع الجزية لروما ، وأنه بسببكم نفدت العطور والروائح والعبيد ، وأنكم تتآمرون مع البدو الرحل على حدود القيروان ، وأقسم أنه سينتقم من المذنبين وقرأ عليكم بيان أنواع التعذيب التى ستلحق بهم ، فيرغمون على رصف الشوارع وتجهيز المراكب وتجميل المدينة وسيرسل البعض لاستخراج المعادن من مناجم « كنتابر » .

ثم ردد سبنديوس ما قاله لليبيين بلغات الجوليين والاغريق والكابانيين والباليار . فصدق الأكثرون أقواله لتوافق أسماء الأعلام مع ماذكره هنون فى خطابه ، وكذبه القليلون من الجند ولكن أصواتهم ضاعت بين ضجيج الآخرين ،واستطرد سبنديوس فقال : ألا ترون أنه قد ترك خارج المعسكر القسم الكبير من الفرسان حتى إذا أصدر إشارة كروا عليكم فذبحوكم ذبح النعاج . فتطلع البربر جهة الحرس وإذا برجل يشق الجموع ويتقدم بينهم كأنه شبح من الأشباح لتقوس ظهره وهزاله وشحوب لونه وطول شعره ،وكان الغبار يعلو أطماره وعلى رأسه الشوك وأوراق الأشجار الجافة ، وكان جلده رخوا وبلون التراب وقد زال اللحم عن أعضائه فبدا هيكلا من العظام مرتجف اليدين دائم الاهتزاز يسير متكئا على عود من الزيتون . واقترب من الزنوج حملة المشاعل ، وأخذ يهذى هذيان البلهاء فتبدو من وراء شفتيه لثة أسنانه الضامرة المصفرة ، وأخذت عيناه المليئتان رعبا تنظران إلى جموع البربر . ثم صرخ صرخة ملؤها الرعب وهو يتمتم : « هؤلاء هم : هم هؤلاء » ويشير بأصبعه إلى حرس القائد هنون المسربلين بحلل الزرد تحت أسلحتهم اللامعة ،

على ظهور جيادهم التى كانت تضرب الارض بحوافرها مبهورة من أضـواء المشاعل بينما كان الجند يلوحون كالأشباح وهم يتشـاورن ويخرجون من أفواههم أصواتا مفزعة شبيهة بالعواء .

وأكمل الرجل حديثه فقال : « لقد قتلوهم . نعم لقد قتلوهم عن بـكرة أبيهم . لقد عصروهم عصر العنب ! لهف نفسى على أولئك الشبان الحسان الوجوه حملة المقاليع رفقائى ومواطنيكم ! » وكان يتكلم بلغة الباليار موجها خطابه الى بعض منهم تجمعوا حوله . فسقوه خمرا وهو يبكى ويصف الواقعة .

وامتلأ قلب سبنديوس فرحا، وكأن الأقدار هبت لنجدته ومساعدته على تحقيق ما كان يرمى اليه ، فأخذ يترجم أقوال الرجل واسمه «زركساس» الى الاغريق والليبيين ، وامتلأت نفوس الباليار غضبا وحقداً .

وجلية الخـبر أنه عند جلاء البربر عن قرطاجة كان هناك ثلاثمائة من حملة المقاليع قد تخلفوا عن رفاقهم فى المدينة وكانت حجارة مقاليعهم قد حملت على الجمال استعدادا للرحيل فاستدرجهم الشعب الى شارع «سطحب» حتى اذا بلغوا بابه المصنوع من خشب البلوط والمصفح بالحديد هجموا عليهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم ، ذلك هو سر الصراخ الذى سمعه البربر عنـد مغادرتهم قرطاجة ، ثم ألقوا بالجثث بين يدى آلهتهم وصبوا عليهم جام الغضب الذى أثاره فيهم البربر فحملوهم وزر سرقاتهم ونهبهم وقتل السمك المقـدس فى حديقة سلامبو، ومثلوا بأجسامهم أشنع تمثيل فجعل الكهنة يحرقون شعورهم لكى يعذبوا نفوسهم ويعلقون أشلاء جثثهم عند الجزارين ، حتى اذا جاء الليل أشعلوا النار وأحرقوا ما تبقى منهم ، وكانت هذه هى النار التى رآها جيش البربر من بعيد ، ثم خشوا أن تتصل النـار بالمنازل فألقوا بمـا تبقى من الجثث وراء الاسوار .

وتمـكن زركساس من الهرب مختبئا وراء نبـات القصب حتى إذا بدا الصباح تمـكن من الخروج من المدينة ومشى وراء جيش البربر داميا جائعا مرتعداً حتى بلغ المعسكر .

وثارت ثائرة الجيش ثورة العاصفة وأوشكوا أن يوقعوا بالقائد وحرسه ولكن بعضهم نصحوا بالترتيث ريثما يقبضون أجورهم ، فعلت إذ ذاك صيحاتهم بطلب تلك الاجور . فقال لهم هنون : لقد أحضرت المال معى .

فأسرع بعض الجندالى حيث ترك القائد حقائبه فى مقدمة الجيش وجاءوا بها محمولة على أكتاف العبيد وفتحوا السلال فوجدوا بها ثيابا مرصعة بالياقوت الزعفرانى وقطعا من الاسفنج ومقاشط وفرشا وعطورا وكحلا مما يملكه ويزدان به الحرس ، وكلهم من الأغنياء ، ثم وجدوا طشتا كبيراً من النحاس الأصفر ليستحم فيه القائد أثناء سفره كما وجدوا أقفاصا فيها بنات عرس ليحرقها ويتداوى برمادها ،فضلاعن شتى المأكولات والخمور .

وأما أجور الجنود فتملأ سلتين اثنتين فقط وأكثر مافيها قطع من الجلد مستديرة كانت قرطاجة تفرض تبادلها كالنقود لتوفر الذهب والفضة فى خزائنها . وفسر ذلك هنون بقوله : « إن حساب الأجور يتطلب وقتا طويلا ولذلك أرسلت اليكم الجمهورية هذه الدفعات ريثما يتم ضبط الحساب» .

فبلغ السيل الزبى واشتدت ثائرة الغضب وعلت صيحات الاستنكار ، فأقبل الجند يعبثون بكل شىء ويستولون على كل شيء ، وأخذوا النقود من الأكياس ليرجموا بها هنون الذى أسرع فتعلق بحمار رفعه اليه حراسه وسار لا يلوى على شىء عاويا باكيا ممزق الجسم ، تكال له اللكمات وهو يستنزل على الجيش لعنات الارباب ، والبربر يصيحون به :

اذهب أيها النذل الخنزير يامرحاض مولوخ ! توار سريعا وامضغ ذهبك ومت بدائك . هيا أسرع أيها الخنزير . . ! »

وكان الحرس المنهزم يحوطه حاملا معه عار انهزامه .

ولم يسكن الغضب بالبربر بهزيمة هنون ومن معه بل أخذوا يذكرون أن الكثيرين منهم كانوا قد ذهبوا إلى قرطاجة ولم يعودوا ، وأنهم لا محالة قد هلكوا فيها ، ونفرت نفوسهم وغلت مراجل البغضاء فى

صدورهم لما لقوه من ظلم وعنت وحيف فأخذوا ينتزعون عمد الخيام ويشدون أمتعتهم ويسرجون خيلهم ولبس كل منهم خوذته وتقلد سيفه ، وهكذا أصبحوا فى لحظة على أهبة الزحف .

وصحا أهل سيكا ورأوا ما يعمله الجيش فقال قائلهم : إنهم يزحفون على قرطاجه ، ولما تحرك الجيش وأقفر السهل منه امتطى سبنديوس متن جواد قرطاجة وتبعه عبد له يجر جواداً آخر حتى اذا بلغ خيمة من الخيام كانت وحدها لا تزال منصوبة ، ترجل عن جواده ودخل الخيمة وصاح بمن فيها :

— « هيا بنا يامولاى أننا لمزمعون السفر .

— والى أين تذهب ؟

فصاح به سبنديوس الى قرطاجة ! الى قرطاجة !

فوثب ماتو من مكانه الى حيث كان العبد ممسكا بجواده فامتطاه وسار به ينهب الارض نهبا .

* * *

(٣)

سلامبو

كان القمر يطلع وضياؤه يمسح سطح الأمواج ، وقبس من أنوار ونقط بيض تبدو هنا وهناك : من مجمر مركبة فى دار ، أو أطهار من أثواب معلقة ، أو فى زاوية شارع ، أو من قلادة ذهب على صدر إله ، والمدينة لا تزال مغطاة بالظلمات . وكرات الزجاج على سطوح المعابد ترسل لألاءها إلى هنا وهناك كحجارة ماس كبيرة . ولكن إلى جانب هذا تبدو كتل أشد قتاماً فى الظلام كتل الخرب الغامضة وأكوام التراب السود والحدائق وكتل شباك الصيادين المنشورة من بيت إلى بيت كوطاويط ضخمة باسطة جناحيها فى أسفل حى « مالكا » ، وانقطع أنين دواليب السواقى ، التى ترفع المياه إلى أعلى طوابق القصور ، ورقدت هادئة على المصاطب الجمال ، منبطحة على بطونها كما ينبطح النعام ، ونام البوابون فى الشوارع إلى جانب عتبات البيوت ، وامتدت ظلال الأصنام على الميادين المقفرة ، وبدا من بعيد دخان أضحية تحرق ، متصاعدة من خلال لبنات القلز ، وحمل النسيم المثقل ، مع عرف العطور ، روائح البحر وأبخرة الأسوار التى سخنتها الشمس . وحول قرطاجة تتلألأ الأمواج الساكنة ، لأن القمر كان يبسط ضياءه بوقت واحد على الخليج المحاط بالجبال وعلى بحيرة تونس حيث طيور البط البحرى الهابطة على كثبان الرمال تؤلف خطوطاً طويلة وردية ، بينما كان المستنقع الكبير الملح ، الواقع غير بعيد ، تحت الديماميس ، يتلألأ كسبيكة من فضة ، وقبة السماء الزرقاء تغوص فى الأفق ، فى اغبرار السهول من جهة وفى ضباب البحر من جهة أخرى ، وعلى قمة الأكروبول تتمايل أشجار السرو الهرمية الشكل على حوافى معبد أشمون فتخرج حفيفاً شبيهاً بالهدير المنتظم

الذى تبغث به الأمـواج وهى تلاطم ببـطء رصيف المينـاء الممتد فى أسفل الحصون .

وصعدت سلامبو على سطح قصرها مستندة إلى جارية من جواريها تحمل فى صحفة من حديد جماراً من نار .

وفى وسط السطح سرير صغير من عاج مغطى بجلود الفهود وفوقه وسائد محشوة بريش الببغاء المكرس للالهة والملهم علم الغيب . وفى الزوايا الأربع أحقاق مليئة بالناردين والبخور وسنابل الطيب والدارصينى والآس .

وأحرقت الجارية العطور ونظرت سلامبو إلى كوكب القطب فحسبت ببطء جهات السماء الأربع ، وجثت على ركبتيها على تراب مذرور ذى لون أزرق سماوى تتخلله كواكب من ذهب كصفحة السماء ، ثم استندت بمرفقيها إلى خصريها ، ومدت ذراعيها مستقيمتين إلى الأمام ، وفتحت كفيها وأمالت برأسها إلى الوراء تستقبل به أضواء القمر وأخذت تقول :

« ياربتنا بعلة تانيت، ثم تهدج صوتها وهى تنادى شخصاً ما يا أنايستيس ! عشتروت . يا درسيتو ! مالسيتا ! الطاهرة ! يا ألسبسا ! تيراتا ! أستحلفك بالرموز الخفية وبالصنوج الرنانة وبأخاديد الأرض ، وبالصمت الأبدى ، وبالاخصاب الازلى .. أنت يا سلطانة البحار المظلمة والشواطىء الزرق ، أنت يا ملكة الاشياء الرطيبة الندية ، السلام عليك » .

ثم تمايلت بجسمها مرتين أو ثلاثة وارتمت على الارض فعفرت جبينها بالتراب ، وذراعاها مبسوطتان .

وجاءت الجارية فرفعتها عن الارض بخفـة لان طقوس العبادة تفرض بأن يتولى واحد من الناس إنهاض المصلى من سجوده ومعنى هذا أن الارباب قد قبلوا التماسه ، وكانت مرضع سلامبو لا تنسى القيام بهذا الواجب الدينى فى كل مرة قامت فيها سلامبو للصلاة .

وكانت هذه الجارية قد جلبهـا إلى قرطاجة تجار نخاسون من بلاد

« جيتولى » وهى لا تزال طفلة ، فلما حررها أسيادها لم ترد أن تفارقهم كما كان يدل على ذلك ثقب عريض فى أذنها اليمنى ، وكانت تلبس غلالة مخططة متعددة الألوان تشد وركيها ثم تنحدر إلى كعبى قدميها حيث يتلاطم خلخالان من القصدير ، وكان وجهها المسطح بعض الشىء أخضر كلون قميصها ، والاسلاك الفضية التى شبكتها بشعرها من الوراء تبدو بشكل الشمس ، وفى أنفها خزام من المرجان .

وكانت واقفة بقرب السرير وقد غضت جفنيها وبدت فى انتصابها واقفة جامدة كأنها تمثال من تماثيل الاله « هرمس » .

وتقدمت سلامبو حتى حافة السطح وأخذت تجيل أنظارها فى الأفق بعض الوقت ثم غضت بصرها متلفتة نحو المدينة النائمة وصعدت أنفاساً اهتز منها ثدياها فتموج فوقها الوشاح الابيض الذى كان متدلياً حولها مرسلا دون أبزيم ولا حزام . ونعلاها المعقوفتين تختفيان تحت حجارة الزمرد ، وشعرها المرسل يملأ شبكة من خيوط الارجوان .

ثم رفعت رأسها لتتأمل القمر ، وأخذت تردد بمزيج من الكلام والغناء :

— « كم أنت تدور بخفة يساندك الاثير فيدور حواليك ، وتوزع حركة دورانك الرياح والطل المخصب ، فى إبدارك تتمدد عيون القطط ونقط جلود النمور ، وفى نقصانك تنقص . تنادى باسمك الحبالى ، إذا جاءتهن آلام الولادة والمخاض ، أنت تملأ الأصداف وتخمر الخمور ، وتطهر الجثث وتنتج اللآلىء فى أعماق البحار ! وجميع جراثيم الحياة — أيها الرب — تنمو فى أعماق ظلمات رطوبتك ، إذا برزت انتشرت على الارض الطمأنينة ، فتطبق الازهار جفونها ، وتهدأ ثائرة الانواء ، ويستريح الرجال المتعبون وصدورهم متجهة إليك ، والعالم بأسره بجباله وبحاره ، يتطلع إلى صفحة وجهك كما يجتلى المرآة . أنت أبيض ناعم ، صاف منير ، مطهر بغير عيب ولا دنس ، سريع إلى نجدة من دعاك » .

وكان القمر هلالا يبدو فوق جبل « المياه الساخنة » وبين قمتيه وتحته كوكب صغير الحجم ، به تحيط هالة شاحبة اللون .

« إلى أين أنت صائر ولم تبدل دائما فى أشكالك ؟ فتكون تارة رفيعاً مقوسا تنسل فى الفضاء كما ينسل الزورق فوق الماء ، وتكون طورا بين الكواكب كأنك راع يرعى سائمته ، وإذا استدرت لامعا دست ذرى الجبال كما يدوس دولاب العربة الارض . يا تانيت لقد أطلت النظر إليك ، أنت تجيبينى أليس كذلك ؟ أنت تدورين فى ، فلكك الازرق وأنا أظل على الارض بغير حراك » .

ثم التفتت إلى جاريتها قائلة :

— « خذى القيثارة يا طناش وغنى لحنا خفيفا على وتر الفضة لان نفسى حزينة » .

فتناولت طناش قيثارة من خشب الآبنوس ، وبدات تضرب عليها أنغاما صماء متتابعة الصوت كأنها دنين النحل ثم أخذت تلك الأنغام تعلو وترتفع إلى الأجواء فى ذلك الليل ، ممتزجة بهدير الأمواج وشكواها واهتزاز دوح الاشجار النامية على قمة الا كروبول » .

— وإذا بسلامبو تصيح بها « اسكتى اسكتى ! » لقد حززت القلب بغنائك . ».

— ما بك يا مولاتى ؟ عجبا لقد أصبح القلق يأخذك لاقل شىء حتى لمرور الغيم وهب النسيم .

— لا أدرى .

— أنت تجهدين نفسك بصلوات طويلة .

— آه يا طناش ! إنى أود أن أذوب فيها كما يذوب الزهر فى الخمر !

— لعل ما بك مسبب من دخان العطور ؟

— لا يا طناش ، فان أرواح الارباب تستقر فى الروائح العطرة .

فأخذت الجارية تحدثها بحديث أبيها : « يظن الناس أنه قد سافر إلى البلاد التى تنتج العنبر وراء أعمدة « ميلكارت » فاذا لم يعد وجب عليك وقد أمر هو بذلك أن تختارى لك بعلا من أبناء رجال مجلس القدماء وهكذا فان حزنك يتلاشى بين ذراعى رجل » .

فقالت سلامبو : « ولم وكيف » ذلك لان نفسها كانت قد عافت جميع الرجال الذين عرفتهم بضحكاتهم كضحكات الوحوش الضارية وبأعضاء أجسامهم البشعة الغليظة . ثم استطردت فقالت :

— كثيرا ما تهب يا طناش من كوامن جسدى أنفاس حارة أثقل من بخار البركان ، وأسمع أصواتا خفية تناديني وأحس ألسنة من نار تدور وتتصاعد من صدرى فتضيق أنفاسى حتى لأتمنى الموت ! وإذا بشيء عذب مستحب يسرى فى عروقى ، فيملك على حواسى ، ويسيل فى جسدى من الرأس إلى القدم ، فيلامسنى ويداعبنى ، ويغمرني ، ثم يتلو ذلك شعور من نفسى بأنى قد سحقت كما لو أن الهاً من الألهة قد ناء علي وتمدد فوقى .

آه يا طناش ؟ كم ذا أود أن أتلاشى مع ضباب الليل وتدفق الينبوع وماء حياة الأشجار : وأن أخرج من جسدى وأن لا أكون الا نسمة أو شعاعاً بحيث أنسل انسلالا وأصعد حتى أصل اليك ، يا أماه !

ثم رفعت ذراعيها الى أعلى ما أمكنها رفعهما ، وانعطفت بقامتها شاحبة اللون رشيقة وكأنها القمر بثوبها الطويل ثم ارتمت على سرير العاج لاهثة ولكن طناش أسرعت فقلدتها قلادة من العنبر أثبت فيها أسنان الدلفين » لتكفيها شر الرعب ، فقالت لها سلامبو بصوت خافت :

— اذهبى ، ونادى لى شاهبريم .

لم يرض أبوها أن تنتظم فى سلك الكاهنات ، ولا أن يطلعوها على أى شيء من خصائص « تانيت » الشعبية لانه كان يعدها للزواج من احدى الشخصيات السياسية التى له منفعة منها ، وهكذا ، فسلامبو تعيش وحيدة فى ذلك القصر وأمها ماتت منذ زمن طويل.

وقد نمت وترعرعت عزوفاً عن الدنيا ممسكة عن الملذات صوامة عفيفة ، تنعم بلذائذ الحياة غير المحرمة ، يضمخ جسدها بالطيب والعطور ، وتغذى نفسها بالصلوات ، لم تذق قط خمراً ، ولا أكلت لحماً ولا لمست حيواناً نجسا ولا وطأت قدماها بيت ميت .

وكانت تجهل طقوس العبادة الخليعة لان كل رب من الارباب كان يتجلى للناس بصور شتى ، وكانت الطقوس وان تناقضت تستند الى مبدأ دينى واحد . وهكذا فان سلامبو تعبد الالهة بصفتها كوكبا فحسب ، وكان تأثير القمر قد تملك العذراء فاذا أخذ فى النقصان أخذت سلامبو بالضعف والذبول تذبل فى النهار وتستعيد نضارتها عند المساء ، وقد حل مرة خسوف بالقمر فأوشكت أن تموت .

ولكن تانيت كانت تنتقم من نقاء هذه البكارة التى كانت تتمنع عن التضحية لها فهى تملأ نفسها ضيقا بما توحيه اليها من الاحلام الملحة الملازمة كنتيجة لعقيدتها الدينية .

وابنة أميلكار دائمة التفكير بالألهة تانيت ، وهكذا عرفت مغامراتها الغرامية وأسفارها ، ومتعدد أسمائها التى كانت تدعوها بها دون أن يكون لهذه الاسماء مغزى خاص فى عرفها ، وتوصلا الى فهم كنه عقيدتها كانت تتوق الى التعرف الى ذلك الصنم القديم الذى تحوطه فى معبده الاسرار والذى كان محجبا بذلك الحجاب البديع الجميل الذى تتعلق به وتتوقف عليه مقدرات قرطاجة ومصايرها وانما كانوا يحجبون هذا الصنم ويغطونه لانهم يعتقدون بأن التمثال لا يمكن أن يعطي فكرة واضحة عن المعبود ، وبأن لمسه أو مجرد النظر اليه ينتزع منه جزءاً من فضيلته بل يجعل لامسه أو الناظر اليه متسلطا عليه .

وسمعت سلامبو صوت الجلجل الذهبى الذى كان يعلقه شاهبريم فى ذيل ثوبه ، فمدت بصرها نحوه ، وكان يتدرج السلم ، فلما وصل الى عتبة السطح توقف عن المسير ، وضم يديه الى صدره على شكل صليب ، وكانت عيناه

تلمعان كسراجين معلقين على قبر وجسمه الهزيل يسبح فى ثوبه الفضفاض المصنوع من الكتان ، وقد أثقلته تلك الجلاجل المثبتة فى قدميه ، الى جانب حجارة من الزمرد . وكانت أعضاء جسمه نحيلة نحيفة ، وجمجمة رأسه معوجة ملتوية وذقنه ذا حد وذلف ، وجلده بارد الملمس ، ووجهه أصفر تملأه الغضون ، مستشنج لانطواء نفسه على شهوة مكبوتة ، أو على حزن أبدى .

ذلك هو كبير كهنة تانيت ومربى سلامبو .

قال لها : « تكلمى ماذا تريدين » ؟

قالت : « كنت آمل ... لقد كنت وعدتنى .. » . وكانت تتلعثم بالنطق ثم اضطربت . وإذا بها تتشجع فتردف : « لماذا تحتقرنى ما الذى نسيته من الطقوس ؟ إنك معلمى ، وقد قلت لى أننى أكثر الناس علماً بامور الآلهة ولكن هناك أشياء لا تريد أن تطلعنى عليها . أصحيح ذلك ايها الأب ؟ » .

فتذكر شاهبريم أوامرها ميلكار وأجاب : « لا لم يعد لدى من شىء أطلعك عليه » .

فقالت : إن هناك حافزاً من الجن يدفعنى إلى هذا الحب . لقد تسلقت سلالم معبد أشمون إلاه الكواكب السيارة ورب الفهم والمعرفة ، ورقدت تحت الزيتونية الذهبية شجرة مالكارت شفيع المستعمرات الصورية ، وضربت على أبواب بعل خامون المنير المخصب . وقدمت الأضاحى للكبراء وساكنى الكهوف وإلى آلهة الغابات والرياح والأنهار والجبال ولكنهم كلهم متسامون فى العلو لا إحساس لهم ، ولكنها هي ممتزجة بحياتى تملأ نفسى وأنا أشعر بحنين داخلى وبنزوات منها كأنها تريد أن تقفز لتفر منى ويبدو لى أحيانا أنى سأسمع صوتها وأرى وجهها وإذا ببروق تبهر بصرى فأعود فأسرع فى الظلام .

وكان شاهبريم ملتزماً الصمت وهي ترنوا إليه بنظرة استعطاف والتماس فنحى الجارية بعيدا لأنها لم تكن من أصل كنعانى – ثم رفع أحد ذراعيه فى الهواء وأخذ يقول :

« فى البدء وقبل الآلهة كانت الظلمات وحدها ، وكانت هناك نسمة تسبح فى الفضاء لا يمكن الالمام بها كضمير الانسان فى الحلم . فهذه النسمة انقبضت وتكتلت نخلقت الشهوة و العرى ، ومن الشهوة والعرى خلقت المادة الأصلية . فكانت ماء وحل أسود جامدا عميقا ، وكان هذا الماء يحتوى على مسوخ لا إحساس لها هى . أجزاء غير متماسكة من الأشكال التى ستولد والتى هى مرسومة على جوانب الهياكل المقدسة .

« ثم تجمعت هذه المادة وتخثرت فأصبحت بيضة وانقسمت هذه البيضه فتكون من نصفها الأرض ومن النصف الاخر جلد الفلك . وظهر الشمس والقمر والرياح والغيوم . واستيقظ الحيوان العاقل على صوت الرعد . وعند ذاك التف أشمون بالفلك الملىء بالكواكب وتلألأ خامون فى الشمس فدفعه ميلكارث إلى ماوراء غادس وانحدر « الكابيريم » تحت البراكين وأما ربتنا فقد حنت على العالم حنو المرضع تفيض نورها كاللبن وتبسط الليل كأنه رداء » .

ـ فقالت سلامبو : « وبعد هذا ؟ »

وكان شاهبريم قد تعمد أن يعلو بها إلى عالم الروحانيات ليلهيها عما سواه ، ولكن شهوة العذراء الحالمة زادت اشتعالا لسماعها كلمات شاهبريم الخاصة بتانيت .

ـ وأحب شاهبريم أن يتنازل عن موقفه بعض التنازل فأردف قائلا : « إنها تلهم الحب للرجال وتتحكم به .

ـ فرددت سلامبو حالمة : « حب الرجال !! » .

ـ وهى حياة قرطاجة وروحها ، ومع أنها منتشرة الظل فى كل مكان ، فانها مقيمة نازلة هنا فى المعبد تحت حجابها المقدس » .

ـ سقيا لك يا أبتاه ، سأراها أجل ستقودنى إليها . لقد كنت أرجو وأتردد منذ أمد طويل وكان الفضول يلح بى لأراها ، فأشفقت على رحماك وهلم بنا إليها » .

ـ فردها عنه باشارة عنيفة ملؤها الـكبرياء وقال : لن يكون ذلك أبدا ألا تعلمين أن رؤيتها تميت رأيها لأن خناث البعول لا يبرزن ولا ينكشفن إلا أمامنا نحن الرجال بعقولنا النساء بضعفنا ، إن متمناك كفر وضلال فارتضى بما لديك من علم ومعرفة » فجثت على ركبتيها وأبهاما يديها على أذنيها علامة الندم . وأخذت تصعد الزفرات منكسرة النفس لسماعها أقوال الـكاهن ، مليئة خوفا وضعة وغضبا عليه . وظل شاهبيريم واقفاً جامدا كالصنم وأقل إحساساً من حجارة ذلك السطح ، يجيل فيها عينيه من أعلى إلى اسفل وهى جاثية ترتجف أمام قدميه . وقد أخذته نشوة طرب لشعوره بأنها تتألم حنيناً إلى رؤية ربته التى لم يكن هو أيضاً ليقوى على ضمها إلى صدره .

وأزف وقت يقظة الطيور فأخـذت تردد غردها ، وهبت ريح باردة وبدت بعض الغيوم تسبح فى سماء أشد اصفرارا من ذى قبل .

وإذا بشاهبيريم يرى فى الفضاء ، وراء تونس ، ما يشبه الضباب الخفيف يزحف جراً على الارض ثم يستحيل إلى ستر من العثـير الاغبر ينتشر أفقياً ومن خلال هــــذا الاعصار الـكثيف بدت رؤوس جمال وأسنة رماح وخوذ لـماعة .

كـان ذلك جيش البربر الزاحف على قرطاجة :

(٤)

تحت أسوار قرطاجة

أناس من أهل الريف يركبون الحمر أو يسيرون جريا على أقدامهم ، صفر الوجوه وقد أنهكهم الشعب وحل بهم الاعياء وبلغ منهم الخوف مبلغ الجنون . كل هؤلاء لجأوا إلى المدينة هاربين أمام الجيش الزاحف الذى قطع فى ثلاثة أيام المسافة بين « سيكا » وقرطاجة ليبيد ويفنى كل شيء .

وما كادت الابواب تغلق حتى ظهر البربر ولكنهم توقفوا فى وسط البرزخ على ضفاف البحيرة .

لم يبد منهم بادىء ذى بدء ما يخيف من مظاهر العداء بل أن كثيرين منهم اقتربوا من الاسوار يحملون سعف النخل بأيديهم ، ولكنهم صدوا بقوة السهام ، لان الرعب كان مستوليا على أهل قرطاجة . وفى الصباح وعند زوال النهار كان يطوف حول أسوار المدينة على غير هدى بعض أولئك البربر ، ولا سيما رجل قصير القامة يلتف كل الالتفاف بردائه ويخفى وجهه وراء حافة خوذة غائصة فى رأسه . وكان يقف ساعات طويلة ينظر إلى قناة الماء الحجرية ويحدق فيها كما لو كان يريد أن يصرف أذهان القرطاجيين عن نواياه الحقيقية . وكان يصحبه رجل آخر بجسم الجبابرة يمشى حاسر الرأس . ومعدات الدفاع عن قرطاجة تمتد على طول البرزخ : فهناك خندق ثم حاجز من العشب ثم سور علوه ثلاثون ذراعا مبنى بالحجر المنحوت من طابقين فيه اصطبلات تتسع لثلاث مئة فيل ومخازن لسرجها وعقالها وعلفها إلى جانب اصطبلات أخرى للخيل معدة لاربعة آلاف فرس ولما تحتاجه من الشعير واللحم والسروج . وفى هذا الطابق أيضا دساكر (ثكنات) للجنود تتسع لعشرين ألف منهم ولاسلحتهم ولجميع مواد الحروب،

وعلى الطابق الثانى ترتفع أبراج ذات شرفات تحمل فى خارجها تروس من القلز (برونز) معلقة بكلاليب .

وكان هـذا الصف الاول من الأسوار يحمى حي « مالـكا » المأهول برجال البحر وبالصباغين ، وهنـاك يرى الناظر الصوارى منشورة عليهـا أشرعة السفن الأرجوانية كما يرى على آخر السطوح أفران خزف لتحضير المدى والتوابل .

ووراء هذا تبسط المدينة بيوتها ذات الاشكال المـكعبة متدرجة مدارج مدارج،وهذه البيوت منهاما هو مبنى بالحجر أوالألواح الخشبية، ومنها مارفع بالحصى أو بالصدف أو بأعواد القصب . وخشب المعابد الأخضر يكون ما يشبه بحيرات من الخضرة وسط ذلك الجبل المقام من الأبنية المختلفة التلوين والميادين العمومية تمهد هذا الجبل على مسافات غـير متساوية ، والشوارع الصغيرة العديدة تلتقى فيه وتتقاطع من أعلى إلى أسفل ، وكان يمكن التمييز بين حدود الأحياء القديمة الثلاثة التىامتزجت اليوم ببعضها والتى كانت ترتفع هنا وهناك كأنها صخور كبيرة أوجدران ضخمة لطخت بالسواد وظهرت فيها خطوط كثيرة هى آثار ما هى عليها من الأقذار ، ومرت من فوهاتهـا شوارع كأنها أنهار تحت جسور .

ومرتفعات الأكروبول فى وسـط حى « برسا » تختفى تحت المبـانى الأثرية الفخمة : معابدقائمة علىأعمدة حلزونية ذات تيجان من القلزوسلاسل من المعدن وحجارة صلب مخروطية الشكل ممنطقة بأربطة زرق بلون السماء ، وقباب من النحاس ، وعوارض من المرمر ومساند بابلية ومسلات مرفوعة على رءوسها كأنها مشاعل مقلوبة ، وكان صف الاعمدة يمتدحتى يصل بمقدم البناء ، وبين هذه الاعمدة نقوش حلزونية تزينها . وهناك جـدران مـن الصوان تحمل حواجز من الاجر ، وكل هذا يعلو الواحد منه الاخر مغطياً نصفه بصورة هندسية رائعة لا تدرك تعيد إلى الذهن وتوحي إلى الاحساس توالى العصور وذكريات الاوطان التى غمرها النسيان .

ووراء الاكروبول . وعلى التربة الحمراء تمتد طريق «ما بال» مستقيمة تحف بها الثغور من الشاطىء إلى الدياميس ، وهناك تقوم منازل واسعة ، تفصل بينهما البساتين . ذلك هو حي قرطاجة (الثالث) أو المدينة الجديدة التي تمتد حتى الشاطىء الصخرى العالى ، حيث المنارة الجبارة المضاءة طول الليل .

هكذا كانت قرطاجة تبدو للجنود المعسكرين في السهل ، وكانوا يتبينون من بعيد الاسواق والميادين ، ويختلفون على تحديد مواقع المعابد ، فمعبد خامون الواقع أمام « السيسيت » مسقوف بأجر من ذهب ومعبد « ميلكارت » الواقع على يسار أشمون تعلو سطحه أغصان من المرجان ، ومعبد تانيت تبدو قبته ما بين أشجار النخل مصنوعة من النحاس ، ومعبد مولوخ الاسود واقع بالقرب من الآبار بجوار المنارة ، وعلى زاوية مقدمة كل بناء ، وفى أعلى الحيطان وعلى جوانب الميادين ، وفي كل بقعة أو مكان ترتفع تماثيل أرباب ذات رءوس بشعة جسيمة ، أو مكتلة ذات بطون ضخمة أو ضامرة فاغرة أفواهها باسطة أذرعها حاملة المذارى ، أو السلاسل أو الحراب . وكانت زرقة البحر تنعكس فى الشوارع فيخالها الناظر من بعيد أكثر انحداراً .

والحشود الصاخبة تملأ هذه الشوارع من الصباح إلى المساء : فهناك فتيان يحركون الجلاجل ويضجون أمام أبواب الحمامات ودخان الحوانيت التى تبيع المشروبات الساخنة يرتفع إلى الجو وأصوات الضرب على السدادين تملأ الفضاء والديوك البيض المكرسة لعباده الشمس تصيح فوق السطوح والابقار التى تذبح تخرج خوارها فى الهياكل ، وهناك عبيد يجرون وعلى رؤوسهم السلال ، وفى زوايا أبواب المعابد بعض الكهان يطلون وهم يرتدون معاطف قاتمة اللون حفاة تغطي رؤوسهم قلانس مقرنة ذليفة .

وكان منظر قرطاجة بصورته تلك يهيج البربر . كانوا يعجبون بها ويكرهونها وكانوا يتمنون بوقت معاً أن يلاشوها وأن يسكنوها ولكن

ما هـذا الذى كان يلوح في الميناء الحربى المحصن بأسوار ثلاث ثم ما ذلك الذى يبدو وراء المدينة ، فى نهاية ميجارا فى مرتفع أعلى من الا كروبول؟ ذلك هو قصر هاميلـكار .

وكانت عينا ماتو تتجه الى ذلك القصر فيتسلق شجر الزيتون ويده فوق حاجبيه ينظر ويحدق ولـكن الحـدائق خالية ، والباب الاحمر ذو الصليب الاسود مقفل .

لقد دار ماتو حول الحواجز أكثر من عشرين مرة ليبحث عن منفـذ ينفذ منه إلى الداخل ، وألقى مرة بنفسه إلى الخليج تحت ستار الليل وظـل يسبح مدة ثلاث ساعات بلا انقطاع حتى وصل إلى أسفل (ما بال) وحاول أن يتسلق الشاطيء الصخرى فأدمى ركبتيه وكسر أظافره ثم سقط بين الامواج فعاد أدراجه .

وكان شعوره بعجزه يمـلأ نفسه قنوطاً وغيظاً . كان يغار من هـذه المدينة قرطاجة التى تخص سلامبو كما لو كانت تلك المدينة رجلا قضى منها بيانته ، ثم هدأت ثورة أعصابه لتحل محلها رغبة ملحة حارة مستديمة بأن يعمل ويسعى . وكان خداه مستعرين ناراً ، وعيناه هائجتين وصوته أجش يسير على غير هدى بخطى سريعة يذرع المعسكر جيئة وذهـاباً أو يجلس على الشاطىء يجلو بالرمال سيفه الـكبير أو يرمى بالنبال العقبان المحلقة فى الجو وقلبه بفيض أسى فينطلق لسانه بالـكلام المر فيقول له سبنديوس :

ـــ أطلق لغضبك العنان كما تنطلق مركبة قتال جمح جيادهـا ، أرسل الصيحات والعن وخرب واقتل فان الالم يسكن بالدم ، وبما أنك لا تملك أن تشفى غليل حبك فانحر البغضاء فهى التى تسعفك وتنجدك .

وعاد ماتو يقود جنوده ، وأخذ يلزمهم بأشد المناورات وأدق التمرين وكانوا يحترمونه لشجاعتـه ولا سيما لقوته ، ويستشعرون بخوف منه أشبه بخوف العابد من معبوده فقد خيل اليهم أنه يخاطب الاشباح فى ليله واقتدى الضباط الاخرون به لانه أثار حماسهم بمثله فما عتم جيش البربر أن تنظم ،

وكان القرطاجيون يسمعون من بيوتهم أصوات الابواق التى كانت موسيقاها تنظم تمرينهم على القتال واقترب البربر من المدينة .

وكان لا بد للتوصل إلى سحقهم فى البرزخ - أن يكون هناك جيشان يهاجمانهم معاً من المؤخرة ، الواحد منهما ينزل من البحر فى منتهى خليج أويتيك والثانى فى جبل المياه الساخنة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وليس لدى قرطاجة من الجند إلا الكتيبة المقدسة التى لا يتجاوز عدد رجالها ستة آلاف على أكبر تقدير ، وجيش البربر إذا انحرف إلى الشرق تم اتصاله بالرحل فقطع طريق القيروان وهى سبيل الاتجار مع الصحراء ، وإذا ارتد إلى الغرب اشتعلت نار الثورة فى نوميديا . فضلا عن أن نقص الأقوات سيدفع ذلك الجيش إلى تدمير الريف وتخريبه كما يفعل الجراد ، وهكذا فقد كان الأغنياء يرتعدون فرقا لما سيحل بقصورهم وكرومهم ومزروعاتهم من التلف والخراب .

وكان هنون يقترح اتخاذ إجراءات شديدة قاسية ولكن لا سبيل إليها كأن تقرر مكافأة مالية مغرية لكل من جاء برأس رجل من البربر أو كأن يحرق معسكرهم بواسطة مراكب وأدوات دمار . وعلى نقيض ذلك كان زميله جيسكون يريد أن تدفع لهم أجورهم ، ولكن رجال مجلس القدماء يكرهونه لشعبيته لأنهم يخشون أن يسيطر عليهم سيد ، وهكذا فان خوفهم من وضع السلطة فى يد واحد كان يدعوهم إلى إضعاف ماتبقى من سلطة الفرد والى غل يد من يخشون قدرته على اعادة تلك السلطة .

وكان يقيم خارج منطقة الحصون أناس من أصل مجهول ومن غير أصل القرطاجيين ، هم صيادو القنافذ وآكلو الحشرات والحيوانات الرخوة ، وكانوا ينسلون إلى الكهوف فيمسكون بالضباع حية ثم يلهون بها بأن يدفعوها أمامهم جرياً على رمال ميجارا عند المساء بين قباب القبور وأكواخهم المصنوعة من الوحل المجفف أو من الأعشاب البحرية معلقة على منحنيات الشاطىء الصخرى كأنها أعشاش طير السنونو . وهؤلاء القوم لا دين لهم ولا حكومة ، يعيشون كالوحوش فوضى مختلطين عراة الأجسام ، وكان

الشعب منذ القدم يمقتهم أشد المقت لما يأكلون من الطعام النجس .

وفى صباح ذات يوم تبين الحراس رحيلهم عن قرطاجة .

وأخيراً قرر رجال المجلس الأعلى أن يذهبوا الى معسكر البربر بلا قلائد ولا مناطف ينتعلون الأخفاف المفتوحة وكأنهم جيران يزورون جيرانا ، وكانوا يسيرون بخطى ثابتة يلقون السلام على الضباط أو يقفون ليتحدثوا الى الجنود معلنين انتهاء كل خلاف واعدين باستجابة مطالبهم احقاقاً للحق .

وكان بعضهم يرى لأول مرة معسكراً للمرتزقة فلمسوا فيه دقة النظام والصمت الشامل وقد توقعوا أن تكون الفوضى سائدة فيه ، فالجيش محاط بحاجز من العشب الأخضر يقيه صدمات المنجنيقات ، والأرض مرشوشة بالماء الرطب ، وعيون الضوارىء يبدو لمعانها من وراء اسجاف الخيام ، ومجموعات الأسلحة ترسل بريقا كبريق المرائى وجميعهم يتحدثون بأصوات خافتة .

وطلب الجنود أقواتاً وتعهدوا بأن يدفعوا أثمانها خصما مما يستحق لهم من الأجور ، فأرسلت اليهم الأبقار والغنائم والدجاج البرى والثمار المجفف وحبوب الترمس والأسماك المدخنة مما كانت قرطاجة تصدره الى جميع الموانىء ولكن البربر كانوا يظهرون ازدراءهم لما أرسل اليهم من الحيوانات ولو أنهم كانوا يشتهون لحومها فأخذوا يعرضون لشراء كبش ثمن حمامة ، ولشراء ثلاث عنزات ثمن رمانة ، وآكلة الطعام النجس يقيمون أنفسهم محكمين بين الجانبين فيقررون أن القرطاجيين يخادعونهم ويغشونهم ، وكثيراً ما يستلون خناجرهم ويهددون بالقتل .

وأخذ مندوبو المجلس الأعلى يحسبون ويكتبون عدد السنوات التى استحقت أجورها لكل جندى فاستحال عليهم وقد طال الخوض فى احصاء عدد الجنود الذين تطوعوا ، وهال مجلس القدماء ضخامة المبالغ الواجبة الأداء . ووجدوا أن لا سبيل الى الوفاء الا ببيع مواد السيلفيوم المدخرة وبفرض الضرائب على المدن التجارية . وبدأ يعيل صبر المرتزقة ، ووقفت

تونس الى جانبهم وطار صواب الاغنياء لما كانوا يلقونه من عنف هنون وتأنيب زميله جيسكون فأشاروا على المواطنين الذين كانت لهم معرفة ببعض البربر بأن يجددوا صلات الود معهم بالكلام الطيب المعسول ، لعل فى اظهار الثقة بهم ما يهدئ من ثائرتهم . فذهب الكثيرون لمقابلة البربر من كشبة وعمال فى دار الاسلحة بل أن أسراً كثيرة اتصلت بهم .

وكان الجنود يدخلون القرطاجيين من ممر ضيق يصطدم فية أربعة من المتقابلين . ويقف سبدنيوس وراء الحاجز ليسهر على تفتيشهم بدقة وأمامه ماتو يحدق بالوافدين لعلهم يهتدى الى واحد قد يكون رآه عند سلامبو .

وكان المعسكر شبيهاً بمدينة لكثرة ما احتشد فيه من الناس وما امتلأ به من الضوضاء . والحشدان اللذان يملآنه مختلفان ولا يمتزجان ، فالجماعة الاولى تلبس القماش أو الصوف وتغطي الرؤوس بطاقيات من اللبد بشكل كروز الصنوبر . والاخرى مغطاة بزرد الحديد وعلى رؤوسها الخوذات ، وبين الخدم والبائعين المتجولين تسير نساء من مختلف أمم الارض . سمراوات كالتمر ومخضرات كثمر الزيتون أو صفراوات بلون البرتقال ، نساء باعهن تجار السفن أو انتقين من المواخير أو سرقن من القوافل أو سبين من المدن عند فتحها ، يعاطيهن الجند الحب حتى يستنزفوا قواهن وهن لا يزلن فتيات ، فاذا هرمن أشبعوهن ضربا وركلا ، فاذا انهزم الجيش هلكن على قارعات الطرق ملقيات بين الامتعة والبهائم المتروكة . وكان منهن زوجات الرحل يتهادين على كعوب أرجلهن بغلالات منسوجة من وبر الجمال مربعة ذات لون مشقر ، ومنهن موسيقيات من القيروان مغطيات بشفافات بنفسجية مزججات الحواجب يغنين وهن يجلسن القرفصاء على الحصر . وهناك عجائز من الزنوج مرخيات الاثداء يلتقطن لاشعال النار بعر البهائم ليجففنه تحت الشمس ، ونساء « سيراكوز » اللائى يشبكن فى شعورهن قطعا ذهبية ونساء لوزيتانيا يتقلدن عقوداً من الاصداف . وتضع الفوليات جلود ذئاب على صدورهن البيض ، وهناك صبية أقوياء يسرح عليهن القمل والبق والصئبان عراة غير مطهرين يلطمون المارين فى بطونهم أو يتسللون الى ما وراءهم فيعضونهم فى أيديهم .

وكان القرطاجيون يتنقلون فى المعسكر مأخوذين لما رأوه فيه من كميات الأشياء المكدسة ، وكان أكثرهم بؤساً يبدو عليه الحزن ويبدو القلق في وجوه الاخرين. والجنود يربتون على أكتافهم ويدعونهم إلى مشاركتهم المرح والفرح واللعب فاذا لعبوا برمى الطباق حرصوا على الدوس على قدمي اللاعب وإذا تلاكموا حرصوا على كسر فكيه منذ الجولة الأولى ، وكان حملة المقاليع يخيفون أهل قرطاجة بمقاليعهم ،والحواة يرهبونهم بافاعيهم والفرسان بخيولهم ، والقرطاجيون المسالمون يردون على أنواع الاهانات بالابتسام وطأطأة الرأس ، وكان بعضهم اظهاراً لشجاعته يشير اليهم بما يفهم منه انه يود الانخراط فى سلك الجندية . فكان الجند يكلفونه بتقطيع الحطب وسرج البغال ، أويغطونه بلأمة ثم يدحرجونه كالبرميل في الشوارع فاذا ماأزفت ساعة الفراق اخذ المرتزقة يشدون بشعور رؤوسهم بتشنجات سمجة مضحكة .

والكثيرون من البربر يعتقدون - عن جهل أو عن سماع - أن جميع أهل قرطاجة أثرياء فيمشون وراء زائريهم يلتمسون منهم عطاء ، أو يطلبون منهم مايبدو من جميلا في أعينهم كمثل خاتم أو حزام أو خف أو ذيل ثوب حتى إذا جرد القرطاجى من جميع مايملك صاح « لم اعد أملك شيئاً فما الذى تريدونه منى فيجيبة الجنود : نريد أمرأتك » أو يقول قائلهم : نريد حياتك »

وسلمت حسابات الجيش إلى الضباط وقرئت تفاصيلها على الجنود بعد الموافقة عليها نهائيا ،فأخذ المرتزقة يطالبون حينذاك بخيام فأعطوهم خياماً ، وطلب بعض القادة الاغريق بعض شكل الأسلحة الجميلة التى تضع فى قرطاجة فصوت المجلس الاعلى على رصيد المبالغ اللازمة لمشترى تلك الشكات ، وزعم الفرسان أنه من العدل ان تعيضهم الجمهورية مما فقدوه من الخيل فادعي هذا انه قد فقد ثلاث أفراس فى حصار كذا وذهب الثانى إلى ان افراسه الخمس قد نفقت فى غضون زحف الجيش يوم كذا وقال آخر أن اربعة

عشر جواداً من جياده قد سقطت فى الهوات ، فعرضوا عليهم جياداً من هيكاتومبيل ، ولكنهم فضلوا عليها النقود فى آخر الأمر .

وطلبوا ان تدفع لهم بالعملة الفضية لا الجلدية أثمان القمح الذى استحقوه وان يكون الثمن اعلى ما بلغه القمح فى ايام الحرب وشطوا فى الطلب ففرضوا أن يكون ثمن كيلة الطحين أربعة مئة مرة أكثر مما كان قد دفعوه ثمنا لكيس من القمح . وأثار هذا التعنت حفيظة القرطاجيين ولكنهم رضوا مكرهين .

وعلى هذا وقع الصلح بين المندوبين عن الجنود وبين المجلس الأعلى وأقسموا على احترام الصلح بربة قرطاجة وبآلهة البربر واعتذر كل منهم للآخر بمظاهر الشرقيين وبلاغة تعبيرهم وتلطفهم وملاطفتهم ، وطلب الجند للتدليل على صداقتهم إنزال العقاب بالخونة الذين أثاروا حفيظتهم على الجمهورية . فتعامى القرطاجيون عن هذا الطلب وكأنهم لم يفهموه ، فأعاد المرتزقة الكرة وصرحوا بأنهم يطلبون رأس هنون .

وكانوا يخرجون كل يوم من خيامهم مرات كثيرة ويقفون فى أسفل الأسوار وهم يصيحون « ألقوا إلينا برأس القائد هنون » ثم يبسطون أذيال جلابيبهم ليتسلقوا فيها ذلك الرأس .

وكان من الممكن أن يجبن المجلس الأعلى فيسلم بهذا الطلب لو أن المرتزقة لم يتقدموا بطلب آخر ملح وأشد إيلاما وامتهانا من جميع طلباتهم . طلبوا من المجلس أن يزوج قادتهم من عذارى قرطاجيات تختار من الأسر الكبيرة العريقة ، وكان هذا الايحاء من صنع سبنديوس فوافقت عليه الكثيرون من الجند وعدوا طلبهم غير محرج بل ممكن التحقيق .

ولكن فكرة احتمال مزج دماء المرتزقة بدماء القرطاجيين أثارت الانفة والاشمئزاز فى نفوس الشعب . فأعلن المجلس رفض طلباتهم الجديدة باباء وشمم . فهاج البربر وزعموا أنهم خدعوا وأنذروا القرطاجيين بأنه إذا مرت ثلاثة أيام دون أن تصل إليهم أجورهم فانهم سيحتلون قرطاجة ليستولوا على مالهم بأنفسهم .

ولم يكن سؤ النية متوفراً بجميع جوانبه لدى البربر كما ذهب إلى ذلك أعداؤهم ، فان هاملـكار كان قد مناهم بالمواعيد والامانى البعيدة التحقيق التى كانت على غموضها علنية مكررة ، ولذلك حملهم الظن إلى الاعتقاد بأنهم عند عودتهم إلى قرطاجة سوف تترك المدينة لهم ليقتسموا كنوزها ، فلما ايقنوا انهم سوف لايـكادون ينقدون أجورهم استولت خيبة الأمل على كبريائهم وعلى جشعهم ،

ألم يكن أمامهم مثـل « دنيس » وبيروس وأجاتوكليس » ؟ وقواد الاسكندر الذين أحرزوا المجد والثروة ؟ ألم يكن طموح « هرقل » الذى كان الكنعانيون يخلطون بينه وبين الشمس متألقا فى أفق الجيوش ؟ لقد كانوا يعلمون بأن هناك قبلهم جنوداً مغمورين توصلوا إلى أن يعقدوا التيجان على رؤوسهم ، وكان صدى أصوات تهدم الامبراطوريات يرن فى الآذان فيبعث الاحلام الذهبية إلى نفس الجولى فى غابته « والايثيوبي » فى رماله ، وكان هناك شـعب دائم الاستعداد للانتفاع بشجاعة الشجعان ، فاللص المخلوع من قبيلته ، وقاتل أبيه الشارد على الطرقات المتبوع بلعنة الآلهـة وجميع الجياع واليائسين كانوا يجدون السبيل ليصلوا إلى الميناء الذى كان فيه وسيط قرطاجة يقبل تطوع المتطوعين ، وقرطاجة تفى دائمـا بعهودها تمـام الوفاء ، ولـكن شهوة بخلها العارمة دفعت بهـا هذه المرة إلى عمل مخز شائن مهلك ، لأن نوميديا وليبيا بل أفريقيا كلها ستطبق اليوم على قرطاجة ، وإذ كان البحر لايزال مفتوحا أمامها فان روما ستلقاها فيه ، وهكذا فقد كانت تحس بالموت يكتنفها من كل صوب كالرجل المحاط بالقتلة السفاحين .

وكان لا بد من اللجوء إلى جيسكون الذى ارتضى به البربر حكما يوم أنزلت السلاسل الحديدية التى كانت تقفل الميناء وخرج إلى البحر ثلاثة مراكب مستطيلة مرت بقناة « ثانيا » حتى بلغت البحيرة . وعلى سطح المركب الاولى وفى المقدمة ظهر جيسكون ووراءه صندوق كبير يزدان بحلقات كأنها تيجان متدلية ، ثم يلى ذلك جماعة من المترجمين يعلو رؤوسهم أغطية

شبيهة بغطاء رأس أبي الهول وعلى صدورهم وشم ببغاء ويتبعهم أصدقاء وأرقاء عديدون وكلهم أعزل من السلاح ، وكانت هذه المراكب الطوال ملأى حتى لتكاد تنوء بأحمالها وهى تتقدم على أصوات هتاف الجيش الذى كان متجها بأنظاره إليها .

ولم يكد جيسكون يطأ الأرض حتى تهافت الجند على لقائه فأمر برفع منصة على آكياس ملأى وأعلن عن عزمه على البقاء بينهم حتى يتم دفع جميع أجورهم كاملة غير منقوصة .

فتعالى الهتاف ودوى التصفيق وظل هو طويلا لايتمكن من الكلام .

ثم أخذ ينحي باللوم على الجمهورية وعلى أولئك الذين حركوا الفتنة التى بلغت بخطئهم مبلغا من الشدة أرهب قرطاجة . وذكر أن الدليل على حسن نية الجمهورية هو اختيارهم اياه وهو خصم هتون لاحلال السلام محل الخصام واعطاء كل ذى حق حقه ، وأنه يجب الا ينسب إلى الشعب سبب أثارة غضب جنود شجعان ولا أن يقال عنه أن العقوق قد بلغ به حداً انكر معه خدمات الجيش الباسل .

ثم شرع بدفع مرتبات الجند مبتدئا بالليبيين ، ولما اعترضوا على صحة الأرقام الواردة فى البيانات لم يعد يعتمد عليها فى الدفع .

وكانوا يمرون أمامه بترتيب الأمم التى ينتمون اليها ويرفعون أصابعهم ليدلوا على عدد سنى خدمتهم ، وكل من قبض مرتبه تدمغ ذراعه اليسرى بالطلاء الأخضر وكان الكتبة يخرجون النقود من الصناديق المفتوحة وإلى جانبهم آخرون يحدثون بمداهم ثقوبا فى لوح من رصاص . ومر رجل بدوره وهو يمشى متثاقلا كمشى البقر ، فقال له القائد وقد تسرب إلى نفسه الشك بأمره « اصعد إلى جانبى . كم سنة خدمت فى الجيش ؟ » فأجاب الليبى . « اثنتى عشرة سنة » فدس جيسكون يده بين خوذة الرجل وذقنه ، ذلك لان محل الخوذة واحتكاكها بالذقن يترك مع السنين ندبات فى الجلد يسمونها « الخروبيات لشبهها بالخروب ، وكان من يحمل فى ذقنه هذه الآثار يعد من قدماء الجند .

فصاح به جيسكون : « يا لك من لص » إن ما لا تحمله فى ذقنك لابد أن تحمل آثاره على كتفيك ثم مزق جلبابه ، وإذا بجلد ظهره مملوء جرباً دامى البثور مما يدل على أنه كان يمارس حرث الأرض .

فعلت الصيحات من كل ناحية ، وقطع رأس الرجل .

ولما اظلم الليل انسل سبنديوس إلى خيام الليبيين وقال لهم :

— يوم يقبض الليجوريين والأغريق والباليار والايطاليون أجورهم يعودون إلى بلادهم ، وأما أنتم فستظلون فى أفريقيا منفردين فى قبائلكم لا تقوون على الدفاع عن أنفسكم وإذ ذاك تصب عليكم الجمهورية جام انتقامها لا تثقوا من عودتكم ولا بما يقوله هذا الرجل فان القائدين الزعيمين هما على اتفاق بينهما ، وهذا الزعيم يخادعكم . اذكروا جزيرة العظام «وكسانتيب» الذى أرسلوه إلى سبارطة على سفينة بالية .

— قالوا : « ما العمل »

— فأجاب سبنديوس : « فكروا ملياً »

ومر اليومان التاليان فى دفع أجور أهل « مجدالا » و « ليبتس » و « هيكاتوموبيل » ، فأخذ سبنديوس ينفث سمه بين الجوليين فيقول لهم :

— « هاهم يدفعون أجور الليبين وبعد ذلك يدفعون للاغريق والباليار والاسيويين وغيرهم ، وأما أنتم القليلو العدد فلن يعطوكم شيئا ولن تروا أوطانكم أبدا ولن تجدوا مراكب تحملكم إليها وسيوقعون بكم توفيراً لأقواتكم » .

وأسرع الجوليون لمقابلة القائد وأخذ أوتاريت — ذلك الرجل الذى جرحه يوم الوليمة فى حديقة هاميلكار — يطرح عليه الأسئلة ولكن العبيد صدوه فانسحب وهو يقسم بأن ينتقم .

وتوالت الشكاوى والطلبات وكان أكثر الشاكين إلحاحاً يلجأون الى خيمة القائد ويأخذون بيده - استدرارا لحنانه وشفقته - فيمرون بها على أفواههم الدرداء وعلى أذرعتهم الضئيلة وجراحهم البليغة المتحجرة ، وكان

الذين لما يقبضوا بعد أجورهم هائجين والذين قبضوها يطالبون بغيرها لخيولهم ، والمتشردون والمطرودون يأخذون أسلحة الجنود فيتقلدونها ويزعمون أنهم منسيون . وحشود الرجال تتراكم فى كل لحظة حتى أن الخيام كانت تتمايل وتتقوض وكانت الكثرة منهم المحصورون فى الوسط بين الجموع تتماوج وتضج بالصراخ فاذا اشتدالضجيج اتكأ جيسكون بمرفقه على صولجانه العاجى وأخذ يجيل عينيه فى البحر ساكنا عادم الحركة يعبث بأصابع يده فى لحيته .

وكان ماتو كثيراً ما يترك الخيمة ليذهب فيتحدث مع سبنديوس ثم يعود فينتصب واقفا أمام جيسكون الذى كان يحس أن عينيهمتجهتان إليه وكأنهما مشعلان من مرجان . وقد حدث ان تبادلا الشتائم مرات فمرت فوق رؤوس المحتشدين ولم يسمعها الواحد منهما ولا الاخر ، ومع ذلك فقد كان توزيع الأجور مستمرا وكان الزعيم يحاول أن يجد حلا لكل مشكلة وتسهيلا لكل عقبة .

وأراد أولئك الاغريق أن يثيروا نزاعا حول فروق العملات فبسط لهم تفسيرات وشروح خرجوا بعد سماعها غير متذمرين . وطلب الزنوج عطاءهم بعض تلك الأصداف البيض التى كان التجار يتبادلونها داخل أفريقيا ، فعرض عليهم أن يرسل من يحضرها لهم من قرطاجة ولكنهم عدلوا عن طلبهم واستوفوا أجورهم عمله فضيه كمثل الاخرين .

وكان الباليار قد وعدوا بما هو أفضل من ذلك أى بنساء ، فرد عليهم الزعيم بأن هناك قافله فى الطريق تحمل بنات كلهن عذارى وانه يجب انتظارهن لبعد أربعة أهلة لأن الطريق طويلة . وزاد فقال : إن أولئك النساء سيحملن اليهم حتى جزائر الباليار على مراكب خاصة بعد أن تمتلىء أجسامهن ويطيبن ويدلكن بلبان الجاثى (البنجوان) .

وانهم لكذلك وإذا « بنرركساس » (ذلك الذى نجا من الموت عند ذبح حمله المقاليع) وقد أصبح جميلا وشديدا كمصارع ـ يعلو مناكب اصدقائه

ويصيح بجيسكون: هل احتفظت بشيء من المال للجثث ؟ قال هذا وهو يشير بيده إلى بوابة خامون فى قرطاجة .

وكانت تلك الأبواب المكسوة بصفائح النحاس الاحمر تلمع تحت أشعة الشمس الغاربة فتوهم البربر أنهم يرون عليها سيلا من الدماء فأخذوا يضجون بالصراخ حتى لم يعد جيسكون يقوى على الكلام فنزل عن منصته بخطى متزنة ودخل خيمته قابعا فيها .

ولما خرج من الخيمة فى الغداة عند بزوغ الشمس أبصر بتراجمته الذين كانوا ينامون خارجها مستلقين على ظهورهم لا حراك بهم ، وقد جحظت عيونهم وازرقت وجوههم وخرجت ألسنتهم من أفواههم مشدودة تحت أسنانهم وكان يسيل من أنوفهم مادة بيضاء مخاطية وأعضاؤهم متجمدة كما لو كان برد الليل قد أحالهم الى جليد وكل منهم يحمل ملفوفة على عنقه نسعة صغيرة من الخيزران .

واشتعلت الفتنة منذ هذه الساعة ولم تعد نارها تخمد لأن مذبحة رجال الباليار التى أعاد ذكرها زركساس جاءت مصداقا لما كان يشيعه سبنديوس من عدم الثقة بالقرطاجيين وقوت الظن عند البربر بأن الجمهورية تحاول خداعهم والغدر بهم ، واذن يجب أن ينتهى الأمر منها واذن فلا حاجة إلى المترجمين ! وكان زركساس يلف مقلاعه حول رأسه ويردد الأغانى الحربية وأوتاريت يلعب بسيفه المسلول الكبير وسبنديوس يهمس كلمة باذن هذا ويضع خنجرا بيد ذاك والأقوون يحاولون أن يستوفوا أجورهم بأيديهم وأقلهم هياجا يطالبون بالاستمرار فى الدفع والتوزيع ولم يعد أحد منهم يخلع عنه سلاحه ، واجتمعت ثورات الغضب كلها لتنصب على رأس جيسكون ببغضاء صاخبة .

وأخذ الكثيرون منهم يصعدون الى جانبه على المنصة ويستمعون بصبر إلى كل من يكيل له الشتائم ، فاذا حاول أحدهم أن يدافع عنه بكلمة أسرعوا

إلى رجمه أو أطاحوا برأسه من الوراء بضربه سيف ، وهكذا أصبحت أكياس المنصة اشد احمرارا من مذبح لمعبد .

وكانوا أشد هولا بعد الطعام وقد لعبت الخمر برؤوسهم ، وقد كان شرب الخمر محرماً فى جيوش قرطاجة والموت عقاب شاربيها ، فأخذوا يرفعون كؤوسهم ويتجهون بها جهة قرطاجة ازدراء لنظمها وقوانينها ثم يعودون إلى حيث العبيد خدمة وزارة المال فيستأنفون القتل والذبح ، وكانت كلمة « اضرب اقتل » التى يختلف نطقها باختلاف اللغات مفهومة من الجميع .

وكان جيسكون يعلم حق العلم بأن وطنه قد خذله ، ولكنه كان يأبى أن يلوث شرف الوطن رغم عقوقه ونكرانه لجميله ، فلما أذكره المرتزقة بان قرطاجة قد وعدتهم بمراكب تحملهم إلى أوطانهم أقسم بالاله مولوخ بان يجهز لهم هذه المراكب من ماله وتوكيدا لقسمه انتزع من عنقه قلادته المنضدة بالحجارة الزرقاء وألقى بها بين الجموع .

وطالبه الأفريقيون بالقمح تنفيذا لما تعهد به للمجلس الأعلى فنشر جيسكون أمامه حسابات « السيسيت » المخطوطة باللون البنفسجى على جلود الاغنام ، وأخذ بعدد ما دخل على قرطاجة شهرا فشهرا ويوما فيوما واذا به يتوقف عن القراءة وقد جحظت عيناه كأنه اكتشف ما بين الأرقام منطوق الحكم باعدامه . ذلك أن القدماء كانوا قد أنقصوا تلك الأرقام غشا منهم وتدليسا ، ولأن القمح الذى بيع فى أسوأ أيام الحرب وأشدها غلاء كان مسعرا بسعر واطىء بلغ من تدنيه حدا لا يقره الا من أصيب بعمى البصيرة .

فصاحوا به تكلم « وبصوت أعلى » آه انه يحاول الكذب والخداع! ياله من نذل ! فلنحاذر منه فتردد قليلا ثم عاد يقرأ .

وكان الجنود قبلوا بما تقدم به «السيسيت» من الحساب وعدوه صحيحا لأنهم ما كانوا يفرضون أن قرطاجة تخادعهم ، فلما وقفوا على ما كانت

تنعم به قرطاجة من رخاء أخذتهم غيرة منها اثارت حنقهم،فكسروا صندوق الجيز وكان قد وزع ثلاثة أرباع ما يحتويه ، فرأوا بأم العين ما تخرجه من أموال فاصبحوا يعتقدون أن كنوزها لا تنقد ، وكان جيسكون قد خبأ بعض المال في خيمته . فاعتلوا الاكياس وماتو يقودهم وصاحوا به : « المال ! المال « فرد عليهم قائلا :

ـ « ليعطكم قائدكم المال الذى تطلبونه » ، وكان ينظر اليهم دون أن يتكلم محدقاً بوجوههم بعينين صفراوين وبوجهه المستطيل الذى كان أشد أصفرارا من لحيته ، ورماه رام بسهم صدف به الريش عن مرماه فعلق فى أذنه وسط قرطه العريض الذهبى ، فاخذ الدم يسيل من تاجه على كتفه .

وباشارة من ماتو تقدم الجميع ـ فنحي جيسكون يديه ولكن سبنديوس أسرع فشد معصميه بوثاق ودفعه آخر إلى الارض واختفى فى تلك الفوضى من الحشد الذى تساقط على الاكياس .

ثم نهبوا خيمته التى لم يجدوا فيها الا مستلزمات المعيشة ودققوا فى البحث فوجدوا ثلاث صور للالهة تانيت كما وجدوا طى جلد قرد حجراً أسود سقط من القمر . وود الكثيرون من المرافقين له أن يصحبوه وكانوا رجالا ذوى جاه وكلهم من الحزب المائل إلى الحرب ، فجروهم جرا إلى خارج الخيام والقوا بهم فى حفرة القاذورات ثم ربطوهم من بطونهم بسلاسل من حديد الى أوتاد متينة وكانوا يمدون إليهم الطعام على رؤوس الحراب ، « وأوتاريث » يراقبهم ويكيل لهم السباب ولا يفهمون ما يقول فلايردون عليه ، وكان هذا الجولى يرميهم بالحصى فى وجوههم ليرغمهم على الصراخ .

* * *

وفى الغداة أحس الجند بضيق فى الصدور لان غضبهم كان قد سكن وحل محله شعور قلق ، وماتو يحس بكآبه غامضة تستولى عليه إذ كان يخيل اليه أنه بما فعله قد ألحق الاهانة بسلامبو وإن لم تكن تلك الاهانة قد وجهت

إليها راسا ـ لان اولئك الاغنياء فى عقيدته أتباع لها ملحقين بذاتها ، فكان يجلس فى الليل إلى جانب حفرتهم إذا كان يجد فى أنينهم شيئاً من ذلك الصوت الذى يملأ قلبه وأذنيه .

والجنود كلهم يشكون من الليبيين الذين هم وحدهم قد استوفوا حقوقهم ولكنهم على الرغم من اشتعال جذوة الكراهة الوطنية والاحقاد الشخصية حرصوا على عدم اثارتها لأنهم كانوا يتوقعون انتقاماً شنيعاً بعد الفتنة التى وقعت فأخذوا يتلمسون الطرق المثلى لتوقى انتقام قرطاجة فبدات المشاورات والمفاوضات والخطب الحماسية التى لانهاية لها ، فكل يتكلم وليس من يسمع، وسبنديوس على ماعرف عنه من شهوة الكلام يكتفى بهز رأسه كلما تقدم أحدهم باقتراح ما .

وفى ذات مساء سأل سبنديوس ماتو عفواً ودون أن يعير سؤاله أى اهتمام :

ألا يوجد فى داخل المدينة ينابيع مياه » . ؟

فقال ماتو : « ليس هناك أى ينبوع »

وفى غداة ذلك اليوم سار سبنديوس بماتو الى شاطىء البحيرة وقال له:
ــ إذا كنت مقداماً شجاع القلب فانى سأقودك إلى قرطاجة .

ــ وكيف يكون ذلك ؟ .

ــ أقسم لى بأنك ستنفذ أوامرى وأن تتبعنى أتباع الظل لصاحبه .

فرفع ماتو ذراعه نحو كوكب « شابار » وصاح :
ــ أقسم لك بتانيت .

فقال سبنديوس : إذا غداً بعد مغيب الشمس تنتظرنى عند أسفل قناة المياه الحجرية ما بين القنطرتين التاسعة والعاشرة ومعك مزراق من حديد وخوذة بدون رأس وفى قدميك حذاء من جلد .

وتلك القناة تجتاز البرزخ بكامله ملتوية معوجة وتعد منشأة عظيمة وقد زاد فيها الرومان فيما بعد . وكانت قرطاجة على ما عرفت به من الكبرياء واحتقار ما عداها من الشعوب قد اقتبست هذا الاختراع من روما كما أخذت هذه عنها طريقة بناء السفن المنسوبة إلى قرطاجة .

وهذه القناة مكونة من أربع صفوف من القناطر الواحدة فوق الاخرى من نوع هندسة المربعات تستند عند قاعدتها إلى مساند وفى أعلاها رؤوس أسود وتنتهى فى الجزء الغربى من الاكروبول حيث تختفى تحت المدينة فتسكب نهراً من الماء فى آبار « ميجارا » :

وفى الساعة المحددة وجد سبنديوس ماتو فى المكان المعهود فربط نوعاً من الخطاف فى رأس حبل وإداره بحركة لولبية كما يدار المقلاع ورماه فتعلق بأعلى السور فاخذا يتسلقانه الواحد تلو الاخر ،ولكنهما لما صعدا إلى الطابق الأول أخذ الخطاف يفلت كلما رمياه، فاضطرا إلى المشى على حافة الطنف (السكورنيش) علهما يهتديان إلى شق من الشقوق يثبتان فيه الكلاّب .

وكل صف من القناطر أضيق مما سبقه وافلت الحبل مرارا وأوشك أن ينقطع مرارا أخرى ، وبعد جهد وصلا إلى المصطبة العليا فاخذ سبنديوس ينحنى الى الأرض مرة بعد مرة ويجس الحجارة بيديه واذابه يتوقف ويقول:

— « هنا . هنا فلنبتدىء بالعمل » وشدا بثقليهما على المزراق الذى كان ماتو قد حمله معه حتى تمكنا من انتزاع احدى البلاطات من محلها .

ورأيا من بعيد سربا من الفرسان تجرى بهم أفراسهم بلا الجمة وأساورهم الذهبية تنتفض فى حنايا أجوال أرديتهم وأمامهم رجل مكلل الرأس بريش النعام وفى كل من يديه رمح : فصاح ماتو : « هذا نارهافاس » .

فقال سبنديوس : لا أهمية للأمر » ثم انحدر فى الفجوة التى بدت فى محل البلاطة التى رفعاها . وحاول ماتو باشارة من سبنديوس أن يزيح أحد الحجارة

الـكبيرة من مكانه فلم يتمكن لضيق الموقف وعجزه عن تحريك مرفقيه .

فقال سبنديوس « سنعود يوماً » هيا فسر أمامى. وهكذا أخذا يسيران مغامرين فى مجرى قناة المـاء .

وبلغ المـاء فى علوه إلى بطنيهما ولم يعتما أن خارت قواها فأخذا يسبحان وأعضاؤهما تصطدم بجوانب القناة الضيقة فتمزق وجهاها ثم جرفهما الماء ، وكان يطبق على صدريهما هواء أثقل من هواء القـبر ، وهما يمرقان مروق السهم فى ذلك الظلام وقد كادا يختنقان فأخـذ يصعدان حشرجة المـوت وقد وضعا رأسيهما تحت ابطيهما وركبتيهما الواحدة إلى جانب الأخرى وتمددا ما استطاعا إلى التمدد سبيلا .

وعلى حين فجأة أسود كل شىء أمامهما وتضاعفت سرعت المياه ثم هويا إلى القاع ، ولمـا عادا فارتفعا إلى سطح المـاء أخـذا يعومان على ظهريهما بضع دقائق ويستنشقان الهواء بلذة. وكانت هناك قناطر تلى واحدتها الاخرى تنفرج ما بين الجدران العريضة الفاصلة بين الاحواض. وكانت كلها ملأى والمـاء يسيل منها ببساط واحد متجه طولا الى الابار . وقباب السقوف يتسلل من فتحاتها ذبالة ضياء شاحب يبسط على صفحة المـاء أشباه أقراص من النور والظلام حولها يتكاثف عند الحيطان فيدفعهـا الى الوراء الى مالا نهاية له ، وكانت أضعف الهمسات تخرج صدى متجاوبا .

وعاد سـبنديوس وماتو يسبحان ومرا من فتحة القناطر فاجتازا دون توقف حجرات كثيرة الواحدة بعد الأخرى وبلغا صفين آخرين من البرك الصغرى كانا يمتدان في خطين متقابلين ، فضلا وأصبحا يعومان على غير هدى ويدوران ثم يرجعان ، واحسا أخـيرا بشىء ثابت تحت أقدامهما تلك أرضية الرواق الذى يتماشى مع الابار .

فأخذا يتقدمان بحذر شديد ويجسان الحيطان ليجدا منفـذا ولـكن

أقدامهما كانت تزلق فيقعان فى الاجران العميقة ويحاولان التخلص فيعاودان السقوط ، فاحسا بتعب مرهق مرعب كما لو كانت أعضاؤهما وهى تسبح قد ذابت فى الماء ، فاغمضا العيون ودخلا فى حشرجة النزع .

ومد سبنديوس يده وضرب بها علي قضبان من حديد متينة فى الشبكة التى كانت تسد منفذا من المنافذ وعاونه ماتو فشداها اليهما شدا عنيفاً فانفتحت ، واذابهما على درج سلم مغلق بباب من القلز فاخذا يعالجان بالخنجر مزلاج الباب الذى كان يفتح من الخارج حتى فتحاه فامتلات رئتيهما بالهواء الطلق .

وكان السكون يملأ الليل والافق يبدو عاليا بعيداً ، على جانبى الجدران باقات من الأشجار والمدينة كلها نائمة وأنوار عسس الليل فى مقدمة المعسكر تشع كانها كواكب ضالة :

لقد صرف سبنديوس ثلاث سنوات فى سجن العبيد فهو لا يعرف أحياء قرطاجة حق المعرفة ، وتشاورا فقدر ماتو أنه - توصلا الى بلوغ قصرها هاملكار — لابد لهما من الانحراف بالسير يسارا مجتازين حى « مابال » .

فقال له سبنديوس : « لا . لا بل قدنى الى معبد تانيت .

وهم ماتو بالكلام فقاطعه سبنديوس قائلا : « تذكر ! » ورفع ذراعه نحو السماء مشيراً الى كوكب « شابار » الذى كان يتألف والذى أقسم به ماتو .

فسكت ماتو واتجه عند ذاك بسيره نحو الاكروبول .

وسارا يزحفان بمسيرهما على طول سياجات نبات الصبار التى كانت مفروشة على حافات المعابر وكان المـاء يتصبب من أعضائهما على الغبار ، وكانت نعلاهما المبلولتان لا تحدثان صوتاً ، وسبنديوس يخترق الأشـواك بحثـاً بعينيه اللتين كانتا أشد لمعانا من أنوار المشاعل ، وهو يسير وراء ماتو ويداه على قبضتى خنجرين يحملهما على ذراعيه مثبتين تحت ابطيه بحلقتين من حديد .

* * *

(٥)

تانيت

ولما انتهيا من السير بين الحدائق اعترضتهما أسوار ميجارا ولكنهما وجدا فجوة في الجدار الضخم فسلكاها وتابعا سيرهما . وكانت الأرض على انحدار يتفرع منها شبه واد متسع والمكان مكشوفاً فالتفت سبنديوس إلى ماتو وقال له :

— « أصغ إلى » « وقبل كل شيء لا تخف . . إننى سأنجز وعدى » وتوقف عن الكلام هنيهة وكأنه يفكر أو ينتقى ألفاظه ، ثم استأنف حديثه :

— « أتذكر يوم أريتك قرطاجة في مطلع الشمس وعلى سطح سلامبو؟؟ لقد كنا فى ذلك اليوم أقوياء ولكنك لم ترد أن تسمع نصيحتى » ثم أردف بصوت رصين « أيها السيد إن فى قدس معبد تانيت حجاباً سرياً سقط من السماء يغطى الالهة » .

— « إنى أعلم ذلك » .

« إن هذا الحجاب هو بنفسه مقدس لأنه جزء منها لا يتجزأ ، وإن الآلهة تستقر حيث تستقر تماثيلها وصورها ، وإذا كانت قرطاجة قوية فلأنها تملك هذا الحجاب » ثم مال إليه وهمس فى أذنه : « لقد جئت بك معي لتختطف هذا الحجاب »

فتراجع ماتو إلى الوراء مرعوباً وصاح به :

« اغرب عنى وابحث عن رجل آخر فانى لا أريد أن أعاونك على ارتكاب هذا الاثم الفظيع »

ولكن تانيت هى عدوة لك هي تضطهدك وأنت تموت لغضبها عليك بهذا تنتقم منها فتطيعك ، ستصبح خالداً وغالبا لا يقوى بشر على غلبك »

فطأطأ ماتو برأسه .

« سنخذل ونغلب ، وسيفنى الجيش ويتلاشى . لا أمل لنا بالفرار ولا بالنجدة ولا بالصفح والغفران .

— أى عقاب تخشاه من الآلهة وقوتهم ستصبح بين يديك ؟ أتؤثر أن تهلك فى عشية هزيمة هلاك اليائسين اليائسين مختبئا بين الأشوالا أو بين إهانات حثالة الشعب أو فوق نار محرقة ؟ أيها السيد : ستدخل يوما إلى قرطاجة بين جماعة الأحبار وهم يقبلون نعليك وإذا شعرت فى ذلك اليوم أن حجاب تانيت لا يزال يثقل منكبيك فانك تعيده إلى معبدها . هيا اتبعنى وخذ الحجاب .

فقال ماتو « هيا الى المعبد » واستأنف السير بخطى سريعة ، وهما يسيران صامتين جنباً إلى جنب .

واخذت الطريق تتجه صعوداً والمنازل تتقارب ، وكانا يسلكان شوارع ضيقة وسط الظلام الحالك ، وقطع القماش التى تربط بها أقفال الأبواب تخفق فتلطخ بالحيطان ، وفى ميدان من الميادين رقدت الجمال منبطحة أمام حزمة من الاعشاب وهى تجتر . ثم سلكا رواقا مغطى بأوراق الشجر فأخذت الكلاب تنبح . ثم اتسع الفضاء أمامهما فتعرفا إلى واجهة الأكروبول الغربية . وهناك فى أسفل حى «برساً» بدت كتلة من البناء طويلة سوداء : ذلك معبد تانيت به مجموعة من المبانى والحدائق ودور وأحواش يكتنفها حائط صغير من الحجر اجتازه سبنديوس وماتو .

وكان وسط هذا الحاجز الأول غابة من شجر الدلب تقى من الطاعون وتمنع فساد الهواء ، وهنا وهناك خيام منصوبة يباع فيها فى النهار معجونات

لازالة الشعر ، وعطور وملابس وأقراص حلوى بشكل أقمار ، وصـــور للالهة مع رسوم للمعبد محفورة على قطع من الرخام اللين .

وما كانا يخشيان بأساً لان جميع الطقوس وأشكال العبادات تنقطع وتتوقف فى الليالى التى لا تظهر فيها الكواكب . وأخذ ماتو يتباطأ فى سيره ثم توقف أمام درجات الابنوس الثلاث الموصلة الى الدار الثانية .

فقال له سبنديوس : « هيا تقدم » .

وكانت أشجار الرمان واللوز والسرو والآس تتوالى جامدة لا حراك لها كأن أوراقها صفائح القلز ، والطريق المرصوفة بالفسيفساء الزرقاء تطقطق تحت وقع الاقدام والورود المتفتحة تتدلى وكأنها مهود على جنبات الممر ، وسارا حتى وقفا أمام نقب بيضاوى الشكل عليه باب مشبك بقضبان الحديد فقال ماتو وقد أرهبه ذلك الصمت الشامل : « هنا يمزجون الميـاه العذبة بالمياه المرة » .

فقال سبنديوس : «نعم لقد رأيت مثل هذا فى سوريا فى مدينة مبهرج»

ثم تدرجا إلى الدار الثالثـة على سلم درجاته من الفضة ، فبدت لهما فى وسطها شجرة أرزة عظيمة قد اختفت أغصانها السفلى تحت قطع من القماش وتحتها قلائد كان المؤمنون قد علقوها بها، وبعد خطوات ظهرت لهما واجهة المعبد يتقدم بابيه رواقان يقوم طنفهما على دعائم مكتلة علا فوقها برج مربع يزدان عند سطحه بهلال . وفى زوايا الرواقين وعلى أركان البرج الأربعـة آنية مليئة بحبات الطيوب المحـترقة ، وفوق تيجان الأعمدة ثمار الرمان والحنظل ، وتزدان الحيطان بنقـوش أشكال وأرقام ومربعات متسـاوية الزوايا وبصفوف من اللآلىء ، وأمام السلم الحديدى الذى ينحدر من الدهليز قام سياج من خيوط الفضة على شكل نصف دائرة واسعة .

وكان فى المدخل بين عمود من الذهب وبين آخر من الزمرد كرز صنوبر من حجر ، فلما مر ماتو بجانبه أخذ يقبل يده اليمنى .

وكانت أولى الحجرات عالية السقف فتحت بقبتها كوى كثيرة بحيث إذا رفع المرء رأسه أمكنه أن يشاهد منها الكواكب ، وحوالى الجدار وفى سلال من القصب تتكدس شعور الرؤوس واللحي من بواكير المراهقين ، وفى وسط القاعة المستديرة يبدو جسم امرأة خارجاً من غلاف مغطى بالاثداء ، والمرأة سمينة ذات لحية تغض جفنيها وتبدو كأنها باسمة وتضع يديها بشكل صليب على بطنها الضخم الذى صقلته قبلات الجماهير .

ثم أصبحا يسيران فى الهواء الطلق فى ممشى معترض ارتفع فيه مذبح صغير نسبيا يستند إلى باب من عاج ، وكان محرما على غير الكهان أن يتجاوزوا هذا المكان وللكهنة وحدهم الحق بأن يفتحوا هذا الباب ، لأن المعبد ليس بالمكان المعد لاجتماع الجماهير بل هو مقر الالهة الخاص .

وهنا قال ماتو لسبنديوس : « أن ما تطلبه مستحيل . إنك لم تفكر حق التفكير ، فلنعد أدراجنا » .

وأخذ سبنديوس يتلمس الحائط ، لا لأنه يريد أن يستولى على الحجاب لاعتقاده بفضله وفضيلته وخصائصه بل لاقتناعه بأن القرطاجيين سيملكهم الذعر والخيبة إذا ما راوا انفسهم محرومين من ذلك الحجاب :

وأخذا يدوران خلف المعبد بحثا عن منفذ ينفذون منه ، فرأيا غابة من شجر البطم يسرح فى ظلالها قطيع من الوعول تدفع بأرجلها المتشعبة كروزالصنوبر الساقطة من اشجارها :

وعادا أدراجهما مارين ما بين رواقين طويلين متقابلين على جوانبهما صوامع صغيرة والدفوف والصنوج معلقة على عمد الأرز التى كانت تستند إليها سقوف تلك الصوامع ، وكانت هناك نساء يرقدن خارج الصوامع مستلقيات على الحصر ، يتصاعد من أجسامهن المدهونة بمختلف الدهون رائحة البقول والمباخر المطفأة وأجسام مغطاة بالوشوم والقلائد والخواتم والدمالج والكحل حتى ليحسبهن الناظر أصناما مطروحة على الارض لولا الأنفاس التى كانت تحرك صدورهن ، وأشجار السدر

تحيط بينبوع تسبح فيه أسماك كأسماك سلامبو ، وهناك فى أقصى المكان كرم من العنب دواليه من الزجاج ، وعناقيده من الزمرد ، وإشعاعات الحجارة الثمينة ترسم ألعاباً من النور على الوجوه النائمة بين الأعمدة المصبغة .

وكان ماتو قد ضاق صدراً من ذلك الجو الحار الذى يطبق عليه من حواجز الأرز . وتلك الرموز ، رموز الاخصاب والتناسل والروائح العطرة والاشعاعات والأنفاس المتصاعدة تنهك قواه ، وهو من خلال تلك المظاهر الدينية البراقة يحلم بسلامبو ، فقد كانت تتقمص وتذوب فى الآلهة نفسها ، وكان حبه ينبعث منها كأشجار السدر التى تزدهر بجوار المياه العميقة الغور .

وعاد سبنديوس بذكراه إلى الماضى البعيد فأخذ يقول لنفسه كم كنت كسبت من المال ببيع هؤلاء النساء ، كما أخذ يزن بعينيه تلك القلائد الذهبية .

والمعبد لا ينفذ إلى داخله لا من واجهته ولا من مؤخرته . فرجعا إلى ما وراء الحجرة الأولى ، وأخذ سبنديوس يبحث ويتحسس وجثا ماتو على ركبتيه أمام الباب يضرع إلى تانيت ألا تسمح بوقوع ذلك الرجس والاثم ويتوسل إليها بالكلمات الطيبة المحببة ، كما لو كان يخاطب شخصاً هائجاً غاضباً .

ولمح سبنديوس فتحة صغيرة ما فوق الباب فأشار إلى ماتو بان يقف وأسنده إلى الحائط واقفا ووضع إحدى رجليه على يديه والاخرى على رأسه حتى أمكنه الوصول إلى المنفذ ، فولج فيه ثم أحس ماتو بحبل يسقط على كتفه فشده إليه واستعان بكلتا يديه حتى التحق بسبنديوس فى قاعة كبيرة مليئة بالظل .

وما كان يدور بخلد أحد أن يقدم بشر يوما على مثل هذه المغامرة الجريئة

ولذلك لم تتخذ الحيطة لمنعهـا للثقة باستحالة وقوعهـا ، لان الرعب يحمى المعابد أكثر ممـا تحميهـا الجدران ، حتى أن ماتو كان يتوقـع الموت فى كل لحظة لشدة ما أصابه من رعب .

وكان يبـدو شعـاع ضئيل من وراء الظلام فاقتربا منه ، وإذا بسراج مشتعل فى وسط صدفة على قاعدة تمثـال معمم بقلنسوة كالتى يلبسها الاله الـكبير ، وكان ثوبه الأزرق الطويل مرصعا هنا وهناك بأقراص من الماس ، والسلاسل الغائصة تحت البـلاط تربطه بكعبى قدميـه إلى الأرض ، فـكتم ماتو صرخة أوشكت أن تخرج من فيـه وتمتم متلعثما : « آه . هـذه هى ، هـذه هى » . وأخذ سبنديوس السراج بيده يضىء المكان ، وصاح به ماتو « يالك من زنديق » ومع ذلك فقد كان يقتفى خطاه .

والحجرة التى دخلا إليها لا تحوى إلا طلاء أسود رسمت به امرأة أخرى كانت فخذاها ترتفعان حتى أعلى الجـدار ، وجسمها يملأ السقف بأ كمله ، ويتدلى من سرتها بيضة كبيرة معلقة بخيط ، ثم يتصل رسم المـرأة بالحائط المقابل من أعلى السرة فيبدو رأسهـا منـكسا وأصابع يديها تـكاد تمس البلاط .

وأزاحا جانبا بساطاً ليتمكنا من التقدم إلى الأمام فهب الهواء ، وانطفأ السراج ، فأخذا يسيران على غير هـدى تائهين فى ما خطته يد الهندسة من أشـكال معقدة ، وإذا بهما يحسان تحت أقدامهما بشىء ذى ليونة غريبة ، يقدح شرراً كأنهما يمشيان على النار ، فجس سبنديوس الأرض فوجدهـا مفروشة بأبسطة من جلود الفهود ، ثم خيل لهما أن هناك حبلا مبلولا بارداً لزجا ينسل بين ارجلهما ، وكانا يسيران على هدى اشعة بيضاء تتسرب من شقوق فى الحائط فتبينا على هـداها حية كبيرة سوداء ، لم تعتم أن انسلت واختفت .

فصاح ماتو : « هيا بنا إلى الفرار . هذه هى . انى أحس بها ، انهـا فى طريقها الى المجىء » .

— فقال سبنديوس : « لا . إن المعبد خاوخال » .

وبدا نوز يبهر بصريهما فغضا جفونهما ثم أبصرا ما لا عد له من البهائم متجمعة لاهثة مبدية مخالبها متحفزة مختلطة ببعضها فى بلبلة لا تدرك تملأ النفوس رعبة : فهناك حيات ذات أرجل وثيران مجنحة وأسماك لها رؤوس كرؤوس الادميين تزدرد الثمار ، وأزهار متفتحة فى أشداق التماسيح وفيلة مرفوعة الخراطيم تشق عباب الفلك الأزرق كانها نسور ، وهذه الحيوانات تبذل مجهوداً كبيراً لتتوصل إلى قبض أعضائها غير الكاملة أو المتكاثرة ، وكانت إذا سلت ألسنتها بدت كانها تريد ان تلفظ أنفاسها ، كان هناك شتى الاشكال كما لو أن الغلاف الحاوى الجراثيم قد تفتق فجأة فافرغ محتواه على جدران تلك القاعة .

ويتدلى فى جنبات القاعة دائريا اثنتا عشرة كرة تحملها مسوخ تشبه النمور وحدقاتها بارزة كعيون القواقع وهى مقعية على أعجازها تتجه بأبصارها إلى أقصى القاعة حيث تتجلى على مركبتها العاجية الربة العليا المخصبة للنسل ذات السلطة المطلقة الكلية القدرة وآخر من أبدع .

وكانت الأصداف والريش والأزهار والطيور لاصقة بها حتى بطنها ، وقرطا أذنيها صنجان من الفضة يلاطمان خديها وعيناها الثابتتان دائمتا التحديق بالناظر . وقد أثبت على جبينها بصورة رمزية دنسة فاضحة ، حجر ثمين مشع ينير القاعة بانعكاس نوره على مرائى من النحاس الأحمر موضوعة فوق الباب .

وخطا ماتو خطوة إلى الأمام فتحركت بلاطة تحت قدمه وإذا بالكرات تدور وبالمسوخ تزأر ، وارتفعت أصوات موسيقى رخيمة يمازجها دوى كانغام الكواكب ، كانت تلك نفس تانيت الصاخبة تسيل وتفيض وكانها ستنتصب واقفة تملأ القاعة ، وذراعاها مفتوحتان ! ثم اقفلت المسوخ أشداقها ووقفت الكرات عن الدوران . فتلا ذلك انتقال إلى نغم محزن علا فى الجو

هنيهة ثم ساد الصمت ، وتساءل سبنديوس : « اين الحجاب ؟ » ولم يكن ذلك الحجاب ظاهرا فى أى مكان من القاعة « أين هو وما السبيل إلى الاهتداء إليه ؟ هل خبأه الكهنة ؟ » .

وكان ماتو يشعر بخيبة أمل فى معتقده وإيمانه وبتمزق فى أحشائه .

— وقال له سبنديوس « من هنا » ومشى وكان الالهام يقود خطاه ، وجر ماتو إلى ما وراء مركبة تانيت فأبصرا فجوة مفتوحة فى الحائط من اعلاه إلى أسفله ، فتسللا منها إلى قاعة صغيرة مستديرة عالية السقف كأنها جوف عمود ، وفى وسطها جر كبير أسود نصف كروى بشكل الدف فوقه شعلة من نار ووراءه كرز صنوبر من الأبنوس عليه رأس وذراعان .

وبدا غير بعيد شىء يشبه سحاباً تتألق فيه الكواكب وفى ثنايا طياته رسم أشمون والاله الكبير وبعض المسوخ وحيوانات بابل المقدسة وحيوانات آخرى مجهولة ، ذلك الشىء كان يمر كالوشاح تحت وجه الصنم ثم يرتفع منشوراً على الجدار معلقاً بزواياه التى كانت تبدو مزرقة كالليل مصفرة كالفجر أرجوانية كالشمس ، عديدة لماعة خفيفة . ذلك هو وشاح الالهة ، الحجاب المقدس الذى ما كان يستطيع أحد أن يراه .

فعلا وجهيهما الاصفرار وقال ماتو «خذه» فاستند سبنديوس إلى الصنم وانتزع عنه الحجاب فسقط على الأرض ، فوضع ماتو يده عليه وأدخل رأسه فى فتحته ثم لفه حول جسده فاتحاً ذراعيه ليزداد تمتعا برؤيته والتأمل ببهائه .

وقال سبنديوس : « والآن فلننصرف » .

ووقف ماتو يلهث وعيناه محدقتان فى الارض ثم قام وكأن خاطراً خطر فجأة بباله :

— « ولكن ماعلى لو ذهبت إليها ؟ إنى لم أعد أخشى جمالها ؟ ما الذى يمكن أن تعمله ؟ لقد أصبحت الان أكثر من رجل . سأقتحم النيران

سأمشى على ماء البحار ! إن حافزاً يحفزنى . سلامبو ! ســـلامبو ! أنا سيدك ! »

وصــوته يدوى كالرعد ويبدو لسبنديوس وكأن قامته قد طالت وكأنه يتجلى . وسمع وقع خطوات تقترب وفتح باب وبرز منه رجل هو كاهن بقلنسوته العالية وبعينيه المحملقتين ، وقبل أن تبدو منه اشارة أطبق سبنديوس عليه وعاجله بضربتين من خنجريه غاصا فى خاصرتيه فارتطم رأس الرجل بالبلاط .

ووقفا جامدين كالجثة الهامدة ينصتان وقتا غير طويل فلم يسمعا سوى همسات الريح فى مرورها فى الباب المفتوح بعض الشىء . والباب يؤدى إلى ممر ضيق فسلكاه فأوصلهما الى الدار الثالثة ما بين الاروقة الجانبيــة حيث صوامع الــكهنة . وقدرا أن يكون وراء هذه الصوامع مخرجا فطريقــاً قصيرة فسارعا بالسير ، وتوقفا عند سبيل المــاء وانحنى سبنديوس ليغســل يديه الملطختين بالدماء ، والنساء نائمات، وكرم العنب الزمردى يتلألأ .

وأحس ماتو بشخص يتبعه ويشد بذيل الحجاب شدا خفيفــاً واذا به قرد ضخم من تلك القردة التى تعيش طليقة فى حظيرة الالهة . وكأنه قد أحس بوقوع السرقة فسار متمسكا بالحجاب . ولم يجرؤ على ضربه خشية أن يزداد صراخا ، وبعد قليل سكن عنه الغضب فأخذ يمشى خببا الى جانبهما وهو يتمايل فى مشيته ، ويداه الطويلتان متدليتان ، حتى اذا بلغــا الحاجز قفز قفزة فتسلق نخلة .

ولــا تجاوزا الدار الأخيرة اتجها الى قصر هاميلكار ليأس سبنديوس من إمكان إرجاع ماتو عن عزمه .

فسلكا اليه شارع الدباغين فميدان « متهمبال » فسوق العطــارين فمفرق طريق « جيناسين » . وفى ركن حائط رأيا رجلا يعود على أعقابه متقهقرا لــا حل به من الخوف لرؤيته شيئاً متألقا يخترق الظلام ، فاشار سبنديوس على ماتو بأن يخفى الحجاب . وقابلا أناساً آخرين فلم يفطنوا اليه .

واخيرا عرفا منازل « ميجارا » :

وكانت المغارة المبنية وراء هذا الحى على قمة مجتمع صخور الشاطىء تنير السماء بضياء عظيم أحمر، وآكام القصر بأسطحه المنضدة تمتد على الحدائق كأنها ابنية هرمية هائلة . فدخلا من مدخل شجر العناب وهما يقطعان بالخنجرين الاغصان التى تعترضهما .

وكانت آثار وليمة المرتزقة لم تزل بادية على كل شىء ، فالخمائل مهشمة والسواقى ناضبة ـ وأبواب سجن العبيد مفتوحة ، وليس من أحد حول المطابخ أو صوامع الغلال ـ فاخذهما العجب من هذا السكوت السائد الذى لا تسمع فيه الا تصاعد أنفاس الفيلة المتململة فى مرابطها والا طقطقة الأعواد المحترقة فى المدارة .

وماتو يقول ويعيد القول تكرارا :« أين هى ؟ أريد أن أراها اسر بى اليها ! ويردد سبنديوس : « هذا محض جنون أيها السيد ! ستستنجد فيسرع اليها عبيدها وستقتل رغم قوتك » .

وبلغا السلم ذا الجلفق المصنوع من مقادم السفن، فرفع ماتو رأسه وكأنه رأى نورا خفيا عذبا يتسرب من الأعلى ، وحاول سبنديوس أن يستوقفه ولكنه خف إلى السلم وأخذ يتدرج عليه .

تعرف إلى الأماكن التى مر بها بالامس وعاد بخياله الى الماضى ، فسقط من ذهنه حسبان أيام الفترة التى انقضت بين الأمس والحاضر ، فرآها ورآى نفسه فى يوم الوليمة وهى واقفة تغنى بين الموائد ثم تتوارى عن عينيه ، وكم من مرة منذ ذلك اليوم رأى نفسه فى الحلم والخيال يتسلق هذا السلم .

وكانت السماء فوق رأسه مغطاة بالنيران والبحر يملأ الأفق وكلما خطا خطوة اتسع حوله فضاء لا نهاية له ، ومع ذلك فهو يصعد على السلم بالسهولة الغريبة التى يحسها الحالم فى حلمه .

وأذكره حفيف الوشاح على الحجارة بالسلطة الجديدة التى اكتسبها ،

ولـكن مغالاته بالامل انسته ما يجب ان يفعل وهـــذا التردد ذهب بجرأته .

ومشى وهو يلصق وجهه حينا بعد حين على تلك الفتحات المربعة التي تعلو أبواب المخادع المقفلة فيلمح أناساً كثيرين نائمين .

والطابق الأخير الذى كان أضيق مما تحته يبدو كأنه قمع الخياط فوق ذرى السطوح ، فدار ماتو حوله متمهلا .

وكانت صحائف الطلق[1] التى تسد كوى الجدران المنسقة تبدو فى الظلام حبات لؤلؤ صغيرة . وعرف الباب الأحمر ذا الصليب الأسود فازداد خفقان قلبه وود لو أمكنه الفرار ، ولـكنه دفع الباب فانفتح :

رأى مصباحا بشكل سـفينة يشتعل وهو معلق فى أقصى المخدع . ومن قاعدته الفضية تنبعث أشعة ثلاثة ترتجف فينعكس ارتجافها على أعالى الجدران المرقشة بطلاء أحمر مقلم بخطوط سود ، وكان السقف مجموعة من العوارض والروافد تحمل ، فوق طلائها الذهبي وعند عقد الأخشاب ، حجارة كريمة من الجمست والزبرجد وعلى أوسع مكان فى جانبي المخدع يمتد سرير واطىء معلق بسيور بيض ، وفى داخل الجدار الصفيق مشاجب أشـبه بصدف الحلزون تدلت منها بعض الملابس حتى الأرض ، وهنا درج من العقيق اليمـانى يحيط بحوض للسباحة بيضوى الشكل ، وعلى حافته خفان من جلد الحيات وأبريق من المرمر الأبيض ، وهناك أثر أقدام مبلوله فى جانب الحوض ويتصاعد فى فى المخدع نشر روائح زكية .

وأخذ يمس بأطراف أصابعه البلاط الملبس بالذهب وبالعاج والزجاج ، وعلى الرغم من نعومة الأرض ، خيل إليه أن قدميه تغوصان في الرمال .

---

(١) الطلق : Galo حجر براق يتشظى اذا دق صفائح وشظايا وكانوا يتخذون منه مضاوىء للحمامات .

وبدا له وراء مصباح الفضة مربع كبير أزرق اللون معلق فى الهواء بحبال أربعة ترتفع ، فتقدم محنى الظهر فاغر الفم نحوه .

وكان هناك أجنحة لطيور البحر على أغصان من المرجان الأسود ملقية بين وسائد الارجوان ومحسات الصدف وأحقاف الأرز وملاعق العاج ، وكان ملفوفا على قرون وعول خواتم وأساور ، كما كان هناك آنية من الفخار يبرد ماؤها فى الهواء وهى موضوعة فى فتحة من الحائط على أعراش من الورد ، وقد تعثر بخطاه مراراً لأن الأرضية كانت غير متساوية مما جعل الغرفة وكأنها مجموعة من الغرف المتتابعة ، وفى أقصى المكان يقوم جلفق من الفضة حول بساط منقوش بأزهار مرسومة عليه . وأخيراً وصل جانب السرير المعلق قريبا من موطئة يصعد عليها .

ولكن النور لا يصل الا إلى الحافة ولا يكشف الظل .الممدود كستر كبير .إلا عن زاوية فراش أحمر وعن قدم نحيفة عارية ممدودة على الكعب فتناول ماتو المصباح بلطف وأدناه من السرير .

كانت تنام وخدها على يد والذراع الأخرى مبسوطة ، وحلقات فرعها منتشرة حولها متراصة بشكل يظن معه أنها تنام على ريش أسود . وقميصها الفضفاض الأبيض ذو النسيج اللين الناعم يمتد نازلا حتى قدميها بطيات تتناسق مع تثنى قامتها . ويبدو القليل من عينيها تحت جفنيها المطبقين بعض الاطباق ، وسجف السرير المنشورة عاموديا تغلفها بجو صافى الزرقة ، وتتصل نبضات تنفسها بحبال السرير فتبدو كأنها تؤرجحها فى الهواء. وهناك بعوضة تطن .

فوقف ماتو جامد الحركة ممسكا بأطراف أصابعه قاعدة المصباح وإذا بكلة السرير تشتعل وبسلامبو تهب من نومها .

وانطفأت النار من تلقاء نفسها ولم تنبس هى ببنت شفة ، وكان ضياء المصباح يرسل إلى الحيطان تموجات من الشعاع .

ـ فقالت : « ماهذا الذى اراه »؟

ـ هو حجاب الالهة .

ـ فقالت فى صرخة استفهام إنكارى : حجاب الالهة !؟ وانكأت على قبضتى يديها ومالت الى خارج السرير وهى ترتعش :

ـ وأكمل حديثه فقال : « لقد ذهبت فأحضرته لك من أعماق البيت المقدس !

انظرى : وكان الحجاب يتألق مشرقاً بالأشعة . وأخذ يتمتم : « أما تذكرين : إنك كنت تترآين لى فى الحلم ليلا ولكننى لم افطن للأمر الصامت الذى صدر من عينيك » وكانت هى تقدم رجلا لتضعها على موطىء العاج ـ ولو كنت فهمت يوم ذاك لأقبلت مسرعا ، وتركت الجيش وأقمت فى قرطاجة . أنا على أهبة الهبوط إلى أعماق الظلمات مارا بمغارة «هادروميد» إطاعة لأمرك . عفوك عفوك : كنت وكأن الجبال قد أطبقت بثقلها على أيامى ، ومع ذلك كان هناك شىء يحفزنى ويحدونى ! كنت أحاول أن أجىء اليك ! هل كان بامكانى أن أجترىء بمثل هذه الجرأة لولا الالهة . لنرحل يجب أن تتبيعنى أو أن أبقى أنا هنا إذا لم تريدى أتباعى : وأى حرج فى ذلك . أغرقى روحى فى نسمات أنفاسك ! ولتهرس شفتاى وهى تقبل يديك.

ـ قالت : « دعنى أنظر هذا ! قربه منى ، زده اقترابا »

ولاح الفجر واكتست صفائح الطلق فى النوافذ بلون خمرى ، وسلامبو تستند وهى مضعضعة القوى إلى وسائد السرير ، وماتو يصيح ويزدد :

ـ « أنا أحبك » .

فتمتمت : « أعطنيه » واقترب الواحد من الآخر :

وتابعت الاقتراب منه بقميصها الابيض الصافى الذيل ، وعيناها الكبيرتان عالقتان بالحجاب ، ووقف ماتو يجتليها مبهورا بجمال ذلك الرأس ، ومد

نحوها الحجاب وهو يهم بأن يحتضنها فى ضمة إلى صدره فأبعدت ذراعيها . ثم توقفت فجأة ولبثا مبهوتين وقتاً ما صامتين يتبادلان النظرات .

لم تدرك كنه ماكان يلتمسه ، ولكن الرعب والاشمئزاز تملكاها مع ذلك فعقدت حاجبيها النحيفين وانفرجت شفتاها وهى تنتفض ، ثم ضربت على مشجب نحاسى كان الى جانب الفراش الأحمر وصاحت بملء فيها :

إلى ! إلى ! إلى الوراء أيها الدنس الكافر المرذول الملعون ! إلى ياطنناش ، ياكروم ، يا أبو بامبيبسا يا شاوول ! .

وأطل وجه سذنديوس المذعور من وراء الحائط بين أباريق الخزف وهو يصيح :

— « أسرع فى الهرب ! » وهرولا مسرعين .

وعلت ضجة صاخبة زعزعت درج السلالم وأقبل حشد من الناس ، نساء وخدم وعبيد يهرلون إلى المخدع وبايديهم الحراب والهراوات المدملكة الرؤوس والمدى الطويلة والخناجر ، ولما لمحوا رجلا جمد الدم فى عروقهم استنكارا ، وأخذت الجوارى يولولن كولولتهن فى المآتم واكفهرت وجوه الخصيان تحت جلودهم السود .

وكان ماتو يقف وراء الأعمدة وهو متوشح بالحجاب كأنه إله من الكواكب يحدق به الفلك من كل صوب . وهم العبيد بان ينقضوا عليه فأوقفتهم قائلة : « لا تلمسوه ، فهذا حجاب الالهة .

وكانت قد انزوت فى زاوية ولكنها خطت نحوه خطوة ومدت ذراعها العارية وصاحت به :

« لتحل اللعنة عليك أنت ياسارق تانيت ! لينزل بك البغض والانتقام والموت والالم ! ليمزق جسدك « جرزيل » رب المعارك ! وليكتم أنفاسك « ما تيسمان » إله الموت ! وليحرقك ذلك الاله الآخر الذى لا يجوز أن يسمى » .

فأرسل ماتو صرخة كصرخة الجريح بضربة السيف . وعادت سلامبو تكرر مراراً : « اذهب ا اذهب » .

وانتحى حشد العبيد ناحية ومر ماتو بينهم منكس الرأس بخطى وئيدة ولكنه توقف عند الباب لأن ذيل الحجاب علق بكوكب من تلك الكواكب الذهبية التى كانت ترصع البلاط ، فانتزعه بعنف بحركة من كتفه ، وانحدر على السلم .

وكان سبنديوس قد أطلق ساقيه للريح هارباً من الحدائق فتخطى السطوح والحواجز والسواقى قفزاً وجرياً حتى وصل الى أسفل المغارة . وكان السور فى هذا المكان مقفراً لصعوبة سلوك معابر الشاطىء الصخرى فتقدم حتى الشفير واستلقى على ظهره ورجلاه إلى الامام ثم تدحرج على السور حتى بلغ البحر ووصل سابحا إلى « الدياميس » ثم دار دورة كبيرة حول المستنقعات حتى وصل إلى معسكر البربر عند المساء .

وبزغت الشمس وسار ماتو وكأنه الأسد المرتد ، يقطع الطرق وهو يجيل حوله عينيه المرعبتين : وكان يصل الى سمعه صوت ضوضاء صاخبة صادرة من القصر متجددة من بعيد من جهة الاكروبول .

وكان الناس بين قائل لقد سرقت كنوز الجمهورية من معبد مولوخ ، وقائل لقد قتل كاهن من الكهنة ، وشاع فى مكان آخر أن البربر قد دخلوا المدينة .

ولما كان ماتو لا يدرى كيف يتخطى الحواجز فقد أخذ يسير الى الامام لا ينحرف يمنة ولا يسرة ، فلمحه الناس فعلت الجلبة ، وعرف كلهم حقيقة ماوقع فبهتوا وصعقوا ثم شملهم الغضب والسخط .

وأقبل الناس حشودا من أعالى الاكروبول ومن الدياميس ومن شواطىء البحيرة ، وخرج سراة القوم من قصورهم والبياعون من حوانيتهم

وتركت النساء اطفالهن . تسلحوا بالسيوف والفؤوس والعصى ولكن المانع الذى منع سلامبو منعهم هم أيضا ، اجل كيف كان يمكنهم أن يستعيدوا الحجاب، ورؤيته وحدها تعد إثما ، لقد كانت طبيعته من طبيعة الآلهة وملمسه كان مميتاً .

ووقف الكهنة في أروقة المعابد الداخلية يقلبون الأكف وقد ملأ اليأس قلوبهم ، وأخذ حرس الكتيبة يعدون على خيولهم على غير هدى ، وتسلق الناس أسطح المبانى ومنا كب الأصنام وصوارى السفن .

وكان ماتو يتابع سيره فيزداد سير غضبه ويزداد معه أيضا سير الرهبة والرعبة ، والشوارع تقفر عند مروره وهذا السيل من الناس الهاربين يتدفق من الجانبين حتى أعلى قمم الأسوار ، وهو لا يرى منهم إلا عيوناشاخصة مبحلقة كأنها تريدافتراسه ، وأسناناً تصرف كأنها تريد تمزيقه ، وقبضات أيد تهدد ، وكانت ترن فى آذانه لعنات سلامبو مضاعفة متضاعفة .

وإذا بسهم يصفر وبآخر يمر وبحجارة تطق ، ولكن الرميات لم تكن مسددة خشية إصابة الحجاب ولذا صدفت كلها عنه . وهو يتخذ من الحجاب مجنايقيه ، فيميل به منشوراً تارة إلى اليمين وطوراً الى اليسار والخلف أو إلى الأمام ، وكان يجد فى السير سالكا الشوارع المفتوحة أمامه فيجدها مسدودة عند انتهائها بحواجز من الحبال أو العربات أو الفخاخ ، فيضطر عند كل منعرج أن يعود القهقرى ، ودلف أخيراً إلى ميدان معبد خامون حيث هلك حملة المقاليع ، فوقف وقد امتقع لونه وقفة رجل أيقن من الموت، أجل لا بد من هلاكه فى هذه المرة ، وأخذ الجمهور يصفق بيديه .

وجرى حتى بلغ الباب الكبير فاذا به مغلق ، وكان متناهيا فى العلو ، مصنوعا من لباب شجر البلوط مكسوا بالمسامير ومصفحا بالنحاس ، فارتمى ما تو عليه يحاول دفعه ، وتعالى ضحك الشعب لتحققه من عجز ماتو رغم شدة هيجانه ، فانتزع عند ذاك نعلا من قدمه وبصق عليها وأخذ يصفع به مصراعي الباب الجامدتين ، فضجت المدينة كلها بصيحات الاستنكار والغضب

وتنوسى الحجاب وشأنه وهموا بسحقه ، فأجال عينيه المغشيتين فى الجمهور وصدغاه تنتفضان حتى ليكاد يغيب عن وعيه ، وأحس بخدر شبيه بما يصيب السكارى ، وإذا به يلمح سلسلة الحديد الطويلة التى كانوا يستخدمونها لازاحة مزلاج الباب ، فقفز عليها وتعلق بها موترا عضلاته رافعا رجليه ، وأخيرا انفرج الباب الضخم عن أحد شقيه .

ولما أفلت خارجا أزال الحجاب الكبير عن رقبته ورفعه عاليا ما أمكن ما فوق رأسه ،وساعدت الريح فانتشر الحجاب متألقا فى الشمس بألوانه وحجارته الكريمة وبصور آلهتــــه ، واجتاز ماتو وهو يحمله بهذا الشكل كل السهل حتى خيام الجنود ، بينما كان الشعب فوق الاسوار ينظر إلى كوكب سعد قرطاجة موليا آفلا .

* * *

(٦)

هنون

وخلاماتو بسبنديوس عندالمساء وأخذ يردد : «كان يجب علىأن أخطفها! أن أمسك بها وانتزعها من قصرها ؟ وهل كان بينهم من يجرا على مقاومتى !»

وسبنديوس لا يصغى إليه ، فهومستلق على ظهره يستريح متلذذاً وبالقرب منه جرة ملأى بالماء المعسول يميل إليها برأسه من وقت إلى آخر ليشرب علا بعد نهل .

وسأله ماتو : « ما الذى يجب عمله ؟ هل من سبيل الى دخول قرطاجة مرة ثانية ؟ .

ـ « لا أدرى »

فعيل صبره لعدم مبالاة سبنديوس بكلامه فصاح به :

ـ « ويحك إنما الذنب ذنبك ! تقودنى بل تجرنى جراً ثم تتركنى ، أنت نذل ؟ ولن أطيعك بعد اليوم ؟ يخيل اليك أنك سيد لى؟ آه منك أيها القواد العبد وابن العبد » واصطكت أسنانه ورفع يده على سبنديوس .

ولم يجب الاغريقى . وكان هناك مصباح من الخزف يشتعل الى جانب عمود الخيمة حيث الحجاب يتألق معلقاً على حاملة السلاح .

واذا بماتو يحتذى نعليه النحاسيتين ويشبك مشابك سترته ذات النصال الحديدية ويأخذ خوذته بيده :

فسأله سبنديوس : « الى اين انت ذاهب ؟ » .

ـ أنا راجع الى قرطاجة ! دعنى ! سأجىء بها ! واذا تجمعــوا على فسأسحقهم كما تسحق الافاعي ! سأميتها ! أجل يا سبنديوس سأقتلها وسترى أنت ذلك .

ولـكن سبنديوس كان يتنصت واذا به ينتزع الحجاب من مكانه ويلقى به فى ركن من أركان الخيمة ويضع فوقه جزة من الصوف . وسمعت همسات وبدت مشاعل ودخل نارهافاس يتبعه نحو ثلاثين رجلا .

كانوا يرتدون أرديةمن الصوف الأبيض ويحملون خناجر طويلة ويتقلدون قلائد من جلد ، وفى آذانهم حلقات من خشب وفي أرجلهم أحذية من جلد الضباع . فوقفوا على العتبة متكئين على رماحهم كأنهم رعاة يستريحون .

وبدا نارهافاس أجملهم شكلا ، يزين ذراعيه النحيلتين سيور علقت فيها اللآلئ .

وكانت الحلقة الذهبية التى تحيط برأسه لتمسك ثيابه الفضفاضــة تنتهى بريشة نعام تتدلى وراء كتفه وابتسامته العريضة تـكشف أسنانه وعيناه تبدوان حادتين كرؤوس السهام ومظهره كله ينم عن اليقظة والخفة .

أعلن أنه انما جاء لينضم الى جيش المرتزقة لأن الجمهورية مابرحت تهدد ملـكه منذ زمن بعيد ، وهكذا فمن مصلحته أن ينجد البربر ويمكنه أن يسدى اليهم نفعاً ، ثم أردف فقال :

ـ « سامدكم بالفيلة لأن غاباتى مليئة منها ، وبالخمر والزيت والشعير والتمر وبالزفت والـكبريت للحصار ، وبعشرين ألفـاً من المشاه وعشرة آلاف من الفرسان . واذا كنت ياماتو أوجه الـكلام اليك فلان استيلاءك على الحجاب قد جعلك أول رجال الجيش ولأننا صديقان منذ أمد بعيد .

ويبدى ماتو برأسه إشارات الرضا وهو يحدق بسبنديوس الجالس على جلود الغنم يصغى إلى حديث نارهافاس وهو يستشهد بالالهة ويلعن قرطاجة وفى أثناء ترديده للعنات أخذ خنجرا فكسره بينما كان رجاله يخرجون بصوت واحد صراخا أشبه بالعواء ، وثار ماتو فشاركهم فى غضبهم وأعلن بأنه يقبل بهذا الحلف ويرتضيه .

وعند ذلك جاؤوا بثور أبيض وبنعجة سوداء هما رمز النهار والليل فذبحاهما على حافة حفرة حتى إذا امتلأت غمس الرجلان أيديهم بالدم ثم بسط كل منهما يده الدامية على صدر الاخر ثم جددا هذا العهد بأن طبعا كفيهما الداميتين على خيامهما وصرفا الليل وهما يأكلان مع الجيش ثم أحرقا فضلات اللحم مع الجلود والعظام والقرون والكوارع .

كان الجيش قد حيا ماتو بالهتاف العظيم لما عاد وهو يحمل حجاب الالهة حتى إن أولئك الذين لا يدينون بالديانة الكنعانية أحسوا، وهم يشتركون فى الهتاف ، أن هنالك ربة أقبلت عليهم ، ولم يفكر أحد بالاستيلاء على الحجاب لأن مجرد وقوعه فى حوزة ماتو بطريقة سرية كان يكفى فى عرف البربر ليجعل تلك الحيازة شرعية ، وبمثل هذا كان يفكر الافريقيون . وأما الآخرون فلم تسكن بغضاؤهم لقرطاجة متأصلة من قديم فكانوا لا يدرون أى قرار يتخذون ، ولو أن السفن توافرت لديهم لأقلعوا بها عائدين إلى بلادهم .

وأوفد سبنديوس ونارهافاس وماتو الوفود إلى جميع القبائل النازلة فى البلاد القرطاجية ، فقد كانت قرطاجة تستنفد قواهم فتأخذ منهم الضرائب الفادحة ، وكانت السلاسل الحديدية ، وقطع الرؤوس بالفأس أو الصلب عقاب التأخر فى الوفاء بل التذمر والشكوى،وهم مرغمون على زرع ما يطيب للجمهورية زرعه وعلى توريد ما تفرضه ، وليس لأحد منهم الحق بأن يحمل سلاحاً ما ، فاذا ثاروا باعتهم عبيداً ، والحاكم يعد كعصرة من المعاصر ، قيمتها بما تنتجه . وأما الأقاليم المجاورة غير الخاضعة للحكم المباشر أو الأقاليم الحليفة فلا تؤدى إلا جزية خفيفة .

ووراء هذه الاقاليم يعيش الرحل من القبائل التى كانت قرطاجة تثيرهم وتستعين بهم على حلفائها إذا دعت الحال .

وهكذا فالمحصولات دائمة الاقبال ونتاج الحيوانات فى الزرائب موفور والمزروعات نامية والخيرات متدفقة .

ولهذه الأسباب علت فى روما بعد اثنين وتسعين سنة من هـذا التاريخ ، صرخـة جشع وحسد أرسلها ذلك الشيخ الرومانى « كاتون »(١) أعرف أهل زمانه بالزراعة واستغلال الرق ، دعا بها مواطنيه إلى تدمير قرطاجة .

واشتد عسفها بعد حربها الأخيرة وتضاعفت طلباتها حتى أن جميع مدن ليبيا خضعت مختارة إلى القائد الرومانى «ريجوليس»(٢) فكان انتقام قرطاجة منها شنيعاً بعد هزيمته إذ فرضت عليها ألف تالنت(٣) من الفضة وعشرين ألفاً من الأبقار وثلاث مئة كيس من الذهب وكمية كبيرة من الحبوب ، ثم صلبت زعماء القبائل او ألقت بهم إلى الأسود .

وكانت تونس أشد المدن مقتاً لقرطاجة ، فعلى أقدم من المدينة الأم وهى تحسدها على عظمتها وتقف أمام أسوارها مقرفصة فى الوحل على حافة الميـاه تتطلع إليها وكأنهـا حشرة سامة ، ولم يقو النفى ولا التشريد ولا المـذابح والأوبئـة على إضعافهـا ، وكانت قد وقفت إلى جانب « أرشجات بن أجاتوكليس » فى نضاله ، ووجـد فيهـا آكلو الأشياء النجسة الأسلحة والعتاد .

وقبل أن تسافر الوفود عم الفرح الأقاليم فقام سكانها يخنقون وكلاء البيوت التجارية وموظفى الجمهورية فى حماماتهم ونبشوا الأسلحة القديمة المطمورة فى الـكهوف وأخذوا يصنعون السيوف من حديد المحاريث ، وأقبـل صغار

---

(١) كاتون شيـخ رومانى اشتهر بعلمـه وتقشفه وبغضه وحسده لقرطاجة ، كان لا يلقى خطابا فى المجلس الا حمل خاتمته هذه الـكلمات المشهورة « دمروا قرطاجة » .
"Cartaginem esse delendam„

(٢) ريجوليس : قائد رومانى مشهور أسرته قرطاجه فى مابعد وقتله شر قتله .

(٣) التالنت : مكيال زنته ٢٦ كيلوجرام .

الفتيان يشحذون المزاريق أمام الابواب ، وقدمت النساء عقودهن وخواتمهن وأقراطهن وهب كل يساعد على تدمير قرطاجة ، ويسهم بنصيب فى ذلك ، وبدت حزم الرماح تملأ الضواحى كأنها جرز من الاذرة ، وأرسلوا إلى البربر الدراهم والبهائم ، وأسرع ماتو فدفع للجند أجورهم بتوجيه من سبنديوس مما حدا بالجيش إلى المناداة به قائدا على البربر .

وفى ذات الوقت أخذت نجدات من الرجال تتدفق على الجيش : بدأت برجال من الأمم المستوطنة ثم بعبيد الارياف ، ومرت قافلة من الزنوج فاحتجزوها وسلحوها ، ومر تجار فى طريقهم إلى قرطاجة فانضموا إلى البربر طمعا بجر كسب أوفر ، وهكذا توالى إقبال الرجال على البربر ، والقرطاجيون يرون الجيش يتكاثر ويتعاظم من مشارف الاكربول .

وعلى مصاطب قناطر الماء كان الحرس القرطاجى يقوم بمهمة العسس وإلى جانبهم وعلى مسافات متقاربة طشوت من النحاس مليئة بمذاب الأسفلت ، وفوق السهل كانت حشود البربر تروح وتجىء صاخبة ضاجة قلقة تشعر بهذا التردد الذى كانت رؤية الاسوار القائمة تملأ به نفوسهم .

ورفضت مدينتا « أوتيك وهيبوزريت » أن تتحالفا مع البربر لأنهما كانتا كقرطاجة مستعمرتين فينيقيتين ، ولكنهما كانتا تتمتعان بحكمهما الذاتى وكانتا ـ فى كل معاهدة تعقدانها مع قرطاجة ـ تحرصان على التنويه باستقلالهما عنها ، ولكنهما مع ذلك كانتا تحترمان هذه الشقيقة الكبرى التى تحميهما ، ولم يكن يخيل إليهما أن البربر لهم من القوة ما يتغلبون بها على قرطاجة بل أيقنتا بأنها ستمحقهما محقا ، وهكذا آثرتا أن تظلا محايدتين وأن تعيشا فى سكون وسلام .

ولكن موقعهما الجغرافى جعل منهما مدينتين لا غنى للمتحاربين عنهما ، فأوتيك الواقعة فى أقصى الخليج فرضة تصلح لجلب الامداد من الخارج وإذا استولى العدو على أوتيك وحدها حلت هيبوزريت محلها لأنها هى أيضا على الشاطىء ولا تبعد إلا ست ساعات عن قرطاجة ، وهكذا يتيسر للمدينة الأم أن تجلب المؤن عن طريقها فيستحيل فتحها .

واحب سبنديوس أن يعجل فى ضرب الحصار على المدينة فعارضه فى ذلك نارهافاس لأنه رأى الخطة المثلى أن يتقدم الجيش نحو الحدود فيكتسح البلاد فوافقه على ذلك ماتو وقد ماء المحاربين فقر الرأى على أن يهاجم سبنديوس أوتيك ، وماتو هيبوزريت ، وأن يستند الجيش الثالث إلى تونس ويظل محتلا لسهول قرطاجة . وعهد بقيادة هذا الجيش إلى أوثاريت ، كما وافقوا على أن يعود نارهافاس إلى مملكته ليجهز الفيلة وليقطع الطرق بفرسانه .

وضجت النساء استنكاراً لما تقرر لأنهن كن يطمعن بالاستيلاء على جواهر النساء القرطاجيات ، وكذلك أبدى الليبيون استياءهم لأنهم إنما انضموا إلى الجيش ليفتتحوا قرطاجة ، لا ليجوبوا فى أطراف البلاد ، ولكن أفراد الجند وحدهم تركوا الجيش فأصبح ماتو يقود رفقاءه منضما إليهم جماعات الايبيرين واللوزيتانيين ورجال الغرب والجزر ، وأما الناطقون بلغة الاغريق ، فقد طلبوا الالتحاق بجيش سبنديوس لسعة حيلته ، وخفة روحه .

وتحرك الجيش فانتشر تحت جبل « أريان » ، وسار فى طريق أوتيك ، إلى جانب البحر وترك فرقة منه فى تونس ، واختفت فرقته الأخرى ثم عادت فظهرت على الشاطىء الاخر من الخليج فى ظاهر الغابة ، ثم تغلغلت فيها فتوارت عن العيان .

كان عددهم ثمانين ألفاً على وجه التقريب ، يسيرون والأمل يحدوهم ، وكلهم واثق من أن المدينتين الصوريتين لن تثبتا فى وجوههم ، وأنهم لن يمكثوا طويلا حتى يعودوا إلى فتح قرطاجة ، وقد تركوا أمامها جيشاً قوياً يحتل البرزخ والثغور فيقطع عنها الامداد ، فهى اذاً هالكة لا محالة ، لأنها لا تستطيع الحياة إلا بمعونة الأقاليم وبما تجبيه منها ، فأهلها لا يساهمون بدفع ضرائب كما هى الحال فى روما .

وقرطاجة تعوزها الفراسة السياسية فهى لا هم لها إلا جنى الأرباح وهذا الذى فوت عليها التبصر بعواقب الغد . كانت سفينة ألقت مراسيها على الرمال

الليبية بين أمم كالانواء توالى حولها الهدير ، حتى اذا استحالت الى عاصفة ولو ضعيفة ، زعزعت أركان تلك الآلة الضخمة .

وكانت أموال الخزينة قد أوشكت أن تنفد لما أنفق منها على حرب الرومان ، ولما تبعثر منها أو ضاع فى المساومات مع البربر ، وكان لابد لقرطاجة من الجنود ، وما من حكومة تثق بالجمهورية : ألم يبخل عليها بطليموس بقرض ألفى تالنت ؟ ومن جهة أخرى كان خطف الحجاب من الهيكل ثبط عزيمة الشعب كما توقع سبنديوس .

ولكن هذا الشعب الذى كان يشعر ببغض الشعوب إياه كان يضم الى قلبه ماله وآلهته وأما وطنيته فلا يغذيها الا شكل تكوين حكومته : ومما يجدر ذكره أن السلطة كانت بيد الجميع دون أن يكون لأحد من الجماعة سلطة بالغة من القوة حداً يمكنه من الاستئثار بالحكم ، وكانت الديون الشخصية الخاصة تعتبر كالديون العامة ، وحق الاتجار محتكراً بيد الناسلين من أصل كنعانى ، والواحد منهم يبلغ الغنى ، بضم مايجمعه من مال القرصنة الى أرباح الربا الى نتاج استغلال الأرض والأرقاء والفقراء استغلالا شنيعاً ، وكانت الثروة وحدها السلم الى القضاء والرياسة ، وكانوا لايرون بأساً بتحكم الأفراد ، ولو أن السلطة والمال كانا قد تجمعا على مر السنين بأيدى أسر معدودة لان كلا من أفراد الشعب كان يأمل أن يبلغ يوماً ما بلغته تلك الأسر من الغنى والجاه .

وشركات التجار هى التى تسن القوانين وتختار مفتشى المالية وهؤلاء يعينون مجلس القدماء المئة الذين هم أعضاء أيضاً فى المجلس الكبير ، وهو الجمعية العمومية لجميع الأغنياء ، وأما الزعيمان أو « بقايا الملوك » فهما دون القناصل سلطة ، ينتخبان من أسرتين منفصلتين ، ويحرصون على أن يفرقوا بينهما بجميع أنواع التفرقة ، والبغضاء لكى يضعف الواحد منهما الاخر : فاذا هزما فى حرب يتولى المجلس الكبير صلبهما .

وكانت قوة قرطاجة تصدر عما يسمونه « السيسيت » وهو حوش

كبير فى قلب حى مالـكا يزعمون أنه واقع فى نفس المـكان الذى رسا فيـه فلك البحارة الفينيقيين الاول لان البحر قد انـكمش كثيراً عن الشاطىء منذ ذلك التـاريخ . وفى هـذا الحوش مجموعة من الحجرات ذات الطابـع الهندسى القديم ، مبنية بجـذوع من النخل تجمعها حيطان من حجر ، وكل غرفة منها مستقلة بنفسها لـكى تتمكن كل شركة من الاجتماع على انفراد . والاغنياء يجتمعون فيها كل يوم ليتناقشوا فى امورهم الخاصة وفى شؤون الدولة سواء أكان الامر متعلقا بالبحث عن الفلفل أو عن تدمير روما .

وكانوا يصعدون أسرتهم على ثلاث مرات فى كل شهر قمرى على السطح العالى المطل على الحوش فيأكلون فى الهواء الطلق دون أحذية ولا أردية ، فيرى الناظر اليهم من أسفل أصابعاً حليت بخواتم الماس تمر على اللحوم ، وآذاناً علقت فيها الاقراط الـكبيرة تنحنى على الأباريق الرخامية البيض ، وكلهم قوى سمين نصف عار سعيد ضاحك يأكل وهو وسط الأديم الأزرق كأنه حوت ضخم يلهو ويلعب فى البحر .

ولـكنهم اليوم لا يمـكنهم إخفاء ما بهم من قلق فـكلهم شاحب اللون ، والشعب الذى ينتظرهم على الأبواب يسير يحرسهم حتى أبواب قصورهم طمعاً باستجلاء خبر ما .

وجميـع الأبواب مقفلة كأيام وباء الطاعون ، وجميع الشوارع تمتلىء حيناً ثم تقفر ، هؤلاء يصعـدون إلى الأكروبول ، وأولئك يجـرون نحو البحر ، والمجلس الـكبير يعقد جلساته كل ليلة للتشاور ، والتداول وأخيراً دعى الشعب إلى التجمع فى ميدان خامون ، وهناك صـدر القرار بتفويض الأمر إلى هنون بطل هيكاتومبيل . وهذا الرجل متعبد مكير لاتأخذه رحمة بالافريقيين ، وقرطاجى لا شك فيـه . ودخله يعادل دخل آل بركا ، ولم يكن لأحد ماله من الخبرة فى شؤون الادارة . فأصدر أمراً بتجنيد جميـع المواطنين الأصحاء ووضـع المنجنيقات على جميـع الأسوار وأمر بتخزين كميات هائلة من الأسلحة وببناء أربع سفن جديدة لم تـكن الحـاجة داعية

إليها وفرض تسجيل كل شيء كتابة وأخذ يكثر التردد على مصنع الاسلحة والميناء ومستودعات كنوز الآلهة فاتخذ محفة رفعت له تتمايل يمنة ويسرة فى رقيه الدار وفى تسلقه سلالم الأكروبون .

وكان فى الليل وفى قصره وهو ممتنع النوم يعد العدة للمعركة فيصدر التعليمات الحربية بصوت أبح مخيف أشبه بالعواء .

وأصبح الناس كلهم شجعاناً لكثرة ما استولى عليهم من الرعب وكان الاغنياء منذ صياح الديك يصطفون صفوفا على طول « مابال » ويشمرون عن سوقهم متمرنين على الطعن بالحراب ، ولكنهم كانوا يتشاحنون إذ لم يكن لهم معلم أو يجلسون لاهثين على القبور حتى إذا استراحوا عادوا إلى التمدد . وكثير غير هؤلاء فرضوا على أنفسهم نظاما للطعام فأخذ بعضهم يكثر الاكل لظنه ان بالاكل تزداد القوى ، وامتنع الاخرون عن الطعام ليزيلوا ما بهم من سمنة فأعياهم الصيام .

واستنجدت اوتيك مراراً بقرطاجة ولكن هنون لم يشأ أن يسير إلى نجدتها قبل أن يتم وضع آخر مسمار فى معدات القتال ، فأضاع هكذا ثلاثة أشهر قمرية ليجهز الفيلة المئة والاثنى عشر التى كانت تبيت وراء الحواجز ، وتلك الفيلة هى التى هزمت جيش ريجوليس ، فالشعب يحبها ولا يضن عليها بشيء ، فأمر هنون باعادة صهر الصفائح الحديدية التى تزين صدورها ، وبتذهيب أنيابها وتوسيع معالفها ، وتفصيل أغطية أرجوانية لها تكون أجمل الاغطية مزركشة بشراريب ثقيلة . ولما كانوا يسمون قادة الفيلة هنوداً أمر بأن يرتدى هؤلاء القادة ملابس على الزى الهندى : شريط أبيض تتعصب به رؤوسهم حول أصداغهم ، وسراويل من الحرير الهندى تبدو طياته المخيطة بالعرض على افخاذهم أشبه بسنفى صدفة .

وظل جيش أوتاريت قابعا أمام تونس مختبئا وراء سور ، حجارته من وحل البحيرة ، فرشت أعاليه بالشوك ، وأثبت الزنوج فى مواضع مختلفة منه حواجز طويلة ، وأشكالا مخيفة كوجوه مصطنعة لرجال صنعت بريش

الطيور ، أو رؤوس لبنات آوى أو لحيات وجهت نحو العدو وهى تتمطى وتتثاءب لتخيفه لاعتقادهم أنهم بهذا يأمنون شر الهزيمة ، وعكف البربر على الرقص والمصارعة ، والمبارزة بالخناجر واثقين أن قرطاجة قريب دمارها .

ولو كان الامر لغير هنون لماتوانى في سحق هذه الجماعة التى كانت قطعان النساء تعرقل حركاتها ، والتى تجهل كل شىء من فنون الحرب ، ولا تخلى من نجدة أوتاريت التى يئست من نجدة هنون لها فلم تعد تطالبه بشىء .

وكانوا إذا مر أوتاريت برجاله وهو يقلب فيهم عينيه الزرقاويين أفسحوا له الطريق فيمشى حتى البحيرة ثم يخلع سترته المصنوعة من وبر كلب البحر ، ويفك الحبالة التى يربط بها شعر رأسه الاحمر ويغمسهما بالماء ، وقلبه ملىء أسفا لعدم فراره من الجيش والتحاقه بالرومان مع المائتى جولى التابعين لمعبد إيركس .

وكثيراً ما يحدث أن الشمس تتوارى وراء الغيوم فى النهار ، فيبدو الخليج وسطح البحر كأنهما فى سكونهما الرصاص المذاب ، وتمر غيوم من الغبار الاسمر معترضة فى الافق ، وتشد على الارض عاصفة ، فتلتوى أشجار النخل ويختفى أديم السماء ويسمع صوت الحصى وهى تطفر من الارض إلى ظهور الحيوانات فيرى دلك الجولى محشرج الصدر من الاعياء والشكاية ، وشفتاه ملتصقتان بثقوب خيمته لقد أخذه الحنين إلى استنشاق عرف المراعى فى صباح أيام الخريف ، وهو يحلم بكرات الثلج المتساقطة وعجيج أبقار الجول الضالة بين السحب المتراكمة ، ثم يغمض عينيه فيخيل اليه أنه يلمح نيران الاكواخ الطويلة المغطاة بالقش تلمع مرتجفة على مياه المستنقعات فى أقاصى الغابات .

وكثيرون غيره يحنون الى أوطانهم ، ولو أنها غير بعيدة هذا البعد . أولئك هم الاسرى القرطاجيون الذين كان يمكنهم أن يتعرفوا من بعيد الى سجف منازلهم المنشورة فى الدور ولكن الحواس يقلقونهم بلفهم ودورانهم

لقد ربطوا جماعة بسلسلة واحدة ووضع طوق حديدى فى عنق كل منهم ، ولم ين الجند ولا تعبوا من الاقبال على التحديق بهم والنساء يرين صفارهن تلك الثياب الجميلة وقد أصبحت أطماراً رثة تتدلى بين أعضائهم الهزيلة . وكلما نظر أوثاريت إلى جيسكون أخذه الحنق لذكرى الأهانة التى لحقته منه ولولا العهد الذى أخذه عليه نارهافاس لا نزل به الهلاك وكان يعود إلى خيمته فيشرب مزيجاً من عصير الشعير والكمون حتى يكاد لبه يطير من السكر ثم يصحو عند الضحى وقد أجهده العطش .

وضرب ماتو الحصار على هيبو زريت ولكن المدينة كانت محمية ببحيرة تتصل بالبحر ، ولها ثلاثة خطوط من التحصينات وعلى مشارفها سور متين محصن بالابراج ولم يسبق لماتو أن تولى مشروع أعمال الحصار ، فضلا عن شرود فكره واتجاهه إلى سلامبو أثناء الليل والنهار،فهو حالم فى ملذات جمالها ولكنها ملذة شبيهة بلذة الانتقام تملأ نفسه كبرياء ،هو فى حاجة إلى العودة للقائها ولكنها حاجة مرة الطعم ثائرة ملحة دائمة ـ وحدث نفسه أن يتطوع كرسول لمفاوضة قرطاجة لعله يتمكن من الوصول إليها إذا دخل المدينة ، وكثيرا ما كان يأمر بالنفخ فى الأبواق إيذانا بالهجوم ولكنه كان لا ينتظر تجمع الجيش بل يسرع إلى الرصيف الذى كانوا يبنونه على البحر، فيأخذ باقتلاع الحجارة بيديه وينشر الاضطراب ويضرب بسيفه .

فيغوص هنا وهناك ، ويترامى الجند متكدسين بلا نظام وتتكسر السلالم وتقرقع وتتساقط جماعات الرجال إلى البحر فيتطاير رشاشها الدامى على الاسوار ، ثم تضعف الجلبة ويبتعد الجند ليعودوا إلى ما كانوا عليه .

ويذهب ماتو إلى الخيام فيجلس خارجها وهو يمسح بيده وجهه الملطخ بالدم ويتجه بباصرتيه نحو قرطاجة وهو ينظر إلى الأفق .

وأمامه بين أشجار الزيتون والنخل والآس والدلب ، ينبسط مستنقعان واسعان يتصلان ببحيرة أخرى لا يلم البصر بمحيطها ، ووراء جبل أول تبدو جبال أخرى ، وفى وسط البحيرة المترامية الاطراف جزيرة قاتمة السواد

ذات شكل هرمى . وفى أقصى الخليج على اليسار كثبان من الرمل شبيهة بأمواج كثيفه غير متحركة وأمامها البحر المنبسط كبساط من البلاط اللازوردى يرتفع بأمواجه إلى أطراف السماء . وكانت خضرة الحقول تختفى هنا وهناك تحت بقع صفر طوال ، وذرى أشجار الخروب تلمع كأنها حبات مرجان ، وأغصان دوالى العنب تتدلى من قمم أشجار الجميز ، والماء يسمع خريره والقنابر المتوجة الرؤوس تقفز وتتهادى ، وآخر أشعة للشمس الغاربة تطلي بالذهب ذيل السلاحف الزاحفة من ثنايا الخيزران لتستنشق النسيم العليل .

وانبطح ماتو على بطنه وأخذ يبعث التنهدات ويشد بأظافره على الارض ويبكى ، ويأخذه الشعور بأنه بائس حقير طريد ، فلن يحوزها ، ولا هو قادر على التغلب حتى على مدينة .

وإذا خلا في الليل بنفسه فى خيمته يتأمل فى الحجاب ويسائل نفسه «أى نفع جنيته من هذا الشيء الالهى ؟ » ويتسرب الشك إلى رجل البربر ، ثم يبدو له بأن ثوب الهه هو شيء من سلامبو وأن بعضا من نفسها يخفق فيه أخف من الانفاس فيقبل على الحجاب يلمسه ويتحسسه ويمسحه ويغوص فيه بوجهه ويقبله وهو يصعد الزفرات ، ثم يغطي به كتفيه ليمنى نفسه ويحملها على الاعتقاد بأنه إلى جانب سلامبو .

وكثيراً ما ترك المعسكر فجأة وسار على ضوء الكواكب يتخطى الجنود النيام الملتحفين بأرديتهم حتى إذا وصل إلى أبواب المعسكر امتطى جواداً وجد في السير حتى يبلغ بعد ساعتين أبواب أوتيك فيترجل أمام خيمة سبنديوس ، ويأخذ يحدثه بحديث الحصار ولكنه لم يقدم عليه الا ليبرد ألمه بالحديث عن سلامبو ، فيحثه سبنديوس على التمسك بأسباب الحكمة ويقول له :

اربأ بنفسك عن هذه السخافات التى تشينها ، لقد كنت فى ما مضى مطيعاً

فاصبحت اليوم قائدا للجيش آمرا مطاعاً وإذا لم نفتح قرطاجة فسنعطى على الاقل بعض الاقاليم فنصبح ملوكا » .

وأبدى دهشته من أن حيازة الحجاب الالهي لم توفر لهم النصر،فنصحه سبنديوس بالتمهل والتريث .

وماتو يفكر بتفكير البربرى اللبق فيقول لنفسه إن الحجاب لا ينفع إلا الرجال الذين هم من أصل كنعانى وعلى كل حال إذا كان لا ينفعنى فانهم وقد خسروه لن يمكنهم هم أيضاً أن ينتفعوا به .

وداخله بلبال من اعتقاده بأنه ـ وهو الليبي ـ لو عبد « ايتوكنوس» إله ليبيا لاغضب « مولوخ » اله الكنعانيين،فافضى بوسواسه الى سبنديوس وهو خجل من أمره ، فقال له سبنديوس وهو يضحك :«ضح لهذا أوذاك» فلم يفهم ماتو مرمى كلامه وظن أن الاغريقي يعهد معبـــودا لا يود أن يتحدث عنه .

وكانت جميع العبادات وجميع الاجناس تلتقى وتجتمع فى هذا الجيش الذى يحترم جميع الالهه لخوفه منها . وكان الكثير من أفراده يخلطون بدياناتهم الاصلية عادات غريبة عنها ، فهم وان لم يعبدوا النجوم مثلا يقدمون معذلك الذبائح لهذا الكوكب أو لذلك استدرارا لنفعه أو اتقــاء لضره، واذا وجدوا مصادفة خيمة فى ساعات الخطر أصبحت تلك الخيمه الهة ، وكثيرا ما كانوا يعبدون أسماء يكررون ذكرها دون أن يعرفوا حقيقة مراميها ، ولكنهم لكثرة ما نهبوه من المعابد ورأوه من الأمم وشهدوه من المذابح أصبح أكثرهم لا يعتقد الا بالقضاء والقدر والموت، وهكذا كانوا ينامون فى كل ليلة بهدوء الوحوش الضاريه وعدم مبالاتها ، ومن الممكن مثلا أن يبصق سبنديوس على صور جوبتر اله الالمب ولكنه كان يحاذر أن يتكلم بصوت عال وسط الظلمة ، ويحرص على ان يلبس نعليـــه مبتدئاً بالقدم اليمنى .

وكان يقوم ببناء مصطبة طويلة مربعة الزوايا أمام أسوار أوتيكا ، فكان كلما ارتفعت ارتفع السور أيضا وكلما هدم جزء أعيد بناؤه، وكان يحرص على استبقاء قوى وجاله ويحلم بالخطط الحربية ويجتهدان بذكر الخطط والحيل الحربية التى سمع الناس يتحدثون بها أثناء أسفاره .

وكان القلق سائداً لتأخر نارهافاس عن الرجوع والجند يتسألون : « لم لا يعود » ؟

وأتم هنون تجهزاته ، وفى ذات ليلة غير قمراء اجتاز خليج قرطاجة على على أطواف مع جنده وفيلته وداروا وراء جبل المياه الساخنة ليجتنبوا « أوتاريت » وبلغ تباطؤهم بالسير حدا عاقهم » عن التوصل إلى مفاجأة البربر صباحاً كما كان قدر هنون فلم يصلوا الا فى ضحى اليوم الثالث ، والشمس قدمدت أشعتها .وتتصل أوتاريث بجهه الشرق بسهل يمتد حتى مستنقع قرطاجة الكبير ، ووراء هذا السهل ينفرج بزواية مستقيمة واد بين جبلين منخفضين، وكان البربر قد ضربوا خيامهم بعيداً إلى جهة اليسار ليتمكنوا من قطع المدد عن الميناء ومن تطويقه ، وكانوا نياما لما بدا لهم جيش قرطاجة من منعرج التلال ، فعلى الجناحين وعلى مسافات متباعدة حملة المقاليع ، وحرس الكتيبة ، بشكات أسلحتهم المذهبة يؤلفون الصف الأول ، وتحتهم جياد بدون نواصى ولا وبر ولا آذان ، وبين أعينهم قرون من فضة ليصيروا بها أشباه وحوش الكركدن ، وبين فصائلهم فتيان تعلو رؤوسهم خوذات صغيرة ، وفى كل يد من أيديهم حربة من شجر الدردار ، ووراءهم حملة المزاريق الطوال من فرقة المشاة الثقيلة ، وهؤلاء التجار قد كدسوا فوق أجسامهم ما أمكنهم حمله من الأسلحة ، فكان الواحد منهم يرى حاملا بوقت معا رمحاً وفأسا وهراوة وحربتين والاخر جسمه كجسم القنفذ شاكى السهام فى كل موضع وقد تباعدت ذراعاه عن درعه المصنوع من نصال القرون أو من صفائح الحديد ، ووراء جميع هذا صقالات أدوات

الحصار العالية من المنجنيقات والأكباش وغيرها محمولة على مركبات نقل تجرها البغال وأربعة صفوف من الثيران . وكلما تقدم الجيش وتجمع اضطر الضباط إلى الجرى الى هنا وهناك وهم يلهثون لكى يبلغوا الاوامر وينظموا الصفوف ويحافظوا على الاتصال بين الوحدات ، وكان أعضاء مجلس القدماء المؤمرين على الجيش قد صحبوه وهم يلبسون خوذات من الارجوان كانت شراريب أذيالها تعلق فى سيور أحذيتهم النحاسية ، ووجوهم المصبغة بالزنجفر تلمع تحت تلك الخوذ الضخمة التى تعلوها رسوم الالهة ، وحواشى مجناتهم العاجية مغطاة بالحجارة الكريمة وكأنهم شموس تمر على جدران من نحاس أصفر .

وبلغ ثقل مناورات القرطاجيين وبطئهم فى التقدم مبلغاً حمل جند البربر على الاستهزاء بهم فأخذوا يدعونهم الى الجلوس ليستريحوا ويهددونهم بأنهم سيمزقون بعد قليل بطونهم ليفرغوا مافيها وأنهم سيغسلون غبار الذهب العالق بأجسامهم وسيسقونهم الرصاص المذاب .

وظهرت فى أعلى الصارى المنصوب أمام خيمة سبنديوس قطعة من القماش الأخضر ، تلك كانت إشارة بدء القتال ورد جيش القرطاجيين بقعقعة من أصوات الأبواق والصنوج والسناطير والشبابات المصنوعة من عظام الحمير . وقفز البربر خارج حواجز الأوتاد وأصبح الجيشان وجهاً لوجه وعلى مرمى الحراب .

وتقدم أحد رماة حجارة المقاليع من الباليار خطوة ووضع فى سير جلد مقلاعه قذيفة من الحجارة الخزفية وأدار ذراعه ورمى فسمع صوت كسر ترس من عاج ، والتحم الجيشان وأخذ جنود الاغريق ينخزون خياشيم الخيل بأسنة رماحهم فانقلبت وداست فرسانها ، وكانت الحجارة التى حملها العبيد معهم لرميها بالمقاليع كبيرة الحجم فكانت تتساقط قريبا منهم .

وأخذ مشاة قرطاجة يضربون بسيوفهم الطويلة جوانب جيش البربر

فانكشفت ميمنتهم ، واخترق البربر صفوفهم وأخذوا يذبحونهم بالمدى ويتعثرون بجثث القتلى والمنازعين ، والدم المتفجر منهم يملأ الوجوه ويعمي الأبصار ، وتلك الكتل المتراصة من المزاريق والخوذ والدروع والسيوف وأعضاء الجسم المبتورة كانت تدور على نفسها لترتمي على الحضيض . وبدأ الفراغ فى صفوف زمر القرطاجيين وأصبحت أدواتهم الثقيلة مغروزة فى الرمال لا يمكن تحريكها ، وسقطت المحفة التى كانت ترى منذ بدء المعركة تمايل بين الجنود كأنها زورق تحملة الأمواج ، وإذا بالبربر يجدون أنفسهم وحدهم .

وأخذ عثير المعركة ينجلي وأخذوا يغنون ، وإذا بهنون يبدو بنفسه معتلياً ظهر فيل من الفيلة ، حاسر الرأس تحت مظلة من الحرير الهندى يحملها زنجى يقف وراءه ، وقلادته ذات الصفائح الزرق تلاطم الأزهار المرسومة على ردائه ، وذراعاه النحيفتان تعض فيهما أساوره الماسية وكان فاغر الفم شاهراً مزراقا متناهى العرض والطول يلمع رأسه لمعان زهر السدر المتفتح ، فارتجت الأرض ورأى البربر فيلة قرطاجة مقبلة بصف واحد بأنيابهن المذهبة وآذانهن المصبغة بالأزرق وأغطيتهن المصنوعة من (القلز) وفوق ظهورهن تتهادى أبراج من الجلد حمر قرمزية فى كل منها ثلاثة نبالين يحملون أقواسا كبيرة موترة .

وفوجىء البربر وهم لا يكادون يحملون سلاحا وصفوفهم غير منتظمة ، وتملكهم الرعب فوقفوا حيارى مترددين .

وأخذ الرجال يرمونهم من أعلى الأبراج بالحراب والنبال وكتل الرصاص ، وحاول البعض أن يتسلقوا ظهور الفيلة متشبثين بأذيال سروجها ، فتقطعت أيديهم تقطيعا بالمدى الطويلة وانقلبوا على الحضيض وبأيديهم حرابهم المرفوعة ، وكانت الرماح الخسعة تتكسر والفيلة تخترق الكتائب كما تخترق الخنازير البرية خصل الأعشاب ، وتقتلع أوتاد المعسكر بخراطيمها ، وتتمشى فيه من أدنى إلى أقصى دافعة الخيام بصدورها .

وهرب البربر كلهم واختبأوا فى التلال المحاذية للوادى الذى سلكه القرطاجيون عند مجيئهم ، وتقدم هنون الظافر نحو أبواب أوتيك وأمر أن ينفخ في الأبواق ، فظهر قضاتها الثلاثة فى أعلى أحد الابراج فى اتجاه الخليج الذى تشرف عليه نوافذ الحصون .

وتمنع أهل أوتيك عن السماح بالدخول لضيوف شاكى سلاح ، فغضب هنون ، وقبلوا بعد لأى أن يدخل المدينة مع حرس صغير . وكانت الشوارع لا تتسع لمرور الفيلة فتركت خارجا .

وما إن استقرالزعيم القائد فى المدينةحتى أقبل أولو الأمر فيها لتحيته ، وطلب الذهاب إلى الحمام واستدعى طهاته اليه .

وظل ثلاث ساعات غائصا فى زيت الدارصينى الذى كان يملأ الحوض وكان يأكل فى الحوض على جلد بقر ممدود ألسنة طيور البحر مع حب الخشخاش المتبل بالعسل وإلى جانبه طبيبه الخاص بجلبابه الأصفر وهو يقوم بتسخين الحمام من وقت إلى وقت وأمامه غلامان منحنيان على درج الحمام يدلكان فخذيه ، وعنايته بجسده لم تحل بينه وبين الاهتمام بالشؤون العامة ، فقد كان يملىء كتابا للمجلس الأعلى وهو حائر متردد بأمر العقاب الشنيع الذى يجب أن يوقع بالأسرى فقال للعبد الذى كان يكتب على راحة كفه وهو واقف :

ـ تمهل « جيئونى ببعض هؤلاء الأسرى فانى أريد أن أراهم » .

وجروا الى القاعة المليئة بالبخار الأبيض بين المشاعل الباعثة بأنوارها الحمر ثلاثة من البرابرة : سمنيت ، وسبارطى وكابادوسى .

وقال هنون لعبده وكأنه لم ير الأسرى : « عد الى الكتابة » .

ـ « افرحوا يا أنوار البعول فان قائدكم قد قرض الكلاب الجائعة .

تباركت الجمهورية ،أقيموا الصلوات » . ولمح الاسرى فقهقه ضاحكا وقال : آه . آه ياشجعان سيكا ! ان أصواتكم اليوم لم تعد ترتفع بالصراخ مثل ما كانت ترتفع هناك !

ها أنا ذا ! فهل عرفتموني ؟ أين هي سيوفكم ؟ يا لكم من رجال مرعبين .

أجل . أجل ! وتظاهر باخفاء وجهه كما لو كان خائفا منهم .

« كنتم تطلبون خيولا ونساء وأرضا ووظائف قضاء ودرجات كهنوتية ! ولم لا ؟ سأعطيكم أرضا لن تخرجوا منها أبدا وسأزوجكم من مشانق جديدة ! وأما مرتباتكم فسأذيبها في أفواهكم سبائك من الرصاص وسأرفعكم الى منازل متسامية في العلو بين السحب لتقتربوا من النسور ! » .

وكان البرابرة الثلاثة ينظرون ولا يفهمون ما يقول وهم طوال الشعور تغطي أجسامهم الاطمار البالية ، لقد أصابتهم جراح في ركبهم فرموا عليهم حبائل اقتنصتهم فوضعوا بأيديهم سلاسل غليظة تجرر أطرافها على بلاط الحمام . واستشاط هنون غضبا لرباطة جأشهم فصاح بهم :

ـ اركعوا اركعوا ! يا بنات آوى يا تراب الأرض وروثها وقذارتها ! من المدهش أنهم لا ينبسون ببنت شفة ! كفى كفى . هيا اسلخوهم أحياء لا . سأرى الرأى فيهم بعد قليل !

وأخذ ينفخ كجاموس بحر وهو يقلب بعينيه ، والزيت المعطر يفيض من الحوض تحت كتلة جسمه الضخم فيلتصق ببثوره وقروحه ، وأنوار المشاعل تحيل لونه الى وردى . ثم أردف فقال :

ـ لقد كوتنا الشمس بأوارها طوال أربعة أيام وخسرنا أربعة بغال تاهت في ممر ماكار . آه يابادموندياس ! كم أنا أتعذب ! هيا فسخن الحمام حتى يحمر !

فسمعت اصوات الملاقط وهبوب نار الافران وتصاعد دخان البخور كثيفاً في المباخر . وأخذ المدلكون العراة والعرق يتصبب منهم يدهنون مفاصله بمرهم مركب من طحين القمح ومن الكبريت والنبيذ الأسود ولبن الكلبة والمر ومن الصمغ والبخور الجاورى . كل هذا والعطش قد أجهده فمنعه طبيبه ذو الجلباب الأصفر شرب الماء ومد اليه كوبا من الذهب يغلي به حساء أفعى وقال له :

« اشرب لكي تتغلغل قوة الحيات التي أولدتها الشمس في مخ عظامك ، وتشجع أيها النور المنعكس من الآلهة ! إنك لا تجهل بأن هناك كاهنا من كهنة اشمون يراقب الكواكب القاسية التي يتفرع منها داؤك . . إن هذه الكواكب تصفر إصفرار البقع التي على جلدك والتي يجب أن لا تميتك » .

ـ «أواه ! . . أجل يجب أن لا أموت منها .» وكان يتصاعد من شفتيه المزرقتين أنفاس رائحتها أنتن من روائح الجثث ، وعيناه شبيهتان بجمرتي نار تحترقان في محجريه وقد اختفى وزال شعر حاجبيه ، وتدلى من جبينه بقايا قشور جلد خشن ، واستطالت أذناه وابتعدتا عن رأسه ، والغضون العميقة تبدو حوالى منخاريه بشكل نصف دائرة فتجعل منظره غريباً مخيفاً كمنظر الحيوان النافر المكشر عن أنيابه . ثم تبدل صوته وأصبح أشبه بالزئير ، وعاد يخاطب طبيبه :

« أظن أنك على حق . أجل لقد التأمت بعض البثور وأنا أشعر بأني ما زلت قويا . أنظر كيف آكل بشهية ! »

وكان لحبه الظهور لا لنهمه ، يقبل على التهام المحشيات بأنواعها والسمك المجرد من الحسك والكوسى والمحار والبيض والفجل البرى والكمأة والعصافير المشوية ويتلذذ وهو يأكل بالنظر الى الأسرى وبالتفكير بأنواع العذاب التي سيذيقهم إياها . ثم يفكر بيوم سيكا فيصب ألم ما يقاسيه من أوجاع إهانات مرة يوجهها للأسرى الثلاثة فيقول :

« يا للخونة البؤساء المرذولين الملاعين ! تجرأون على اهانتي أنا الزعيم !

سيهلكون كلهم ولن استبقي أحداً منهم لا بيعه .. أحضروا لي في السلاسل أيديهم المقطوعة . . !

وسمعت صرخات غريبة حادة وبجاه بوقت معاً وصلت إلى القاعة وغطته على صوت حنون وقعقة الصحون وتبين السامعون بين تلك الأصوات عجيج الفيلة الهائجة كما لو كان القتال قد عاد فأشتعل ، وعلت الجلبة حول المدينة . ذلك أن القرطاجيين لم يجدوا في اللحاق بجيش البربر المهزوم بل جلسوا بجانب الاسوار ومعهم عبيدهم وأمتعتهم وعبيدهم فرحين بخيامهم ذات الجوانب المرصعة باللؤلؤ وأمامهم معسكر البربر المخرب . ولكن سبنديوس لم يفقد شجاعته بل عجل بارسال زركساس الى ماتو وأخذ يطوف في الوهاد والغابات فلم شمل جنوده ونظم صفوفهم . وعثر وهو يطوف على فرن للبترول كان القرطاجيون قد تركوه ، فاخرج الخنازير من الحظائر وصب عليها البترول بعد ان طلاها بالجمر واشعل فيها النار ووجهها الى اوتيك فأجفلت الفيلة لرؤية النيران وركنت إلى الفرار وسارت صعداً فرماها البربر بالحراب فعادت القهقرى ، واخذت تدوس القرطاجيين بأرجلها ، وتمزقهم بأنيابها ، ونزل البربر وراءها من رؤوس التلال واخذوا ينهبون معسكر القرطاجيين غير المحصن وارتد هؤلاء مقهورين مغلوبين نحو ابواب الاسوار فالتصقوا بها لأن اوتيك لم ترد ان تفتحها لهم خوفاً من البربر .

وطلع النهار واقبل مشاة ماتو من الشرق وظهر غير بعيد فرسان نارهافاس على راس النوميديين يقطعون الوهاد والادغال ضرباً في اقفية الهاربين كأنهم ارانب تتبعهم كلاب الصيد . واخذ هنون ينادي عبيده ليخرجوه من الحمام . وكان الاسرى الثلاثة لا يزالون ماثلين امامه فصاح بالزنجي الواقف إلى جانبه : « اقتل هؤلاء الاسرى » ، فاستل الزنجي خنجره وقطع رؤوس الثلاثة فقفز واحد منها ما بين فضلات الطعام وتدحرج في الحمام فاغر الفم جامد العينين . وبدا نور الصباح والدم ينزف من اجسام القتلى يتدفق كالينبوع على بلاط القاعة المرشوش برشاش ازرق . فغمس الزعيم كفيه بنقيع هذا الدم الحار ومسح به ركبتيه ، ليقينه ان ذلك دواء له .

. ولما أمسى المساء هرب من المدينة مع حرسه وتغلغل فى الجبل باحثا عن جيشه فتوصل إلى اللحاق ببقاياه .

وبعد أربعة أيام كان فى « عرزا » على قمة ثنية من ثنايا الجبل فرأى جند سبنديوس فى المضيق بحيث لو هاجمهم من مقدمتهم عشرون من حملة الرماح الأشداء لأسروهم ، فاكتفى القرطاجيون بأن ينظروا مبهوتين اليهم ، ورأى هنون نارهافاس فى مؤخرتهم وقد انحنى ليحييه وأشار اليه بأشارة لم يفهم مغزاها .

وعادوا إلى قرطاجة والرعب يملأ قلوبهم ، وكانوا يمشون فى الليل فقط ويختبؤن فى النهار بين غابات الزيتون ، ومات منهم الكثيرون وأوشكوا أن يهلكوا ، وأخيراً بلغوا رأس « هليوم » حيث التقطتهم مراكب حملتهم إلى قرطاجة .

وحل التعب واليأس بهنون وتقطعت نفسه حسرة وألما لفقد الفيلة ، فطلب من طبيبه أن يسقيه السم ، وعلى كل حال فقد كان موقناً من قرب صلبه .

ولكن الشجاعة أعوزت قرطاجة فلم تصب عليه جام غضبها ، وكانت الخسائر نحو اربع مئة ألف زنة من الفضة وخمسة عشر ألف زنة من الذهب وثمانية عشر فيلا وأربعة عشر عضواً من أعضاء المجلس الكبير وثلاث مئة رجلا من الاثرياء وثمانية آلاف من المواطنين عدا المقادير الكبيرة من القمح والأمتعة وآلات الحصار والقتال ، وأصبحت خيانة نارهافاس لقرطاجة ثابتة ، وهكذا فقد عاد الجيشان لضرب الحصار على المدينة وأصبح جيش أوثاريت يحتل ما بين تونس ورادبس .

وأبصر الناس من أعالى الأكروبول دخانا كثيفاً يتصاعد فى البرية نحو السماء ، كان ذلك دخان حريق قصور الأغنياء .

رجل واحد كان يمكنه أن ينقذ الجمهورية وهذا الرجل قد جهلوا قدره فحل بهم الآن الندم والأسف ، فأخذ حزب السلام وهو الذى أقصاه يطالب بجمع المال اللازم لرفع المحرقات للالهة ليعود إليهم هاميلكار .

وأما سلامبو فان رؤيتها حجاب الالهة ملأ نفسها اضطرابا فكانت تتوهم فى الليل أنها تسمع وقع خطى الالهة فتهب من نومها مذعورة معالية بالصراخ ، وكانت كل ليلة ترسل جاريتها لتوزيع الأطعمة فى المعابد حتى تعبت طناش من تنفيذ أوامرها . وكان شاهبريم لا يفارقها قيد أنملة .

---

(٧)
هاميلكار باركا

أطل ذات صباح الربىء الراصد للأقمار الذى كان يسهر كل ليلة فى أعالى معبد أشمون لكى يعلن بالنفخ فى بوقه عن تحركات الكوكب. فلمح من جهة الغرب شيئاً يشبه الطير يلمس بأجنحته الطويلة سطح البحر.

كانت تلك سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف على مقدمتها رسم جواد. وتعالت الشمس فى الأفق فوضع الديدبان مراقب الأقمار يديه أمام عينيه وقبض على بوقه بكلتا يديه وأرسل إلى قرطاجة صرخة نحاسية عظيمة.

فخرج الناس من دورهم وهم لا يصدقون ما يقال، وأخذوا يتزاحمون على رصيف الميناء الذى كان مغطى بأمواج الشعب، وبعد لأى عرفوا السفينة المثلثة سفينة هاميلكار.

كانت تتقدم إلى الأمام بتيه وتدلل وحبال صواريها مستقيمة والشراع ممدود منتفخ بأكمله وهى تشق عباب البحر حولها فيتدفق الزبد ومجاذيفها الضخمة تضرب الماء بانتظام، ومن وقت إلى وقت يبدو طرف حيزومها وكأنه طرف محراث. وتحت المهماز الذى تنتهى عنده مقدمتها يبدو الجواد ذو الرأس العاجى، المرفوعة قائمتاه إلى الأمام كأنه يجرى على سهول من البحار.

وعند بلوغها رأس البحر هدأت الريح فسقط الشراع فرأى الناس بقرب المرشد رجلا واقفاً عارى الرأس، كان هو الزعيم القائد هاميلكار، تشد حقويه نصال من حديد لامعة، وعلى كتفيه رداء أحمر تبدو ذراعاه من خلاله، ويتدلى من أذنيه لؤلؤتان مستطيلتان، وقد حنا على صدره لحيته السوداء المتعشكلة.

وأخذت السفينة تتهادى ما بين الصخور وتسير متئدة بمحاذاة الرصيف، والحشود الحاشدة تتبعها مشياً على بلاط الرصيف وهى تهتف.

— «سلام وبركات يا باصرة خامون! هيا أنقذنا! الذنب ذنب الأغنياء! إنهم يريدون موتك فحاذر لنفسك يا باركا.!»

فلم يجبهم على هتافهم كأن هدير البحار وضجيج المعارك قد ألحق به الصمم كل الصمم.

ولما بلغ السلم الذى يتدرك إبتداء من الأكروبول رفع رأسه وأخذ ينظر إلى معبد أشمون وذراعاه مصلبتان على صدره، ثم رفع عينيه إلى ما هو أعلى من ذلك، إلى السماء الواسعة الصافية، وأصدر بصوت خشن أمراً إلى بحارته فقفزت السفينة ولمست الصنم المرفوع على زاوية الرصيف ليهدىء بقوته الربانية الزوابع والعواصف، وفى الميناء التجارى المملوء بالاقذار وبقايا الأخشاب وقشور الثمار أخذت تسعى وتشق طريقها بين السفائن الأخرى المربوطة إلى أوتاد، والتى تشبه مؤخرتها أشداق التماسيح، كل هذا والشعب يجرى بل أن بعض أفراده ألقوا بأنفسهم إلى البحر يتبعونها عائمين. ولكنها كانت قد بلغت بعيداً الباب الملبس بالمسامير. وفتح الباب واختفت السفينة المثلثة تحت القبة العميقة.

والميناء الحربية كانت منفصلة تمام الانفصال عن المدينة. فاذا قدم إليها سفراء أضطروا إلى المرور بين سورين فى مضيق يفضى إلى اليسار وينتهى أمام معبد خامون، وهذا المكان الكبير العميق بالماء المستدير كالكوكب تحف به أرصفة بنى عليها مآوى للسفن، وأمام كل مأوى منها ارتفع عمودان متوجان بقرون الاله آمون وهذه الأعمدة المتتابعة كان يتكون منها رواق يحيط بحوض الماء، وفى الوسط وعلى جزيرة يقوم منزل لزعيم البحر.

وكان الماء بالغاً من الصفاء حدا يمكن معه أن ترى الحصى فى قاع البحر، ولم تكن ضوضاء الشوارع لتصل إلى ذلك المكان.

وتعرف هاميلكار عند مروره على تلك السفن التى كان قد تولى قيادتها

فى زمن غابر ، لم يبق منها إلا حوالى العشرين مبعثرة فى الماء قابعة أو على الارض مائلة إلى الجانب أو قابعة على المؤخرة ، مرتفعة المقدمة ، مذهبة مغطاة بالرموز السرية . لقد فقدت جميع أجنحتها التى كانت لاصقة بوحوش وهمية رمزية لها مقدم الاسد ومؤخر التنين ، وبترت أذرع الاله « باتوك» وخلت الثيران من قرونها الفضية ، وامحى نصف طلائها ، وأصبحت جامده متآكلة تنخرها الأرض والسوس . ولكنها لا تزال مع ذلك مليئة بحوادث التاريخ تتصاعد منها روائح الاسفار ، وكأنها إذ رأته تناديه كما ينادى الجنود المشوهون قائدهم اذا عاد : « ها نحن أولاء ! ها نحن ! وأنت أيضاً أيها السيد قد غلبت » .

ولم يكن من الجائز لأحد من النـاس أن يلج مسكن زعيم البحار الا الزعيم وحـده ، وكانوا يظلون يعدون زعيم البحر حياً حتى يقوم الدليـل على موته لان الاغنياء كانوا بهذا يجتنبون تعيين سيد جديد ، ولم يشذوا عن هذه القاعدة في ما خص هاميلكار .

وأخـذ يتفقد مخادع منزله المقفرة : فعاد يتذكر الاشياء التى تركها ، كلما خطا خطوة ، هذه الاسلحة وهذا الأثاث كلها أشياء قد ألفها ولكنها مع ذلك تبدو له غريبة ، كل شيء فى محله حتى رماد الطيب ، الذى كان أحرقه استرضاء للآلهة قبل سفره ، لا يزال فى مبخرة عند المدخل ، لم يكن يرجو أن يعود الى وطنه كمثل هـذه العودة ! وكل ما قام به من الأعمال فى ماضيـه وكل ما رآه كان يمر أمامه مطبوعاً فى ذاكرته : الهجمات على الأعداء والحرائق والكتائب والعواصف والمعارك : دريبانوم ، سيراكوز ، ليبيا وجبل اتنا ، ونجود ايريكس . خمس سنوات كلها معارك وقتـال ونضال ، حتى ذلك اليوم المشؤوم الذى ضاعت فيـه صقلية ! تذكر غابات الليمون والرعاة والماعز على جبال غبراء ، فقفز قلبه فى صـدره اذ تخيل قرطاجة ثانية تنشأ فى تلك الربوع . . وأخذ صدى مشاريعه وذكرياته يتجاوب فى رأسه الذى كان لا يزال يشكو دوخة اهتزاز السفينة ، وانقبض صدره واشتد انقباضه وأخذه الضعف فجأة فأحس بالحاجة الى التقرب زلفى من الالهة .

فصعد الى آخر طابق من منزله وفتح باب حجرة صغيرة بمفتاح يحمله في صدفة من ذهب معلقة في ذراعه ، وفى قلب الحائط حلقات سود شفافة كالزجاج كانت تبعث فى الحجرة ضياءاً ضئيلا . وبين صفوف تلك الاسطوانات المتساوية ثقوب شبيهة بالثقوب التى تحفر فى صخور المقابر . وفى كل منها حجر مستدير قاتم ثقيل الوزن . وكان الرجال أصحاب العقول النيرة هم وحدهم يكرمون هذه النيازك الصغيرة المتساقطة من القمر ، فسقوطها يعنى الكواكب والدماء والنار ، ولونها الليل المظلم وثقلها تماسك الاشياء الارضية .

وكان جو هذا المكان السرى خانقاً ورمال البحر التى قذفتها الريح من خصاص الباب تبيض قليلا تلك الحجارة المرصوصة فى الحفر . فأخذ هاميلكار يعد تلك الحجارة ثم غطى رأسه بحجاب بلون الزعفران وجثا على ركبتيه ثم تمدد على الارض وذراعاه مبسوطتان ، وكان الضياء الخارجي يرتمى على صفائح الخشب الاسود ، المرسومة عليه أنواع الأشجار والآكام والأعاصير والحيوانات بأشكال شفافة ، وانبلاج النـور مهدداً وحاملا للسلام بوقت معاً كما يجب أن يكون هذا النور وراء الشمس فى الفضـاء القاتم للأجيال المقبلة . وكان يجتهد أن يبعد من فكره جميع الأشـكال والرموز وأسماء الآلهة كى يتمكن من إدراك الروح الثابت غير المتبدل الذى تحجبه المظاهر الخارجية ، ويتغلغل فى نفسه شيء من حيوية الكواكب ويحس بازدراء داخلي للموت وعدم مبالاة به ، حتى اذا فرغ من صلاته أصبح مليئاً اقداماً وصفاء ذهن ، لا تؤثر به الرحمة ولا الخوف ، وعاوده ضيق الصدر فصعد الى البرج الذى يشرف على قرطاجة .

والمدينة تنحدر انحداراثم تكون أخدوداً بشكل خط مقوس بما فيها من قباب ومعابد وسطوح مذهبة ومنازل وغدائر من نخل وكرات من زجاج تبعث الأنوار ، والحصون تبدو كحواشى ضخمة لجسم هذا الرخاء الذى كان ينعطف نحوه ، وكان يلمح تحته الموانى والميادين وداخل الأحواش ورسوم الشوارع ويرى الرجال أقزاما تـكاد أجسامهم تلمس البلاط . أواه ! لو لم يصل هنون متأخراً يوم معركة جزيره آجات ! وغاصت عيناه فى أبعد مكان من الأفق ومد نحو روما ذراعيه المرتجفتين .

والجماهير تحتل درجات سلم الاكروبول ، وفى ميدان خامون يتدافع الناس ليروا الزعيم خارجاً . وامتلأت الأسطح شيئاً فشيئاً ، وعرفه بعضهم فأخذوا يحيونه فانسحب ليهيج فيهم الجزع والشوق اليه .

ووجد هاميلكار فى أسفل البرج أبرز رجال حزبه ، فأطلعوه على ماحدث منذ توقيع معاهدة الصلح ، وشكوا الية بخل القدماء وخروج الجنود من قرطاجة وعودتهم اليها وتعنتهم فى طلباتهم وأسرهم لجيسكون وسرقة حجاب الالهة ونجدة أوتيك ثم خذلانها ، ولكنهم حرصوا على ألا يذكروا له شيئاً مما كان خاصاً به من الحوادث ، وافترقوا على أن يعودوا فيلتقوا فى مجلس القدماء في معبد مولوخ .

ولم يكادوا يخرجون حتى علت ضجة فى الخارج عند الباب ، ذلك أن أحد الناس كان يود الدخول عليه رغم حجابه فأمر هاميلكار بادخاله .

فدخلت زنجيةهرمة مقطعةالأوصال مليئة بالغضون مرتعشة اليدين تبدو عليها الغفلة مغطاة بحجاب ضاف من رأسها حتى أخمص قدميها . فتبين الواحد منهما وجه الاخر هنيهة وإذا بهاميلكار ينتفض ويصرف عبيده باشارة منه، ثم أومأ إلى تلك الزنجية بأن تمشى بحذر وأخذها من ذراعها فأدخلها فى غرفة قاصية نائية ، فارتمت الزنجية على رجليه تقبلهما ولكنه أنهضها بقسوة وهو يقول :

— « أين تركته يا أيدى بعال » ؟

— « هناك يا مولاى » وخلعت عنها حجبها ومسحت وجهها بكم قيمصها واذا باللون الأسود وبالقامة المحدودبة وبالرعشة قد زالت ، وبدا المتحدث شيخ قوى البدن صبغ جسده بالرمل والريح والبحر ، ترتفع من رأسه خصلة من الشعر الأبيض كأنها قنبرة طائر، ثم أشار بيده إشارة الساخر إلى الثياب الملقاة على الأرض التى كان متنكراً بها .

— « حسنا فعلت يا ايد يبعال » ثم ألقى عليه نظراً حاداً يخترق الصدور

وقال : « لا يداخل أحداً شك بوجوده ، أليس ذلك كذلك ؟ » .

فاقسم له بالالهة الكبار أن السر مكتوم جد الكتمان ، فهما لا يغادران الكوخ الواقع على مسيرة ثلاثة أيام من هادريمت ذلك الشاطىء الذى لا يألقه إلا الضفادع ولا ينبت على كثبان رماله إلا شجر النخل ، وزاد فقال: « وإنا أمرنه عملا باوامرك على رمى الحراب وسوق المركبات » .

— « هو قوى . أليس ذلك كذلك ؟ »

— « أجل يا مولاى وهو أيضا مقدام شجاع ، لا يخاف الحيات ولا الرعود ولا الأشباح وهو يجرى كالرعاة حافي القدمين وعلى حوافى الوهاد .

— هيه ، هيه يا ايدى بعال !

— وهو يخترع الفخاخ للحيوانات المتوحشة ، وفى الشهر القمرى المنصرم باغت نسرا فامسك به وأخذ يجره فامتزجت دماؤهما السائلة من جراحيهما ، كورود حمر يحملها الهواء ، فكان النسر الهائج يطبق عليه باجنحته وهو يضم النسر بين ذراعيه وصدره ، حتى إذا دخل فى النزع أخذ يضحك ضحكات كأنها صليل سيوف تتلاحم .

وحنا هاميلكار رأسه وهو يفكر بطوالع العظمة ودلائل القوة .

وأردف ايدى بعال فقال : « ولكنه منذ عهد قريب تبدو عليه دلائل القلق ، ينظر من بعيد إلى شراع السفن فتأخذه الكآبة ويأبى الخبز . هو يديم الاستعلام عن ماهية الالهة ويريد أن يرى قرطاجة .

فصاح القائد : « لا لا لما يحن بعد الوقت » .

وأحس الشيخ بالخطر الذى يخشاه القائد فقال :

— كيف السبيل إلى حجزه ؟ لقد أصبحت مضطرا إلى أن أمنيه بالوعود ولم أجىء إلى قرطاجة إلا لأبتاع له خنجرا بمقبض من فضة محلى بالجواهر

ثم أخذ الشيخ يعلل حضوره لمقابلة القائد : لقد رآه على السطح فأدعى أمام الحرس بأنه جارية من جوارى سلامبو ليتمكن من المثول بين يديه .

فأخذ هاميلكار يفكر وكأنه لا يدرى بما يشير به ، ثم قال :

— انتظرنى غدا فى ميجارا عند غروب الشمس وراء معامل الارجوان وتكلف عواء بن آوى ثلاث مرات ، فاذا لم ترنى تعود إلى قرطاجة فى غرة كل شهر قمرى ، فلا تنس شيئاً مما أقول وأبذل له كل حب! والان يمكنك أن تحدثه عن هاميلكار .

وعاد العبد فتنكر بثيابه ، وخرجا معا من المنزل ومن الميناء .

وتابع هاميلكار سيره وحيدا بلا حرس ، لأن اجتماعات مجلس القدماء سرية ينسل اليها الأعضاء فى الاوقات الحرجة متسترين . فمر فى طريقه إلى المعبد أمام واجهة الاكروبول ثم بسوق الأعشاب فأروقة « كنيسدو » فسوق العطارين . وبدأت الانوار تنطفىء والشوارع العريضة يسودها الصمت ، وأشباح الرجال تنسل فى الظلام أمامه أو وراءه باتجاه « مابال » .

ومعبد « مولوخ » يرتفع فى مضيق قاتم هاو المنحدر ، إذا نظر اليه من اسفل لا يبدو منه إلا جدران عالية كأنها جنبات قبور موحشة مخيفة . والليل حالك السواد ، والضباب ينوء بثقله على كاهل البحر الملاطم للشاطىء الصخرى بهدير كحشرجات النزع أو زفرات العويل ، والأشباح تختفى فجأة شيئاً فشيئاً كأنها تخترق الجدران نافذة منها .

فاذا تخطى القادم باب المعبد نفذ منه إلى دار مربعة الزوايا تتابع على جنباتها أقواس القناطر ، وفى وسط هذه الدار كتلة بناء ذات ثمانية جدران متساوية ، فوقها قباب متجمعة حول طابق ثان تعلوه مصطبة بدا فيها نصب من الحجر بشكل كرز من الصنوبر أعقف فى رأسه كرة .

وكانت النار موقدة فى آنية اسطوانية الشكل مصنوعة من أسلاك ، ولها مقابض من خشب يمسك بها رجال يحملونها ، ولهبات النار تلعب بها الرياح

فتنعكس حمرتها على أمشاط ذهبية مغروزة بشعور مجدولة متدلاة على نقر أعناق ، وحملة المشاعل يهرولون ويتنادون لاستقبال القدماء ، وعلى البلاط هنا وهناك أسود رابضة كأبى الهول ، هى رموز حية للشمس المفترسة . وكان النعاس يراود أجفان الخدم فتطبق أجفانهم بعض الاطباق حينا ثم تنفتح على وقع أقدام القادمين وتجاوب أصواتهم ، فيقفون متثاقلين ليستقبلوا القدماء ذوى الأثواب المميزة لهم ، ويتجهون نحوهم وهم يتمطون ويتثاءبون فيمر بخار أنفاسهم ظاهرا فوق ضياء مشاعلهم .

وترتفع الضوضاء وتزداد الحركة فتقفل الابواب وينسحب الكهنة مسرعين ، ويختفى القدماء في ظلال تلك الاعمدة التي يمتد تحتها وحول المعبد رواق مستطيل .

وقد نظمت هذه الاعمدة وصفت بشكل دائرى بحيث يمكن الاهتداء بها إلى حسبان دوران كوكب زحل على مدى السنين والسنيين والشهور والايام ، وهى تمتد متلامسة عند نهاية الصف بسور المعبد حيث يترك القدماء الداخلون عصيهم المصنوعة من قرون وحيد القرن البحرى ، لان القانون يفرض عليهم أن يشهدوا هذه الاجتماعات وهم عزل من كل سلاح .

وكثير منهم كانوا يلبسون أثوابا بدت فيها خروق أحيطت أطرافها بحواشى من الارجوان وذلك ليثبتوا للملأ أنهم قد شقوا ثيابهم حزنا ولهفة على قريب لهم قد مات ، وآخرون غلفوا لحاهم بأكياس صغيرة من جلد بنفسجى مشدودة الى آذانهم بخيوط .

وتبادلوا التحيات وتعانقوا وأحاطوا بهاميلكار وهنأوه بعودته ، وكأنهم أخوة يلقون أخا لهم .

وأكثر ما يكون القرطاجى ربعة القامة اقنى الانف كأصنام الاشوريين ، ومع ذلك فمنهم من هو بارز عظم الخد طويل القامة ضيق القدم مما ينم عن أصل إفريقى وعن اجداد من البدو الرحل ، والذين يديمون المكث جلوسا

فى محـلات تجـارتهم صفر الوجوه ، واما الاخرون فخشونة القفر بادية على وجوههم ، وهم يحملون فى جميع أصابعهم التى لوحتها شموس البـلاد المجهولة جواهر عجيبة متلالئة لمـاعة . ومن السهل الاهتداء إلى مختلف المهن والأعمال التى يزاولونها : فالملاحون يتهادون فى مشيتهم ، وقراصنة البحر يكلفون غيرهم بحرث الأرض ، والمختزنون للذهب والفضـة يجهزون السفن ، وأصحـاب المزارع يمنون بلقمة العيش على عبيد يحترفون صنـائع يدوية ، وكلهم ملم بالطقوس الدينية ، مدرب على فنون القتال غنى مثر لا رحمة له ولا شفقة .

وكانت آثار الغم والـكآبة بادية على وجوههم المتعبة ، وعيونهم المحمرة كالجمر تنظر بحذر ومكر ، وكثرة الأسفار ومزاولة الاتجار واعتيادهم على الـكذب والامرة خلع عليهم مظاهر الخب والخديعة والعنف والقسوة وأثر آلهتهم وتأثيرهم زاد نفوسهم غما ووجوهم قتاما .

ولجوا بادىء ذى بدء قاعة ذات قبة بيضوية لهـا سبعة أبواب تمثـــل الكواكب السيارة السبعة ، فى وسط جدرانها رسمت سبعة مربعـات بألوان مختلفة ، ونفذوا منها إلى حجرة أفضت بهم إلى قاعة ثانية تشبه الأولى .

وفى هذه القاعة شمعدان كسته رسوم أزهار متنوعة له ثمانيــة أعواد من ذهب تعلو كلا منها كأس من الماس فيها ذبالة من خيوط الحرير ، والشمعدان مثبت على آخر درجة من تلك الدرجات الطويلة الموصلة إلى مذبح كبير بدت فى آخر زواياه قرون من النحاس . وهناك سلمان متقابلان يفضيـان إلى مصطبة مستطيلة تكاد حجارتها تختنق تحت الرماد المتراكم المتجمع ، وفى أعلى المصطبة شىء مبهم يخرج الدخان قليلا فقليلا ، وفى موضع بعيد من الشمعدان وأعلى من المذبح يربض الصنم « مولوخ » وكله من الحديد وصـدره صدر رجل وفيه فتحـات وأجنحته مبسوطة تمتد على الحـائط ويداه مفتوحتان تتدليان حتى الأرض ، وعلى جبينه ثلاثة حجارة سود ، يرقشها من وسطها خط دائرى أصفر ، كأنهـا ثلاث ثمرات من الخوخ ، والصنم يرفع رأســه بجهد إلى ما فوق لـكى يتمكن من إرسال خوار كخوار الثور .

وعلى جنبات القاعة صفت مواطىء من العاج وراء كل منهما عمود صغير من العاج فى أعلاه مخالب تحمل مصباحا يبسط نوره على الطنافس فتبدو كأن فيها رقعاً من العاج . وسقف القاعة متناه فى علوه حتى أن لون الجدران الأحمر يستحيل إلى أسود عند اتصاله بالسقف ، وعيون الصنم الثلاث تبدو من علوها نجوما تكاد تضل طريقها فى ذلك الليل .

وجلس القدماء على مواطىء الأبنوس وغطوا رؤوسهم بذيول أثوابهم ، جامدين لا حراك بهم ، وأيديهم مصلبة وأطرافها فى أكمامهم الواسعة ، وتحت أقدامهم البلاط العاجى كأنه نهر من نور يجرى فى الهيكل نحو الباب .

وجلس الأحبار الأربعة فى الوسط ، ظهرا الظهر ، على أربعة مقاعد عاجية بشكل صليب ، يلبس حبر « أشمون » الأعظم حلة مرصعة بالياقوت الزعفرانى ، وحبر تانيت ثوبا من الكتان الابيض ، وحبر « خامون » حلة من الصوف الفاقع اللون وحبر « مولوخ » حلة أرجوانية .

وتقدم هاميلكار نحو الشمعدان ودار حوله وتأمل فى الذبالات التى تشتعل ورمى عليها مسحوقا من الطيب ، فتصاعد فوقها لهب بنفسجي اللون وعند ذاك ارتفع صوت حاد تلاه آخر ، ووقف المئة القدماء والاربعة الأحبار وهاميلكار معهم ، وأخذوا يرتلون سبحا مرددين ذات الكلمات معالين بالنبرات رافعين أصواتهم حتى غدت صياحا وهديراً ثم سكتوا على حين فجأة .

وتريثوا زمنا قصيرا . ثم أخرج هاميلكار من صدره تمثالا صغيراً أزرق كاللازورد ، له ثلاثة رؤوس فوضعه أمامه ، كانت تلك صورة الحقيقة وملهمة كلمة الحق ثم أعاده الى صدره ، وإذا بهم يصيحون وكأنما أخذتهم فجأة ثورة الغضب .

ـ « هؤلاء هم أصدقاؤك البربر ! أيها الخائن المرذول ! إنك تعود لتشهد

: هلا كنا ليس هذا صحيحا ؟ اتركوه يتكلم .. لا . لا ... »

كانت الطقوس ومراسيم الاحتفال قد أرغمتهم على ضبط نفوسهم منذ هنيهة فانفجروا الآن .

كلهم كان يتمنى أن يعود هاميلكار ولكنهم كانوا حانقين عليه لأنه لم يجنبهم ذل الانكسار أو بالاحرى لأنه لم يذقه معهم .

ولما سكنت الضوضاء سأله كبير أخبار مولوخ : «لم لم تعد الى قرطاجة؟»

فرد عليه مليكار بأنفة : « وما يهمك ذلك ؟ »

فزاد ضجيجهم فقال لهم :

– بم تتهمونني ؟ هل تظنون أني لم أحسن تسيير الحرب ؟ لقد اطلعتم على خطط معاركى أنتم الذين تركتم البربر . .

– « كفى ! كفى » .

– « آه ! هذا صحيح ! إني أخطأت يا أنوار البعول ! إن بينكم لشجعانا ! أين أنت يا جيسكون ؟ قف وأخذ يطوف بدرج السلم كمن يبحث عن شخص ، ثم استأنف كلامه : « قف يا جيسكون ! إن بامكانك أن توجه إلى تهما فيساعدوك ! ولكن أين هو جيسكون ! لا شك أنه فى منزله محوط بأبنائه مؤمر على عبيده فخور سعيد بتعداد قلائد الشرف التى قلده الوطن إياها والتى علقها على جدار مخدعه .

وهم ينتفضون ويهزون بأكتافهم كأنهم يجلدون بالسياط .

آه : « إنكم لا تعرفون اذا كان حيا أو ميتاً » ولم يأبه لصياحهم بل أكد لهم أنهم بخذلانهم لجيسكون قد خذلوا الجمهورية نفسها . وأن الصلح مع روما ، وان بدا لهم موافقا ، هو أشأم من عشرين معركة فصفق له ألمهم غنى، أؤلئك الذين كانو امتهمين بالميل الى الشعب أو بتأييد الاستبداد

وأما خصومهم رؤساء السيسيت ورجال الادارة ، فقد كانت الغلبة لهم لكثرة عددهم . وأكثرهم نفوذا قد تجمعوا حول هنون الجالس فى الجهة الأخرى من القاعة ، وقد طلى بالمساحيق بثور وجهه ، ولكن مسحوق الذهب المرشوش به شعره . تساقط على كتفيه ، وكان يلف يديه بقطع من النسيج المبلل بعطر قوى تتساقط قطراته على البلاط ، ويبدو أن مرضه قد ازداد خطورة لأن عينيه كانتا تختفيان تحت طيات جفونه ، فهو لا يستطيع النظر إلا اذا قلب رأسه الى الوراء .

ودعاه أتباعه الى الكلام فقال بصوت أجش مزعج :

ـ أقل من قحتك يا باركا ! لقد عابنا كلنا ! فليحمل كل مصابه . فاستسلم لحكم المقادير .

ـ لا بل قل لنا كيف قدت انت سفنك الى وسط سفائن الرومان ؟

ـ «لقد دفعتنى الرياح» .

ـ « انك فعلت ما يفعل الكركدن الذى يتمرغ فى حمأة بعره . انك تذيع على الملأ آثار غباوتك . فاسكت » .

وأخذا يتراميان بالتهم بخصوص معركة جزر آجات ، فاتهمه هنون بالقعود عن القدوم لمقابلته .

ورد عليه هامليكار :

« لو فعلت ذلك لانكشفت اريكس ، وقد كان عليك أنت أن تأخذ عرض البحر فما الذى منعك . آه لقد نسيت . أجل نسيت أن جميع الفيلة تخاف البحر .

وأعجب أنصار هاميلكار بهذا التعريض اللاذع فاستسلموا للضحك حتى علت صيحاتهم الى قبة القاعة كأنها أصوات صنوج .

فشكا هنون الى الجمع ما يتلك الاهانة من تنكب لسبيل اللياقة والانسانية فانه انما أصيب بدائه داء الفيل يوم كان يضرب الحصار على هيكاتومبيل فاضر به البرد ، وأخذ يبكى حتى سالت دموعه على خديه كما يسيل مطر الشتاء على جدار متهدم .

وقال هاميلكار :

ـ « لو أحببتمونى حبكم هذا الرجل لكان الفرح اليوم شاملا قرطاجة، فكم من مرة مددت يدى نحوكم فرفضتم عطائى المال » .

فاجاب رؤساء السيسيت : « كنا بحاجة اليه » .

ـ « ونحن يوم بلغ الياس باحده ، شربنا بول البغال وأكلنا سيور النعال ، وفى اليوم الذى أردت فيه أن تستحيل سوق الأعشاب الى جنود ، وأن أؤلف الكتائب من رميم عظام أمواتنا ، استدعيتم أنتم الى قرطاجة ما كان قد بقى لى من المراكب .

فاجابه بقبعل ، وهو أجد ملاك مناجم الذهب فى جيتوليا :

ـ « لم يكن بوسعنا أن نخاطر بكل شىء » .

ـ « وما كنتم تصنعون أنتم هنا فى قرطاجة ، فى منازلكم ووراء جدرانها ، كان بامكانكم أن تسلحوا الجوليين فى « اريدان » والكنعانيين فى القيروان ، وبينما كان الرومان يرسلون السفراء لمفاوضة بطايموس » ..

فقاطعوه صائحين .

ـ « لقد أصبح الآن يشيد بالرومان ! وصاح أحدهم : « كم دفعوا لك لتدافع عنهم ؟

ـ « سلوا عن ذلك سهول « بروتيوم » وخرائب « لوكرس » و « ميتابونت » و « هرقلية » . لقد أحرقت جميع أشجارهم ونهبت جميع

معابدهم ، وحتى اليوم الذى يموت فيه أحفاد أحفادهم . .

ـ فقاطعه كاسبوراس التاجر المعروف قائلا : « إنك تمثل كمدرس لعلم الخطابة ، فما الذى تريده الان ؟ .

ـ « أريد أن نكون أكثر دهاء او اشد هولا ، وإذا كانت افريقيا باجمعها ستطرح يوما نيركم عنهـا فلأنكم ايها الاسياد الضعفاء لا تعرفون أن تشدوا هذا النير إلى أعناقها وليس على «أجاتوكليس» و «ريجوليس» و « كوبيو » وجميع ذوى الجرأة والاقدام إلا أن يطأوا الشاطىء فينتزعوها من أيديكم . وفى اليوم الذى يتفق فيه الواقفون فى الشرق مع النوميديين النازلين فى الغرب . ويقبل البـدو الرحل من الجنوب والرومان من الشمال» . وسمعت صيحات استنكار ورعب . فى ذلك اليوم ستتمرغون على العفراء وتمزقون أرديتكم ، ولا يهمكم هذا . ستذهبون فتديرون أرحاء المعاصر فى « سوبور » وتقطفون الـكروم لأسـيادكم على تلال « لا تيوم » .

فأخذوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم اليمنى إظهارا لاستنكارهم فضيحة ذلك الخطاب ، وأخذت أكمام أثوابهم ترتفع كأنها أجنحة طيور مذعورة . وأخذ الحماس من هاميلـكار مأخذه فظل واقفاً على أعلى درجات الهيكل ، منتفضا هائلا ، وكان يرفع ذراعيه فتمر بين أصابعه أشعة المصابيـح المشتعلة وراءه كحراب من ذهب .

ـ « ستفقدون سفنكم ومراكب القتال التى لكم ، وأسرتـكم المعلقه وعبيدكم الذين يدلكون أرجلكم ! وستأوى بنات أوى إلى قصوركم ، وستحرث المحاريث قبوركم ، فلا يبقى الا صراخ النسور وتراكم الخراب . ستسقطين يا قرطاجة » .

فمد الاحبار الأربعة أيديهم ليجنبوا اللعنـة وهب الجميع وقوفاً ، ولـكن الزعيم القائد كان قاضيا من رجال الـكهنوت ، وتحت حمـاية الشمس فهو

محصن لا يجوز أن يمس حتى تحاكمه جمعية الأغنياء ، وخيم الرعب على الهيكل فتراجعوا جميعاً .

ولم يعد هاميلكار يتكلم بل وقف جامد الحدقتين ووجهه مصفر كاصفرار لالىء تاجه ، يلهث وكأنه خائف من نفسه ، وذهنه مشرد فى رؤى محزنة ، وبدت أمامه من علو الموقف الذى كان فيه ، جميع تلك المصابيح المرفوعة على أعواد من القلز ، كأنها تيجان من نار موضوعة على البلاط ، وكان الدخان الأسود يرتفع منها فيلمس ظلمات القبة ، وأطبق الصمت هنيهة ، عميقا شاملا ، حتى كانوا يسمعون من بعيد هدير البحر .

وأخذ القدماء يستشيرون أنفسهم : إن مصلحتهم ووجودهم يقتضيان سحق البربر ، ولا يمكن التغلب عليهم إلا بمعونة القائد . فأتساهم هذا الاعتبار رغم كبريائهم كل اعتبار سواه . فانتحوا ناحية بأصدقائه وأخذوا يتساومون على المصالحة ووقعت تلميحات وجرت وعود :

ورفض هاميلكار الاشتراك بأية حكومة ، فاستحلفوه ورجوه ملتمسين ، ولكن كلمة الخيانة كانت تتردد على ألسنتهم ، فاستشاط غضبا وذهب إلى أن الخائن الأوحد هو المجلس الكبير لأن البربر إنما تطوعوا لمدة الحرب فقط ، وعلى ذلك فقد أصبحوا أحراراً بانتهاء الحرب ، وزاد فأثنى على بسالتهم وأشار إلى الفوائد التى قد تجنيها قرطاجنة منهم باصطفائها أياهم واكتساب تعلقهم بها ، وذلك بمنحهم بعض الهبات والامتيازات .

فرد عليه «مجداسان» وهو حاكم سابق لاقليم من الأقاليم فقال ، وهو يقلب عينيه الصفراوين .

– « صحيح يا باركا . إنك لكثرة ما سافرت أصبحت اغريقيا أو لا تينيا بل لا أدرى ماذا ! كيف تجرأن تطلب مكافآت لهؤلاء الرجال ؟ ليهلك عشرة آلاف من البربر ولا يهلك واحد منا » .

— وأمن القدماء على كلامه بحنى رؤوسهم وهم يتمتمون : « أجـل ، ما الداعي للاهتمام بهم ؟ من السهل أن نجد غيرهم » .

— « هذا رأيكم ، يجدر بنا أن نتخلص منهم ، أجل ستتخلون عنهم كما فعلتم فى سردينيا فدللتم العـدو على الطريق الذى سيسلـكونه ، وكما فعلتم بأولئك الجوليين فى صقلية إذ أنزلتموهم من المراكب فى وسط البحر ! أجل لقد رأيت طريق عودتى عظامهم على الصخرة وهى لا تزال بيضاء .

— فقال كابوراس بقحة واستهزاء : يا للمصيبة ! » .

— « وقال الآخرون : « ألم ينقلبوا علينا مئـــات المرات فيلتحقوا بالعـدو ؟ » .

— فصاح هامليـكار : « ولم دعوتموهم الى قرطاجـة رغم قوانينكم ؟ حتى إذا حـلوا فيها جما غفـيرا من الفقراء فى وسط ثرواتـكم الضخمة ، لم تعملوا على إضعافهم بالتفريق بينهم ! لم أخرجتموهم بعد ذلك من المدينة مع نسائهم وأطفالهم دون أن تتركوا رهائن منهم فى أيديكم ، أدار فى خلدكم أنهم سيتفانون ليوفروا عليكم ألم الوفاء بعهودكم ؟ إنـكم تبغضونهم لأنهم أقوياء ! وتبغضوننى أنا بغضا أشـد ، لأنى سيدهم المؤمر عليهم . أجل ، لقد أحسست ذلك منذ هنيهة ساعة كنتم تقبلون يدى ، وأنتم تمسكون أنفسكم كى لا تعضوها ! »

فلو أن الأسود التى كانت رابضة فى الحوش دخلت القاعة مصعدة فى زئيرها لما كانت أحدثت صراخا وضجيجا أشد من صراخهم المخيف . ولكن حبر أشمون هب واقفا ، وضم ركبتيه الواحدة إلى الاخرى ، واسـند مرفقيه إلى جسمه وفتح كفيه نصف فتحة وقال :

— « يا باركا إن قرطاجة لفى حاجة لأن تأخذ بيديك قيادة جنـدها لمحاربة المرتزقة » .
— « اننى أرفض ذلك » .

— فصاح رؤساء السيسيت : « اننا نفوض اليك الامر تفويضا تاما . ونخولك السلطة المطلقة ! » .

— « لا » .

— « بدون رقابة ولا مشاركة . لك كل المال الذى تريده وجميع الاسرى وجميع الأسلاب وخمسين مقاس «زيرتس» من الارض عن كل جثة من جثث الاعداء .

— « لا . لا . لانه من المحال احراز النصر معكم » .

— « إنه خائف ! » .

— « انكم أنذال ، بخلاء جاحدو الجميل ، ضعاف ومجانين ! » .

فقال قائل : « انه يمالئهم . وقال الثانى « وانه ينوى تولى قيادتهم » ، وقال آخر . ليكر بهم علينا » ، وصاح هنون من أقصى القاعة : « يريد أن يصبح ملكا » .

وعند ذاك انتفضوا وقلبوا المقاعد والمشاعل ، وهجمت جماعة منهم نحو الهيكل وخناجرهم مرفوعة ، ولكن هاميلكار مد يديه الى كميه وأخرج مديتين كبيرتين وحنا ظهره نصف حنية ومد رجله اليسرى الى الامام وقدحت عيناه شرارا وصرت أسنانه وأخذ يحدق بهم محتقراً أمرهم مستهتراً وهم وقوف بلا حراك تحت الشمعدان الكبير الذهبى المعلق فى السقف .

فانكشف أمرهم وخروجهم على القانون لانهم دخلوا القاعة ومعهم أسلحة ، وتلك جريمة معاقب عليها ، فأخذوا ينظرون الى بعضهم خائفين ولكنهم اطمأنوا من العقاب لاشتراكهم كلهم فى جريمة حمل السلاح ، ثم أداروا ظهورهم للزعيم القائد وانحدروا عن درج السلم وهم مستعرون غيظا لخيانتهم . وهكذا فانهم تراجعوا امامه للمرة الثانية .

وظلوا وقتاً ساكتين واجمين يمتص البعض منهم الدماء التى كانت تسيل

من أصابعهم ثم يلفونها بطرف أرديتهم وهموا بالانصراف ولـكن هاميلكار سمع قائلا منهم يقول :

— « أجل هذا تلطف منه كى لا يحزن قلب ابنته » .

— وقال آخر : « لا شك فى ذلك لأنها تختار عشاقها من البربر ! » .

فخارت قوى هاملكار ، وتضعضع ، وأخذت عيناه تبحثان عن شاهبريم ، ولـكن كاهن تانيت وحده كان فى مكانه ولمح هاميلـكار قلنسوة شاهبريم من بعيد .

وكانوا كلهم يهزأون به وبها ، وكلما زادت قواه تضعضعاً زادوا هم فرحاً . وبين القهقهـات والصيحات كان البعيدون منه فى أقصى القاعة يصيحون :

— « افقد رآه الناس خارجاً من مخدعها ؟ »

— « فى يوم من أيام شهر تموز ! »

— « هو ذاك الذى سرق الحجاب الالهى ! »

— « رجل جميل جداً ؟ »

« أكبر منك جسما ؟ »

فانتزع من رأسه تاجه رمز كرامته وشارة رتبته ـ ذلك التاج ذو الصفوف الرمزية الثمانية المحلى وسطه بصدفة من الزمرد ، والقى به بكلتا يديه وبكل قوته على الأرض فقفزت منه حلقاته الذهبية عند تـكسرها ، ورنت حبات اللؤلؤ على البلاط ، فبدت على جبينه الناصع البياض ندبة جرح طويل مندمل ينتفض بين حاجبيه انتفاض الحية ، وكانت جميـع أعضائه ترتجف ، وصعد على أحد السلالم الجانبية التى تفضى إلى المذبح ، وأخذ يمشى فى أعلاه ، ومعنى هذا أنه يسلم أمره إلى الآلهة ويقدم نفسه محرقة لها ، وكان انتفاض ردائه

يهز أضواء المشاعل الموضوعة في مستوى أوطى من نعليه ورشاش المسحوق الناعم المتطاير تحت قدميه يحدق بجسمه حتى بطنه وكأنه هالة من غيم . ووقف بين رجلي الصنم النحاسي ، وأخذ بخفتيه من ذلك الغبار الذي كانت رؤيته وحدها تبعث الرعب إلى قلوب جميع القرطاجيين وقال :

— « أقسم بمشاعل بصائركم المئة وبنيران الكبار الثماني وبالكواكب والظواهر الجوية والبراكين وبكل ما يحترق ، وبعطش القفر وملوحة البحار المحيطة ، وبمغارة « هادروميت » ، وبسلطان النفوس وبفناء رماد أبنائكم ، ورماد أخوة أجدادكم الذي أمزج به الآن رمادي ، أنكم أنتم أعضاء مجلس قرطاجة المئة ، قد كذبتم باتهامكم لابنتي ؟ وأنا هاميلكار باركا ، قائد البحر ، ورئيس الأغنياء والمسود على الشعب أقسم أمام مولوخ الحامل لرأس كرأس الثور ... وانتظر السامعون شيئاً مرعباً يخرج من فيه ولكنه أتم قسمه بصوت أعلى وأكثر هدوءاً فقال :

« باني لن أخاطبها أبداً بشأن هذا ».

ودخل الخدم المكرسون للآلهة . ذوو الأمشاط الذهبية ، يحملون إسفنجاً بلون الأرجوان وسعوفاً من النخل فرفعوا طنافس الياقوت الأصفر المبسوطة أمام الباب ، فبدت من فتحة هذه الزاوية ومن أقصى القاعات الأخرى السماء الزرقاء كأنها المصباح ترتفع في الأفق فلطمت بأشعتها صدر الصنم النحاسي المقسم إلى سبع خانات ، لكل منها باب من شبكة حديدية ، فبدا فكاه ذوا الأسنان الحمر منفرجين لتثاؤب بشكل مريع ، ومنخراه الضخمان منتفخين ممددين ، كما بدا كله ، وقد ألهبته الشمس بنورها ، بمظهر مرعب وكأنه عيل صبراً فأخذ يتحفز للوثوب إلى الفضاء ليمتزج بالنير الالهي فيسيرا معاً ليجتازا الفضاء الذي لا نهاية له .

وكانت المصابيح الملقاة على الأرض هنا وهناك لا تزال تشتعل ناشرة على البلاط العاجي بقعاً كبقع الدم ، وأصبح المئة القدماء خائري القوى

متعبين ، فأخذوا يستنشقون بملء رئاتهم العليل والعرق ، يتصبب من وجوههم الشاحبة ، لكثرة ما ضجوا وصرخوا ، قد انقطعوا عن الحديث . ولكن غضبهم على الزعيم القائد لما يكن قد سكن بعد فاستبدلوا ألفاظ الوداع بالتهديد وهاميلكار يجيبهم بالمثل :

— قالوا : إلى الليل القادم يا باركا ، فى معبد أشمون »

— «سأكون هناك »

— « سنستصدر عليك حكماً من الأغنياء ؟ »

— وأنا سأستصدر عليكم حكماً من الشعب .

— حذار أن تموت على الصليب ؟

— وأنتم حذار أن تموتوا ممزقين فى الشوارع ؟

ولما بلغوا عتبة الدار استعادوا مظهر الهدوء والسكينة .

وكان الجوذيون والمداؤون ينتظرونهم على الباب ، فانصرف اكثرهم على بغال شهب ، وقفز الزعيم إلى مركبته ، وأخذ أعنتها بيديه فحنا الجوادان صهوتيهما وسارا ينهبان الارض نهباً حتى بدت العقاب المرفوعة فوق محر المركبة كأنها تطير ، واجتاز طريق (مابال) وهى تمر بحقل الاموات ، حيث ترتفع ما فوق القبور البلاطات العالية الذليفة الرؤوس ذات الشكل الهرمى ، وقد نقشت عليها أكف مفتوحة كما لو أن الدفين يبسطها إلى السماء ليلتمس منها شيئا . وعلى المقابر أكواخ وأعراش من التراب أو غصون الاشجار أو أعواد الخيزران ، وكلها مخروطية الشكل . ويفصل بينها بغير نظام حيطان صغيرة من الحصى ، وسواقى وجبال من نبات الحلفاء وسياجات من الصبار ، وتزدحم هذه الاكواخ بالقرب من حدائق الزعيم .

ومد هاميلكار بصره نحو برج كبير ذى ثلاث طوابق بشكل ثلاث أسطوانات مبنية أولها بالحجارة والثانى باللبنات المشويه ، والثالث بخشب الارز . وبأعلى البرج قبة من النحاس ترتكز على أربعة وعشرين عموداً من شجر العرعر تنحدر منها بشكل أكاليل ، سلاسل صغيرة متشابكة من النحاس . وهذا البناء العالى يشرف على المبانى القائمة إلى اليمين وعلى المستودعات والمحلات التجارية بينما كان القصر المعد للنساء يقوم وراء أشجار السرو المصفوفة على الجانبين كحائطين من القلز .

ولما دخلت المركبة المتجاوبة الاصداء من الباب الضيق وقفت تحت سقيفة واسعة حيث كانت الخيل المحجوزة بعقالاتها تعلف بحزم من العشب .

فهرع جميع الخدم لمقابلته وكانوا عديدين لان الذين يعملون فى البرارى أعيدوا الى قرطاجة لخوفهم الشديد من البربر . فالمزارعون اللابسون جلود الحيوانات يجرون السلاسل الحديدية مشدودة إلى كعوب أرجلهم ، وعملة مناسج الارجوان حمر الاذرعة كأنهم جلادون ، والبحارة تعلو رؤوسهم القلانس الخضر وصيادو الاسماك يتقلدون القلائد المرجانية ، وعلى مناكب صيادى الطيور شباك . وجماعات ميجارا يلبسون قمصانا بيضاً أو سوداً ، وسراويلات من جلد وكمات من القش أو اللبد أو القماش كل ذلك بحسب نوع الخدمة أو الصناعات المختلفة التى يزاولونها . ووراء هؤلاء جماعة من عامة الشعب فى أطمار بالية عاطلون من العمل يعيشون بعيداً عن البيوت ، ينامون الليل فى الحدائق ويلتقطون فضلات المطابخ ، فهم بقايا آدميين متشردين يعيشون فى ظلال القصر . وهاميلكار يتسامح معهم ويتجاهل وجودهم لبعد نظره ورويته لا لانفته وكبريائه . وكان كل منهم يضع زهرة وراء أذنه إظهارا لفرحه بعودة سيده ، ولو أن الكثير منهم لم يروه من قبل

وأقبل رجال يلبسون قلانس كقلنسوة أبي الهول وبأيديهم هراوات فأخذوا يضربون فى الاقفية يمينا ويسارا ليبعدوا الفضوليين والعبيد، ترويحا عنه وخشية أن يضيق صدرا بروائحهم الكريهة .

وانطرحوا كلهم أرضا وهم يصيحون : « يا عين البعل عمدت دارك وازدهرت ! » وبين هؤلاء الساجدين تقدم ناظر القصر والقيم الاكبر أبدالونيم . وعلى رأسه قبعة بيضاء وبيدة مبخرة .

وكانت سلامبو حين ذاك تتدرك سلم السفن ووراءها جميع جواريها ووصائفها . تخطو فيخطون . وتقف فيقفن . فعلى رؤوس الزنجيات منهن طرر سود كبيرة فى صف من العصبات عليها صفائح من ذهب عصبنها على النمط الرومانى وعلى شعور الاخريات أشباه سهام من الفضة أو فراشات من الزمرد أو دبابيس صفت بشكل شموس، وعلى أثوابهن البيض أو الصفر أو الزرق، تلمع الحلقات والمشابك والعقود والاساور والزركشات، يمشين وحفيف أثوابهن المخيطة من قماش خفيف يمتزج بطبقات نعال المنتعلات ووقع أقدام الحافيات على خشب السلم . وأمامهن يسير خصى يعلوهن بكتفيه، يبتسم ووجهه مرفوع إلى الهواء .

ولما انتهى الرجال من ترديد الهتاف غطت الجوارى وجوههن بأكمام قمصانهن وصعدن معا صراخا غريبا شبيها بعواء الذئبات بلغ من الشدة والحدة مبلغا خيل معه أن سلم الابنوس الكبير يخرج رنينا كرنين الاعواء . كل هذا والريح تلاعب براقعهن وسوق البردى الرفيعة تتمايل تمايلا خفيفا وشجر الرمان المزهر يرفع سنام أغصانه نحو زرقة السماء . ومن خلال الاغصان يظهر البحر وعليه رست جزيرة بعيدة تكاد تضل فى الضباب .

ووقف هاميلكار لما بدت سلامبو .

كان مولدها بعد فقده لعــدد كبير من أبنائه الذكور . وولادة البنات تعد كارثة عنــد عبــدة الشمس والــكواكب . وهو الآن ، وإن كان قد صب عليها اللعنة ، إلا أنه لا يزال يتعلق بخيط مــن الأمل يزعزع الشك ويمحو اللعنة .

وظلت سلامبو تتقدم نحوه واللآلىء ذات الألوان المتنوعة تتدلى كعناقيد كبيرة من أذنيها على كتفيها وحتى مرفقيها ، وفرع رأسها مصفف مجعد ملبد كغيوم السماء ، وحول عنقها صفائح صغيرة ذهبية ذات أربع زوايا تمثل رسم امرأة بين أسدين رابضين . وثوبهــا تقليد تام لثوب الآلهة فهو من الياقوت ، واسع الأكمام ، يشد على قامتها من أعلاه ويتسع من أسفله وصباغ شفتيها القرمزى يزيد فى بياض أسنانها وكحل عينيها يطيل مــن جفنيها ، ونعلاها المصنوعتان من ريش الطيور عاليتا الــكعبين جد العلو وهى شاحبة اللون شحوباً سببه البرد بلا شك !

ووصلت بعد لأى إلى حيث وقف هاميلــكار . ودون أن تنظر إليه أو ترفع رأسها نحوه حيته بقولها :

« سلام يا عين بعليم ! لك المجد الأبدى والنصر الدائم ! وسعة الزمان ! لك الرضا والغنى ! لقد طال حزن قلبي وضنى البيت ! لــكن ربه العــائد الآن هو كتموز الذى بعث حيا وتحت نظرك ياأبتاه يزدهر الفرح وتنبعث الحياة الجديدة فى كل مكان » .

ثم أخذت من يد طنــاش آنية مستطيلة فيهــا مزيج ساخن من الدقيق والزبدة وحب الهال والنبيذ .

وقالت : « اشرب مــلء شفتيك شراب العودة الذى أعــدته لك خادمتك » .

فأجابها : « عليك البركة » . وتنـاول بحركة آليـة الآناء الذهبي الذى قدمته إليـه وهو يحدق بوجههـا بخشونة بادية . فتمتمت سلامبو وهى تضطرب :

— « لقد قيل لك أيها السيد ...

— « اجل عرفت ... »

فهل كان ذلك اعترافا منها أم أنها كانت تعنى البربر وأعمالهم ؟ ! ثم تمتم بعض كلمات خاصة بالشؤون العامة وبالمصاعب التي يأمل بأن يزيلها بنفسه فقالت :

— « لن تمحو يا أبى ما ليس بالامكان تعويضه » .

فارتد إلى الوراء وتحول عنها .

فاستغربت سلامبو ذهوله واضطرابه لأنها ما كانت تفـكر بقرطاجة بل بانتهاك حرمة الحجاب الذى شاركت بانتها كه . وأخافهـا كما تخيف الآلهة هذا الرجل الذى ترتجف لهوله الـكتائب والذى لا تـكاد تعرفه . وقدرت أنه مطلع على كل شيء . . وأن أمرا فظيعا هائلا سيطبق عليهـا فصاحت : « عفوك ؟ عفوك ! » وحنا هاميلـكار رأسه ببطء .

كانت تود أن تشكو ولـكنهاعجزت عن فتح شفتيها على ما بها من حاجة إلى الشكوى . . . وإلى التعزية ؟ وهاميلـكار يحارب فى نفسه الرغبة الملحة التى كانت تدفعـه إلى الحنث بقسمه الذى كان يتمسك به إما إرضاءا لـكبريائه ، وإما لخشيته أن يتحول شكه إلى يقين . فأخذ يحدق بها تحديق الفاحص لعله يستطلع ما تخفيه فى أعماق قلبها . ورأس سلامبو يغوص شيئا فشيئا بين كتفيها لأن تلك النظرات الفاحصة المستطلعة شدت عليها فسحقتها سحقا . وأصبح هاميلـكار موقنا من سقوطهـا بين ذراعي بربرى من

اولئك البربر ، فرفع قبضتى يديه نحوهـا وقد اخذته الرعـدة . فصرخت صرخة أليمـة . . وهوت على الأرض بين نسائهـا اللائى التففن حولهـا منعطفات .

وأدار هاميلـكار عقبيه وتبعه نظاره .

وفتحوا باب المستودعات فدخل إلى قاعة فسيحة مستديرة يتفرع منهـا ممرات طويلة تفضى إلى قاعات أخرى . وفى الوسط مصطبة من الحجر لهـا جلافق تستند عليها وفوقها وسائد مكدسة على أبسطة .

فأخذ الزعيم القائد يمشى بخطى سريعة واسـعة ، جيئة وذهابا ويصعد أنفاسا ويضرب الأرض بقدميه ويمر بيده على جبينه كمن يزعجه الذباب . وسرى عنه لما رأى تراكم غناه فسكن غضبه واتجهت أفكاره إلى مافى الغرف الأخرى من خيرات وكنوز أعظم وأندر ممـا يراه أمامه من صفـائح الفلز وقضبان الحديد وسبائك الفضة والقصدير التى جيء بها من « كاسيتريدس » عن طريق بحر الظلمات ، ومن صمغ بلاد الزنوج المعبأ بأكياس من ألياف النخل ومن التبر المحشو فى قرب يتسرب منهـا إلى الخارج لبلاء خيوطهـا بتراخى الزمن ، ومن ألياف مسحوبة من نباتات بحرية معلقة بين كتان مصر واليونان . وثابروبان والبهودية ، ومن عروق اللؤلؤ الشائـكة كالعليق المكدسة إلى جانب الحيطان . وكانت القاعة عابقة برائحة من امتزاج العطور بالجلود والبقول وبريش النعام المحزوم باقات تتدلى من قبة السقف . وأمام كل ممر أنياب فيلة مرصوصة عموديا بحيث تلتقى أطرافها فيتـكون منهـا قوس فوق الباب .

وصعد إلى المصطبة ، ووقف أمامه جميـع الوكلاء والأمناء مصلبى الأيدى . . مطأطىء الرؤوس . بينما كان أبدالونيم يرفع بكبرياء قلنسوته المقرفة .

وأخذ هاميلكار يطرح الأسئلة على رئيس السفن وهو مرشد مسن قلبت الريح جفنيه وتدلت شعرات لحيته البيض حتى ركبه. كما لو كان زبد زوابع البحر لا يزال عالقا بها.

فأجاب بأنه أرسل عمارة من السفن عن طريق «جاديس» و «تيمياماتا» لتحاول بلوغ «أزيون جابر» مارة بقرن الجنوب ورأس «الأرومات» وأن سفنا أخرى اتجهت إلى الغرب فمكثت أربعة أشهر قمرية دون أن ترى براً أو يابسة وأن مقادم السفن كانت تلتف عليها الأعشاب، وصدى تدفق الشلالات يرتفع إلى الأفق بلا انقطاع. والضباب بلون الدم يغطي وجه الشمس، ويهب نسيم معطر فيبعث النعاس إلى جفون الملاحين حتى أنهم اليوم لا يستطيعون وصف ما وقع لهم لاضطراب ذاكراتهم. وتوصلت هذه السفن إلى أنهار «شيت» وإلى دخول كلوشيديا وبلاد الجوجيريان. والاستيان. واختطف تجارها ألفا وخمسمائة عذراء من الأرخبيل وأغرقوا جميع ما التقوا به من مراكب لكي تظل أسرار الطرق البحرية مجهولة من غيرهم. وحدثوا أن الملك بطليموس يحجز لديه بخور «شسبا» وأن سرقسطة وأيلاتيا. وكورسكا والجزر لم تمدهم بأي شيء كان. وخفض رئيس السفن صوته وأردف قائلا: «لقد استولى النوميديون في روسكارا على سفينة لنا مثلثة الصفوف لأنهم أصبحوا حلفاء للبربر، يا مولاي».
فقطب هاميلكار حاجبيه وأذن بالكلام لرئيس الاسفار. وكان متشحا ثوبا غامقا ورأسه مشتمل بشملة قماش أبيض يلفها تحت فمه إلى الوراء، على الكتفين فقال.

لقد سافرت القوافل بانتظام عند اعتدال فصل الشتاء، وعليها ألف وخمس مئة رجل اتجهوا بها إلى أقصى بلاد أثيوبيا على جمال من خيرة الجمال ومعهم قرب ماء جديدة وبضائع من النسيج المرقش. فلم يعد منهم إلى

قرطاجة إلا واحد . واما الآخرون فهلكوا من التعب أو مسهم الجنون لما قاسوه من أهوال الصحراء . وزعم الرجل الذى نجا أنه رأى بعيداً وراء « هاروش » السوداء وبعد الاترانت وبلاد القردة الضخام ، ممالك شاسعة أحقر الادوات المستعملة فيها هى من الذهب الخالص ، كما رأى نهراً ماؤه بلون اللبن واسعا كالبحر وغابات أشجار زرق وآ كاما مليئة بالعطور ومسوخا بشكل آدميين تعيش على الصخور إذا التفتت تفتحت عيونها كأزهار . ووراء ذلك بحيرات مليئة بالحيتان . . وجبال بلور تحمل السماء .

وقد غادر رجال القوافل من الهند يحملون الطواويس والفلفل والمنسوجات الجديدة الصناعة . وأما الذين ذهبوا لابتياع النساء « الكلسيدونيات » سالكين طريق سرط ومعبد آمون فقد هلكوا بين الرمال . وأما قوافل « جيتوليا » وفزان فقد جلبت البضائع المعتاد جلبها . ثم أردف رئيس الرحلات فقال : وأما الآن فانى لا أجرأ على إرسال أية قافلة .

وأدرك هاميلكار أن المرتزقة يحتلون البرارى ، فصعد أنة واتكأ على مرفقه الآخر . وأحجم عن الكلام ناظر الزراعات لخوفه وارتعاده رغم تكتل منكبيه واحمرار حدقتى عينيه . وكأن وجهه الشبيه بوجه الكلب الضخم قد لبس بخطوط من خيوط قشور الاشجار . وكان يتمنطق بحمالة من جلد الببر محتفظة بجميع وبرها ، غرز فيها مديتين كبيرتين .

ولم يكد هاميلكار يحول وجهه عنه حتى أخذ يقسم بجميع البعول بأن الذنب ليس ذنبه فانه كان يراعى طبيعة الجو ويراقب الارض والكواكب ويغرس النبات ويلقى البذور عند انقلاب الشمس الشتوى ويشذ بها عند نقصان القمر ويسهر على العبيد ويحرص على ملابسهم .

فثارت ثائره هاميلكار لثرثرته وخرجت قعقعة من لسانه ، فعجل الرجل بقوله :

آه . يا مولاى ! لقد نهبوا وسلبوا وخربوا كل شيء ! قطعوا ثلاثة آلاف شجرة فى « ماشالا » .وأتلفوا صوامع الغلال فى «أوثادا » وردموا الآبار ، واستولوا على ألف وخمس مئة كيلة من الدقيق فى « مرازانا » وقتلوا الرعاة وأكلوا القطعان وأحرقوا منزلك الجميل المسقوف بخشب الأرز الذى كنت تصطاف فيه ،وهرب إلى الجبل عبيدك الذين كانوا يطبخون الشعير ، وساقوا أمامهم الحمير والبغال كبيرها وصغيرها وأبقار « تاورمين » والخيول الأصائل ، فلم يبق من ذلك كله شيء . تلك لعنة من اللعنات ، ولن أعيش بعد اليوم . آه يا مولاى كانت الأهراء ملآى والمحاريث لساعة أسفى على تلك الكباش والثيران الجميلة .

وكان غضب هاميلكار يكاد يخنقه فانفجر صائحا :

ـ اسكت : اسكت ! أتراني فقيرا : لا أريد كذبا بل أريد أن أعرف ماخسرت وفقدت حتى آخر فلس ! أنت يا أبدا لومنيم أحضر لى حساب المراكب والقوافل والزراعات والمنزل . وأنتم ويل لكم ! هيا اخرجوا ! »:

فخرج الوكلاء يمشون القهقرى وقبضات أيديهم متدلية حتى الأرض ، وخف أبدالونيم إلى خزانة ذات رفوف مثبتة فى الحائط فأخذ منها حبالا مليئة بالعقد ، وشرائط من القماش والبردى ، وعظام أكتاف خرفان مليئة بالكتابات الرفيعة ، وعاد فوضعها عند قدمى هاميلكار ، كما وضع بين يديه اطاراً من الخشب أثبتت فيه من الداخل ثلاثة أسلاك ينتهى كل منها بكرات من الذهب أو الفضة أو القرون . وبدأ بالحساب فقال :

« مئة وإثنان وتسعون بيتاً مؤجرة للقرطاجيين الجدد بايجار قدره « بيكا » للبيت ، عن كل شهر قمرى .

ـ لا . لا هذا كثير ! تساهل مع الفقراء وستكتب أسماء الذين تراهم

ذوى جراة بعد أن تتحقق انهم مخلصون للجمهورية .

ثم انتزع هاميلكار الشرائط من يديه وأخذ يقرأ ثم قال :

ـ ما هـذا ؟ ثلاثة قصور حول معبد خامون تؤجرها باثنى عشر « كيثريتا » شهريا ؟ ارفع الايجار الى عشرين ، لأنى لا أريد أن اكون فريسة للأغنياء .

فانحنى رئيس النظار وعاد يقرأ :

ـ أقرضنا تيجيلاس حتى آخر الفصل « كيسكارين » بثلاثة بسعر الفوائد البحرية وكبار مالكارث خمس مئة « سيكل » برهن على ثلاثين عبداً فمات منهم اثنا عشر فى أعمال المستنقعات المالحة .

ـ يظهر لى أنهم لم يكونوا أشداء . لا بأس أقرضه أيضا إذا كان بحاجة إلى النقود . يجب أن نقرض دائماً بفوائد تختلف باختلاف غنى المقترضين .

وقرأ الخادم بيانا بجميع ما أنتجته من الأرباح معادن حديد « عنابة »، ومصايد المرجان ، ومناسج الأرجوان ، والضرائب المضروبة على الاغريق المقيمين ، وتصدير الفضة لبلاد العرب ، حيث كان ثمنها أغلى من الذهب عشر مرات ، والاستيلاء على المراكب بعد خصم عشرة بالمئة لمعبد الآلهة . وهنا لاحظ أبدالونيم بأنه كان يخفى ربع الدخل الحقيقى ، كى لا يدفع عنه الضريبة المستحقة للالهة . وكان هاميلكار يراجع الحساب على السكرات التى كانت تسمع طقاتها تحت يديه .

ـ وقال هاميلكار : يكفينى هذا فما الذى دفعته ؟

ـ دفعت الى سترانيكليس من قورنتية وإلى ثلاثة تجار من الاسكندرية بموجب هـذه الرسائل عشرة آلاف دراخمة يونانية واثنى عشر « تالنت » ذهبا سوريا . وبلغ ثمن طعام البحارة عشرين « مينا » فى الشهر عن كل سفينة ..

ـ أعرف ذلك اوما هى الخسائر ؟

ـ هى مكتوبة على الألواح الرصاصية ، وأما فى ما خص السفن المشحونة شراكة ، فقد حدث مرارا أن اضطر البحارة لرمى البضائع فى البحر ، فقسمت الخسائر على أفراد الشركاء ، وأما الحبال التى اقترضناها من مصانع السفن فقد استحال علينا ردها ، ففرض علينا السيسيت ثمانى مئه «كازينا» ثمناً لها .

ـ فقال هاميلكار وقد حنا رأسه : «لا يأتينى الشر ألا منهم دائماً» . وظل هنيهة واجما وكأنه قد رزح تحت ثقل هذه البغضاء الموجهة إليه ، ثم قال : «ولكننى لا أرى حساب ميجارا» . فاصفر وجه أبدالونيم وتناول من خانة اخرى ألواحا من خشب الجميز ملفوفة لفات بسيور من جلد وأخذ يتلو الأرقام بعد الارقام وهاميلكار يستمع إليه متسليا بحساب الخدم وبوحدة سياق ذلك الحديث الممل . وإذا بادالونيم يتباطأ فى قراءته ثم تساقطت من يديه ألواح الخشب وانطرح على الارض وذراعاه مرفوعتان كأنه فى موقف المجرمين المحكوم عليم . فالتقط هاميلكار الألواح دون أن يبدو عليه تأثير ولكن شفتيه أخذتا تتفتحان وعينيه تتسعان لما ظهر له من أن نفقات يوم واحد بلغت مبلغا هائلا ثمنا للحوم وأسماك وطيور وخمور وعطور وآنية مكسرة وعبيد مقتولة وأبسطة مفقودة . وقص عليه أبدالونيم وهو جاث على ركبتيه قصة وليمة البربر ، وقال انه يمكنه أن يتملص من الامر الذى صدر إليه من القدماء ولا سيا أن سلامبو أوصت بانفاق المال بسخاء لكى يستقبل الجند أكرم استقبال .

ولم يكد هاميلكار يسمع اسم ابنته حتى انتفض واقفاً وزم شفتيه وجلس القرفصاء على الوسائد وأخذ يقطع حواشيها بأظفاره وهو يلهث وحدقتاه جامدتان .

ـ وقال لخادمه : «انهض» ونزل عن المصطبة .

وتبعه أبدالونيم ورجلاه ترتعشان . ثم تناول قضيبا من حديد واخذ يخلع البلاط وهو هائج فقفز قرص خشبي من مكانه ، وبدت على طول الرواق أغطية كثيرة واسعة مما يستعمل لسد الصوامع المعدة لحفظ الحبوب .

وقال الخادم : « أرأيت يا مولاى ، ياعين البعل ! إنهم لم يستولوا على كل شيء ، كل هذه الصوامع بعمق خمسين ذراعا ، وهى مايئة حتى الحوافى ، وفى أثناء سفرك حفرت الكثير من هذه الصوامع تحت المصانع وفى الحدائق وفى كل مكان . هذا بيتك ملىء بالقمح كما أن قلبك ملىء بالحكمة . »

ومرت ابتسامة على وجه هاميلكار وقال : « حسن هذا يا أبدالونيم » ثم مال إلى أذنه وهمس فيها : «جيء بالقمح من « إتروريا » ومن «برسيوم» وخزن واحرس . يجب أن أستولى أنا وحدى على جميع قمح قرطاجة » .

ولما بلغوا منتهى الممر فتح أبدالونيم بمفتاح معلق فى حزامه قاعة كبيرة مربعة الزوايا مقسمة أقساما بدعامات الارز ، فظهرت أكداس من نقود الذهب والفضه والنحاس مرصوفة على الطاولات أو موضوعة فى كوى غير نافذة محفورة بالحيطان ، ترتفع حتى جوانب السقف ، وهناك فى زوايا الغرفة قفف متناهية فى السعة من جلد جاموس البحر تحوى صفوفاً صفوفاً من الأكياس الصغيرة ،وعلى البلاط أكداس عملة الجلد كأنها تلال، وهنا وهناك صفوف تساقطت فبدت كأنها عمد متداعية . وكانت قطع نقود قرطاجة مطبوعا على الكبيرة منها صورة الالهة تانيت على جواد وفى ظل نخلة . وكانت هذه القطع مخلوطة مع عملات المستعمرات المطبوع عليها ثور وكواكب أو قرص أو هلال . وهناك أيضا نقود من جميع القيم والأحجام والعصور : فمن عملة الاشوريين التى هى أرق من الظفر إلى عملة لاسيوم القديمةالتى هى أكثر صفاقة من الكف . ويضاف إلى هذه العملات أزرار « أجينا » وصفائح « باكتريانا » وقضبان « لاسيديمونيا » القديمة وكثير من هذه القطع كان يعلوها الصدأ أو الفسالة أو الاخضرار لملامسة

الماء او يكسوها السواد بفعل النار ، لانها كانت مستخرجة من البحر بشباك أو ملتقطة من أنقاض المدن بعد فتحها وإحراقها .

وأمكن هاميلكار أن يقدر ما إذا كانت تلك المبالغ تلائم الأرقام التي تليت عليه من أرباح وخسائر ، وهم بالانصراف ، وإذا به يرى ثلاث جرات من العملات النحاسية فارغة ، فأدار أبدالونيم عينيه استفظاعاً للأمر ، وظل هاميلكار ساكتاً سكوت المستسلم .

واجتازا ممرات وقاعات أخرى ووصلا فى نهاية سيرهما أمام باب قيد حارسه — لكى يحسن الحراسة — بسلسلة لفت حول بطنه وأثبتت فى الحائط وتلك عادة من عادات الرومان مستحدثة فى قرطاجة وكانت لحيته وأظفاره قد نمت وطالت طولا شنيعا ، وهو يتأرجح يمينا ويساراً ، كما تتأرجح الوحوش الأسيرة فى الأقفاص . وما كاد الرجل يتعرف إلى هاميلكار حتى مال نحوه وهو يصيح :

« عفوك عفوك يا عين البعل . . ؟ رحماك من بقتلي ؟ لقد مرت على عشر سنوات لم أر فيها الشمس ؟ أستحلفك باسم والدك أن تعفو عنى ؟ » .

فلم يجبه هاميلكار بل صفق بيديه ، فظهر ثلاثة رجال وتعاون أربعتهم وهم يشدون عضلاتهم حتى استطاعوا أن يسحبوا من بين السلاسل قضيب الحديد الضخم الذى كان يقفل الباب . وأخذ هاميلكار مشعلا واختفى وسط الظلمات ، كان هذا على زعم الزاعمين — مكان دفن أموات الأسرة ولكن الداخل لا يجد إلا بئرا واسعة حفرت لتضليل اللصوص ولا شىء فيها مخبأ . ومر هاميلكار بجانب البئر وهو منحنى الرأس قليلا ، وأدار على لوالبها رحى ثقيلة كل الثقل ، فبدت فجوة ولج منها إلى حجرة مبنية بشكل كرز صنوبر .

وكانت قشور النحاس تغطي الجدران ، وفى الوسط وعلى قاعدة من حجر الصوان ارتفع أحد الآلهة الكبار واسمه « ألسيتس » مكتشف المناجم فى « سلتبيريا » وعلى الأرض وإلى جانب القاعدة وضعت على شكل صليب مجنات عريضة من ذهب وآنية من فضة بشكل شنيع مقفولة الفتحات بشكل أبشع بحيث لا يمكن الانتفاع بها ، كان ذلك من عاداتهم أن يصهروا كميات ثقيلة من المعادن بهذه الصورة كى لا يمكن نقلها أو سرقتها أو تبديدها .

وأشعل من ذبالة مشعاله فانوسا مما يستعمل فى المناجم كان موضوعاً على قلنسوة الصنم ، فأشرقت فى القاعة نيران خضر ، وصفر وزرق وبنفسجية ، وخمرية وبلون الدم ، ذلك أنها كانت ملأى بالحجارة والجواهر معبأة بقوارير من ذهب معلقة كالمصابيح بأسلاك النحاس ، أو مصفوفة بحسب أنواعها فى أسفله الحائط : فمنها البهرمان المتجمد من بول الفهد ، والنيازك المتساقطة من القمر ، والماس والسندروس والزبرجد واللازورد ، والياقوت بأنواعه الثلاثة ، والسفير بأنواعه الأربعة ، والزمرد بأنواعه الأثنى عشر ، وهذه الحجارة تشع وتتوهج كرشاش اللبن ، أو كقطع الجليد الزرق ، أو كذاب الفضة ، وترسل أضواءها أسمطة أو بسطا أو إشعاعا أو كواكب . وكانت الحجارة التى حملت بها الرعود تلمع إلى جانب حجارة « كلسيدونيا » التى تشفى من السموم وحجارة الزبرجد المجلوبة من « زابركا » لتقى من الرعب ، والحجارة البئية المجلوبة من « بكتريانا » لتمنع إجهاض الحوامل ، وقرون آمون التى توضع تحت الأسرة لتوحى بالأحلام .

وكانت إشعاعات الجواهر ، ولهب المصباح تترأى فى المجنات الكبيرة الذهبية الصافية كالمرائى ، وهاميلكار واقف يبتسم متلذذاً بفكرة غناه أكثر من تلذذه بتلك المناظر ، فثروته محصنة ممتنعة لا نفاد لها ولا نهاية وأجداده النائمون تحت قدميه يفيضون على قلبه شيئا من خلودهم فيحس أنه

قريب جد القرب من عباقرة ما تحت الأرض من الآلهة ، وبدت له الاشعة المتألقة المنعكسة على وجهه كأنها نهاية خط غير منظور مار فـق وهاد يربطه بنقطة دائرة العالم .

وخطر له خاطر فارتجف ووقف وراء الصنم ثم مشى بخط مستقيم نحو الحائط ، فنظر نظرة فاحص إلى الوشم المطبوع على ذراعـه فتبين فيـه خطا أفقيا بجانب خطين عموديين أى رقم ١٣ باللغة الـكنعانية . ثم بدأ يعد صفائح النحاس حتى وصل إلى الثالثة عشرة ، فمد ذراعه اليمنى ، وقرأ فى مـكان آخر منها خطوطا أدق من الاولى ، وهو يمر بأصابعه برفق على الحائط كما يفعل لاعب العود ، وأخيراً ضرب بإبهامه سبع ضربات . وإذا بجزء كبير من الحائط يدور على نفسه .

وانـكشف قبو مخبأة فيه أشياء سرية لا أسماء لهـا ، ولـكنها ذات قيمة لا تقدر ، فنزل هاميلـكار ثلاث درجات وأخذ من دن فضى جـلد حيوان اللاما الطافى على سـائل أسود وصعد إلى حيث كان .

فأخذ أبدالونيم يسير امامه ويضرب على البلاط بعصا عند مقبضها جلاجل معلقة وهو ينادى أمام كل غرفة باسم هاميلـكار ، مصحوبا بالبركات والدعوات والمديح والثناء . وفي الرواق الدائرى حيث تنتهى جميع الممرات كانت تتراكم إلى جانب الحيطان جسور البطم ، وذبل السلاحف المليئة باللالىء ، وأقراص من تراب « ليمنوس » . وكان القائد يلمسها بثوبه وهو مار دون أن يلتفت الى القطع الضخمة من العنبر الذى يكاد يكون إلهيا لان أشعة الشمس قد كونته .

وعلا بخار تتفرع منه رائحة ، فقال هاميلـكار لخادمه : « افتح هـذا الباب » ودخلا .

وإذا هم رجال عراة يعجنون العجائن ويسحنون الاعشاب ويحركون الفحم ويصبون الزيت فى الجرار ، ويفتحون الخلايا البيضوية العديدة ، المحفورة حوالى الحائط وكأنها خلايا النحل وهى مليئة بالاهليبج والزعفران والبنفسج ، وهنا وهناك أنواع الصموغ والمساحيق ، والجذور والاغصان والازهار ، وقماقم الزجاج ، حتى ليكاد المرء يختنق من تصاعد الروائح رغم دوران المراوح القائمة على مواطىء من نحاس ، تملا المكان بصريرها .

ورئيس الروائح العطرية الشاحب اللون الطويل كعود من شمع تقدم نحو سيده ليدهن يديه بعطر نادر وتبعه اثنان من العملة ليدهنا قدميه بأوراق البكاريس ، فصدهم عنه لانهم كانوا من القيروان ومن ذوى الاخلاق المرذولة ، على أنهم كانوا مشمولين بالرعاية . لاحتفاظهم بأسرار صناعتهم .

وإظهاراً لحذقه لصناعته قدم رئيس الروائح العطرية للقائد مزيجا فى ملعقة من الفضة المذهبة ثم تقب بمخرز ثلاث أحقاق هندية وقدم له بلسما عطريا من صنعه ، وكان هاميلكار عليما بأساليب الغش والتقليد ، فأخذ قرنا مليئا من ذلك البلسم وقربه من الجمر ثم صب منه على ثوبه فبدت فيه بقعة سمراء فاتضح له الغش . فحدجه رئيس العمال بنظرة قاسية ، وقذف القرن بوجهه ، ولكنه رغم ما تظاهر به من استنكار الغش أمر العملة ـ وقد رآهم يحزمون حزما من الناردين للتصدير ـ بأن يخلطوا الناردين بالكحل ليثقل الوزن .

وطلب أن يأتوه بثلاثة أحقاق من مسحوق صنع له خصيصا فادعى رئيس معمل العطور بأنه لا يدرى شيئا من أمر هذا المسحوق وأن جماعة

من الجنود دخلوا عليه والمدى بأيديهم وصاحوا به مهددين فاضطر إلى فتح الأدراج لهم . فقال له الزعيم : « إذاً أنت تخشاهم أكثر مما تخشانى » ، وبدت عيناه من خلال الدخان تقدحان شرراً فى وجه ذلك الرجل الطويل المتمدد الذى أحس بحرج موقفه .

وصاح هاميلكار بأبدالونيم : « مزق جسده بالسياط قبل أن تغيب الشمس » .

وهذا الضرر الذى لحق به ليس بذى بال ولكنه أثار مع ذلك غضبه ، لأنه أذكره ـ وهو يحاول أن ينسى ـ بالبربر ودائماً بالبربر الذين يعيد ذكرهم إلى ذهنه عار ابنته ، فأصبح موغر الصدر على رجاله وخدم بيته ، الذين يعرفون دون شك ما وقع لابنته ويكتمون عنه أمر ذلك ، وأحس بشعور خفى يدفعه إلى الارتماء فى أحضان مصيبته وأثار فيه هذا الشعور حب البحث والاستقصاء ، فأخذ يتفقد جميع المخازن المعدة للقار والخشب والمراسى ، والحبال والعسل والشمع ومستودعات الأقمشة والمؤن ومعامل الرخام والمرمر وصوامع « السيلفيوم »

وانتقل إلى الجهة الأخرى من الحدائق يستقصى فى الاكواخ أعمال الصناع من عبيده وخدمه الذين كانت مصنوعاتهم تباع فى الأسواق : فهنا الخياطون يفصلون ويطرزون الأردية والمعاطف ، أو يجدلون الشباك ، وهناك المنجدون يملأون الوسائد والاسكافيون يصنعون الأحذية . وهناك عمال مصريون يصقلون بالأصداف أوراق البردى وحياكون يقرقعون بمكاكيهم ، وصانعو الأسلحة والصياقل يملأون الجو صخباً بالضرب على سنداناتهم . فوقف هاميلكار إلى جانب هؤلاء وقال لهم :

ــ « اصنعوا السيوف والحراب ، وأكثروا منها ، فانى فى مسيس

الحاجة إليها » ، ونزع عن صدره درعه المصنوعة من جلد بقر الوحش ، والمسقية بالسموم ودفعها إليهم لكي يصنعوا له درعاً أمتن من الدروع النحاسية بحيث لا يؤثر فيها الحديد ولا النار .

وكلما مر بفئة من العمال عمد أبدالونيم إلى تحقيرهم والحط من قيمة مصنوعاتهم لكي يصرف غضب سيده عنه ويحوله إليهم فيقول لهم : « ما هذا العمل المخجل ! لا شك بأن مولانا طيب متسامح » .

فكان هاميلكار يتابع سيره دون أن ينبس ببنت شفه .

وخفف سيره ووقف ينظر إلى دوحات الأشجار التي اعترضته في سبيله وقد استحالت إلى فحم كما تستحيل أشجار غابة نزل فيها رعاة يستدفئون ، ورأى السياجات والحواجز وقد تحطمت وحديقته وقد لعبت بها يد الخراب فمن جداول نضب ماؤها إلى قطع من الزجاج المتكسر ، ومن عظام قردة ملقية في حمأة من المستنقعات ، إلى شرائط أطمار من قماش عالقة بالأشواك ، وزهرات ليمون ارتمت تحت أشجارها كوماً من السماد الأصفر . لقد أهمل خدمه وعبيده كل شيء لظنهم بأن مولاهم غير عائد .

وكلما خطا خطوة زاد يقيناً بفداحة الكارثة وعثر على دليل جديد لحدوث ذلك الشيء الذي أقسم على أن لا يتثبت منه ، لقد علقت الأقذار بطباق حذائه الارجواني ، وهو جاد في سيره ومع ذلك فهو لا يقوى على طحطحة أولئك الرجال مجتمعين كتلة واحدة بقذائف منجنيقه فيطيرون شظايا وهباءاً منثورا . وأحس بأنه قد حقر نفسه بدفاعه عنهم ، وأن دفاعا كمثل هذا يعد مخادعة وخيانة ولما كان عاجزاً عن إنزال انتقامه بالبربر أو بالقدماء أو بسلامبو فقد أمر بأن يرسل في الحال جميع العبيد المولجين بخدمة الحدائق إلى المناجم دفعة واحدة .

وأبدالونيم يرتعد خوفا ويزداد رعبا كلما توغل سيده فى الحدائق ولكن هاميلكار تحول إلى الممر الذى يفضى إلى المطاحن حيث ترتفع أصوات مزعجة .

وهناك فى وسط غبار كثيف تدور رحى مؤلفة من حجرين من البرفير يطبق الواحد منهما على الآخر ، وأعلى الحجرين ذو لهوة مفتوحة مرت بها قضبان متينة تدار بها الرحى وهناك حولها رجال بعضهم يدفعونها بصدورهم وأذرعتهم ، وبعضهم يشدون وقد ربطوا كالبهائم إلى نير فأحدث احتكاك أجسادهم باللبب أو سيور الجلد قروحا متقيحة تحت آباطهم كالقروح المشاهدة على غوارب الحمير ، وتدلت كأذنابها أطراف أطمارهم السود التى لا تكاد تغطى أوراكهم على عراقيبهم ونفرت من محاجرهم عيون بحمرة الدم ، وعلت قرقعة السلاسل فى أرجلهم . وكمت أفواههم بكمائم أثبتت بسلسلتين من القلز ليستحيل عليهم لعق الدقيق كما وضعت فى أيديهم كفوف حديدية تمنعهم من تناوله بأيديهم . وبدا السيد فقعقعت قضبان الخشب أشد من ذى قبل ، وطقت الحبوب ، وجثا الكثيرون على ركبهم فمر الآخرون فوق أجسامهم : فاستدعى « جدنيم » حاكم العبيد فأقبل يدل بوظيفته وبقميصه الارجوانى المفتوح من جانبيه . وبأقراط ثقال تشد أذنيه ، وبسلك ذهبى يربط به شرائط القماش الملفوفة على ساقيه سلك يصعد من كعبيه إلى وركيه كأنه حية ملتفة . وكان ممسكا بأصابعه بقلادة من حب اليسر يهتدى بها إلى الرجال المعرضين للجذام او المرض المقدس .

فأمره هاميلكار باشارة أن ينزع الكمامات عن أفواه الرجال فارتموا على الدقيق يزدردونه كالوحوش الجائعة ، ووجوههم غائصة فى أكوامه .

— وقال القائد : « إنك تنهك قواهم »

— فأجاب حاكم العبيد : « لابد من هذا لترويضهم » .

ـ « لم أجن اية فائدة من إرسالك إلى مدرسة العبيد فى سرقسطة . أحضر جميع الآخرين » .

فجيء بالطباخين وبوكلاء المؤن وبالسياس والعدائين وحملة المحفات والفرانين وبالنساء وبأطفالهن فاصطفوا فى البستان صفا واحدا ، ابتداء من محل التجارة حتى حظيرة الضوارى وهم يكتمون أنفاسهم ، وبدا السكوت مخيما على ميجارا ، والشمس تنشر أشعتها على المستنقع فى أسفل مغاور القبور ، والطواويس تعالى بصراخها ، وأخذ هاميلكار يمشى أمامهم خطوة فخطوة ، ثم قال لحاكم عبيده :

ـ ما الفائدة من هؤلاء الشيوخ ؟ بعهم . إن بينهم كثيراً من الجوليين السكيرين وكثيراً من أهل كريت الكذابين . بعهم واشتر لى من اهل كبادوسيا ومن الزنوج والأسيويين .

وأبدى دهشته لقلة المواليد وقال :

« يجب أن تتكاثر مواليد العبيد كل سنة ياجدنيم ! اترك أبواب الخانات مفتوحة كل ليلة ليكونوا أحرارا فى اختلاطهم وتزاوجهم » .

وأحضر بعد ذلك اللصوص والكسالى والمتمردين فوزع عليهم أنواع العقوبات التى يجب أن تنزل بهم ، ووجه اللوم الشديد إلى جدنيم الذى بدا كالثور المنكس الرأس .

وأشار جدنيم إلى ليبى شديد الحول وقال : « انظر ياعين البعل إلى هذا فقد فوجىء وهو يضع الحبل فى رقبته »

ـ فسأل هاميلكار الليبي « أتريد أن تموت » .

ـ فأجابه بصوت الشجاع المقدام « نعم » .

« إذاً خذوه وأعدموه » قال هذا دون أن يأبه للمثل الذى قد يتمثل

به سائر العبيد ولا إلى الخسارة المادية التي تلحق به . وقد يكون آمر بهذا لأنه في قرارة نفسه كان ينوى أن يقدم ضحية للآلهة ، فيتقى بهذه الخسارة شراً أعظم .

وكان جدنيم قد خبأ العبيد المبتورى الأعضاء وراء الأصحاء فلمحهم هاميلكار وسأل أحدهم :

ـ من الذى قطع يدك ؟

ـ الجنود يا عين البعل .

وسأل أحد السمنيين وقد كان يتهادى كالك الحزين :

وكان الفاعل الحاكم جدنيم الذى كسر ساقه بقضيب من حديد .

فاستاء القائد واستشاط غضبا لهذه الوحشية ، وانتزع من يد الحاكم قلادة اليسر وصاح به :

ـ « ملعون الكلب الذى يجرح القطيع ! ويحك كيف تجرؤ على بتر سوق العبيد ! يالتانيت وطيبتها ! إنك تسعى في خراب سيدك ؟ ! كتموا أنفاسه في المزبلة ! ويحك ! وأين ما تبقى من العبيد ؟ هل اشتركت في قتلهم مع الجنود ؟ » وكان وجهه مرعباً كل الرعب حتى هربت النساء وتقهقر العبيد والتفوا حول بعضهم بشكل دائرة . وارتمى جدنيم على الارض يقبل نعليه بحرارة ، وظل هاميلكار رافعاً يديه هاماً بضربه .

وأخذ إدراكه النير يعاوده ، كما كان يعاوده في أشد الساعات هولا في ساحات القتال ، فتذكر كثيراً من الأشياء المنكرة وكثيراً من الأمور الوضيعة السافلة التي أشاح بوجهه عنها في الماضي ورأى على نور سورة غضبه جميع ما منى به من الضربات . لقد هرب جميع نظار حقوله حذر بطش الجنود بهم : وقد يكون هربهم لتواطئهم مع البربر فجميع عماله ووكلائه يخدعونه ، وهو يضبط نفسه وقد طال ضبطها . فصاح آمراً :

ـ « خذوا العبيـد وسموهم فى جباههم بالحديد المحمي بالنار كما يوسم الأنذال ! » .

فحملوا إلى البستان أشـكالا من أطواق الحديد والأصفاد والسكاكين والسلاسل والأغلال ، لشد الأرجل والمناكب ، كما جاءوا « بالعقارب » وهى سياط ذات ثلاثة سيور من جلد تنتهى بمخالب من نحاس .

ثم أداروا وجوه الجميع الى الشمس ، لجهة مولوخ المفترس ، وألقوا البعض منهم على الأرض منبطحا على بطنه مستلقيا على ظهره ، وأوقفوا الاخرين ، وهم المحـكوم عليهم بالجلد إلى جانب الأشجار وتولى رجلان جلد الواحد منهم ، فهذا يعد الجلدات وذلك يكيل الضربات .

كان الجلاد يضرب بكلتا يديه ، وسيور الجلد تصفر فتتناثر من تحتها قشور أشجار الدلب ، ويتطاير الدم نقطا تغطى الاوراق ، وعنـد جذوع الأشجار كتل من اللحم تئن وتعوى من الالم ، وكان الذين يشدون بالحديد يقطعون بأظافرهم وجوههم ، بينما كانت تسمع طقات المسامير الخشبيةودقات المطارق الخرس أو صراخ حاد يشق عنان الجو من وقت إلى وقت . وهناك عند المطابخ ، بين الأطمار الرثة الممزقة أو بين الشعور المقصوصة ، وقف أناس يزكون الجمر بمراوحهم ، ثم ارتفعت روائح اللحم المشوى . وكان المجلودون على آخر رمق من الحياة يدلون رؤوسهم على أكتافهم وعيونهم مغمضة والقيود تشد أذرعتهم ، وأما الاخرون المشاهدون فقـد علت من صدورهم صيحاتالرعب ، والأسود ، وقد تذكرت يوم الوليمة ، كانت تتمطى وتتثاءب مادة رؤوسها من حوافى الحفائر .

وشوهدت وقت ذاك سلامبو على طنف المصطبة وهى تذرعه مسرعة يمينا ويسارا ، ورآها هاميلـكار وخيل اليه أنها تمد ذراعها نحوه ، بحركة تنم عن الرعب ، لتلتمس منه عفوا عن المحـكوم عليهم ، فمـال متغلغلا فى حديقة الفيلة .

وكانت هـذه الحيوانات موضع فخر بيوتات القرطاجيين لانها حملت أجدادهم وأكسبتهم الحروب ، وكانوا يوقرونها ويعدونها صفيات الشمس. وفيلة ميجارا أقوى الفيلة في قرطاجة ، وقد كان هاميلـكار أخذ الأقسام والايمان على أبدالونيم قبل سفره بأن يسهر عليها ويوليها عنايتـه ، وجميع هذه الفيلة قد نفقت بسبب تقطيع أعضائها ولم يبق منها الا ثلاثة مرتمية على الأرض على الغبار أمام بقايا معالفها . فعرفته وأقبلت نحوه ، وكان الواحد منها مشقوق الاذنين والثانى مقرح الركبتين من جرح بليغ والثالث مقطوع الخرطوم ، وهى مع ذلك تنظر إليه بمظهر الحزين كأنها من العقلاء ، وكان المقطوع الخرطوم يحاول أن يتملق اليه بحنى هامته الضخمة وبطى عرقوبيه ، وبطرف حيزومه البشع الشكل . فنفرت دمعتان من عينى هاميلـكار لتودد الفيل له وهجم على أبداالونيم وهو يصيح :

ــ آه . آه . إلى الصلب ! إلى الصلب ! أيها البائس .

فأغمى على الخادم وسقط منطرحا على قفاه .

ومن وراء مصانع الأرجوان المتصاعد دخانها إلى الجو ، علا عواء ابن آوى ، فتوقف هاميلـكار عن متابعة السير . لقد سكن غضبه فجأة لتذكره ابنه ، كما لو كانت يد اله قد لمسته . فابنه امتداد لقوته وتـكملة غير محدودة لشخصه ، وذلك ما كان يتوقعه ، ولم يستطع العبيد المرافقون له أن يجدوا تعليلا لهذا السكون المفاجيء .

واتجه نحو مصنع الأرجوان مارا من أمام سجن العبيد وهو بيت مستطيل من الحجر الاسود مبنى فى حفرة مربعة يوصل اليه من طريق ضيقة وعلى أربعة سلالم قائمة فى الزوايا . وكان هاميلـكار واثقا من أن « إيدى بعل » سينتظر الليل حتى يكرر الاشارة المتفق عليها وأنه لا داعى الى الاسراع ، فنزل الى السجن رغم تحذير بعض مصاحبيه وتبعه أكثرهم جرأة.

وكان باب السجن مفتوحا وأشعة الشفق تتسلل من الـكوى الصغيرة

بحيث يمكن تمييز ما فى الداخل ، فرأى هاميلكار سلاسل محطمة مدلاة من الجدران :

كان ذلك كل ماتبقى من أسرى الحرب !

فاصفر اذ ذاك وجهه إصفرارا شـــديدا ، ورآه الواقفون خارجا ، المائلون بأبصارهم نحو الحفرة ، يستند الى الحائط باحدى يديه كى لا يسقط .

ولـكن ابن آوى عاد يكرر عواءه ثلاثا ، فرفع هاميلـكار رأسـه دون ان ينبس ببنت شفة أو يبدى حركة ، حتى اذا غربت الشمس تمـام الغروب اختفى وراء سياج الصبار .

وفى المساء ، فى معبد اشمون وأمام جمعية الأغنياء ، قال لهم وهو داخل:

ـ « يا أنوار البعول ! لقد رضيت بأن أتولى قيادة القوات القرطاجية لمحاربة جيش البربر » .

* * *

(٨)

معركة ماكار

ومنذ الغداة أخذ هاميلكار من « السيسيت » مائة وثلاثة وعشرين ألف « كيكار » من الذهب، وضرب على الأغنياء ضريبة مقدارها أربعة عشر « شيكالا » ، واشترك النساء والاولاد في دفع هذه الضريبة ، وأرغم جماعات الكهنة على الدفع رغم أن عادات القرطاجيين كانت تعد هذا أمراً منكرا ، واستولى على جميع البغال والخيل والأسلحة ، وحاول أناس إخفاء ثرواتهم فصودرت أموالهم ، ولكي يخزى البخلاء وهب الجيش من ماله ستين شكة سلاح وألفا وخمسمائة « جومور » من الدقيق أى ما يساوى كل ماقدمته شركة العاج .

وأرسل فجلب جنودا من ليجوريا ، بلغ عددهم ثلاثة آلاف رجل من ساكنى الجبال المدربين على صيد الدببة ونقدهم سلفا أجرة ستة أشهر قمرية بواقع أربعة « مين » عن اليوم.

وكان لا بد من تأليف جيش ، ولكنه مع ذلك لم يضم إليه ، كما فعل هنون ، جميع المواطنين على السواء ، فرفض قبول تطوع الذين يمارسون الأعمال وهم جلوس ، والذين كانوا كبار البطون أو صغار النفوس جبناء ، ولكنه قبل ضائعى الشرف وحثالة سكان مالكا ، وأبناء البربر ، والمعتوقين من العبودية ، ووعد أن يكافىء القرطاجيين الدخلاء بمنحهم جميع حقوق المواطن القرطاجي .

وأول ماوجه إليه اهتمامه إصلاح الكتيبة ، فان فتيانها المدلين بجمال

خلقهم ، والمتوهمين أنهم عباقرة رجال الحرب فى الجمهورية ، كانوا يحكمون انفسهم بأنفسهم ، فعزل الضباط وأخذ يعامل الجنود منهم بخشونة ويجبرهم على الجرى وعلى صعود مرتفعات « بيرسا » دون توقف وعلى رمى الحراب والمصارعة والنوم ليلا فى الميادين و وكانت اسرهم تفد لزيارتهم مشفقة على ما صاروا إليه .

وأوصى بعمل الحراب القصيرة وبتقوية طاقات الأحذية ، وحدد عدد الخدم والأمتعة . وكان مودعا فى معبد مولوخ ثلثمائة حربة من الحراب الرومانية الثقيلة فأمر بالاستيلاء عليها رغم احتجاج الكهنة .

ونظم سربا من الفيلة التى نجت من معركة أوتيك وضم إليها الفيلة التى كان يملكها الأفراد ، فبلغ عددها اثنين وتسعين فيلا ، ضراها على الوثوب وجعل منها قوة هائلة ، وسلح قادتها بالدقاميق والمقصات ليستطيعوا فج هاماتها إذا جمحت فى ميادين القتال . ولم يجز للمجلس الأعلى تعيين القواد بل احتفظ لنفسه بهذا الحق رغم محاولة القدماء بأن يتمسكوا بنص القوانين ولم يعد أحد يجسر على الهمس بالشكوى بل رضخ الجميع لقوة عبقريته .

فهو وحده المهيمن على شئون الحرب والحكومة والمالية ، وتجنبا لكل تهمة قد توجه إليه ، طلب هو بنفسه تعيين هنون مراجعاً لحساباته .

وأخذ يجدد الحصون والحواجز ، وتوصلا لتوفير الحجارة أمر بهدم الاسوار الداخليه القديمة التى أصبحت عديمة النفع ، ولكن تفاوت الثروات التى حلت محل فوارق الجنس كانت لا تزال تفرق بين أبناء المغلوبين وبين أبناء الفاتحين ، ولذلك فان الخاصة من المواطنين نظرت نظرة سخط إلى تدمير تلك الخرائب ، ولكن عامة الشعب فرحت بهذا الاجراء دون أن يكون لذلك تعليل أو سبب .

وكان الجنود ، من الصباح حتى المساء ، يسيرون بعرض فى الشوارع . وفى كل وقت كان يسمع نفخ الابواق وترى الخوذ والخيام والرماح

محمولة على مركبات النقل ، والنساء فى الاحواش مقبلات على تفصيل المنسوجات . وسرت عدوى الحماس من الواحد الى الآخر . فروح هاميلكار تملأ الجمهورية . وقسم جنده الى أعداد مزدوجة وحرص على أن يضع فى الصفوف على التتابع رجلا شديداً فرجلا ضعيفا ، لكى يرغم الضعيف أو الجبان على التقدم مدفوعا برجلين شديدين . ولكنه على الرغم من ضم الجنود القدماء إلى أحسن عناصر قرطاجة من الجنود الجدد لم يستطع أن يكون أكثر من كتيبة قوامها أربعة آلاف وستة وتسعون جنديا من المشاة ، تحميهم الخوذ الفولاذية ويحملون عوالى الرماح من أعواد من الخيزران يبلغ طول الواحد منها أربعة عشر ذراعا .

وهناك ألف رجل يحملون المقاليع والخناجر وينتعلون النعال الخفيفة .

وكان عدد الفرسان ألفا وتسعمائة ، وهو عدد ما تبقى من الكتيبة القديمة ، وكلهم مغطى بنعال من القلز الاحمر كجند « الكليبنار » الاشوريين ، وفوق ذلك كان لديه أربعمائة نبال ركبان من المسمين « ثارنتان » على رؤوسهم قبعات من جلد بنات عرس ، وبأيديهم فؤوس ذات حدين ، وملابسهم قمصان من جلد . وكان هناك ألف ومئتا زنجى من العدائين يسيرون جنبا إلى جنب مع الجياد وهم ممسكون بيد واحدة بنواصيها ، وأصبح كل شيء معداً للقتال ، ومع ذلك فهاميلكار قابع فى مكانه لا يبرح .

وكثيرا ما كان يخرج فى الليل من قرطاجة وحيداً فيتعدى المستنقع متجها نحو مصب نهر ما كار . هل كان يريد الانضمام إلى المرتزقة ؟ وكان الليجوريون النازلين فى «مابال» يحدقون بقصره .

وبدت مخاوف الاغنياء ، كأنها ستتحقق . وإذا بهم يرون ذات يوم ثلثمائة من البربر يقتربون من الاسوار ففتح لهم الزعيم الباب وكانوا فارين من معسكرهم جاؤوا لينضموا إلى سيدهم إما لرهبة منه أو لامانه له .

ولم تفاجيء البربر عودة هاميلكار لاعتقادهم أن مثله لا يمكن أن يموت ،

لقد عاد ليفى بوعوده لهم ، وهـذا الوفاء ممكن تحقيقه رغم الخلاف الواقع بين الجيش والوطن ولا سيما أنهم لم يكونوا يعـدون أنفسهم مخطئين لنسيانهم الوليمة .

ولـكن الجواسيس الذين وقعوا بيد البربر بدلوا عقيدتهم به . فكان فى ذلك فوز المشاغبين أنصار الحرب ، بل إن المعتـدلين أنفسهم أصبحوا هائجين . وأخذهم الملل لطول حصارهم للمدينتين بدون جـدوى وأصبحوا يفضلون الالتحام فى معركة . وانفصـل عن الجيش كثيرون وأصبحوا فى البرية يهيمون ، ولكن لـما اتصل بهم نبأ تسلح قرطاجة عاد هؤلاء الهائمون ورقص ماتو فرحا وهو يقول : « وأخيرا وأخيرا » .

وتحولت البغضاء التى كان يكنها لسلامبـو الى والدها هاميلكار ، وأصبح بغضـه يجـد أمامه هدفا واضحا . وتبلور الانتقام أمام عينيه وأصبح موقنا من تحقيقه وقرير عين بالتفكير به ، وكان يرى نفسه وسط جنده رافعاً على سـنان رمحه رأس القائد ، وطورا فى المخدع ذى السرير الارجوانى يضم العـذراء بين ذراعيه يملأ وجهها بالقبلات ويداعب بيديه فرع رأسها الطويل الاسود ، وهذا التخيل لأمل بعيد يعرفه بعيد التحقيق كان يعذبه عذاب السعير ، فآلى على نفسه وقد انتخبه الجند قائدا عاما لهم أن يثيرها حربا لا هوادة فيها ليقينه بأنه لن يخرج منها حيا .

وأقبل على سبنديوس وقال له :

ــ خذ رجالك وأنا سآخذ رجالى ، ونبه أوتاريت إلى مثل هذا ، لاننا إذا تواكلنا وتركنا هاميلـكار يهاجمنـــا فسيقضي علينا ! أسمعت ،قم وعجـل .

فدهش سبنديوس لدلائل السلطة التى كانت تتجلى فى كلام مانو وقد عهده يقاد ولا يقود ويستشيط غضبا فلا يعتم أن تهدأ ثائرته ، ولـكنه الآن أصبح أكثر هدوءاً واشـــد هولا وأصبحت الارادة تشع فى عينيه كلهب النار المحرقة.

ولكن سبنديوس لم يذعن لرأى ماتو لأنه كان ينزل فى خيمة قرطاجيه ذات حواشي تزدان باللالىء ، ويشرب الخمور المثلجة فى أكواب فضة ، ويلعب بالكعاب ويرسل شعر رأسه ويتباطأ فى شد الحصار ، ومن جهة أخرى كان له فى المدينة عيون وأرصاد ، فلن يبرح مكانه لثقته من أن المدينة ستفتح له قريباً أبوابها .

وكان نارهافاس الذى يتنقل بين المعسكرات الثلاثة جالساً بالقرب من سبنديوس فوافقه على رأيه بل زاد فلام اللو على محاولته ترك الخطة التى اتفقوا عليها ، مدفوعاً بشجاعته البالغة حد التهور .

فصاح به ماتو :

— « إن كنت خائفاً فعد من حيث أتيت ! لقد وعدنا بالغاز والكبريت وبالفيلة والمشاة والخيل ، فأين ما وعدت به ؟ »

فذكره نارهافاس بأنه هو الذى قضى على البقية الهاربة من جيش هنون وأن الفيلة تصاد فى الغابات . وأنه يسلح المشاة . وأن الخيل فى طريقها إليهم وكان وهو يتكلم يداعب ريشة الطاوس المدلاة على كتفه . ويقلب بعينيه كأنه امرأة . ويفتر عن ابتسامة مثيرة . ولم يجد ماتو ما يجيب به .

وإذا هم برجل لا يعرفونه أشعث أغبر يتصبب العرق من جسمه ورجلاه داميتان . وحزامه مفكوك . وتنفسه يهز خاصرتيه النحيلتين . يلقى بحديث بلغة عامية غير مفهومة . وهو يحملق بعينيه كمن شهد قتالا . فأسرع ملك نوميديا إلى الخارج ونادى بفرسانه . فاصطفوا صفين فى السهل على شكل نصف دائرة متجهة إليه . ووقف نارهافاس وهو على صهوة جواده ، وقد حنا رأسه وأخذ يعض على شفتيه فقسم رجاله نصفين واوعز للقسم الأول

ان ينتظر . وأشار إلى الثانى أن يسير فى ركابه . فأسرعوا يعدون على خيولهم حتى اختفوا فى الأفق على سفوح الجبال .

— فتمتم سبنديوس : « أيها السيد لا أحب هذه المصادفات . هذا هاميلكار يجىء وذاك نارهافاس يمضى ! .

فقال ماتو بلهجة الاحتقار : « لا اهمية لذلك » .

وكان فى ما حدثهم به الرجل الهارب ما يدعوهم إلى الاسراع بالانضمام إلى جيش أوتاريت ليتقوا هجوم هاميلكار . ولكنهم إذا رفعوا الحصار عن أوتيك خرجت حاميتها لتضربهم فى أقفيتهم ساعة يقف القرطاجيون فى مواجهتهم . وبعد تبادل الآراء قرروا اتخاذ الاجراءات الآتية وشرعوا فى الحال بتنفيذها :

أسرع سبنديوس على رأس خمسة عشر ألف مقاتل فاحتل الجسر المقام على نهر ماكار على مسافة ثلاثة أميال من أوتيك فحصنوا جوانبه الأربعة بأربعة أبراج هائلة نصبوا عليها المنجنيقات . ثم سدوا جميع معابر الجبال وممراتها ومضايقها بجذوع الاشجار وجلاميد الصخور . وبحزم الأشواك المشبكة وحيطان الحجر . ووضعوا على قمم الجبال أكداساً من الهشيم ليشعلوه فيكون بمثابة إشارات تعطي للجيوش ووكلوا بذلك رعاة مهرة حديدى البصر .

قدروا أن هاميلكار لا يهاجمهم . كما فعل هنون . عن طريق جبل المياه الساخنة . لعلمه بأن أوتاريت المهيمن على الريف سيسد عليه الطريق وليقينه من أى هزيمة تلحقه فى أول الحرب تقضى عليه قضاء مبرماً . وأن انتصاره سيكون فاتحة انتصارات لاحقة . كما قدروا أيضاً أن هاميلكار يمكنه إنزال جيشه من البحر عند راس « ريزان » ولكنه لو فعل لوضع نفسه

بين جيشين لا يمكنه التغلب عليهما بقواته القليلة العدد . فاستنتجوا من كل ذلك أنه سيختار السير على طول قاعدة أريانا ثم ينحرف يساراً ليجتنب مصب نهر ما كار فيبلغ هكذا الجسر على خط مستقيم . وهناك يقف ماتو متربصاً .

وكان ماتو يقضى الليل وهو يراقب على ضوء المشاعل العمال الذين يمهدون الطرقات ثم يخف إلى هيبوزريت ليراقب أعمال تحصينات الجبال ثم يعود دون أن يذوق طعم الراحة . ويراه سبنديوس فيغبطه على قوته . وماتو يعمل بكل مايوحيه إليه سبنديوس خاصاً بتوجيه الجواسيس واختيار حرس الليل وإدارة الالات وسبل الدفاع ولم يعودوا يتحدثان عن سلامبو لان سبنديوس لا يحلم بها ولان ماتو يمنعه الحياء من ذكرها .

وكثيرا ما كان يرتاد جوار قرطاجة محاولا اكتشاف كتائب هاميلكار محدقا بعينيه فى الافق . ثم يعود فينام منبطحاً على بطنه متوهما خفقان الدم فى شرايينه وقع أقدام الجيش .

وقال لسبنديوس إذا لم يقدم هاميلكار بجيشه قبل ثلاثة أيام فسأسير أنا للقائه فأرغمه على القتال ، ومر يومان وسبنديوس يحاول منعه من المسير ولكنه تحرك فى اليوم السادس .

ولم يكن جزع القرطاجيين وتلهفهم على القتال بأقل من جزع البربر . وهكذا فسكان البيوت كالنازلين تحت الخيام ، تدفعهم الرغبة ويتملكهم القلق ، وكل يسائل نفسه ما الذى يؤخر هاميلكار عن الاقدام .

وهاميلكار يصعد من وقت إلى آخر على قبة معبد أشمون . حيث يقف راصداً الأقمار فيراقب الريح .

وفى ذات يوم . وفى الثالث من شهر طيبىء . رآه النـاس نازلا من

الاكروبول بخطى متسعة مسرعة . فارتفع اللجب واللغب فى حى ما بال وزادت الحركة فى الشوارع ، وأخذ الجند يتقلدون أسلحتهم بين صفوف النساء الباكيات المرتميات على صدورهم ، ثم أسرعوا إلى ميدان خامون لينتظموا فى صفوفهم . ولم يكن مسموحاً لاحد أن يتبعهم . أو أن يتحدث إليهم أو يقترب من الاسوار . وساد الصمت على المدينة وقتاً ما فأصبحت كأنها قبر من القبور . ووقف الجند يستندون إلى رماحهم وقر ذووهم فى بيوتهم يصعدون التنهدات .

وعند غروب الشمس خرج الجيش من الباب الغربى . ولكنه بدل أن يسلك طريق تونس أو ان يتجه إلى الجبال فى اتجاه أوتيك ـ ظل يسير على شاطىء البحر حتى بلغ المستنقع حيث يجد السائر رقعا مستديرة من الارض علاها الملح فبدت فى النهار كأنها صحاف من الفضة واسعة كبيرة منسية على الشاطىء .

وأخذت برك مياه المستنقع تتعدد وأصبحت الارض أشد رخاوة تغوص فيها الاقدام . فلم يتراجع هاميلكار بل ظل سائراً فى الطليعة على متن جواده الذى كان يتقدم فى الوحل ، والمهماز يعمل فى وركيه . وجسمه ملطخ بالبقع الصفر كتنين والزبد يخرج من شدقيه فيرتمى حواليه والليلة غير قمراء . وصاح بعضهم لقد صار هلاكنا وشيكا . فأمر بهم فجردوهم من أسلحتهم ودفعوا بها إلى العبيد . وزاد عمق الوحل . فاضطروا إلى ركوب الدواب وتعلق بعضهم بأذناب الخيل . وكان الاشداء يجررن الضعفاء ورجال فرقة الليجوريتيين يدفعون المشاة بأسنة رماحهم . واشتد حلك الظلام وضلوا الطريق . فتوقف الجيش عن المسير . فتقدم الخدم أمام الجيش وساروا يبحثون عن معالم الطريق . وهى أوتاد كان هاميلكار قد أمر بدقها هنا وهناك هداية للجيش . وأخذوا يرسلون الصيحات فى الظلام .

والجيش يتبعهم من بعيد . وبعد لأى أصبحت الأرض أشد صلابة ، ثم لحوا خطاً مقوساً مبيضاً غير واضح ، تلك ضفاف نهر ما كار . وعلى الرغم من صبارة البرد لم يشعلوا النيران .

وفى منتصف الليل ارتفعت هبات الريح . فأمر هاميلكار بايقاظ الجنود وحذرهم من النفخ فى الأبواق . فأخذ الضباط يربتون على اكتاف الجند لايقاظهم .

ووقف رجل مديد القامة فى مجرى النهر فلم يتجاوز علو الماء وسطه فتحققوا من إمكان عبوره ، فأمر القائد بأن يوضع صف من الفيلة تعدادها اثنان وثلاثون على بعد مائة خطوة منهم . وأن تقف الفيلة الاخرى بعيدا على خط أسفل من الاول ، لكى تتلقى الرجال الذين قد يحملهم التيار . وعبر الجند بين جدارين من الفيلة ، وأسلحتهم مرفوعة فوق رؤوسهم . وكان هاميلكار قد راقب الريح والنهر فرأى ان الدبور إذا هبت حملت الرمال إلى النهر فكونت ممرا فى عرضه .

وأصبح الجيش على الضفة اليسرى أمام أوتيك ، وفى سهل فسيح . وتلك ميزة للفيلة التى هى قوة جيشه .

فألهبت عبقرية القائد صدور جنده حماساً ، وعادت إلى أنفسهم الثقة التامة . وأبدوا رغبتهم بالهجوم منذ الساعة على البربر . ولكن القائد ألزمهم بالراحة ساعتين ، ولما بزغت الشمس تقدموا فى السهل على ثلاثة صفوف : فالفيلة ثم المشاة الخفيفة فالفرسان ثم الكتيبة .

ودهش البربر المحاصرين لاوتيك أو المنتشرون حول الجسر وعددهم خمسة عشر ألفا ، لرؤيتهم الارض من بعيد ، تتماوج . وكانت الريح تهب عنيفة شديدة فتعصف بالرمال وتدفعها إلى الجو متناثرة قطعا شقرا ترتفع ثم

تتمزق وتعود فترتفع بلا انقطاع فتحجب الجيش القرطاجي عن عيون البربر . فكان بعضهم إذا رأى القرون المثبتة فى الخوذ ظن أن هناك قطيعا من البقر ينقدم ، ويرى البعض الآخر الاردية الفضفاضة تتحرك فيظنها أجنحة طيور ، وأما الذين ألفوا الاسفار فى القفار فكانوا يهزون بأكتافهم مستهزئين وينسبون ما يراه هذا وذاك إلى تأثير السراب الخادع . ومع ذلك فهناك شىء هائل ضخم يتقدم .

وكان الهواء يدفع فوق القفر بخارا ضئيلا أرق من الانفاس . ومافوقه الشمس تزداد لمعانا فترسل شعاعا حادا يهتز فيرد إلى الوراء أعماق الفضاء . ويتغلغل فى الاشياء فيجعل المسافات مستحيلا قياسها . فالسهل الافيح يزداد اتساعا من كل صوب ، على مدى نظر الناظر . وتموجات الارض التى لا تكاد تحس تمتد حتى الافق الاقصى الذى يحده خط كبير أزرق هو البحر .

وخرج الجيشان من الخيام . والجنود يرون أهل أوتيك يزدحمون على الاسوار ليتمكنوا من اجتلاء المنظر .

ورأى البربر بعد جهد خطوطا متعارضة ذات نقط متساوية . اخذت تتكاثف ثم تتعاظم فاذا هى تلال سود تتمايل وتتأرجح . فنباتات عظيمة بدمعة من العليق تتجلى ، فصاحوا صيحة رجل واحد : « القرطاجيون ! » وبدون إشارة تبدوا وأمر يصدر . تقدم المرتزقة سواء منهم المحاصرون . لاوتيك أو المرابطون علي الجسر . جماعات غير منتظمة ليكروا علي هاميلكار .

وسمع سبنديوس اسم هاميلكار فارتعدت فرائصه فأخذ يردد ، وقد ضاقت أنفاسه : « هاميلكار ! هاميلكار » وماتو لم يكن هناك! فما العمل

وما الحيلة . ولا سبيل إلى الهرب . وزاد فى اضطرابه هول المفاجأة وخوفه من القائد الزعيم ولا سيما اضطراره إلى اتخاذ قرار سريع . ورأى نفسه فى الغداة وقد نفذت فيه مئات الحراب . وقطعت عنقه واعدم . ولكن سمع أصواتا تناديه من كل صوب . ورأى ثلاثين ألف جندى ينتظرون أوامره ليتبعوه ! فاضطربت نفسه ولكنه أخذ يعللها بالظفر فامتلأ غبطة وأحس أنه أكثر إقداما من « إيبامينونداس(١) » فطلى وجهه بطلاء قرمزى ليخفى شحوبه ولبس درعه وشرب كأسا من الخمر صرفا وجرى مسرعا إلى اللحاق بجيشه الذى كان يسرع الخطى للانضمام إلى الجيش المحاصر أوتيك .

وانضم الجيشان إلى بعضيهما بسرعة خاطفة قبل أن يتمكن هاميلكار من تنظيم صف جيشه للقتال . فأخذ يتباطأ فى السير شيئا فشيئا . وأوقف الفيلة وهى تتهادى بهاماتها المزدانة بريش النعام وتضرب أكتافها بخراطيمها ومن خلال صفوف الفيلة تبدو المشاة الخفاف وبعيدا منهم خوذ « السكلينابار » بأسلحتهم اللامعة . ودروعهم . وبالريش الذى يزدانون به . وبألويتهم الخفاقة .

وكان جيش قرطاجة وعدده أحد عشر ألفا وثلاثمائة وستة وتسعين رجلا لا يقوى على الالتفاف بجيش البربر لانه كان مربعا طويلا ضيق الجناحين متراصا .

ورأى البربر جيش القرطاجيين قليل العدد وجيشهم يبلغ ثلاثة أضعافه ففرحوا فرحا عظيما ولا سيما أنهم لم يروا هاميلكار على رأسه . ولعله لم يعد من سفره أو ظل بعيدا عن الجيش . وهب أنه سيشترك فى القتال فأية أهمية لذلك ! وأى شأن لمثل هؤلاء التجار فى معامع القتال ؟ بمثل هذا حدثوا

---

(١) ايبامينونداس : قائد يونانى مشهور . كان زعيم الديموقراطيين فى طيبة . تغلب على جيوش سبارطه فى معركة لوكتر سنه ٣٧١ ق . م . وفى معركة ماتينى التى جرح فيها جرحاً مميتاً . (المترجم)

انفسهم . فازدادوا شجاعة وحماساً ، وأدركوا الخطة المثلى لتنظيم صفوفهم وشرعوا فى تنفيذها قبل أن يصدر إليهم سبنديوس أمره :

فاصطفوا فى خط طويل مستقيم ، يتجاوز طرفاه جناحى الجيش القرطاجى ، ليقوموا بحركة التفاف يطوقوه بها . وبلغوا بحركتهم هذه إلى بعد ثلاثمائة قدم من جناحى عدوهم ، وإذا بالفيلة تتراجع بدل أن تتقدم . ويفرقة الجيش وبعمال الجيش يتبعون الفيلة فى تراجعها . فطرب البربر . وأيقنوا بأن القرطاجيين يلوزون بالفرار ، فارتفعت من صدورهم صيحات الازدراء والاحتقار . وناداهم سبنديوس من فوق جمله « لقد كنت أتوقع هذا فهيا إلى الأمام ! » فانطلقت الحراب والسهام وقذائف المقاليع كرمية رجل واحد . وأخذت الفيلة . وقد أصيبت ظهورها بالسهام تعدو والغبار يغطيها حتى توارت عن أعينهم كأنها ظلال غيوم .

وسمع فى المؤخرة لجب لوقع اقدام كثيرة ونفخ فى الأصوار والأبواق نفخاً شديداً تعالى فغطى وقع الأقدام ، واجتذب البربر ذلك الفضاء القاتم بأعلاه من الغبار كما تجتذب الغريق اللجة ، فارتمى بعضهم فيه . فظهر أمامهم فرقة من المشاة الخفاف . وأخذت تتجمع وانضمت إليها فصائل من المشاة الثقال وأقبل الفرسان يعدون . ذلك أن هاميلكار لما رأى هجوم البربر أمر الكتيبة بأن تتباعد أقسامها لتترك بينها فضاء لكى تمر من هذا الفضاء فرق الفيلة والمشاة الخفاف والفرسان . فتتحول بسرعة إلى الجناحين . وضبط حساب أبعاد المسافات بحيث يتهيأ للجيش بكامله أن يكون مصطفا فى خط مستقيم عند اشتباك البربر به .

فأصبح ترتيب جيشه هكذا : تقف الكتيبة فى القلب بشكل مربعات مليئة قوام كل منها ستة عشر رجلا . وجميع ضباط الفرق يقفون فى الوسط والأسلحة الجديدة تغطيهم لأن الصفوف الستة الأولى كانت تمسك برماحي

من اوساطها والعشرة صفوف التي تليها تسندها برجالها الواقفين على أكتاف رفاقهم بالتتابع ، وجميع الوجوه مغطاة حتى أنصافها بطرر الخوذ والأرجل اليمنى محمية بطاقات من القلز . والمجنات العريضة الأسطوانية تعلو حتى الركب وهذه الكتلة المربعة الهائلة تتحرك معا كجسم واحد . فهى تدب وتحيا كانسان وتتحرك كآلة .

وعلى كل جنب من جنبات هذا المربع وقفت مجموعتان من الفيلة التى كانت تنتفض لتنفض ريش السهام العالق بجلودها السود . وفوقها قائدوها مقرفصين على عراقيبهم بين باقات الريش الابيض وهم ممسكون بحبال الخطاطيف ليملكوا قيادها . ويكبحوا جماحها . وفى أبراجها رجال مغطون حتى أكتافهم يوجهون إلى كل صوب مغازل من حديد معلقة على جوانب أقواس مؤثرة عليها مشاقات مشتعلة .

وعلى يمين الفيلة ويسارها حملة المقاليع يلفون واحداً على حقويهم . والثانى على رأسهم . والثالث فى يدهم اليمنى . ثم الفرسان الكليناباز . ومع كل منهم زنجى يسددون رماحهم من بين آذان جيادهم المغطاة مثلهم بالذهب ثم يقف الجنود الخفاف الاسلحة متباعدين عن بعضهم . وهم يحملون مجنات من جلود الفهود يخرج من جنباتها رؤوس الحراب الممسكين بها بأيديهم اليسرى . ويكمل بناء هذا الجدار البشرى فرسان « الترانتان » يقود كل منهم جوادين مقرونين .

وعلى نقيض هذا فان جيش البربر لم يتمكن من المحافظة على نظامه . فقد بدت فجوات . وفراغ وتموجات فى صفه الطويل المتمدد . فضلا عن أن رجاله كانوا كلهم يلهثون تعبا لان الجرى أنهك قواهم .

وهجمت الكتيبة بثقل تدفع أمامها جميع رماحها . فالتوى خط

المرتّقة من وسطه . لاصطدامه بهذا الوزن الثقيل . لانه كان رقيقا غير صفيق .

وعند ذاك امتد جناحا القرطاجيين ليمسكوا بهم ، وتبعتهما الفيلة فتمكنت الكتيبة من شطر جيش البربر شطرين بقوة عوالى رماحيهما . واضطرب الشطران فأخذ الجناحان يردانهما نحو الكتيبة بالنبال وبقذائف المقاليع ، وكان لابد للبربر من فرسان لينقذوا الموقف . ولم يكن لديهم سوى مائتين من النوميديين الذين انقضوا على ميمنة الكليناباًر لان ماتبقى من الفرسان كان محصوراً لا يمكنه الخروج من صفوفه . فأصبح الخطر واها ولابد من اتخاذ قرار سريع .

فأمر سبنديوس بمهاجمة الكتيبة من جانبيها كليهما . لكي تشطرها شطرين فينفذ منهما ولكن صفوفها الضيقة المتكتلة تسللت تحت الصفوف الطويلة . وعادت إلى مراكزها وواجهت البربر بقوة فى جانبيها تعادل القوة التى كانت عليها لما هاجمتهم . بجبهتها . فأخذوا يضربون على أعواد الرماح ولكن الفرسان من الوراء كانوا يشلون هجماتهم . كما كانت للكتيبة المعتمدة على الفيلة تنكمش حينا . وتتمدد آخر وتواجههم بجميع الاشكال الهندسية : مربعة أو بشكل مخروطى . أو مستطيل . أو معين ، أو مربع منحرف أو هرمى . وهكذا فان حركة مزدوجة كانت تتوالى فى قلب الكتيبة من مقدمتها إلى مؤخرتها . فالذين كانوا فى مؤخرة الصف يسارعون إلى الحلول محل من هم فى المقدمة . وهؤلاء بسبب تعبهم أو لنقل جرحاهم يتقهقرون إلى المؤخرة ورأى البربر أنفسهم مدفوعين تحت الكتيبة وكان من المستحيل عليهم أن يتقدموا . وكأن الجيشين بالتحامهما محيط من البحار تطفو على سطحه قنابر الريش الحمر وقشور الاسلحة الحديدية . بينما تسيل على صفحاته المجنات الصافية اللون كزبد من الفضة . ومن

وقت إلى آخر يرى سيل عرم يسيل حدرا ثم يرتد صعدا ، وفى وسطه كتلة ثقيلة تقف ثابتة غير متحركة ، والرماح تميل ثم تعود فترتفع حينا بعد حين ، وفى مكان آخر خناجر عارية عجلى ، لا يبان منها إلا الرؤوس . وهجمات الفرسان توسع الحلقات التى تعود فتنطبق وراءها وهى تصعد الغبار ، وفوق ذلك جميعه أصوات الضباط ودقات اليراعات وصرير الأعداد ثم قذائف الرصاص وحجارة الخزف مارة فى الهواء مسمعة صفيرها ، منتزعة الخناجر من الأيدى ، والأدمغة من الجماجم . وكان الجرحى المحتمون وراء مجناتهم يمسكون بها بيد ويوجهون بالأخرى رؤوس سيوفهم إلى الأمام مسندين مقابضها إلى الأرض ، وآخرون منهم يتخبطون فى نقيع من الدم يديرون رؤوسهم ليعضوا أعقاب الأعداء بأسنانهم ، وفى هذا العجاج من العقير الكثيف والجمع المتراكم والضوضاء القوية ، إستحال تمييز الأشياء ، والجبناء الذين عرضوا تسليم أنفسهم لم تسمع أصواتهم . وكانوا إذا خلت أيديهم من السلاح يتجالدون جسما الى جسم ، فترتطم الصدور على الأذرع وتنقلب أجسام المغلوبين ، ورؤوسهم مرتمية إلى الوراء وأيديهم مشنجة . وحدث أن سرية واحدة قوامها ستون رجلا من « الأونبيريين » ثبتوا على أقدامهم ومزاريقهم بين عيونهم يصرخون بأسنانهم ولا يتزحزحون من مكانهم ، فأمكنهم أن يرغموا فرقتين على التراجع . وهجم رعاة من « أبيروس » على الكوكبة اليسرى من فرسان الكليناباز ، وأمسكوا بنواصى الخيل وأخذوا يلوحون أمامها بعصيهم ، فألقت بفرسانها عن ظهورها وجرت فى السهل هاربة .

ووقف حملة المقاليع فاغرى الأفواه وقد تشتتوا هنا وهناك . وأخذت الكتيبة تتذبذب وضباطها حيارى . ونشط منظمو صفوف البربر إلى دفع الجنود فأعادوا تنظيم الخطوط والتجمع وعادوا إلى الكد وأوشك النصر أن يتم لهم .

فعلت صرخة هائلة ، صرخة زئير ألم وغضب . كانت تلك أصوات الفيلة وهى تكر مسرعة فى خط مزدوج ، ذلك أن هاميلكاد انتظر حتى احتشد

البربر فى مكان واحد لكى يطلق عليهم فيلته ، وكان سواقوها قد اشتدوا فى نخزها حتى أن الدم جرى يسيل من آذانها . وكانت خراطيمها المدهونة بالزنجفر ترتفع مستقيمة فى الهواء كأنها حيات حمر ، وعلى صدورها حراب مثبتة ، وعلى ظهورها أذرع وقد أطيلت أنيابها بنصال حديدية محدودية كالصوارم وسقيت مزيجاً من الفلفل والخمر والبخور ليصبح أشد ضراوة ، وسارت تجرى وجلاجل قلاداتها ترن ، وما فوقها قادتها يطأطأون الرؤوس إجتناباً لشعل النار التى كانت ترمى من أعلى الأبراج .

وعمد البربر إلى رص صفوفهم جماعات متكتلة ليتمكنوا من الصمود أمام هجماتها فارتمت الفيلة بعنف فى وسطهم وأخذت مهاميز صدورها الشبيهة بمقدمات السفن تشق الجماعات فتعود إلى الالتحام ، والفيلة تخنق الرجال بخراطيمها أو ترفعهم بها الى جنود الأبراج أو تمزق بطونهم بأنيابها أو تقتلعهم من الأرض وترمى بهم إلى الجو . وقد تدلت أنيابها العاجية بقايا الأحشاء الممزقة العالقة بها كرزم حبال معلقة على صوارى . وكان البربر يحاولون أن يفقأوا عيونها أو يقطعوا عراقيبها . ويحاول أيضا نفر منهم أن يتسللوا تحت بطونها فيغمدوا فيها الخناجر حتى مقابضها ويموتوا مسحوقين مداسين ، وأكثرهم إقداما يتعلقون بسيورها ويأخذون ينشرونها تحت لهب النيران والقذائف والسهام ، حتى يقطعوها ، فتهوى عنها الأبراج كالحجارة . وحدث أن أربعةعشر فيلا من اللائى كن فى أقصى الميمنة ثارت ثائرتهن لجراحهن فارتددن على الصف الثانى ، فأخذ قادتهن الدقاميق والمقصات وضربوا بها مفاصل هاماتهن ضربا مميتا . فتقطعت الحيوانات الضخمة بعضها فوق بعض كأنها جبل ، وظل أحدها واسمه «غضب البعل» وهو أضخمها جثة ، يعج حتى المساء ، وفى عينه سهم قد استقر .

ولكن الباقيات منهن ظللن كالفاتحين الغزاة ، يتلذذن بما ينزلنه من محق وإفناء . فيطرحن الرجال على الأرض ويدسن وينكلن بالجثث والبقايا ، كما كن يدرن قوائمهن الخلفية فى حركة دوران مستديمة ، لكي يتمكن من صد الفرق المتراصة حولهن بشكل تيجان ، كل ذلك وهن يتقدمن إلى الأمام

وأحس القرطاجيون بعودة عزيمتهم ونشاطهم ، وعاد القتال فاستعد .

وأخذ الوهن يستولى على البربر وألقى رجال فرقة المشاة من الاغريق أسلحتهم ، فحل الرعب بالاخرين ، ورؤى سبنديوس مائلا على ظهر جمله وهو يستحثه بنخزة بحربتين فى كتفيه ، فهربوا كلهم حينذاك متجهين جريا صوب أوتيك .

ولم يحاول الكلينبار اللحاق بهم لأن جيادهم كانت متعبة ، والليجوريون أجهدهم العطش فأخذوا يلحون بطلب ورود النبر . وأما القرطاجيون وقد كان موقفهم وسط الصفوف ولم ينلهم من الجهد ما نال غيرهم ، فقد اخذوا يتلهفون شوقا وأسفا لهرب انتقامهم بهرب البربر وأوشكوا أن يبكروا لمطاردة الجيش المهزوم .

وبرز هاميلكار بين الصفوف ممسكا عنانا من فضة وتحته جواد مرقط كجلد النمر يتصبب منه العرق ، والشرائط المعلقة بقرون خوذته تخفق مع الريح وراءه ، وتحت فخذه اليسرى خوذته البيضوية ، فأوقف الجيش باشارة من مزارقه المثلث الرؤوس .

فقفز الترنتيون عن ظهور الجياد التى يمتطونها إلى مافوق الجياد المقرونة وساروا من اليمين واليسار إلى النهر باتجاه المدينة .

وقضت الكتيبة بسهولة على كل من تبقى من البربر ، وكان بعض هؤلاء إذا راوا السيوف مشهرة مدوا رقابهم وغضوا جفونهم ، ولكن بعضهم ظل يدافع دفاعا شديدا فقتلوهم ضربا بالحجارة من بعيد كما تقتل الكلاب الكلبة ، وأوصاهم هاميلكار أن يكثروا من أخذ الأسرى ، ولكن القرطاجيين كانوا يطيعونه ناقمين حاقدين لأنهم كانوا يتلذذون باغماد خناجرهم فى صدور البربر .

ولما كان الحر شديداً فقد عروا أذرعتهم ليسهل عليهم القتل كمثل الحصادين فى حصادهم ، فاذا نالهم التعب وقفوا يستريحون ويتطلعون إلى البرية متتبعين خطى فارس يعدو بجواده وراء جندى يجرى حتى إذا أدركه

أمسك بشعره ردحا من الزمن ثم أطاح رأسه بضربة فأس .

وأظلم الليل واختفى القرطاجيون والبربر ، وبدت الفيلة الهاربة تهيم فى الأفق فتبــــدو على ضوء الأبراج المحترقة متلألئة فى الظلام هنا وهناك كمنارات تضيع أنصاف أضوائها فى الضباب ، ولم يعد يلمح شيء آخر إلا تموجات مياه النهر الذى علا مستواه بما عليه من جثث يجرها إلى البحر . . !

***

وبعــد ساعتين وصل ماتو فلمح على ضياء الـكوا كب أكواما غير متساوية منتشرة على الأرض ، كانت تلك صفوف أبناء البربر ، فانحنى ليجدهم كلهم أمواتا ، فرفع صوته فى النداء فلم يجبه مجيب ، لقد ترك عند الصباح هيبوزريت على رأس جيشه ليزحف على قرطاجة ، ولما بلغ أوتيك كان جيش سبنديوس قد غادرها وكان أهل المدينة قد بدأوا باحراق الالات والمعدات ، فاستعر قتال مرير . ولـكن الجلبة التى ترتفع من جهة الجسد كانت تزداد لسبب لم يدركه ماتو ، فأسرع بالاتجاه الى مصدر الجلبة من أقرب طريق من ثنايا الجبال ، ولم يقابل أحداً في طريقه لأن البربر قد تفرقوا فى السهول .

ورأى أمامه كتلا هرمية الشكل صغيرة الحجم تخيم عليها الظلال ، وفى الضفة الأخرى من النهر ، قريبا منه أنوار تضىء على سطح الأرض ، ذلك أن القرطاجيين كانوا قد انسحبوا إلى ما وراء الجسر ، ولـكن القائد حرص على أن يخـــدع البربر فأقام مراكز كثيرة من الحرس على الضفة الأخرى .

وتقدم ماتو مسافة أخرى فبدت له رايات قرطاجة ، لأن رؤوسا لخيل كانت تبدو له مرفوعة فى الهواء ومثبتة على أسـنة رماح ، وسمع من بعيد ضوضاء شديدة ، وأصوات غناء ، وقرع كؤوس ، فأصبح لايدرى أين

هو ولا كيف يتوصل إلى اكتشاف مكان سبنديوس وامتلأت نفسه قلقا وجزعاً ، وضل فى الليـل وهو ناكص على أعقابه مسرع فى العودة إلى حيث كان ، وابيض ضياء الفجر فأبصر من قمة الجبل أوتيك وبقايا الالات التى سودهـــا الحريق . فبدت كأنها هيا كل لعظام جبابرة تستند إلى الأسوار .

وكان كل شىء هاجعاً فى صمت وضنك لا حد لها ، وبين جنوده وعلى جنبات الخيام رجال ينامون أنصاف عراة على ظهورهم أو يتـكئون بجباههم على أذرعتهم المـدعومة بأذراعهم ، ونفر منهم ينتزعون عن سوق أرجلهـم ضمادات مخضبة بالدماء . وأولئك الذين دخلوا فى حشرجة النزع يميلون برؤوسهم برفق ولين . وإلى جانبهم رجال يحملون إليهم الماء يجرون أنفسهم جراً ، وفى الممرات بين الخيام يمشى الحراس ليستدفئوا أو يقفون وعيونهم ترتاد الأفق ومزاريقهم على أكتافهم والخشونة بادية عليهم .

ووجد ماتو سبنديوس فى ظلال بقية قطعة من قماش مرفوعة بعصوين وهو مطأطىء الرأس ويداه على ركبتيه .

وظلا واجمين صامتين وقتاً طويلا .

— وقال ماتو : « لقد غلبتم » .

— فأجابه سبنديوس بصوت أجش : « أجل لقد غلبنا » وأخـذ يرد على جميع أسئلة ماتو باشارات تنم عن اليأس .

وكان يصل إلى الأسماع زفرات وحشرجات ، فأمال ماتو برأسه خارج الستار ، ورأى منظر الجند فـذكره ذلك بهزيمة أخرى فى ذات المـكان ، فقال وأسنانه تصطك :

— « يا له من بائس — لقد سبق مرة » . . .

— فقاطعه سبنديوس بقوله : « ولكنك لم تكن ايضاً موجوداً » .

— « هذه لعنة تتبعنى ! ولكنى مع ذلك سأصل إليه ! سأغلبه ! سأقتله آه يا ليتنى كنت موجوداً . . » وكانت فكرة تخلفه عن شهود المعركة تبعث إلى نفسه يأساً أشد من يأسه للهزيمة التى لحقتهم ، فانتزع خنجره وألقى به إلى الأرض وقال : « كيف غلبك القرطاجيون ؟ » .

فأخذ سبنديوس يبسط له مناورات الموقعة ، وماتو يراها ماثلة أمام عينيه فيزداد هياجا .

— « لقد كان المستوجب على جيش أوتيك أن يهاجم هاميلكار من مؤخرته . لا أن يجرى نحو الجسر » .

— فقال سبنديوس : « أعرف ذلك » .

— « كان يجب عليك أن تضاعف عمق صفوفك . وألا تجازف بارسال فرقة المشاة الخفيفة لمهاجمة الكتيبة القرطاجية ، وأن تفسح مجالا بين صفوفك للفيلة الهاجمة ، وكان يمكن فى الساعة الأخيرة إحراز النصر ولم يكن هناك مدعاة للفرار » .

— فأجابه سبنديوس : « لقد رايته ماراً بردائه الفضفاض الأحمر وذراعاه مرفوعتان فوق العجاج كنسر يطير بين جنبات الفرق ، وباشارة من رأسه كانت هذه الفرق تنضم وتتجمع فتكر ، ودفعتنا الجموع فصار الواحد على مرأى من الآخر . فنظر إلى فأحسست فى قلبى ببرد كبرد السيف .

وكان ماتو يقول لنفسه : « لقد عرف أن يختار يومه » .

وأخذوا يتشاورون وبخاصة يتساءلون: الذى دفع القائد الزعيم الى قتالهم في أسوأ ظروف كانوا فيها ودرسوا الحالة الحاضرة فقال سبنديوس ليجد تقوية لنفسه وليخفف وقع أخطائه « انه لايزال هناك امل كبير فى إحراز النصر » .

فقال ماتو : « وماعلى إذا لم يكن هناك من أمل اسأواصل الحرب وحدى »

— وصاح سبنديوس : « وأنا أيضاً » وكان يمشى جيئة وذهاباً وعيناه تقدحان شراراً وابتسامته الغريبة تبعث الغضون إلى وجهه الشبيه بوجه ابن آوى ، ثم استطرد فقال :

— « سنعيد الكرة ولكن لا تتركنى أبداً وحدى ! أنا لم أخلق لأحارب فى وضح النهار فان لمعان السيوف يبهر عينى وذلك مرض بى ، لقد عشت طويلا فى ظلام السجون ، ولكن اعهد إلى بتسلق الأسوار ليلا فألج القلاع والحصون وأملأ المكان بالجثث وأتركها قبل صياح الديك باردة ، أرنى شخصاً ما أو شيئاً تريده أو عدوا أو كنزاً أو امرأة ، ولو كانت ابنة ملك ، فانى أجيئك بما تشتهيه وألقى به تحت قدميك !

لقد أنبتنى لانهزامى أمام هنون ولكنى عدت فكسبت المعركة بفضل قطيع الخنازير الذى أدى لنا خدمة أجل من خدمة فرقة من السبرطيين . وأخذ يعدد الخدمات الجلي التى أداها للمرتزقة ليرفع من شأن نفسه فقال : « أنا الذى دفع الجولى فى بستان هاميلكار ليفعل ما فعله ! وأنا الذى هجت الجنود فى سيكا على الجمهورية ! وأنا الذى حرم جيسكون من مترجميه ، أتذكر كيف كانت ألسنتهم خارجة من أفواههم ! ألم أفدك الى قرطاجة ؟ ألم أسرق حجاب الآلهة ؟! ألم أوصلك إليها ؟ . سأعمل أكثر وسأريك ذلك» ثم قهقه ضاحكا كالمعتوه .

فأخذ ماتو يحدق به بعينين يبدو عليهما الاستغراب . فقد كان يشعر بانقباض أمام هذا الرجل الذى كان جباناً ومخيفاً بوقت معاً .

وأردف الاغريقي قائلا : « لا بأس . فالشمس تعود فتشرق بعد المطر ! لقد عملت في مقاليع الحجارة ، كما شربت أخر أنواع الخمور تحت خيمة من ذهب كشل بطليموس ، في موكب كنت أملكه ! يجب أن تعلمنا المصائب أن نكون اكثر لباقة وأشد حذقا ، وبالعمل يذل لنا البخت فهو يعشق السياسة ولابد له من الاذعان لنا ، ثم أقبل على ماتو وأمسك بذراعه وهو يقول :

— « أيها السيد ! إن القرطاجيين هم الآن واثقون من النصر ولديك جيش كامل لما يخض المعركة ورجاله يأتمرون بأمرك فضعهم في المقدمة ، ورجالي سيتحمسون إلى القتال لينتقموا ، ولم يزل لدى ثلاثة آلاف من الكاربيين وألف ومئتا رام بالمقاليع ونبالون وفرق كاملة من المشاة ، وفي مقدورنا أن نؤلف كتيبة ، فلنعد إذاً إلى الحرب ! »

ولكن ماتو كان لايزال مزعزعا من هول صدمة الهزيمة ولم يكن بعد قد فكر بما يجب عمله لرأب التأى وإصلاح الأمر ، فكان يصغي وهو فاغر الفم ، ونصال القلز المشكوكة في منطقته تهتز لاهتزاز قلبه وشدة خفقانه فالتقط سيفه وصاح بسبنديوس :

— « اتبعني ! وإلى الأمام ! »

ولكن رجال طلائع الجيش عادوا من الاستكشاف ينبئون بأن القرطاجيين قد حملوا جثث موتاهم ، وأن الجسر قد تهدم ، وأن هاميلكار قد اختفى عن العيان .

(٩)

الحملة فى البرية

رأى هاميلكار أن المرتزقة قد ينتظرونه أمام أوتيك أو أنهم سيعودون إلى مهاجمته ، ولما لم يكن لديه من القوات ما يكفى للكر عليهم أو للصمود لهم فقد تغلغل فى الجنوب على الضفة اليمنى للنهر ، ليكون بمأمن من المفاجآت .

وكان يرمى إلى فصل القبائل عن البربر واستدراجهم إلى نصرته متناسياً ثورتها حتى إذا تم له عزل البربر فى أواسط الأقاليم كر عليهم فأبادهم . فتوصل فى خلال أربعة عشر يوماً إلى إعادة السلام إلى ربوع المنطقة الواقعة بين « هوكابر » وأوتيك وإلى مدن « تجنيكابا وفصوره وفاكا » ومدن أخرى فى الغرب ، وأرسلت إليه الفداء مدن عصورة المشهورة بمعبدها و« جيرادو » الخصيبة بأشجار العرعر ، و « تابيتيس » و « هاجور » ، وكان سكان البرية يفدون عليه وأيديهم ملأى بالأقوات ملتمسين حمايته ، مقبلين أقدامه وأقدام جنده شاكين من البربر ، وجاءه قوم يقدمون له فى أكياس رؤوساً لجنود من المرتزقة زعموا أنهم قد أوقعوا بهم ولكنهم كانوا فى الواقع قد قطعوها من جثث الموتى ، لأن كثيراً من البربر ضلوا السبل فى فرارهم ، فكانت جثثهم ترى هنا وهناك تحت أشجار الزيتون أو فى الكروم .

وفى غداة يوم انتصاره أرسل هاميلكار إلى قرطاجة ألفى أسير كانوا

أسروا فى ساحة الوغى ، فوصلوا إليها شراذم فى كل منها مائة رجل موثق الأيدى وراء الظهور ، وفى الوثاق قضيب من حديد يتصل بنقر رقابهم ، ومعهم الجرحى يجرون هم أيضاً والدماء تسيل من جراحهم ، والفرسان وراءهم يسوقونهم بضرب السياط .

فعم الفرح العظيم أهل قرطاجة ، وسرى على الألسنة أن قد قتل ستة آلاف من البربر، وأن الباقين لن يقووا على الصمود ، وأن الحرب قد انتهت وأخذ الناس يعانق بعضهم بعضا فى الشوارع ، وطلوا بالزنجفر وجوه الآلهة « بأتابك » شكراً لهم وحمدا ، فبدت تلك التماثيل بعيونها الواسعة الحدقات ، وببطونها المنتفخة وأذرعتها المرتفعة حتى المناكب كأن قد عادت إليها الحياة بطلائها الجديد ، وكأنها تشارك الشعب فى فرحته الكبرى . وترك الأغنياء أبواب قصورهم مفتوحة للرائحين والغادين ، وامتلأت المدينة بصدى أصوات الدفوف ، وأنيرت المعابد طوال الليالى ، ونزلت خادمات الالهة تانيت إلى شوارع مالكا فنصبن فيها أسرة من خشب الجميز لتعاطى الفسق والفحشاء ، وصدرت قوانين بعطاء الغالبين مساحات من الأرض وبتقديم الخدمات للاله مالكاريث ، وباهداء القائد الزعيم ثلثمائة تاج ، وهى قطع من النقود الذهبية ، كما اقترح أنصاره بأن يمنح أيضاً امتيازات وشارات شرف جديدة .

وكان هاميلكار قد أوصى القدماء بأن يفاوضوا أوثاريت لاستبدال أسرى البربر جميعهم — إذا دعت الحال — بجيسكون ومن معه من القرطاجيين المعتقلين ، ولكن الليبيين والرحل ، وهم جنود أوثاريت كانت لا تصلهم أية صلة بالأسرى . فكلهم من أصل إغريقى أو ايطالى ، ومن جهة أخرى ، فاذا كانت قرطاجة تتنازل عن هذا العدد الكبير من الأسرى لافتداء عدد قليل من القرطاجيين . فما ذلك إلا لأن الأولين لا قيمة لهم بعكس الثانين الذين تبدو قيمتهم كبيرة ، فلابد اذاً أن يكون وراء الأكمة ماوراءها ولهذا رفض أوثاريت ما عرضه القرطاجيون .

فأمر القدماء بإعدام جميع الاسرى رغم ما اوصى به الزعيم من الاحتفاظ بهم ، لأنه كان ينوى أن يجند خيرتهم بين جنوده ، فيشجع بذلك غيرهم من البربر على الانتقاض على جيشهم واللجوء إليه . ولكن البغضاء أطاحت بكل حكمة وتحفظ .

فربطوا البربر مصلبين إلى عمد القبور ، وهرع ليشترك فى قتلهم التجار وخدم المطابخ والمطرزون ، حتى النساء أيامى الجنود القتلى وأبناؤهم أقبلوا يقتلونهم رمياً بالسهام ، فكانوا يسددون الرميات إليهم ببطء كى يطيلوا عذابهم ، كما كانوا يرفعون القوس ثم ينزلونها بعد التسديد . ووراءهم الجماهير تتدافع وترسل صيحات كالعواء ، وحتى المقعدون توافدوا محمولين على محفاتهم وكثير من الناس كانو يجلبون معهم أطعمتهم ويمكثون فى ساحة التعذيب حتى المساء . وقد نصبت الخيام للشاربين وجنى الكثيرون أرباحا طائلة من تأجير الأقواس .

ثم تركوا جثث المصلوبين فى أماكنها فبدت وهى فوق القبور كتماثيل حمر اللون ، مما زاد فى فرح الشعب فرحاً اتصلت عدواه بسكان مالكا الذين لم يكونوا من أصل قرطاجى والذين كانوا عادة لا يبالون بأمور الوطن ، ولكنهم الآن يشتركون فى أفراح انتصاره لما فى ذلك من اللذة ، ويحسون بما يحس به المواطنون . وسر القدماء لذلك ورأوا ضربا من المهارة أن يمتزج الشعب فيشترك كله فى الانتقام .

ولم تبخل الآلهة بالاشتراك فى تنفيذ الحكم فان الغربان تجمعت من جميع أنحاء السماء لتنقض على هذه الجثث ، فكانت تطير وتحلق فى الجو حائمة وترسل نعيباً أجش وتكون غيما يدور على نفسه بدون انقطاع . وكان أهل كليبيا وراديس والواقفون على رأس هرميوم يلمحون هذا الغيم من الطيور يتجلى حينا فيوسع دائرة خطوطه اللولبية السود لأن نسراً قد انقض ثم يعود فيرتفع فى طيرانه ، وهنا وهناك على ذرى المسلات وجباه الهياكل حطت طيور كبيرة الأحجام تحمل فى مناقيرها المحمرة بقايا من لحوم بشرية .

ولانتشار الروائح الكريهة رضى القرطاجيون كارهين أن يبزلوا الجثث فحرقوا بعضها ورموا ماتبقى فى البحر وحملت الأمواج مدفوعة بالشمأل بعض هذه الجثث إلى الشاطىء : فأودعتها فى آخر الخليج أمام معسكر أوثاريت .

ولا شك بأن هـذا الانتقام الفظيع ألقى الرعب فى قلوب البربر ، فقـد رآهم الأهلون من أعالى معبد أشمون ، يقوضون خيامهم ويجمعون قطعانهم ويحملون أمتعتهم على الحمير ، ورحل الجيش بأكمله فى مساء ذات اليوم .

* * *

كان على هذا الجيش أن ينتشر من جبل المياه الساخنة حتى هيبوزريت ليمنع الزعيم القائد من الاقتراب من المدن الصورية ويحول بينه وبين إمكان العودة إلى قرطاجة .

وفى ذات الوقت يجتهد الجيشان الأخوان بأن يدركاه فى الجنوب، فجيش سبنديوس من الشرق وماتو من الغرب ، بحيث تجتمع الجيوش الثلاثة لمفاجأته والاحداق به وتطويقه .

وجاءهم مدد ما كانوا يرقبونه ، فان نارها فاس أقبل ومعه ثلثمائة جمل محملة زفتاً وخمسة وعشرون فيلا وستة آلاف فارس .

وذلك لأن هاميلكار رأى أن يشغل عنه نارهافاس بعيدا فى مملكته لكي يمنعه من نصرة البربر فاتفق مع شرير قاطع طرقات اسمه مسجبة — كان يعمل لبؤسس أمبراطورية — وزوده بالمال على أن يشغل هذا الآفاق نار الثورة فى أقاليم نوميديا . فأخذ يدعو الشعب إلى الثورة ويعده بالحرية ، واتصل خبره بنارهافاس ، بواسطة ابن مرضعته ، فخف إلى سيرتا وتغلب على أعدائه بأن سممهم بماء الآبار وأطاح ببعض الرؤوس وأعاد الحال إلى ما كانت عليه ، وأقبل ليحارب الزعيم وهو يحمل عليه حقداً أشد من حقد البربر .

واتفق القواد الاربعة فى ما بينهم على الخطة التى سيتابعون بها الحرب لانها ستطول ولأنه يجب تدبر الأمور قبل وقوعها .

وأجمعو رأيهم على أن يطلبوا قبل كل شيء مساعدة الرومان ، وعرضوا على سبنديوس أن يقوم بهذه المهمة ، ولكنه لم يجرؤ على قبولها لأنه كان عبدا آبقا ، فعهد بالأمر إلى أثنى عشر رجلا من المستمرات الأغريقية فسافروا على زورق استقلوه من ثغر عنابا . ثم ألزموا الجيش بأن يقسم على طاعتهم طاعة عمياء ، وأخذ الضباط يفحصون ملابس الجنود وأحذيتهم كل يوم،وحرموا على الحرس أن يحملوا تروسهم لأنهم كانوا يستندون برماحهم إليها وينامون وهم وقوف ، وأرغم الذين يجرون وراءهم أمتعة على التخلى عنها ، وأصبح كل شيء واجب الحمل على الظهر على الطريقة الرومانية ، وصداً لهجوم الفيلة .

أنشأ ماتو فرقة من القرسان يلتحم الرجل فيها بفرسه بأن يغطى كلاهما معاً بدرع ضافية من جلد جاموس البحر مثبت فيها مسامير ، كما ألبست الخيل أحذية من نسج الحلفاء وقاية لحوافرها .

ومنع الجند من نهب القرى ومن ظلم السكان الذين ليسوا من أهل قرطاجة ولما كانت المنقطة قد نفدت أقواتها فقد خصص لكل جندى جراية يومية واستثنى النساء من هذا التوزيع ، فبدأ الجنود يقتسمون جراياتهم مع نسائهم ولكن الضعف أخذ يعتريهم لقلة التغذية . واستحرت المشاجرات وبعادل الجند السب والشتم لأن الكثير منهم أخذوا يستجلبون نساء رفقائهم باشتراكهن فى مخصصاتهم أو بوعدهن بذلك ، فأمر ماتو بطردهن جميعا دون رحمة ولا شفقة ، فالتجأن إلى معسكر أوثاريت ولكن النساء الجوليات والليبيات أسرفن فى سبهن واهانتهن حتى رحلن .

وأخيراً لجأت هؤلاء النسوة إلى قرطاجة ووقفن تحت الأسوار يلتمسن حماية « سبريس» «وبروزبين» لأنه كان فى برسا معبد لهاتين الالهتين . مبنى

كفارة عن الآثام التى اقترفت عند حصار سرقسطة . وتمسك السيسيت بالحق الذى يخوله القانون لهم بأن يستولوا على الأشياء التى ليس لها مالك معروف، فطالبوا بالاستيلاء على أصغرهن سنا ليبيعوهن فى الأسواق ، وتزوج القرطاجيون الجرذ من اللاسيديمونيات «لأنهن كن » شقراوات .

على أن البعض منهن أصررن على اللحاق بالجيش ، فكن يجرين على جنبات صفوف الجند بجوار الضباط فينادين رجالهن ويشدونهم من أرديتهم أو يضربن على صدورهن لاعنات إياهم أو يمددن إليهم أذرعتهن وعليها أطفالهن وهم عراة ، وكانت هذه المناظر تلين البربر، وأولئك النساء يعرقلن الجيش ويعرضنه للخطر ، فحاولوا إبعادهن ولكنهن كن يعدن ، فأمر ماتو بطردهن بالقوة ، فحمل عليهن فرسان نارهافاس وردوهن بطعنات الرماح ولما صاح الجند بقائدهم أن لابد لهم من نساء أجابهم : « لستم بخير منى فأنا لا أملك امرأة » .

وأصبحت روح « مولوخ » مستولية على ماتو، فعلى الرغم من تبكيت وجدانه كان يقوم بعمل أشياء منكرة مرعبة وهو يتخيل أنه يطيع أمر الاله فكان إذا لم يجد ما ينهبه ، أمر برمي الحجارة فى الحقول لكي يجعلها جدباء .

وعجل الرسل مرة بعد مرة إلي سبنديوس وأوتاريت لكي يجدوا بالسير وظلت مناورات هاميلكار غامضة غير مفهومة — فقد عسكر على التتابع فى عيدوس ومشار وتاهنت ، ورآه المستكشفون فى جوار « اشعيل » على مقربة من حدود بلاد نارهافاس ، ثم نقل إليهم أنه قد عبر النهر فوق «تبوردا» كما لو كان ينوى العودة إلى قرطاجة ، وهكذا فلا يكاد يستقر فى مكان حتى يزايله إلى آخر ، والطرق التى يسلكها تظل مجهولة ، وكان لا يزال محتفظا بميزاته على البربر ، لأنهم وإن كانوا يطاردونه فقد كان هو الذى يقودهم .

وهذه التنقلات جيئة وذهاباً أتعبت القرطاجيين أكثر مما أتعبت

البرابرة ، فضلا عن أن قوات هاميلكار التى لم تتجدد أخذت فى التناقص يوما بعد يوم ، وأصبح أهل الريف يتباطئون فى تجهيزه بالأقوات وهو يحس فى كل مكان بسريان روح التردد والبغض الدفين . وعلى الرغم من توسلاته إلى المجلس الأعلى لم يصله أى عون أو نجدة من قرطاجة . فهم يرددون هناك أو يظنون أنه ليس بحاجة إلى المدد وأن طلباته حيل ومخادعة أو لا فائدة منها ولا جدوى وكان أنصار هنون يبالغون فى أهمية انتصاره ليصرفوا الأذهان عن النظر فى طلباته ، وينسبون الفضل كله فى انتصاره إلى تضحيات جنوده ويرون أنه لا داعى إلى تحقيق جميع رغباته . وأن الحرب قد أثقلت الكواهل وكلفت الكثير ، وكان أنصاره لكبريائهم يؤيدونه بدون حماس .

فيئس حينذاك من الجمهورية وأخذ يستولى بالقوة على جميع ما يحتاج إليه من القبائل ليتمكن من متابعة الحرب ، وهكذا اغتصب الحبوب والزيت والخشب والبهائم والرجال ، فلجأ الأهلون إلى الفرار وأصبحت القرى التى يجتازها خاوية ، وخيمت الوحدة الموحشة المخيفة على جيش هاميلكار .

وثارت ثائرة القرطاجيين فأخذوا يردمون الآبار ويحرقون المنازل ، وحملت الريح شرر الحريق إلى بعيد فاحترقت الغابات على الجبال وعقدت على الأودية هالات من نار ، فكانوا يضطرون إلى التوقف حتى تنطفئ النيران ثم يعودون السير على الرمضاء فى حمارة القيظ . وكانوا يلمحون أحيانا على حافة الطريق وما بين الأشواك بؤبؤ عين يلمع لمعان عينى السنور . تلك عين رجل من البربر مقع على عرقوبيه وقد مرغ جسمه بالغبار ليختلط بلون الاوراق ، وإذا مروا بواد سمع رجال الجناحين دحرجة حجارة تتساقط ، ثم لمحوا فى ثنايا المضيق رجلا حافى القدمين مسرعا فى جريه .

وكانت هيبوزريت وأوتيك قد أصبحتا حرتين، لرحيل البربر المحاصرين

فطلب هاميلكار من سكانهما أن يسارعوا إلى نجدته ولكنهم — وقد خشوا عاقبة الانضمام إليه — ردوا عليه بقول مبهم . مصحوب بالتحيات والأعذار .

فاتجه إلى الشمال فجأة وقد عقد العزم على الاستيلاء على إحدى المدينتين الصوريتين ولو اضطر الأمر إلى ضرب الحصار عليهما لحاجته إلى قاعدة على الشاطيء ليتمكن من جلب المؤن والذخيرة من الجزر أو من القيروان . وآثر أن يستولى على أوتيك لأنها أقرب إلى قرطاجة .

فغادر « زوبتين » ودار بحرص حول بحيرة هيبوزريت ، ولكنه اضطر إلى مد خطوط فرقه أفقيا ليتمكن من تسلق الجبل الفاصل بين الواديين ، وحط الجيش رحاله عند المساء على قمة جبل بشكل مصفاة . وإذا بهم يرون أمامهم فى السهل خوذا بشكل ذئبات تجرى على الكلأ الأخضر ، وقنابر من ريش الطيور جاثمة ، ويسمعون نشيداً يرتفع عاليا على نغم الشبابات .

ذلك هو جيش سبنديوس ، وتلك رسوم الذئبات الرومانية اتخذها الكمبانيون والاغريق شعارات لهم لكرههم للقرطاجيين . وفى نفس الوقت ظهرت لهم من الشمال رماح عوال وتروس من جلد النمور ودروع من الكتان وأكتاف عارية ، هم جنود ماتو من « اللازيستانيين » والباليار والجيتول الذين التحقوا بجيش سبنديوس . ثم سمع صهيل خيول نارهافاس . وانتشر هذا الجيش حول الأكمة وأخيراً أقبل الخليط الذى يقوده أوتاريت من الليبيين والرحل وآكلي الطعام النجس الذين تدل عليها حسكات الأسماك المعلقة فى شعورهم .

فتلاقت هكذا جيوش البربر طبقا للخطة الدقيقة الموضوعة من القواد

الذين فوجئوا هم أيضا برؤية القرطاجيين فأخذوا يتشاورون .

وصف هاميلكار جيشه بشكل مستدير لتتساوى قوة دفاعه ومقاومته في جميع جنباته . وحول المشاة خوذهم الطويلة الذليفة ملقاة إلى جانبهم على الكلأ ، وخارج الحلقة فرسان « الكلينبار » والفيلة الراقدة غير بعيد منهم .

وكان المرتزقة متعبين فآثروا أن يرجئوا الهجوم إلى الغداة لثقتهم بالنصر ، وصرفوا الليل وهم يأكلون ، وأوقدوا نيرانا عظيمة علا لهيبها فبهر عيونهم وحجب عنهم رؤية الجيش القرطاجي الغارق فى بحر من الظلام وأمر هاميلكار جنوده فحفروا حول معسكرهم خندقا عرضه خمسة عشر قدما وعمقه عشرة أذرع وعلى شكل الخنادق الرومانية . ورفعوا فيه من الداخل بالتراب المرصوص إفريزا دقوا فيه أوتادا متشابكة حادة الرؤوس.

فلما أصبح البربر عرتهم الدهشة لرؤيتهم القرطاجيين وقد تحصنوا وراء خندق كأنه قلعة من القلاع . ورأوا هاميلكار يسير بين الخيام يصدر الأوامر وهو مدرع بدرع سمراء مطعمة بالأصداف الصغيرة ووراءه جواده يتبعه . وكان يقف من حين إلى آخر ليدل على شيء باشارة من يده الممدودة ، فأعادت رؤيته إلى أذهان الكثيرين من رجال المرتزقة ذكريات ساعات صباح شبيهة بهذه الساعة كان ينفخ فيها بالصور فيمر أمامهم مستعرضا متمهلا فى سيره ويرمقهم بنظرات تقويهم كأكواب الخمر . فأخذتهم هزة من حنين . واما الذين لم يعرفوه من قبل فقد ملكتهم نشوة طرب لما كانوا يتوقعونه من انتصار عليه .

وفكروا فيما يجب عمله ، فان هم هاجموه كتلة واحدة فقد يصيب بعضهم بعضا لضيق الشقة ، وإذا هاجمه النوميديون وحدهم فان فرسان

الـكلينبار المحتمين بدروعهم يسحقونهم — وعلى كل حال لا سبيل إلى اجتياز الحواجز . وأما الفيلة فغير مدربة تمـام التدريب .

فصاح بهم ما تو : « كلـكم جبان رعديد ! »

وهجم على رأس خيرة جنوده يحاول اختراق الحصون . فرده عنها سيل من الحجارة ، لأن هاميلـكار جر معه المنجنيقات التى غنمها من البربر عنـد الجسر .

فنال هـذا الفشل من نفسية البربر السريعة التقلب وانقص من مغالاتهم بشجاعتهم ، فهم تواقون إلى الانتصار ولـكن ببـذل أقل التضحيات . ورأى سبنديوس أن يحتفظ الجيش بمواقعه وألا يهاجم لأن الجوع سيدفع القرطاجيين إلى التسليم .

وأمر هاميلـكار بحفر الآبار فعثروا على المياه لأن الجبال كانت تعلو الأكمة المخيمين فيها .

وأخذوا من مرتفعهم يرمون البربر بالسهام والاقذار وبالتراب والحصى ينتزعونها من الأرض والمنجنيقات تقذفهم بالحجارة بلا انقطاع .

ولـكن الآبار ستنضب يوما ، وستنفد المؤن وتتلف المنجنيقات ، فرأى الزعيم أن يفاوض البربر كسباً للوقت ، وهكذا عثروا فى صباح يوم على جلد كبش مرمى فى خطوطهم مغطى بالـكتابة . فهو فى هذا الكتاب يعتذر للبربر عمـا أوقعه بهم من هزيمة ، لان القدماء أرغمـوه على حربهم ويعرض عليهم أن ينبهوا هيبوزريت ويقول لهم فى آخر رسالته : « إنه لا يرهب جانبهم لانه عرف أن يجتذب إليه كثيراً من الخونة بينهم وأنه بمساعدة هؤلاء سيتغلب على الآخرين .»

واضطربت نفوس البربر لما جاء فى تلك الرسالة . فالعرض الذى فيها جعلهم يحلمون بغنيمة عاجلة ، كما أنهم أصبحوا يخشون الخيانة . ولم يدر فى خلدهم أن هناك شركا ينصبه لهم الزعيم ، وأخذوا يتفرسون فى وجوه بعضهم البعض بحذر ويحرصون فى كلامهم وحركاتهم ، بل إن الرعب الذى أخذ يقض عليهم المصاجع فيستيقظون فى الليل قلقين ، وكثير منهم ترك الفرقة التى ينتمى إليها ليلتحق بفرقة أخرى ، فالجوليون التابعون لأوتاريت انضموا إلى رجال « جيزالبين » لفهمهم للغتهم .

وكان القادة الاربعة يجتمعون كل ليلة حول خوذة فيقدمون ويؤخرون الدمى الصغيرة التى اخترعها « بيروس » لاتباع مناورات الجيش المتحاربة . وكان سبنديوس يقيم الادلة على بعد نظر هاميلكار ومعين حيله الذى لا ينضب ويستحلفهم ألا يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم . ويناشدهم باسم جميع الالهة ، وكان ماتو يمشى جيئة وذهابا وهو يتابع الاشارات بيديه ولان محاربة قرطاجة هى ملك له خاص به ، وكان يفيض بالشكوى لان الآخرين لا يريدون أن يطيعوه وأوتاريت لا يفهم كلامه من إشاراته فيصفق له ، ونارهافاس يرفع ذقنه دلالة على الاستهزاء ، لانه لا يرى صوابا فى كل ما يعرض .

لقد فارقته ابتسامته كما لو أنه رد إلى صدره نصل ألم من حلم مستحيل التحقيق ، أو يأس لضياع فرصة سنحت ففاتت .

وبينما كان البربر يتشاورون فلا يستقرون على رأى ، كان الزعيم يعزز معدات الدفاع ، فأمر بحفر خندق وراء الافريز وبرفع حائط آخر وبيناء أبراج خشب عند الاركان ، وانسل عبيده حتى طلائع جيش البربر فطمروا الفخاخ فى الارض . ولكن الفيلة وقد نقص علفها هاجت تحاول التملص من عقالاتها . وتوفيراً للعشب أمر الكليناير بأن يقتلوا أضعف الخيول ، فرفض بعضهم فأمر بقطع رؤوسهم . وأكلوا لحوم الخيل المقتولة . ولكن شهوتهم لاكل اللحم الطازج ملأت نفوسهم كآبة فى الايام التالية .

ويرون من أعلى المدرجات المزدحمة بهم معسكرات البربر الاربعة وهى محدقه بهم مليئة بالحركة ، وهناك نساء يحملن قرب الماء على رؤوسهن ويدرن بها على الخيام ، والأمعز تضل تحت حزم الحراب ، ورجال العسس يبدلون والجنود حول موائدهم يأكلون ماطاب لهم ، لأن القبائل كانت تمدهم بالمؤن والأقوات . ولكنهم ما كان يدور فى خلدهم أن قعودهم عن مهاجمة القرطاجيين كان يخيف هؤلاء أكثر من خوفهم من الهجوم .

ولحظ القرطاجيون ، منذ اليوم الأول ، أن فى معسكر البربر جماعة من الرجال عزلوا بعيدا عن الخيام ، وكان أولئك هم الثلثمائة من الأغنياء الذين اعتقلهم البربر منذ بدء الحرب ، وهاهم يضعونهم اليوم فى الصف الأول على حافة الحفرة المرتين فيها ويختبئون وراءهم ويرمون القرطاجيين بالحراب متخذين من أولئك البؤساء مجنات لهم يحتمون وراءها .

ولم يكن من السهل التعرف إليهم لكثرة ما علق بوجودهم من الأقذار والهوام والدود ، وبدا فى جلد رؤوسهم ، فى الحالات التى اقتلعت منها شعورهم القروح والبثور ، وبلغ بهم الهزال وشناعة الشكل مبلغاً اشبهوا معه مؤمياء عليها أكفان مثقبة ، وكان البعض منهم يبكون وينتفضون بشكل ينم عن الغباوة والآخرون يصرخون طالبين من أصدقائهم أن يرموا البربر بحرابهم ، وكان بينهم رجل لايبدى حراكا ، مخفوض الجبين لا ينبس ببنت شفة ، ولحيته البيضاء الطويلة تتدلى حتى يديه ، والقرطاجيون — وكأنهم أحسوا فى أعماق نفوسهم بسقوط جمهوريتهم — عرفوا بذلك الرجل الزعيم جيسكون ، فأخذوا على ضيق المكان يتزاحمون ليروه ، وكان البربر قد ألبسوه تاج سخرية مصنوعا من جلد جاموس البحر ومطعما بالحصى ، وكان هذا منى تخيل أوتاريت ولكن ماتو كان مستاء من ذلك .

وبلغ الغضب بها ميلكار إلى حد الجنون وأمر بفتح أبواب السياج وهو عاقد عزمه على التفريج عن الجيش مهما كلفه ذلك . وصعد القرطاجيون على الافريز لمسافة ثلثمائة خطوه : ولكن سيلا من البربر تدفق عليهم فردهم

إلى خطوطهم ، وحدث أن حارساً من حراس الـكتيبة تعثر بالحجارة وهو خارج السياج ، فهجم عليه زركساس وطرحه إلى الأرض وأغمد خنجره فى حلقومه ثم انتزعه وارتمى على الجـرح يمتص الدماء منه بدمدمة فرح كانت تهز جسمه حتى أخمص قدميه . ثم جلس بهدوء على الجثة وأمال رقبته لـكي يستنشق الهواء ، كما تفعل انثى الوعل وقد ارتوت من الشرب من سيل متدفق ، وأخذ يتغنى بأغنية منتشرة فى جزر الباليار وطنه ، وهى أغنية يرتفع فيها الصوت وينخفض ويكثر فيها الترجيع ، وكان ينقطع عن الغناء قليلا ثم يعود وكان غناؤه صدى تتجاوب به الجبال ، وفيه مناجاة لأخوته المسيتين يدعوهم به إلى مأدبة . ثم ترك يديه تسقطان بين فخذيه وحنى رأسـه ببطء وأخذ يبكي .

هـذا العمل الوحشى الشنيع استظفعه واستنـكره البربر ولا سيما الاغريق .

ولم يعد القرطاجيون منذ هذه اللحظة يفكرون فى الخروج ولا فى التسليم ليقينهم بأن القتل والتعذيب الشنيع سينزلان بهم .

وعلى الرغم من عناية هاميلـكار أخذت الأقوات تتناقص تناقصا مخيفا ولم يبق للرجل الواحد إلا ثلاثة « كومور » من القمح وثلاثة « هين » من الدخن أى الذرة البيضاء واثنا عشر « بتزا » من الفوا كه المجففة ، فلا لحم ، ولا زيت ولا مقددات أو مملحات ولا حبة شعير للخيل التى كانت ترى مرخية الأعناق هزيلة تبحث بين التراب عن قشة قد وطئتها الاقـدام . وفى بعض الليالى كان الحراس إذا رأوا كلبا قادما إلى التحصينات يبحث تحتها بين القاذورات عن فضلة يأكلها رموه بالحجارة حتى يقتلوه ثم يتدلى أحدهم على سيور الترس فيلتقطها ويأكلونه سرا ، ويحدث أن يرتفع نباح الـكلاب مجتمعة فلا يعود الحارس المتدلى ، وتنازع ثلاثة من جنود الـكتيبة على جرز من الجرزان وتضاربوا بالمدى حتى قتلوا كلهم .

وأخذ كل منهم يحن آسفا إلى عائلته وبيته فالفقير يحن إلى كوخه المبنى بشكل خلية النحل ، المطروحة على عتبته الاصداف والمنشورة أمامه شباك الصيد ، والغنى يذوب شوقا إلى تلك القاعات الكبيرة المخيمة عليها الظلال المزرقة ، حيث كان يستسلم إلى الراحة فى أنعم ساعة من ساعات النهار وهو يتسمع إلى هدير أمواج الشوارع الممتزج بخفيف الاوراق المنتفضة المهتزة فى حديقته ، وتوصلا إلى الخوض فى أعماق تفكيره ، لزيد من تلذذه به ، يطبق جفنيه فتوقظه وخزة ألم من جرحه ، وفى كل لحظة يقع التحام أو يسمع إنذار . فهذه الابراج تحترق أو هؤلاء هم أكلة الاشياء النجسة يقفزون على السياج فتقطع أيديهم بالفؤوس فيجيء غيرهم ، أو هذا مطر من حديد يتساقط على الخيام ! وأخيراً رفعوا أعراشا من نبات الحلفاء ليتقوا قذائف الحديد فاستقر الجند فيها ولم يعودوا يزايلونها .

وفى كل يوم تطلع عليهم الشمس ثم تدور منذ الساعات الاولى مختفية عند أقصى المضيق ، وتتركهم فى الظلال ، وأمامهم ووراءهم منحنيات الارض الغبر ترتفع وهى مغطاة بالحصى المرقشة بالبهف (حناء قريش) النادر ، وفوق رؤوسهم السماء الدائمة الصفاء ، تمتد فتبدو للعيون أكثر ملاسة وأشد جمودا من قبة من معدن .

وبلغ استنكار هاميلكار لموقف قرطاجة حدا أحس معه بالرغبة بأن يرتمى فى أحضان البربر ويسير على رأسهم إلى فتحها ، وأخذ الحمالون والبائعون والعبيد يتذمرون ، ونامت عنه قرطاجه ، فلا الشعب ولا المجلس الكبير ولا أحد يرسل إليه . . ولو أملا ! وأصبحت الحال لا تطاق ولا سيما وقد توقعوا بأنها ستصير أسوأ مما هى عليه .

* * *

ولما اتصلت أنباء الكارثة بقرطاجة انتفضت غضبا وبغضا ، ولو أن هاميلكار جر الهزيمة على نفسه بادىء ذى بدء لكان بغضهم إياه أقل

شدة . فلا متسع فى الوقت فيشترون جنوداً ، ولا مال لديهم . وإذا جندوا أهل المدينة فمن أين يأتونهم بالسلاح والعتاد وقد أخذ هاميلكار كل الأسلحة ، بل هو القائد الذى يعرف أن يقودهم وجميع الضباط هناك معه ، ولكن الرجال الذين أوفدهم هاميلكار أخذوا يضجون فى الشوارع ويطالبون ، فتأثر المجلس الأعلى من ذلك ودبر الأمر فاختفوا عن العيان إلى الأبد .

ولكن احتياطهم هذا لم يكن ضروريا لأن جميع السكان كانوا يتهمون بالتهاون والتراخى فى قيادته إذ كان واجباً عليه أن يلاشى البربر بعد انتصاره ولأنه أخطأ فى نهب القبائل دون داع ولا حاجة والشعب قد تحمل أثقل الأعباء وقام بما طلب منه من تضحيات ، وأخذ المواطنون يأسفون على ما أعطاه الواحد منهم أى أربعة عشر « شيكيل » للجيش والسيسيت لعطائهم مائتين وثلاثة وعشرين ألف « كيكار » من الذهب وحتى الذين لم يعطوا شيئاً أخذوا ينحبون مع الناحبين .

وأصبح الشعب حانقاً على القرطاجيين الجدد لأنه وعدهم بمنحهم حق المواطن وكانوا يخلطون بين البربر وبين الإيجوريين الذين قاتلوا فى سبيل قرطاجة خير قتال ، ويلعنونهم ويعدون من كان من جنسهم مجرما وممالئاً للبربر . وأخذ الجميع يناقشون الخطط الحديثة سواء فى ذلك التجار الجالسون على عتبات حوانيتهم ، والعمال المارون وبأيديهم مساطر من رصاص ، وباعة المرى وهم ينفضون سلالهم ، والمستحمون فى حماماتهم حتى وباعة الأسماك الساخنة . وكانوا يضعون خطط المعارك بخطوط من أصابعهم على الغبار حتى لم يبق منهم خادم من خدمة الجند إلا أصلح أخطاء هاميلكار .

وذهب الكهنة إلي أن ما حل بهاميلكار هو غضب وانتقام من الآلهة لما ظهر منه من ضلال طال أمده ، فهو لم يقدم الذبائح المحرمات ، ولا قام بتطهير جنوده بل رفض أيضاً أن يصطحب معه عرافين ، وكانت فضيحة تدنيس الحجاب تذكي نار الأحقاد المكبوتة والآمال العاثرة . وعادوا بالذكريات إلى هزائم صقلية وما احتملوه طويلا من عنفوان كبريائه ، ولم تنس جماعة الأحبار أنه

استولى على كنوزهم ، فطالبوا المجلس الأعلى بصلبه إذا عاد يوما ما .

وكان حر شهر أيلول شديداً هـذه السـنة ، فزاد من حدة الـكارثة ، وكان ينتشر فى الجو من شواطئ البحيرة روائح كريهة عفنـة فتمر مع الريح ممتزجة بدخان العطور التى تحرق فى أركان الشوارع ، وكثر سماع الأناشـيد الدينية ، وأقبل جمهور الشعب على المعابد فاحتل سلالمها ، وغطيت جميع الجدران بالستور السود ، وأشعلت الشموع على جباه الآلهـة « باتوك » ، وجرت على درجات السلالم كالشلالات دماء الجمال التى ذبحت ضحايا للآلهـة ، وسرت فى قرطاجة هزة عصبية من الجنون فاصبحت كـأنها فى بحور : فمن أعماق الشوارع الضيقه ومن أحلك المواخير ظلاماً ، كان ينسل رجال ذوو وجوه شاحبة ، ومظاهر جانبية كمظاهر الأفاعى ، وأسنانهم تصطك ، وعواء النساء الحاد يملأ البيوت ويتسرب إلى الخارج من خـلال النوافذ والأبواب ، فيلفت أنظار الرجال الواقفين فى الميادين يتحدثون .

وكثيراً ما كان يخيل إلى الشعب أن البربر قد وصـلوا وأنهم شوهدوا وراء جبال المياه الساخنة أو معسكرين فى تونس ، فترتفع الأصوات وتتضخم وتختلط وتنفجر فى صرخة واحدة ، ثم يلى ذلك صـمت سائد شامل ، فيظـل بعضهم متسـلقاً واجهات المباني ، وأيديهم مفتوحة أمام عيونهم يتطلعون . وينبطح الآخرون على بطونهم فى أسفل الأسوار يمدون آذانهم منصتين فاذا ولى الرعب عاد الغضب ، ولـكن شعورهم بعجزهم لا يلبث أن يعود بهم إلى ما كانوا عليـه من الـكرب والـكآبة . وتزداد كآبتهم اضعافا كلما صعدوا جميعاً إلى السطح ، فأخذوا ينحنون تسع مرات ثم يرسـلون صرخة عظيمة ليحيوا الشـمس التي تنحدر وراء مستنقع الماء شيئاً فشيئاً لتتوارى فجأة وراء الجبل من جهة البربر .

وهم يرقبون حـلول العيد المثلث القداسة الذى به يطير من اعـلى لهب النار إلى السماء نسر هو رمز انبعاث السنة ورسالة الشعب إلى بعله الأعظم رساله كانوا يعدونها إتحاداً مع الاله ، واندماجاً منهم بقوة الشمس ، ومن جهة اخرى فانهم وقد ملئت اليوم نفوسهم بغضاً وضغينة أصبحوا لسذاجتهم يتجهون بعباراتهم إلى

إلى مولوخ السفاح ، وينصرفون كلهم عن تانيث ، وبالفعل فان « ربتنا » وقد تجردت من حجابها ـ أصبحت وكأنها مجردة من جزء من فضيلتها وقوتها ، لقد أنفت من مياهها ، وهجرت قرطاجة فهى إذاً هاربة من قومها بل عدوة ، وكان بعضهم يرميها بالحجارة ليلحق بها الاهانة والبعض الآخر يرق لحالها ، مع إهانته إياها . ومع ذلك كانوا لا يزالون يحبونها وقد يكون حبهم إياها أصبح أعمق من ذى قبل .

فجميع البلايا إذاً قد حلت بهم من خسارة الحجاب المقدس ، وقد ساهمت سلامبو فى هذه الخسارة فاصبحوا يتناولونها بحقدهم ، وأصبح الواجب أن يحل بها العقاب . وسرت بين الشعب فكرة تقديم ضحية للالهة ، ولا بد لارضائهم أن تكون هذه الضحية ذات قيمة لاتقدر : مخلوق جميل الصورة ، فى ريعان الشباب عذراء من أسرة عريقة ، مولود من الآلهة ، كوكب بصورة إنسان ؟ وهكذا فان أناساً مجهولين كانوا يختلفون كل يوم إلى حدائق ميجارا فلا يجسر العبيد على ردهم خوفاً على أنفسهم . ولكنهم ما كانوا يتجاوزون قط سلالم السجون بل يظلون واقفين فى اسفل المكان يحدقون بعيونهم اعلى طنف القصر ، يرقبون ظهور سلامبو وهم يجأرون بأصوات الحقد والبغضاء ، كأنهم كلاب تنبح القمر .

* * *

(١٠)
الحيـة

تلك الصيحات — صيحات عامة الشعب — ما كانت لتلقى الرعب فى قلب ابنة هاميلكار . بل هى مضطربة لقلق أعظم شأنا كان يساورها : إن حيتها الكبيرة الثعبان الأسود غير السام — آخذة فى الذبول ، والحية عند القرطاجيين معبود وفأل خير ، مكرم من الأمة ومن الأفراد ، فهم يعتقدون بأن الثعبان ابن تراب الأرض لأنه خرج من أعماقها واستغنى عن الأرجل للتجول فيهـا وإن انسيابه يذكر بتموجات الأنهر — وطبيعته بالظلمات اللزجة الرخوة المليئة بالاخصاب ، والكرة التى يكونهـا وهو يعض ذنبه تذكرهم بمجموعة الكواكب وبفهم أشمون .

وثعبان سلامبو رفض مراراً أن يبتلع عصافير الدورى الأربعـة التى كانت تقدم إليه عند إهلال القمر وإبداره ، وهذا جلده الجميل المغطى مثل الفلك بنقط ذهبية على خلفية سوداء . قد أصبح اليوم أصفر لزجاً مليئاً بالغضون ، واسعاً على جسيمه ، وامتد العفن بشكل القطن حول رأسه ، وفى مآقى جفنيه بدت بقع حمر متحركة ، ومن وقت إلى آخر كانت سلامبو تقترب من سلتها المصنوعة من خيوط الفضة فترفع عنها غطاءها الأرجواني وأوراق السدر وزغب الطير فتراه لا يزال ملتفاً على نفسـه كنبات المشقة الذابل ، وكلما زاد نظرها إليه أحست كأن لولباً أو حية أخرى ترتفع من صدرها شيئا فشيئا حتى تأخذ بحلقومها فتخنقها .

وكان اليأس مستحوذاً عليها لرؤيتها الحجاب المقدس ومع ذلك فهى تحس

بنوع من الفرح والكبرياء فى قرارة نفسها ، فإن هناك لسراً مخفياً فى لألآء طياته إنه السحاب الذى تتوشح به الآلهة ، هو سرا لوجود العالمى ، وتملك الأسف نفس سلامبو لأنها لم ترفعه بيدها ، ولو أن قلبها قد امتلأ رعباً لمجرد أن خطر لها هذا الخاطر .

وبيناهى دائبة الجلوس مقرقصة فى أقصى مكان من مخدعها ، ممسكة بيديها ساقها اليسرى المطوية ، وشفتاها منفرجتان وذقنها مخفوضة وحدقتا عينيها جامدتان ، تذكر ، والرعب يملأ نفسها ، وجه أبيها . لقد كانت تود أن تحتج إلى جبال فينيقيا إلى هيكل أفقا ، حيث نزلت تانيت بصورة كوكب ، وكان كل ما تتخيله يجذبها ويخيفها . فهى تعيش فى عزلة تتسع كل يوم وتحيط بها حتى أنها لاتعرف ما صار إليه هاميلكار .

وأخيراً ضاقت ذرعاً بتفكيرها فوقفت وأخذت تتمشى جيئة وذهابا فى الحجرة الكبيرة الصامتة ، وهى تجر خفيها فيلاطم نعلاها عقبيها ، وحجارة الجست والزبرجد المغطية للسقف ترسل إلى هنا وهناك رقعاً مضيئة ، وسلامبو ترفع عينها إلى السقف لتراها ، أو تتناول من أعناقها القوارير المعلقة ، أو ترطب صدرها بالمراوح الواسعة أو تلهو باحراق الدارصينى فى الصدف الأجوف ، وعند مغيب الشمس تنزع طناش من فتحات الجدار قطع اللبد الأسود التى تسدها فتتهافت الحمائم البيض المدهونة بالمسك كحمائم تانيت ، وتندفع تدرج على البلاط الزجاجى بأرجلها الوردية ، لتلتقط حبات الشعير التى تنثرها لها بملء قبضتيها كما يبذر الزارع الحب فى حقله ، وعلى حين فجأة أخذت تنعد الزفرات وارتمت بلا حراك على سريرها الكبير المصنوع من سيور جلد البقر ، وهى تردد كلمة هى ذات الكلمة ، لا تتبدل ، وعيناها مفتوحتان وعليها صفرة الموت ، فاقدة الحس باردة — ومع ذلك فهى تسمع صراخ القردة القابعة بين سعوف النخل الملتفة ، والصرير المتواصل المنبعث من الدولاب الكبير الذى يدفع بدورانه إلى طوابق القصر ، غدير الماء الصافى فينجمع فى أجران البرفير .

وتمر بها فترات أيام ترفض فيها ان تتناول طعاما ما ، وتحلم في نومها بكواكب تراها قائمة الضياء تمد تحت قدميها فتدعو شاهبريم فاذا حضر لم تجد ما تقوله له . وهي لا تستطيب العيش لو ما يغمرها به وجوده لديها من عزاء. رغم أنها كانت تثور في قرارة نفسها على ما اكتسبه من سلطان عليها ، وهي تشعر نحوه بعواطف متناقضة من رهبة وغيرة وبغض وحب وعرفان جميل لما كان يشعرها به من لذة وهو بقربها .

واتضح لشاهبريم أن للربة تانيت يداً وأثراً فيما تشكو منه ، لأنه لسعة علمه وحذقه ، كان يعرف أي الآلهة تبعث هذا المرض أو ذاك ، فهو يداويها برش مخدعها بمزيج من الماء ورعى الحمام وكزبرة البئر ، ويطعمها اليبروح كل صباح ، ويلزمها بالنوم على كيس صغير ملىء بعطور باركها الأحبار — ويسقيها ماء من عصير جذور نباتات ليزيل عنها — إلى بنات نعش — الأرواح الشريرة ، ويتجه كل يوم بوجهه إلي الكوكب القطبي وهو يردد ثلاثا اسم تانيت .

ومع ذلك جميعه ظلت سلامبو تعاني المرض بل زاد غمها وقلقها عمقا .

ولم يكن في قرطاجة أعلم منه ، تلقى الدروس في شبابه في كلية « مجبد » في « برسيبا » بالقرب من بابل ، وزار ساماطوراس وإفس وتسالبا واليهودية ومعابد النبط الضائعة بين الرمال ، واجتاز ضفاف النيل ماشيا على قدميه من الشلالات إلى البحر ، وألقى بديك أسود على نار من السندروس . وهو محجب الوجه ، هازاً للمشاعل أمام تمثال أبي الهول . ونزل إلى مغاور « بروزربين » ورأى الأعمد الخمسمائة تدو في تيه لمنوس . وكان كثيراً ما يحادث الاغريق ويسائلهم . وكان يهتم بتكوين العالم اهتمامه بطبيعة الآلهة ، وتوصل إلى ضبط تبدلات الفصول بواسطة النقوش الدائرية المنقوشة على باب الاسكندرية . وصحب حتى القيروان أتباع « إيفرجيت » الذين يقيسون السماء بعدد خطواتهم ، وهكذا نمت في رأسه مبادىء دين خاص لا طقوس تميزه ، ملىء بالحرارة وبروح الضلال ولم يعد يصدق أن الأرض ذات شكل مخروطي بل يعتقد أنها مدورة تهوى

دائمـاً أبداً نحو الفضاء الذى لا نهاية له بسرعة عجيبة ، حتى لا يحس بسقوطها . واستنتج من وضع الشمس فوق القمر بأن البعـل يسود كل شيء لأن الشمس ليست إلا انعكاساً لوجهه ولا عجب كل ما يراه على الأرض يدفعـه إلى القول بسيادة مبدأ الذكر المبيد ، وكان فى قرارة نفسه يحمل الربة جريرة مامنى به من الكوارث فى حياته . ألم يرض فى سبيلها وحبا لها ـ بأن يجره الحبر الأعظم بين أصوات الصنوج إلى هيكل فينتزع منه رجولته فوق فوهة كأس ملأى بالماء الغالى ! » وهو يتتبـع بعينيه الحزينتين الرجال المختلين بكاهنات المعبد فى أقصي غابات البطم .

وهو الآن يقطع أيامه ويصرفها فى تفقد المباخر وآنيـة الذهب والملاقط ، وقشاشات الرماد وفساتين الآلهة وحتى إبرة القلز المعدة لتجعيد فرع رأس هذه العجوز تانيت القابعة فى المبنى الثالث بالقرب من كرمة الزمرد ، وفى ذات الوقت عليه أن يرفع سجف الأبواب ، وأن يرفع ذراعيه ضراعة وأن يصلى ساجداً راكعاً على نفس البلاط ، وحوله جيش من الكهنة يمشون حفاة الأقدام فى الأروقة المليئة بالظلال الأبدية .

ولـكن سلامبو تبدو فوق صحراء حياته ، كالزهرة الخارجة من شق ضريح وكان قاسيا نحوها فلا يتورع عن إلزامها بالكفارات وعن أسماعها الكلام المر . وحالته الجسمية توجد بينهما مساواة فى الجنس وهو يحمل من الموجـدة عليها لمـا يراه من جمالها وعفافها أكثر ممـا يحمله لعجزه عن امتلاكها ، وكثيراً ما كان يلحظ أنها تبذل مجهوداً أكبر لتفهم مايفـكر فيه ، فيعود إلى معبده أشد حزنا وكآبة ويحس نفسه وحيداً طريدا مهملا أكثر من ذى قبل .

وكان يبدر منه فى بعض الأحايين كلمات غريبة تمر أمام سـلامبو كبروق ساطعة تنير هوات عميقة . يحدث هذا فى الليل وهما جالسـان منفردين على طنف السطح يراقبان النجوم وتحتهما تنبسط قرطاجة مع الخليج والبحر المليء الضالين

كليهما فى حلك الدجى . فيشرح لها نظرية النفوس التى تهبط إلى الأرض متتبعة مجرى الشمس الظاهر أو بروجها ، ويمد ذراعه فيريها فى برج الحمل باب الجنس البشرى وفى برج الجوزاء طريق الرجوع إلى الآلهة ، فتجتهد سلامبو بأن تتبين ما يشير إليه ، لأنها كانت تعد نظرياته حقائق ولو أنها رموز . فيقول لها مثلا : « إن أنفس الموتى تندمج فى القمر كالجثث فى التراب وأن دموعها تكسبها الرطوبة ، وأن المقام هناك مظلم مليء بالوحول والفضلات والزوابع » . .

فتسأله : « وأنا ، إلام أصير ؟ » .

ـ تبدئين بالذبول شبيهة ببخار يتأرجح فوق الأمواج المتلاطمة . وبعد تجربات قاسية وقلق طويل تذهبين إلى مصدر حرارة الشمس إلى ينبوع الادراك والفهم . ولكنه لم يتكلم عن الربة فظننت سلامبو أنه يغفل هذا لاستحيائه من هزيمتها ، فأطلقت عليها اسم نكرة يدل على القمر وأخذت تبارك اسم الكوكب المخصب ذى النعومة .

فصاح قائلا : « لا . لا . إنه يستمد خصوبته كلها من الكوكب الثانى . ألا ترينها تحوم حواليه كالمرأة العاشقة التى تحوم حول رجل فى الحقل » ثم أطنب فى مدح قوة النور .

وبدلا من أن يحطم شهواتها الروحانية . كان يهيجها بل ويحس بفرح لانهاك قواها العقلية بايضاح قواعد علم متعب لا يرحم وسلامبو تتلقف ما يوحيه إليها رغم ما تقاسيه من آلام حبها . وشاهبريم كلما زاد شكا بتانيت زاد رغبة بالإيمان بها ، لأنه كان يحس بتبكيت من ضميره . ولكن لا بد له ، ليعود إلى إيمانه بها ، من دليل ومن برهان ملموس تكشف عنه الآلهة . وتوصلا لذلك نوى أن يقوم بعمل تكون نتيجته إنقاذ وطنه وإيمانه فى وقت واحد . فبدأ منذ أن نوى تنفيذ مشروعه يندد بإثم الرجس وبتدنيس الأشياء المقدسة ويعدد ما يجره هذا الاثم من الكوارث حتى فى أرجاء السماء . ثم انتقل فجأة

الى التحدث عن الخطر المحدق بالزعيم القائد الذى يهاجمه ثلاثة جيوش بقيادة ماتو ـ ذلك أن ماتو أصبح عند القرطاجيين شبه ملك للبربر لحيازته الحجاب المقدس ـ واستطرد شاهبريم فقال : إن سلامة الجمهورية وخلاص أبيها يتعلقان بها وحدها .

فصاحت قائلة : « بى وحدى ! وكيف يمكننى ... ؟ » .

ولكن الكاهن قاطعها وقال ، وعلى شفتيه ابتسامة استنكار : « لا لأنك لن ترضى أبداً بذلك » .

فاخذت تتوسل إليه وتلحف بالسؤال . وبعد لأى قال شاهبريم :

ـ « يجب أن تذهبى إلى البربر فتستردى الحجاب ! »

فسقطت على المقعد العاجى وظلت واجمة وذراعاها متدليتان بين ركبتها ، وقد أخذتها قشعريرة سرت فى جميع أعضائها ، كالضحية الملقاة عند أقدام المذبح . تنتظر ضربة المرواة القاضية ، وكان صدغاها يطنان وعيناها يقصران حلقات من نار ولم تعد تدرك فى هذا البحران إلا شيئا واحدا وهو أن موتها قد أصبح محققاً قريبا .

وكان شاهبريم يقول فى نفسه : إذا انتصرت ربتنا وعاد الحجاب وانقذت قرطاجة ، فما قيمة حياة امرأة ! ولكنها قد تعود سالمة والحجاب معها .

وحبس نفسه عنها ثلاثة أيام فاستدعته مساء اليوم الرابع .

فجاء يذكي ما فى قلبها من نار بأن نقل إليها ما يوجه لها ميلكار من اللعنات والتهم والسباب فى قلب المجلس الكبير ، ويدخل فى روعها أنها قد اجترحت أشد اثم برؤيتها الحجاب المقدس ، وأن المتوجب عليها الآن أن تقدم كفارة عما اقترفته وأن الآلهة هى التى تأمرها بالبذل والتضحية .

وعلت ضجة اتصلت إلى سمعهما ، ثارت حتى فى ما بال وامتدت إلى ميجارا فخرجا ليتبينا سبب الجلبة ، واقفين على مصطبة سلالم السجون .

ففى ميدان خامون رجال يتظاهرون ويضجون ملحين بطلب تسليحهم ، والقدماء يرفضون لاعتقادهم بأن ما يطلبونه لا يجدى فتيلا ، لأن رجالا غيرهم سبقوهم الى قتال البربر فلقوا حتفهم ولم يجنوا فائدة ، وصرف القدماء المتظاهرين فاقتلعوا أشجارا من السرو من غابة المعبد لتكريم مولوخ أو لارضاء شهوة تخريب ملكتهم ، ثم أشعلوا الأشجار من مصابيح الآلهة « الكبار » وأخذوا يطوفون بها فى الشوارع وهم يغنون ، وكانت هذه الشعلات تتقدم وهى تتذبذب قليلا فترسل أضواءها على كرات الزجاج المرفوعة فى ذرى المعابد ، وعلى ملابس الأصنام ومهاميز السفن وفوق سطوح المنازل ، كأنها شموس تدور فى المدينة ، ثم انحدر حاملو الأضواء من مرتفعات الأكروبول . وفتح باب مالكا . .

وصاح بها شاهبريم : « أمستعدة أنت للعمل أو أنك تؤثرين أن تعهدى إليهم بابلاغ أبيك أنك تخذلينه وتتخلين عنه ؟ » فغطت وجهها ببراقعها وظلت صامتة . وتباعدت الأنوار وتضاءلت شيئاً فشيئاً عند أطراف أمواج البحر .

كان يقعدها عن المسير إلى معسكر البربر رعبان لا حد لهما ، خوفها من مولوخ وخوفها من ماتو : فهذا الرجل الفارع القامة كالجبابرة ، المالك للحجاب اصبح متسلطا على « ربتنا » تسلط البعل الأكبر وهو مثلها الآن محاط بهالة من النور واللألاء ، وقد تحل أرواح الآلهة فى أجسام الرجال . ألم ينبئها بذلك شاهبريم ؟ ألم يقل لها أيضا أن الواجب عليها أن تغلب مولوخ .

وأصبحت تمزج هكذا ماتو بمولوخ وتتخيل أنهما يطاردانها .

وأرادت أن تستطلع الغيب فاقتربت من سلة الحية ، لأن القرطاجيين كانوا يتبينون الفأل من مواقف الحيات وملاعبها . وإذا بالسلة خاوية .

فاضطربت وأخذت تبحث عن الثعبان فوجدته ملتفاً على نفسه ، معلقاً بذنبه على جلفت من فضة بالقرب من سريرها المعلق ، ورأته يحتك بالسرير لينزع عنه

قشرته القديمة المصفرة وقد غدا جسده براقا صافيا كنصل حسام سل نصفه من جرابه .

وتوالت الايام وهى تحـاول أن تقتنع فى قرارة نفسها بانها ستعمل على نصرة تانيت

وكان الثعبان يتماثل إلى الشفاء ويزيد محنة ويعود إلى الحياة .

فأيقنت أن شاهبريم يعبر عن إرادة الآلهة فيا أشار عليها به .

فأيقنت أن شاهبريم يعبر عن إرادة الآلهة .

وصحت ذات يوم وقد عقدت العزم على تنفيذ مانوته ، وسألت شاهبريم عما يجب أن تعمله ليرد ماتو الحجاب عليها .

ــ فقال لهـا : « اطلبيه » .

ــ « وإذا رفض » ؟ .

فحدق فيها سلامبو وهو يبتسم ابتسامة لم ترها قبل على شفتيه .

فـكررت عليه سؤالها : « أجل ، ما العمل ؟ » .

فأخذ يلف بين أصابعه أطراف الشرائط المدلاة من قلنسونة على كتفيه ، وعيناه إلى الأرض وهو جامد لايتحرك ، وأخيراً أدرك أنها لم تفهم مايرمى إليه :

ــ « ستكونين منفردة به » .

ــ « وبعد ذاك ؟ » .

ــ « وحدك معه فى الخيمة » .

ــ « وعند ذاك ؟ » .

فعض شاهبريم على شفته وهو يبحث عن تلويح أو تلميح مقنع :

— إذا كان لابد من موتك فستموتين بعد ذلك .. لا تخافى ! ومهما فعل فلا تنادى ! لا ترتعدى ؟ كوني متواضعة ! أسامعة أنت ؟ وكونى خاضعة لرغبته التى هى أمر من السماء !

— والحجاب ؟

— إن الآلهة تتولى أمره .

— كم أود أن تصحبنى أيها الأب ؟

— لا .

وأركعها على ركبتيها وترك يده اليسرى مرفوعة وبسط يده اليمنى ، وأقسم عنها وباركها أن تعيد إلى قرطاجة حجاب تانيت ، وأيد القسم بدعوات ولعنات هائلة وأخذ عليها العهد بأنها تقدم نفسها متغانية ضحية للآلهة ، وكانت تكرر بعده ، وهى تكاد تهوى إلى الأرض - كل ما يقسم به كلمة كلمة .

ثم بين لها كيف يجب أن تتطهر وتصوم ، وكيف يتم لها الوصول إلى ماتو مصحوبة برجل يعرف معالم الطريق .

وأحست بالخلاص مما كان يساورها ، ولم تعد تفكر إلا بالسعادة التى ستنعم بها لدى رؤية الحجاب ، وأخذت تبارك شاهبريم الذى حثها على الاقدام .

* * *

كان ذلك فى الفصل الذى تهاجر فيه الحمائم البيض من قرطاجة إلي صقلية فى جبال إيريكسى ، حول معبد الزهرة ، وكانت هذه الحمائم قبل سفرها وطوال أيام تبحث بعضها عن بعض وتتنادى لتجتمع وطارت أخيراً والهواء يدفعها وأخذت هذه السحابة البيضاء تنسل على السماء ، معلية فوق البحر .

ويلبس الأفق ثوباً أحمر وتبدو كأنها تتدنى نحول الأمواج شيئا فشيئا ، ثم تختفى كأن البحر قد ابتلعها وتسقط من تلقاء أنفسها فى لهى الشمس ، وتنظر

إليها سلامبو ، وهى تبتعد ، فتحنو رأسها ، ويخيل إلى طناش أنها مطلعة على دواعى حزنها فتقول لها برفق :

— ستعود هذه الحمائم ياسيدى .

— اعرف ذلك .

— وستريها .

— قد يمكن ذلك وتنهدت سلامبو .

ولم تفض بما اعتزمته لأحد من الناس ، وزيادة فى الحيطة ، وكي لا يظن سكان حيها مرجات الظنون أرسلت طناش إلى ضاحيــة كينسدو لتبتاع لها ما تحتاج إليه من صباغ شفاه وملابس جديدة ونطاق من كتان ، وحاريتها مدهوشة لما تأخذ سيدتها من أهبة واستعداد ولا تجرؤ على سؤالها عن الدواعى والأسباب ، وازف اليوم الذى حدده شاهبريم للسفر .

وفى الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم رأت ســلامبو فى أقصى مكان تحت أشجار الجميز شيخا كفيف البصر يستند بيد إلى كتف غلام ويحمل بالأخرى قيثارة من خشب الجميز يسندها الي وركه . وقد حرصت على إبعادالعبيدوالخصيان فالمكان قفر من الناس .

وأشعلت طناش النار فى مواقد أربعة مثلثة الأرجل موضوعة فى زوايا المخدع الأربع ومملوءة بجوز الطيب وحب السهال ، ثم بسطت أربع طنافس بابلية مزركشة ونشرتها على حبال حول المخدع ، لأن سيدتها كانت تريد ألا يراها أحد حتى ولو الحيطان . وجلس لاعب القيثارة خارجاً وراء الباب ووقف الغلام ينفخ فى شبابة من قصب ، وأخذت أصوات الشوارع تخفت وبدت ظلال بنفسجية تمتد من واجهات المعابد . ومن جهة الخليج الأخرى وبدت الجبال الوطيئة وحقول الزيتون وقطع الأرض الصفر المتاوجة تنـدمج مع بخار مزرق . ولم يك يسمع صوت ما بل كان الجو محملا ثقلا يعجز القلم عن بيان درجته .

وجلست سلامبو القرفصاء على درجة من الجزع اليمانى على حافة الحوض . وشمرت رافعة أكمامها برباط إلى كتفيها وبدأت وضوءها بترتيب حسب الطقوس المقدسة .

ثم أحضرت لها طناش فى قمقم من المرمر الأبيض . شيئا سائلا ومتجمداً ، هو دم كلب أسود مذبوح بأيدى نساء عاقرات ، فى ليلة شتاء ، وبين أنقاض قبر . فمسحت به أذنيها وعقبيها وإبهام إصبعها اليمنى وحتى ظفرها الذى ظل محمراً قليلا كما لو كانت قد سحقت به ثمرة .

وطلع القمر فأخذ الشيخ والغلام يسمعان معا صوت القيثارة والشبابة .

وخلعت سلامبو عقدها وأساورها وثوبها الأبيض الطويل . وفكت رباط فرع رأسها وأخذت تنفضه على كتفيها وقتا ما لترطب رأسها بارساله على الكتفين وظلت الموسيقى تضرب وراء الباب ثلاثة أصوات تتكرر متتابعة ثائرة ، تصر منها أوتار القيثارة وتغص بها الشبابة وطناش تماشى اللحن بضرب على كفيها ، وسلامبو تتمايل بجميع أجزاء جسمها وهى تتمتم الصلوات وملابسها تسقط على الأرض حولها ، الواحد بعد الآخر .

وترددت قليلا ، إما لحيائها وإما لخوفها البرد ، ولكنها تذكر أوامر شاهبريم فتقدمت من الثعبان فمال نحوها فوضعته من نصفه على نقرة فبدا ذنبه كعقد قطع نظامه وبدا طرفاه متدليين يمران على الأرض . ثم أخذت تلفه حول خصريها وتحت إبطيها وبين ركبتيها . ثم أمسكت بشدقيه . وأدنت ذلك الرأس المثلث الزوايا حتى أطراف أسنانها ، وأطبقت عينيها إطباقة خفيفة وانقلبت على ظهرها تحت أشعة القمر ، فبدا ذلك الضياء الأبيض يوشحها بسحاب من فضة ، وظهرت آثار أقدامها المبلولة على البلاط ، وبصيص أنوار الكواكب ينتفض فى الماء ، والثعبان يشد عليها بفقرات ظهره المرقط كالنمر بنقط من الذهب ، وكانت سلامبو تلهث تحت وزنه الثقيل ، ووركاها ينطويان ، وأحست أنها تموت ، والثعبان

يضرب بذنبه على ردفيها برفق ولين . وسكتت الموسيقى فنزل عنها .

فاقتربت طناش منها ، وبعد أن وضعت شمعدانيين مضيئين فى كرات كبيرة من البلور ملأى بالماء ، دهنت بصباغ الحناء كفيها وبالزنجفر خديها وكحلت أطراف جفنيها ، وأطالت حاجبيها بمزيج من مسحوق الصمغ والمسك والأبنوس وأرجل الذباب المسحوقة . كل هذا وسلامبو جالسة على كرسى مساندها من العاج تتلقى عناية طناش بها ، ولكن هذه اللمسات وروائح الطيب والصيام الذى لزمته أهاجت أعصابها ، فشحب وجهها شحوبا أقلق طناش فتوقفت .

فقالت لها : « أكملى » وغالبت نفسها فعاودها النشاط ، ولكن صبرها عيل فأمرت جاريتها بالاسراع ، فقالت لها طناش بصوت العاتب :

ـ « حسنا حسنا يا سيدتى ! ما الداعى للعجلة فما من أحد ينتظرك » .

ـ « بل هناك من ينتظرني » .

فانتفضت طناش دهشة وقالت وهى تود أن تعرف المزيد :

ـ « ما الذى ترغبينه يا سيدتى لأنه إذا كنت ستظلين غائبة ... »

وقطع عليها الكلام زفرات أخذت سلامبو تصعدها ، فصاحت قائلة :

ـ « إنك تتعذبين ، فلا تسافرى ، خذينى معك .. لما كنت طفلة كنت إذا رأيتك تبكين ضممتك إلى قلبي وأضحكتك بملاعبتك بطرفى ثديى ، لقد أنضبت هذين الثديين ياسيدتى » ـ وكانت تلطم صدرها الجاف بيديها ـ « وقد أصبحت الآن هرمة فلا يمكننى أن أعمل شيئاً فى سبيلك . لم تعودى تحبيننى إلا أنك تخفين عنى آلامك احتقاراً منك لمرضعك » . وسالت دموعها ، دموع الحنان والحنق ، على خديها وعلى بقايا وشماتها .

ـ فقالت لها سلامبو : « لا . ما زلت أحبك . فتعزى ! »

وعادت طناش إلى ما بدات به وهى تبتسم ابتسامة أنثى القرد المرمة ، وقد أوصاها شاهبريم أن تبالغ فى العناية بها إلى أبعد حد فأخذت فى تجميلها بذوق يستعذبه البربر ، جامع للأناقة والبساطة :

ألبستها فوق الغلالة الأولي الرقيقة المخططة ، غلالة ثانية مطرزة بريش الطيور وطوقت خصرها بنطاق عريض تحته سراويل فضفاضة زرق ، عليها كواكب من فضة ، وألبستها فوق ذلك برداً من نسييج بلاد « سبريس » مرقش بخطوط خضر ، وربطت فى طرف كتفيها مربعين مثقلى الأطراف بحبوب السندروس ، وخلعت عليها فوق الثياب معطفاً أسـود يجرر ذيوله وراءه ، وأخذت ترنو إليها بنظرات الاعجاب .

،قالت وكأنها تفخر بما صنعت يداها :

ـ « لن تـكونى يوم زفافك أجمل ممـا أنت عليه الآن » .

فردت بعدها سلامبو وهى حالمة وذراعها مستندة إلى كرسيها العاجى :

ـ « يوم زفافى ! » .

ووضعت طناش أمامها مرآة كبيرة واسعة رأت فيها جميـع جسمها ، فوقفت وبحركة لبقة ، ردت بأصبعها زرفينا من فرع رأسها كانت يتدلى إلي أسفل .

وكان شعرها مغطى بغبار الذهب . مجعداً على الجبين ومتدليا من الوراء علي الظهر بغدائر تنتهى بلآلىء معلقة فيها ، ونور الشموع يزكي طلاء خديها وذهب أثوابها وبياض بشرتها ، وكانت تلبس من الحجارة الكريمة المدد الوفير حول قامتها ، وفى ذراعيها ويديها وأصابـع رجلها حتى أشبهت مرآتها شمسا ترسـل إليها أشعتها ، وكانت سلامبو وهى واقفة إلى جانب طناش تبسم لهذا اللآلىء .

وأخذت تقطع المخدع عرضاً وطولا تنتظر بذاهب الصبر حلول وقت السفر .

وإذا بصياح ديك يسمع ، فأسرعت وربطت إلى فرعها برقعاً طويلا اصفر . ولفت شالة حول عنقها . واحتذت حذاءها الجلدى الأزرق ، وقالت لطناش :

ـ « اذهبي وانظرى إذا كان هناك تحت أشجار الآس رجل معه جوادان» ولم تكد طناش تعود حتى أخذت سلامبو تتدرك على سلالم الرواق .

ـ فصاحت المرضع : « سيدتى ! » .

فالتفتت إليها سلامبو وقدوضعت سبابتها على فمها إشارة إلى السكوت والكتمان وعدم الحركة . وانسلت طناش بخفة على السلالم إلى أسفل الشرفة فلاح لها من بعيد على ضوء القمر وفى شارع السرو خيال ضخم يسير عن يسار سلامبو بخط أعوج ، وذلك فأل شؤم ونذير موت .

فصعدت مهرولة إلى غرفتها وارتمت على الأرض وأجهشت بالبكاء ، وهى تمزق وجهها بأظافرها وتقتلع شعر رأسها وتعالى بارسال النواح الحاد .

وخشيت أن يسمعها سامع فسكتت وأخذت تصعد الزفرات بصوت منخفض ، ورأسها بين يديها ووجهها على البلاط .

* * *

(١١)

تحت الخيمه

ذلك الرجل الذى يقود سلامبو صعدبها إلى ما بعد المغارة باتجاه الديماميس ثم نزل فسار فى ضاحيــة « موتو » المليئة بالممرات المزحلقــة الوعرة المرور . وأخذت السماء تبيض . وكانا يضطران من حين إلى آخر إلى إحناء رأسيهما وهما يمران خشية أن تصطدم بأطراف عوارض النخــل الخارجة من الحيطان تحت سقوف المنازل ، والجوادان يسـيران متمهلين ويتعثران فى السـير ، وبلغا باب « تيفت » فوجدا مصراعيه الثقيلين منفرجين فمرا وأقفل الباب وراءهما .

وبدآ يتبعان أسفل الحصون حتى إذا بلغا موقع الآبار سلكا طريق « تونيا » وهى قطعة أرض ضيقة مستطيلة صفراء التربة تفصل بين الخليج والبحيرة وتمتــد حتى راديس . ولم يريا أحدا حول قرطاجة لا فى البحر ولا علي الحقول . وكانت الأمواج بلون البلاط الأزرق تصفف برفق ، والهواء الخفيف يدفع زبدها هنــا وهناك فيرقمها برقع بيض ، وكانت ســلامبو ـ على كثرة ما تلبســه وتتحجب به تقشعر من برد الصباح ، والهواء الطلق يسبب لها الدوار .

وطلعت الشمس فلســعتها الأشعة وراء رأسها وأخذها نعــاس خفيف رغم إرادتهــا . وكان الجوادان يخبان معاً جنباً إلى جنب وقوائمهمــا تغوص فى الرمل الصامت .

ولمــا تجاوزا جبل المياه الساخنة أسرعا فى السير لأن الأرض أصبحت جدداً ، وعلى الرغم من حلول زمن الحرث والبذار كانت الحقول على مد النظر أشد

وحشة وخلاء من الصحراء . وقليلا ما كانا يشاهدان هنا وهناك ارضا مبذورة قحاً أو شعيراً بدت تتكون حباته ، ووراء الأفق الصافى بدت المزارع سوداً باشكال متقطعة وغير متناسقة . ومن حين إلى حين يظهر على قارعة الطريق جزء من حائط أوشكت حجارتها أن تستحيل جيراً من الحريق ، وسقوف أكواخ متداعية أو شظايا أوان خزفيـة وبقايا ملابس وانواع من الأدوات والأشياء المحطمة التى لا يبين نوعها . وكثيراً ما كان يخرج من بين تلك الأنقاض والخرب مخلوق تستر جسده اطمار بالية ووجهه بلون التراب وبؤبؤا عينيه لامعان ، فلا يلبث أن يسترع فى الجرى أويختفى فى حفرة . وكانت سلامبو ودليلها لايتوقفان عن السير .

وتتوالى السهول المهجورة وتتابع ، وعلى مساحات واسعة من أرض شقراء فرش على الأرض غبار من الفحم بكثافة غير متساوية وكانت أقدامهما تثيره فى الجو وراءهما ، وربما رأيا من آن الى آن أماكن صغيرة هادئة يجرى فيها جدول بين كلأ نام ، فتتحول سلامبو الي الجهة الأخرى من الجدول لتلتقط الأوراق المبللة فترطب بهايديها . وفى ركن من أركان غابة من الدفلى قفز جوادها قفزة كبيرة أمام جثة رجل ممدد على الأرض . فسارع العبد الي مساعدتها على الاعتدال على البرج .

وكان الدليل من عبيد المعبد يستخدمه شاهبريم فى المهام الخطرة ، وزاد حرصه عليها فأخذ يسير مشياً على قدميه قريباً منها ومابين الجوادين ، يسوقهما بقدة من جلد يلفها على ذراعه ، ومن وقت الى آخر يخرج من كيس معلق على صدره كريات من القمح او بلحات او محوح بيض ملفوفة بورق السدر فيقدمها الى سلامبو ثم يبتعد ساكتاً مسرعا .

وفى ضحى النهار التقيا بثلاثة من البربر لابسين جلود حيوانات ، وتلاهم آخرون يهيمون زرافات وشراذم مؤلفة من عشرة الى خمسة وعشرين وبينهم من يدفع أمامهم أمعزاً أو بقرات عرج، وعصيهم الطويلة ملبسة الرؤوس بالنحاس والمدى تلمع علي ثيابهم القذرة الخشنة ، وعيونهم تنفتح مبحلقة مهددة أو دهشة

وكل منهم حياها عند مروره ! وأرسل نكنة خليعة مرحة ، ورد العبد على كل بلغته ، وكان يقول لهم أن رفيقه غلام مريض ذاهب ليلتمس الشفاء الى معبد بعيد ومالت الشمس الى المغيب وسمع نباح الكلاب فاقتربا من مصدر الصوت فرأيا على ضياء الشفق حظيرة فى وسطها بناء غامض . وقفز كلب على الحائط فحصبه العبد ودخلا الى قاعة عالية ذات قبة .

وهناك فى وسط القاعة امرأة جلست القرفصاء الى نار من العوسج يطير دخانها الى الجو من ثقوب السقف . وشعرها الأبيض المدلى حتى ركبتيها يغطى نصف وجهها ، ولم تجب على أى سؤال بل أخذت تتمتم ـ وعليها ملامح الغباوة ـ كلمات عداء للبربر وللقرطاجيين معاً .

وأخذ الدليل يبحث يميناً وشمالا ثم اقترب منها طالباً طعاما ، والعجوز تهز راسها وتحدق فى الجمر وهى تقول همساً :

« كنت اليد فقطعت أصابعى العشرة فاصبح الفم لا يأكل» .

فأراها العبد قبضة من النقود الذهبية فترامت عليها ثم عادت الى جحودها . وبعد لأى وضع على عنقها خنجراً كان فى حزامه . فارتجفت وقامت الى حجر فقلبته واستخرجت من تحته ابريقاً من الخمر واسماكا من هيبوزريت منقوعة بالعسل .

وأنفت سلامبو ذلك الطعام النتن واستلقت نائمة على سروج الخيل التى مدتها فى زاوية من زوايا القاعة :

واخذ الكلب يعوى وينبح ، فاقترب العبد منه يبطء وعاجله بضربة من خنجره أطاح بها رأسه ، ثم دهن خياشيم الجوادين بدم الكلب ليستعيدا نشاطهما ، واستنزلت العجوز اللعنات عليه وهى واقفة وراءه . فلمحتها سلامبو فلمست التميمة التى كانت مخبوءة بصدرها عند قلبها .

واستأنفا السير وكانت لا تفتا تسائله إذا كانا قد قربا من غاية السفر . والطريق تتماوج على تلال صغيرة ، والجنادب تصر والشمس تسخن العشب المصفر ، والأرض مليئه بالشقوق التى تكون منها شبه بلاط جعل السير عسيرا . وتتداعى بهما من حين إلى آخر ، والنور يحلق فى الأجواء ، والعبد دائب الجرى ، وسلامبو تحكم تحت براقعها التى تحتفظ بها رغم حرارة الشمس خشية أن تعلق الأقذار بثيابها الجميلة .

وعلى أبعاد متساوية ترتفع الأبراج التى شادها القرطاجيون لمراقبة القبائل ، فكانوا يدخلون إليها ليستظلوا بها حيناً ثم يستأنفون السير .

وكانا بالأمس قد مالا عن جدد الطريق خوفا وحيطة ، وأما اليوم فلا ديار ولا نافخ نار فالمنطقة قفراء ، لأن البربر لم يمروا بها .

وعادت مظاهر الخراب والدمار الشامل ، فهنا — بدلا من حقل — ضريح يدل على بقايا قصر عفت آثاره ، وهناك شجر الزيتون وقد عرى من أوراقه فبدا من بعيد حقل عوسج وشوك ، ومرا بقرية حرقت بيوتها حتى الأرض وعلى جنبات ماتبقى من جدرانها هيا كل من عظام آدميين ، بل وبقايا جمال وبغال ، وكانت بقايا اللحوم والعظام النتنة التى تنهشها الهوام والحشرات تملأ الشوارع .

وأقبل الليل والسماء مطبقة مغطاة بالغيوم ، ومع ذلك تابعا سيرها فى اتجاه الغرب مدة ساعتين ، فبدت أمامهما على حين فجاة أنوار كثيرة ضيئلة ، تضىء من أقصى مدرجات ، وهنا وهناك صفائح من ذهب تلمع وهى تتنقل ، تلك دروع الكينبار ، وذلك هو معسكر القرطاجيين ، ثم تبينا حوالى هذا المعسكر أنواراً اكثر عدداً ، لأن جيوش البربر ، وقد اندمجت فى جيش واحد ، أصبحت تمتد إلى مسافات شاسعة .

وهمت سلامبو بالتقدم ولكن رجل شاهبريم قادها إلى مكان أبعد ، وسارا إلى جانب الحواجز التى تسد طريق معسكر البربر ، فوجدا ثغرة ، دخل منها الدليل .

وفى أعلى الحصن بدا ديدبان يروح ويجيء وبيده قوسه وعلى كتفه رمح. م

وظلت سلامبو تتقدم ، فجثا الديدبان على ركبتيه ورمى بسهم طويل أصاب أسفل معطفها فخرقه ، وظلت واقفة بلا حراك تصيح وتصرخ ، فسألها الديدبان عما تبتغيه .

— فقالت : « أريد التحدث إلي ماتو . أنا هاربة من قرطاجة » .

فأرسل صفيراً ردده غيره من بعيد مرات عديدة .

وظلت سلامبو تنتظر ، وجوادها الخائف يدور حولها وهو يرسل شخيرا.

ولما وصل ماتو كان القمر يرتفع من ورائها ، ووجهها مغطى بحجاب أصفر عليه أزهار سود ، وعلى جسمها أثواب كثيرة ، فلم يكن التعرف إليها بمستطاع . واخذ يحدق من أعلى إفريز الحواجز بهذا الشكل الغامض الواقف أمامه كشبح فى ظلال المساء .

واخيراً قالت له : « خذنى إلى خيمتك . إني أريد ذلك » .

فمرت بخاطره ذكرى لم يقف على إيضاحها واحس بقلبه يخفق وقد نال من شجاعته هذا الصوت الآمر فقال لها : « اتبعينى » .

وأنزل الحاجز عن المدخل وأصبحت فى معسكر البربر .

وكانت الجموع وضوضاؤهم القوية تملأه ، والنيران الصافية توقد تحت قدور معلقة ، والأضواء الحمر تغير بعض الأماكن وتترك غيرها فى الظلام الدامس ، والصياح يعلو والنداءات تتجاوب ، والخيول المربوطة بعقالاتها تعطف خطوطاً مستقيمة وسط الخيام المختلفة الأشكال والأحجام : من مربعة او مستديرة ومن الجلد أو من القماش ، وهناك أعراش من قصب وحفر فى رمال كحفر الكلاب ، والجنود يجرون حزم الخشب أو يتكئون على التراب او يلتفون بالحصر او يهمون بالنوم ، وكان جواد سلامبو يضطر أحياناً للقفز حتى يتمكن من المرور .

وتذكرت أنها قد رأتهم قبل هذا اليوم ، ولكن لحاهم أصبحت أكثر طولا ،ووجوههم أشد سواداً وأصواتهم أكثر خشونة ، وكان ماتو وهو يسير

امامها يحييهم باشارة من ذراعه يرتفع معها رداؤه الأحمر ، وكان كثيرون يقبلون يديه وآخرون يؤثرون اقواس ظهورهم منحنين ، او يستصدرن منه امرا ، لأنه أصبح الرئيس الحقيقى الأوحد لجميع البربر فسبنديوس واوثاريت ونارهافاس اصبحت تعوزهم الشجاعة ، وظل هو وحده محتفظاً برباطة الجأش والجرأة والعناد حتى صاروا كلهم مطيعين له .

وقطعت سلامبو وهى تسير وراءه جميع المعسكر ، لأن خيمته كانت تقع فى آخره على بعد ثلثمائة قدم من حصن هاميلكار .

ولحظت على اليمين حفرة واسعة وخيل إليها ان وجوهاً تستند إلى حوافيها على مستوى الأرض ، كما لو كان هناك حفوف من الرؤوس المقطوعة ، ومع ذلك فعيونهم تتحرك وأفواههم تنفتح لتخرج منها تنهدات باللغة القرطاجية .

وعلى باب الخيمة يقف زنجيان يحملان فانوسين مضاءين بصموغ الصنوبر . فأزاح ماتو ستر الخيمة بخشونة وتبعته إلي داخلها .

كانت خيمة عميقة رفيعة العماد فى وسطها ساريه ترفعها ، تنار كشمعدان كبير بشكل شجرة السدر فيه مشاعل مليئة بزيت أصفر ، تطفو على وجهه مشاقات عديدة وتظهر على نورها ادوات حربية تلمع فى الظلام ، وهناك حسام مسلول من غمده ملقى على منصب بالقرب من مجن ، وسياط من جلد جاموس البحر ، وصنوج وجلاجل وقلائد وكلها مبعثر فى سلال من خيوط الحرير ، وكسرات الخبز الأسود ملقية على غطاء من اللبد ، وفى زاوية من زوايا الخيمة ، وعلى حجر مدور ، قطع من النقود النحاسية مكدسة بلا نظام ، ومن خلال ثقوب ستور الخيمة يسفى الغبار الذى تسوقه الريح محملا برائحة الفيلة التى كانت تأكل علفها وهى تحرك سلاسلها .

— وقال ماتو : « من أنت ؟ » .

فلم تحر جوابا بل اخذت ترمى حولها نظرة فاحصة فرأت فى أقصى الخيمة وعلى سرير من سعف النخل شيئا صافى الزرقة متألق اللمعان . فتقدمت نحوه

بخطى سريعة وبدرت منها صرحة .

وماتو واقف وراءها يضرب الأرض بقدميه ، فصاح بها :

— من جاء بك ! ولم قدمت ! ؟ .

— فأجابت وهي تشير بيدها إلي الحجاب : « جئت لأخذه » ونزعت بيدها الأخرى البراقع التي تغطي رأسها .

فارتد إلى الوراء فاغر الفم مدهوشاً .

وأحست بقوة الآلهة تمدها بالتأييد فنظرتَ إليه وجهاً لوجه غير خائفة ولا مذعورة وطلبت منه الحجاب بقول عذب طلي غزير المعاني ، وماتو لايسمع بل يرمق ويحدق ويتأمل وقد اختلط في ناظرتيه جسمها وملابسها: فتموج نسيج أثوابها كلألاء بشرتها الناعمة وهو لألاء خاص بها لايملكه غيرها وعيناها و ماس حلاها يلمعان ويشرقان معاً ، ونعومة أظفارها تكمل ملاسة الجواهر التي تغص بها أصابعها ، ومشبكا غلالتها يرفعان قليلا نهديها فيتقاربان ! وسرح به فكره فإذا به يضل بين ذينك النهدين حيث تدلي شريط يحمل صفيحة من الزرد تظهر تحتهما وراء شفاف من الحرير البنفسجي ، وقرطا أذنيها من اللازورد ينتهيان بلؤلؤتين مجوفتين تتساقط منهما من حين إلى حين قطرات تبلل كتفيها العاريتين .

ووقف ماتو مأخوذاً يرنو إلى هذه القطرات ، وكمثل صبي يدفعه الفضول إلى التقاط ثمرة مجهولة مد يده وهو يرتجف ولمسها في أعلى صدرها وبأطراف أصابعه لمساً خفيفاً فانطبقت فيها أطراف أنامله بعد مقاومة مرنة .

وهذه اللمسة التي تكاد تكون غير محسوسة سوى أثرها فيجسمه وتجاوزها إلى نفسه حتى ليود لو كان باستطاعته أن يجعل من جسمه كله وشاحا لها يوشحها به وحتي ليشتهي أن يذوب بها وان تذوب به ليشربها شربا .

وأمسكها بقبضتي يديها وجذبها إليه برفق وجلس فوق درع بقرب سرير

النخل المغطى بجلد أسد ، وأخـذ يرمقهـا من الأسفل إلى الاعلى وقد ضمها بين ساقيه وهو يردد :

— « ما أجملك ! كم أنت جميلة » .

وكانت عيناه المطيلتان التحديق بها ، تسبيان لها عذابا وضيقا ، وكان نفورها منه يزداد حدة حتى لقد كانت تضبط نفسها حذر أن تصرخ ، ولـكن تذكرها لشاهبريم ووصيته أجد بها الى الاستلام .

وظل ممسكا بيديها الصغيرتين ، وهى تحاول من وقت إلى آخر أن تفلت منه بشد ذراعيها ، رغم ما أمرها به الـكاهن ، وهو يفتح منخريه ليتلذذ بشم العطر القوى الزكي المتصاعد من جسمها المثير للدوار كبخور المجامر .

وكان جسمها يتضوع بعرف العسل والفلفل والبخور والورود ، وكـذلك بعرف آخر .

ولـكن : « ما السر فى وجودها بالقرب منه تحت خيمته ورهن أمره ؟ لا بد انها جاءت إليـه مدفوعة من دافع ؟ » لا ، لم تجىء طلبا للحجاب ؟ وهـوى بذراعيه الى الأرض ، وحنى راسه ، تحت وطأة تفـكير شرود ذهنه .

— ولـكي تبعث سلامبو الحنان الى قلبه ، قالت له بصوت العاتب الشاكي :

— « بم أسأت اليك لتريد موتى ؟ » .

— « موتك ؟! »

— « أجل ، موتى : لقد رأيتك مرة ، على اضواء حديقتى التى كانت تحترق بين اكواب مشتعلة ، وبين عبيد لي يذبحون ، وكان غضبك شديدا حتى انك هجمت نحوى فاضطررت إلى الهرب ، ثم حل الرعب بقرطاجة لتهديدك للمدن واحراقك للحقول وقتلك للجنود فأنت ذلك الرجل الذى عاث فى الأرض فساداً وفتك بالجنود . فأنا اكرهك ، وذكرك اسمك وحده ينهشنى كوخز الوجدان

فأنت مكروه أكثر من الطاعون ومن حرب الرومان ، وهذه الأقاليم كلها ترتعد فرقاً من شدة حنقك وأفلام المحاريث مليئة بالجثث ، لقد تتبعت آثار نيرانك كما لو كنت أسير وراء « مولوخ » ا .

فانتفض ماتو واقفاً ، وقد نفخ قلبه ريح من الكبرياء وتطاول جسمه حتى كأن قامته ساوت بطولها الالهة .

وتمم سلامبو حديثها ، وأسنانها مطبقة ، ومنخاراها تنتفضان :

وكان كل ماارتكبته من انتهاك الحرمات المقدسة لم يكن كافياً ، فاقتحمت مخدعي ليلا وانا نائمة والحجاب المقدس يغطيني ! لم أفهم ما كنت تقول ولكني أحسست بأنك آت لتجرني إلي شيء فظيع مرهب ، لتلقي بي الى أعماق الهاوية .

— فصاح ماتو وهو يفتل ذراعيه : « لا ! لا ! إنما جئت لأعطيك اياه ! لأرده اليك ، لأنه خيل الى أن الإلهة تنازلت لك عن اثوابها وانه قد اصبح ملكا لك ، وسواء أكان الحجاب فى معبدها أم فى بيتك ، الست مثلها صاحبة الحول والسلطان ، العذراء التى لا عيب فيها ولا دنس ، المتلالئة الجميلة مثل تانيت ؟! » واردف وهو يلقى عليها نظرة ملئت بالعبادة التى لا حد لها : « الا اذا كنت انت تانيت نفسها » .

— وقالت سلامبو لنفسها : « أنا تانيت ! » .

وسكتا لا ينبسان ببنت شفة . واخذ الرعد يدوى من بعيد والخراف تنفق وسلامبو ترتعد لعصف العاصفة .

— وعاد يقول : « آه ! اقربي مني ! اقربي ولا تخافي شيئاً ، ألم أكن فى ما مضى الا جنديا مغمورا بين حثالة الجند ، بل كنت وديعاً متواضعاً احمل الحطب على ظهرى للاخرين ؟ وماذا يهمني من أمر قرطاجة ! ان رجالها كلهم غبار يثور كالغبار المتطاير تحت نعليك ، وجميع كنوزهم وأقاليمهم واساطيلهم وجزرهم

لا تستهوينى بقدر ما تستهوينى شفتاك والتفاف كتفيك ، لقد كنت أريد تدمير أسوارها لأصل إليك فأحوزك ، وكنت على انتظار ذلك انتقم .

واصبحت الآن أسحق الرجال كأنهم أصداف ، وأرتمى على الكتائب ، وانحى الرماح بيدى ، واوقف الجياد بإمساكي بخياشيمها . ولا تقوى المنجنيقات على قتلى ، آه ! لو كنت تدرين كم افكر بك فى معمعان القتال ، وكم من مدة أحسست بأن ذكرى حركة منك ، اوطية من ثنايا ثوبك تمسك بى وتربطنى كما تربط الشباك . انى ارى عينيك فى لهب قاذفات النار ، وعلى مذهبات التروس ، وأسمع صوتك فى تجاوب أصداء الصنوج ، فألتفت فلا أراك وعند ذاك اعود فأغوص فى ساحة الوغى ! » .

وكان يرفع ذراعيه فتبدوان حيث تتوتر العروق كاللبلاب على غصون الأشجار والعرق يتصبب من صدرة ويسيل بين عضلاته المربعة وتنفسه يهز خاصرتيه حتى نطاقه المصنوع من الفلز المزركش بالخرائط المتدلية على ركبتيه اللتين كانتا أشد تماسكا من المرمر ، وسلامبو ، التى اعتادت رؤية الخصيان ، مأخوذة بقوة هذا الرجل ، ويخيل لها أن تأثير مولوخ وجبروته أو انتقام الآلهة يدوران حولها ممثلين بجيوش البربر الخمسة ، وسمعت تجاوب أصوات العسس المتقطع فامتلكها الخوف .

وأنوار المصابيح ترتجف لمرور لفحات هواء ساخن ، والبرق يومض مرة بعد مرة فتتخلل ذلك فترات ظلام مضاعفة السواد فلا ترى إلا إنسانى عينى ماتو تتقدان كجمرتين فى ليل ، وهى تحس بوشك نزول قدر محدق بها . وبقرب حلول أمر حاسم لا سبيل إلى الافلات منه ، ومع ذلك حاولت أن تقاوم وأن تبذل جهدا . فتقدمت إلى حيث كان الحجاب ومدت يدها لتمسك به ، فصاح بها ماتو :

ـــ « ما الذى تفعلينه ؟ » .

ـ فقالت بثبات جأش : « أعود إلى قرطاجة » .

فتقدم نحوها وهو مصلب يديه على صدره وقال لها وقد بدا مظهره مخيفاً مرعبا جمدت لرؤيته :

ـ « تعودين إلي قرطاجة ! آه ! لقد جئت لتأخذى الحجاب لتغلبي ثم تتوارى !

لا . لا ! إنك ملك لي ! ولن يقوى بشر بعد الآن على انتزاعك من بين يدى ! لما أنس بعد قحة عينيك الكبيرتين المطمئنتين ، ولا محاولتك سحقى من علو جمالك ! لقد جاء الآن دورى ! أنت أسيرتي وأمتى وخادمتي ! نادى إذا شئت أباك وجيشه والقدماء والأغنياء وشعبك الممقوت كله ! أنا السيد المسود على ثلثمائة ألف جندى ! وباستطاعتى أن أزيد عدده وأن أجيء بالمتطوعين من لوزيتانيا وبلاد الجول ومن أقاصى القفر وأن أدوخ مدينتك وأحرق معابدها وأسير سفنها المثلثة المجاديف على بحار من الدماء ! لا . لا أريد أن أترك فى قرطاجة بيتاً ولا حجراً ولا نخلة ! وإذا أعوزتنى الرجال فسأجر الدببة من الجبال وأدفع أمامى الأسود . لا تحاولى الفرار فانى أقتلك ! » .

وكان ممتقع اللون متشنج اليدين يرتجف كقيثارة أوشكت أوتارها أن تتقطع .. وإذا بزفراته تكاد تخنقه وبعرقوبية يخذلانه فيتداعى :

ـ « آه ! عفوك ! إني نذل مرذول وأحط شأنا من العقارب والوحل والعثير ! لقد كنت الساعة ، وأنت تخاطبيننى ، أحس بأنفاسك تمر علي وجهى فأتلذذ بها كالمحتضر المشرف على الموت الذى يشرب من حافة جدول وهو منبطح على بطنه هيا اسحقينى علي شرط أن أحس بقدميك فوقى ! رحماك لا تعودى . فأنا أحبك أحبك !

وكان جاثيا على الأرض أمامها وذراعاه ملفوفتان حول قامتها ، وراسه إلى الوراء ويداه تائهتان ، وصفائح الذهب المعلقة بأذنيه تلمع على رقبته السمراء ، والدموع تنهل من عينيه كأنها كرات من فضة ، وهو يتنهد وكأن تهداته مداعبات وملامسات ويهمس بألفاظ أخف من النسيم وألذ من القبلة .

فتملكها لين فقدت معه كل إحساس بوجودها ، وهناك شيء خفي وأمر علوى يدفعانها إلى الاستسلام ، وغيوم تعلو بها إلى ما فوق . فانقلبت على السرير بين ليد الأسد خائرة القوى ، وامسك ماتو بعقبها فانقطعت السلسلة الذهبية الصغيرة وتطاير طرفاها فاصطدما بالنسيج وكأنهما حيتان تثبان . وسقط الحجاب فغطاها ، ورأت وجه ماتو منحنيا فوق صدرها فتمتمت :

« إنك تحرقني يا مولوخ ! »

وكانت قبلات الجندى اشد التهاماً من النيران وهى تمر عليها وتنطبع شاملة ، وكانت هى كأنها محمولة علي إعصار ، مأخوذة بقوة الشمس .

وقبل جميع أناملها وذراعيها وقدميها وغدائر شعرها الطويلة من المنبت حتى الأطراف .

وكان يقول لها : خذى الحجاب هل أنا متمسك به ! احمليني معه ! فأهجر الجيش واتنازل عن كل شيء . هناك بعد جاديس وعلي بعد عشرين يوما فى البحر جزيرة مغطاة بالتبر والخضرة والطيور ، وعلى جبالها زهور كبيرة زكية العرف تخرج نشرها وتتهادى كأنها مباخر ابدية ، وعلى اشجار الليمون الشامخة كأشجار الأرز حيات بيضاء اللبن تنثر باشداق كانها الماس ثمار الليمون على الأرض . آه . لسوف اجد هذه الجزيرة فنعيش هناك فى كهوف البلور المنحوتة فى سفوح الآكام ، وليس من ساكن يسكنها اليوم فاصبح ملكا عليها .

وأزال غبار حذائه ، وأحب ان تضع بين شفتيها ربع رمانة ، وكدس وراء رأسها ملابس ليهيء لها مخدة ، وبالغ فى خدمتها والتواضع لها ، حتي انه بسط فوق رجليها الحجاب وكانه بساط من الأبسطة ، واخذ يداعبها بقوله :

– « الا تزال لديك قرون الغزال الصغيرة المعلقة عليها عقودك ؟ إنك ستهدينى إياها لأنها تروق لى » . كان يتكلم كما لو كانت الحرب قد وضعت اوزارها ، وضحكات الفرح تخرج من صدره . وزالت جميع الموانع واختفى معها هاميلكار والجنود المرتزقة . وبدا القمر ينساب بين غيمتين – وهما يريانه من فتحة من فتحات الخيمة . وقال : « كم من نعال قطعتها وانا ارعى القمر واراقبه . وكان يبدو لى حجابا يبرقع وجهك وانك تنظرين من خلاله ، وكانت ذكراك تختلط باشعته فلا اعود اقوى على التمييز بينكما » . ثم يضع رأسه بين نهديها ويسترسل فى البكاء .

وكانت هى تقول لنفسها : « أهذا هو الرجل الهائل الذى ترتجف منه قرطاجة ! »

واستسلم إلى النوم ، فافلتت من بين ذراعيه وألقت باحدى قدميها علي الأرض فتنبهت عند ذاك الى أن السلسلة التى تربط كعبيها قد تحطمت ، وكانت كبار الأسر فى قرطاجة تلزم بناتها العذارى باحترام هذا الرباط والمحافظة عليه كشىء يقدسه الدين ، فاحمر وجهها ولفت حول ساقيها قطعتى السلسلة الذهبية .

وكان يدور فى ذاكرتها بصور صاخبة ولكنها واضحة : قرطاجة وميجارا وبيتها وغرفتها والبرارى التي قطعتها ، فتبدو لها الماوية الهائلة الطارئة التى أصبحت تفصل بينها وبين تلك الصور الى أبعد مدى .

وكان ماتوكمن قد سكر ، ينام متمدداً على جنبه وإحدى ذراعيه تتجاوز

حافة السرير ، وعصابة اللالى التى تحيط براسه قد انقلبت الى الوراء فظهر جبينه ، وابتسامة تفرق بين اسنانه البادية اللمعان إلى جانب لحيته السوداء ، وفى أجفانه المطبقة نصف إطباقة ، يبدو فرح صامت يكاد يكون ينم عن الاحتقار ، وسلامبو تنظر إليه جامدة مطأطئة مصلبة اليدين .

وفوق رأس السرير خنجر موضوع على طاولة من خشب السرو ، فأشعل فيها هذا المنظر نار شهوة دموية جامحة ، وطنت فى اذانها من بعيد اصوات مناحة تقترب فى الظلام كما لو كان هناك جوقة من الأرواح السموية تتقدم اليها برجاء . فاقتربت وقبضت على مقبض الخنجر ، وفتح ماتو عينيه اسماعه حفيف ثوبها ، وادنى فمه من يديها ، فسقط الخنجر .

وإذا بصرخات تعلو وبأشعة مخيفة تتوهج وراء الخيمة ، فرفع ماتو الستر ، فرأيا ناراً عظيمة تحرق بخيام الليبيين .

فأعراش القصب تصطدم ، وسوق القصب تتلوى فتثب بين الدخان فترتفع كالسهام الى الأفق الأحمر ، وظلال سود تجرى حائرة ولهى ، وصراخ الألم يرتفع من سكان تلك الأعراش ، والفيلة والأبقار والخيل تعدو بين الزحام فتدوس الرجال والذخائر الحربية والأمتعة التى كانت تستخرج من الحريق ، والأبواق تنفخ والجند ينادون : ماتو ماتو ، ووقف على الخيمة رجال يحاولون الدخول وهم يصيحون :

— « هلم وعجل ! هذا هاميلكار يحرق معسكر أوتانيت ! » .

فقفز قفزة ، وأذابها منفردة .

فأخذت تتفحص الحجاب واطالت فحصه واذا بها تصاب بخيبة امل ودهشة لعدم شعورها بتلك السعادة التى كانت تتخيلها من قبل ، وظلت كئيبة حزينة رغم أن حلمها قد تحقق .

ورفع ستر الخيمة من أسفلها وظهرت صـورة مسخ لم تتبين سـلامبو منها — بادئ ذى بدء — إلا عينين ولحية بيضاء تتدلى حتى الأرض . لأن ماتبقى من الجسم كان يزحف على الأرض متعثراً بأطهار ثوب أشقر اللون . وكان كلما هم بالتقدم دخلت اليدان باللحية ثم عادتا فسقطت ، واخيرا وصل الرجل بزحفه حتى أقدام سلامبو ، فعرفت فيه الشيخ جيسكون القائد .

كان البربر قد حطموا أرجل القدماء الأسرى بقضبان من حـديد ليحولوا بينهم وبين الفرار ورمـوا بهم البعض فوق الآخر فى حفرة للأقذار حيث كان النتن يدنيهم من الموت ، وكان الأشداء منهم يرفعون رؤوسهم عند سماعهم صلصلة قصاع الطعام ، وهكذا ابصر جيسكون سلامبو وحزر أنها من قرطاجة لما رآه من كريات السندروس التى كانت تلطم بحذائها النحاسى ، وقدر ان يكون هناك سر له خطورته ، فاستعان برفقائه وتوصل إلى الخروج من الحفرة واستند على مرفقيه ويديه حتى تمكن من جر نفسه إلى خيمة ماتو من بعـد خمسين قدما . وسمع فى الخيمة اصوات متحدثين وتنصت فوعى حديثهما .

وصعقت سلامبو وقالت وهى ترتجف :

— « أنت ! » .

— « نعم أنا ! إنهم يحسبوننى ميتاً ! » .

فحنت رأسها ، وأتم حديثه : آه ! لماذا لم تمن على البعول بنعمة الموت ؟ ! » — واقترب منها حتى كاد يلمس ثوبها — « ولو أنهم فعلوا لوفروا على ان أحب اللعنة » .

فارتدت سلامبو بسرعة إلى الوراء لما حل بها من الخوف من هذا الـكائن

القذر ، الذى كان ابشع من يرقانة الدود واشد هولا من الشبح .

— « لقد نيفت الآن على المائة فرأيت أجاتوكليس وريجوليس والنسور الرومانية تدوس حصاد الحقـول القرطاجية ، وشهدت جميع أهـوال الحروب ورأيت البحر غاصاً ببقايا أساطيلنا الممزقة ، والبربر الذين كنت قائداً لهم قيدوا أعضائى الأربعة بسلاسل الحديد كالعبد القاتل ، ورفاقى يموتون الواحد بعـد الآخر حوالى ، فتمنعنى روائح جثثهم من النوم ، وأذود عنهم الطير الذى يهبط لينقر أعينهم ، ولـكنى مع ذلك جميعه لم أيئس يوما من قرطاجة ، ولو رأيت جميع جيوش الأرض مجمعة على حربها ، ولهب نيران الحصار يرتفع فوق قباب الهيا كل لظللت أومن مع ذلك بابدية بقائها ،وأما الآن فقدانتهى كل شىء وفقدنا كل شىء، الآن الالهة أصبحت تـكرهنا . فعليك اللعنة أنت يامن عجلت بخرابها بخزيك وعارك ! » .

وفتحت شفتيها ...

— فصاح بها : « لقـد كنت هنا . لقـد سمعتك تشخرين عشقاً وصبابة كالمومس الساقطة ، وكان يشكو إليك شدة شبقة فتتركين له يديك يطبع عليهما القبلات ، ولـكن إذا كانت شهوتك الجامحة المنـكرة تدفعك إليه فقد كان الحيـاء أو الخجل يقضيان عليك أن تعملى علي الأقل ما تعمله الوحوش التى تختبىء عند تزاوجها . لا أن تنشرى عارك حتى تحت عينى والدك !! .

— « ماذا الذى تقوله ؟ » .

— « كأنك لا تعرفين بأن الحصنين لايبعدان الواحد عن الاخر أكثر من خمسين ذراعا ، وأن معشوقك ماتو نصب خيمته أمام خيمة هاميلـكار لشدة كبريائه . هو هناك هذا الوالد وراءك ولو أمكننى أن اتسلق الممر المؤدى إلى الافريز لصحت به : « تعال ياهاميلـكار وانظر فتاتك بين ذراعى البربر ! لقد توشحت إرضاء له بحجاب الالهة وهى — إذ تسلم جسدها — تسلم بوقت معاً المجد المقترن باسمك ، وجلال الالهة ، وانتقام الوطن حتى وسلامة قرطاجة » .

وكانت حركة فمه الأدرد تهز جميع اجزاء لحيته وعيناه المسودتان تنظران إليها وتفترسانها ، وكان يعيد ويكرر وهو يلهث بين الغبار :

— « أف لك يامنتهكة حرمة الالهة ! كونى ملعونة ، ملعونة ، ملعونة !

وكانت سلامبو قد أزاحت عنها الحجاب ، ورفعته محمولا على طرف ذراعها وهى تنظر إلي جهة هاميلكار دون أن ترد بكلمة . ثم سألته :

— « أمن هنا السبيل إليه ؟ » .

— « وما شأنك بذلك ! حولى وجهك ! أغربي ! لا بل مرغى وجهك على التراب واسحقيه . إن مقر أبيك مقدس يدنسه نظرك إليه » .

فلفت الحجاب حول قامتها ، والتقطت بخفة براقعها ومعطفها وشالتها وصاحت « ها أنا ذاهبة إليه ، وفرت لا تلوى على شىء .

وسارت فى الظلام لا تلتقى بأحد لأنهم جميعا قد اتجهو نحو الحريق ، وكانت الضجة تتضاعف والحريق يزداد ولهبه يكسو السماء ثوباً أرجوانياً ، وحالت دون تقدمها مصطبة فأخذت تدور يميناً ويساراً تلتمس سلما أو حبلا أو حجرا أو شيئاً تستعين به ، وهى لاتزال خائفة من جيسكون ويخيل إليها أنها تسمع صراخا ووقع أقدام تطاردها ، وبدأ الصباح يلبلج ببياضه فأبصرت معبراً فى قلب الحصن الصفيق فامسكت بأسنانها ذيل ثوبها الذى كانت تتعثر به وقفزت ثلاث قفزات أوصلتها إلى المصطبة ، فانفجرت تحتها صيحة رنانة خرجت من الظلمة ، هىذات الصيحة التى كانت سمعتها يوم سفرها خارجة من أسفل سلم السجون ، فمالت برأسها إلى الأسفل فرأت رجل شاهبريم ومعه الجوادان مقرونين ، كان قد مشي طوال الليل هائماً بين الحصنين ، وأقلقته نار الحريق فعاد أدراجه نحو معسكر ماتو لينظر ما يحدث فيه . ورأى أن المكان الذى كان قائماً فيـه أقرب نقطة إلى الخيمة فوقف ينتظر عملا بأوامر شاهبريم .

فاعتلى صهوة أحد الجوادين ووقف على السرج فهبطت إليه سلامبو مستندة

عليه ، وأخذا يعدوان بفرسيهما هربا دائرين حول معسكر القرطاجيين لعلهما يجدان منفذاً إليه .

***

وعاد ماتو إلى خيمته وكان المصباح يدخن ولا يكاد يضىء ، وظن أن سلامبو نائمة فنادى فلم تجبه فانتزع بعنف قطعة من ستر الخيمة ليرى على نور الفجر ، وإذا بالحجاب قد اختفى .

وإذا بالأرض تهتز لوقع أقدام جمهور مزدحم وبالصياح يعلو وبالخيل تعالى بالصهيل وبقرقعة السلاح ترتفع إلى الجو وبالأبواق تنفخ مؤذنه بالهجوم ، وكان ذلك كله كإعصار يدور حوله ؟ فهاجه حنق لا حد له ووثب على أسلحته وثباً فحملها وارتمى خارج الخيمة .

وكانت صفوف طويلة من البربر تنحدر من الجبل جارية ، والجبل نفسه والمربعات القرطاجية تتقدم هاجمة بتأرجح ثقيل متناسق ، والضباب الذى شقت سجنه أشعة الشمس قد استحال إلى غيوم صغيرة تماوج حتى إذا ارتفعت شيئاً فشيئا ، انجلت عن أعلام وخوذ وأسنة رماح ، ولسرعة تقدم الجيوش ، بدت قطع الأرض المغطاة بالظلام كأنها تنتقل مسرعة من مكانها بقفزة واحدة ، وفى مكان آخر بدت الجيوش كأنها سيول منحدرة تتقابل وبينها مساحات من الشوك ظلت ثابتة غير متحركة . وكان ماتو يتبين الضباط والجنود وضباط الاتصال وحتى الخدم السائرين وراءهم ، راكبين الحمير ، ورأى أيضا نارهافاس يميل بجنوده فجأة إلى اليمين ، بدلا من أن يحتفظ بموقفه ليغطى المشاه ، وكأنه يريد بميله أن يسحقه جيش هاميلكار .

وتجاوز فرسانه الفيلة التى أخذت تتباطأ فى سيرها ، وأخذت الخيل ، وقد مدت رؤوسها وهى مطلقة الأعنة ، أخذت تعدو عدوا شديداً حتى كأن بطونها تمس الأرض ، وعلى حين فجأة تقدم نارهافاس ، بثبات من حارس من الحراس ورمى رمحه وحرابه وسيفه واختفى بين القرطاجيين .

وسار تواً إلى خيمة هاميلكار وقال له ، وهو يشير إلى رجاله الواقفين بعيداً :

— « ياباركا : جئتك برجالي ، فكلهم لك » .

ثم جثا أمامه إشعاراً بالعبودية ، وإظهاراً لأمانته وأخذ يعدد له خدماته منذ اشتعال نار الحرب :

فهو الذى حال دون حصار قرطاجة ودون ذبح الأسرى ، وهو الذى لم يرد أن يستفيد من انتصاره على هنون بعد انكساره فى أوتيك ، وأما المدن الصورية فهى واقعة على حدود مملكته . وذكره بعدم اشتراكه فى معركة ماكار وبتخلفه من نجدة البربر كي لايحارب القائد الزعيم .

لقد كان نارهافاس يرمى إلى توسيع حدود مملكته بالاعتداء على الأقاليم القرطاجية ، وهكذا وتبعاً لنتائج المعارك كان ينجد البربر أو يخذلهم . ولما رأى كفة هاميلكار ترجح ، وقدر ان سيتم النصر له فى آخر الأمر ، جاء ينضم إليه. وقد يكون أحد الأسباب فى انقلابه مايحمله من الضغينة على ماتو ، إما لتقلده دونه إمارة الجيوش ، وإما لحبه القديم .

وأصغى إليه الزعيم دون أن يقاطعه ، فالرجل الذى يستسلم هكذا لجيش له ثأر عنده ، لا يمكن إلا أن يكون عوناً لا يستهان به ، وأدرك هاميلكار ببعيد نظرة أن حلفاً كهذا يساعد علي تحقيق مراميه الواسعة ، فبمساعدة النوميديين يتخلص من الليبيين ثم بجر الغرب إلى الاستيلاء على إمبيريا .

ولم يسأل عن سبب عدم التعجيل بالانضمام إليه ولا حاول تفنيد أكاذيبه بل قام فقبله بضم صدره إلى صدره ثلاث مرات .

وكان هاميلكار قد أحرق خيام الليبيين ليأسه ولاستعجاله النهاية ، فعد هذا الجيش الذى أقبل عليه عوناً من الآلهة .

واخفى فرحه ورد على نارهافاس قائلا :

— « لتنصرك البعول ! لست أدرى ما ستكافئك الجمهورية به ولكن هاميلكار لا يجحد جميلا . وازداد التعجب واللغب وأقبل الضباط ، فأخذ هاميلكار يتقلد سلاحه وهو يقول لنارهافاس :

— « إلى الأمام ! عد إلى جندك وسق مشاة البربر بفرسانك إلى ما بين أفيالى وأفيالك ! هيا تشجع ولاتبق على أحد منهم » .

وأسرع نارهافاس يحاول الخروج ولكن سلامبو ظهرت على حين فجأة .

فقفزت عن جوادها ، وفتحت معطفها وأخرجت منه الحجاب فنشرته .

وكانت خيمة الجلد المرفوعة سجفها من كل ناحية تطل على جنبات الجبل المغطى بالجنود ، ولما كانت سلامبو واقفة فى الوسط كان جميع الجنود يرونها أو يلمحونها . فارتفعت منهم صيحات عظيمة تعبر عن النصر والأمل ، والسائرون إلى الأمام توقفوا عن التقدم ، والمرضى المحتضرون اتجهوا إليها بأبصارهم يباركونها . وكان البربر كلهم قد عرفوا بأنها قد استردت الحجاب وهم من بعيد يرونها أو يتصورون ، فارتفعت صيحات أخرى ولكنها صيحات ألم واستنكار وانتقام صيحات دوت رغم تصفيف القرطاجيين ، وهكذا فان الجيوش الخمسة المصفوفة على مدارج الجبل تصيح وتضج حول سلامبو .

ولم يستطع هاميلكار أن يتكلم فأخذ يمحضها الشكر باشارات من رأسه ، وعيناه تنتقلان من الحجاب إليها ومنها إلى الحجاب ، ولحظ أن سلسلتها مقطوعة فاعترته رعشة لما داخله من شك فظيع ، ولكنه استعاد رباطة جأشه وأخذ ينظر بطرف عينه إلى نارهافاس دون أن يلتفت إليه .

وكان ملك النوميديين منتحياً ناحية من الخيمة لرزانته ، وعلى جبينه شيء من الغبار الذى علق به عند سجوده لهاميلكار ، فتقدم الزعيم منه وملامح الجد تبدو على محياه وقال :

— « مكافأة لك على ما بذلته يانارهافاس ، قد زوجتك ابنتى . . فكن لي ابنا ودافع عن أبيك ! » .

فبدرت من نارهافاس حركة تدل على الدهشة وارتمى علي يدى هاميلكار يغطيهما بقبلاته .

وسلامبو هادئة ساكنة كالتمثال تبدو كأنها لم تفهم ، وقد علا وجهها احمرار خفيف وهى تغض جفنيها فترسل أهدابها المقوسة الطويلة ظلالا على خديها .

وشاء هاميلكار أن يربطهما دون تأخير برباط الخطبة الذى لا ينفصم ، فوضعوا فى يد سلامبو رمحاً قدمته لنارهافاس ، وربطوا إبهاميهما بسير من جلد البقر ، ونثروا القمح على رأسيهما ، والحبات التى تساقطت حولهما أخرجت أصواتاً كتكتكات البرد المتساقط على الأرض .



(١٢)

قناة المياه

لم يبق من المرتزقة بعد اثنتى عشرة ساعة إلا أكوام من الجرحى والموتي والمحتضرين .

ذلك أن هاميلكار خرج بجيشه على حين فجأة من أقصى المضيق وتحول به إلى منحنى الجبل الغربى الذى يشرف على هيبوزريت ، وحرص على أن يستدرج البربر إليه لأن المجال فيه كان اوسع . وكان نارهافاس قد أحدق بهم بفرسانه بينما كان القائد الزعيم يرد هجماتهم ويسحقهم . وكانوا قد أحسوا بالهزيمة قبل وقوعها لضياع الحجاب منهم ، حتى أن الذين لم يكونوا مبالين به شعروا بالغم والقلق بل بالضعف لفقره ، وقد انسحب هاميلكار بعيداً عن ساحة الوغى ووقف إلى اليسار على مرتفعات يشرف منها على الجيوش ، لأنه لم يرد أن ينسب إليه — إرضاء لكبريائه — فضل السيطرة على المعمعة .

ومن المستطاع التعرف إلى أشكال المعسكرات من حواجزها المنحنية ، هناك أكوام الرماد تثير الدخان فى المكان الذى كان الليبيون يعسكرون فيه ، والأرض المضطربة تتماوج كبحر ، والخيام بما عليها من أطمار تبدو سفناً مبهمة غامضة تكاد تضيع بين الصخور ، وتنتثر بين الجثث هنا وهناك أدرع ومدارى وأبواق وقطع خشب وحديد ونحاس وقمح وقش وملابس ، وبعض الفوانيس الموشكة على الانطفاء تشتعل إلي جانب أكداس من الأمتعة ، والأرض تختفى فى بعض الأماكن تحت التروس ، وبقايا جثث الخيول تتابع كتلال ، وهناك

ايضاً ارجل مبتورة ونعال وأذرعة ودروع ورؤوس مقطوعة لاتزال فى خوذها معلقة بسيور الجلد إلى الذقون ، وكأنها كريات مبعثرة هناك وشعور مدلاة على الأشواك ، والفيلة مطروحة فى نقيع من الدماء مع أبراجها واحشاؤها ممزقة وهى ترسل حشرجات الموت ، ويطأ السائر على مواد لزجة وعلى صمات من الوحول ولو أن المطر لم يكن قد تساقط .

وهذا الخليط من الجثث يملأ الجبل كله من أعلاه إلى أسفله .

والأحياء كالأموات لايبدون حراكا بل يجلسون القرفصاء جماعات غير متساوية ينظر الواحد منهم إلى الآخر وهم هلعون صامتون .

وتبدو بحيرة هيبو زريت فى نهاية مرج أخضر وهى تتلألأ تحت أشعة الشمس الغاربة . وعلى اليمين بيوت بيض متقاربة تقع خارج منطقة الأسوار ، ثم ينبسط البحر إلى مالانهاية له .

والبربر يصعدون التنهدات وأيديهم تحت ذقونهم وهم بأوطانهم يحلمون . وتبدو فى السماء غيمة قاتمة تنحدر نحو البحر .

وهبت ريح المساء ، فانفرجت جميع الصدور ، وكلما زاد البرد قرساً ابتعد الدود والهوام عن جثث الأموات الباردة وسرحت الرمال الساخنة ، وعلى رؤوس الحجارة الكبيرة حطت غربان جامدة لاتتحرك تتجه برؤوسها ناحية المحتضرين .

ولما أظلم الليل أقبلت أفواج من الكلاب ذات الوبر الأصفر وأسراب من هذه الوحوش القذرة التى تتبع الجيوش إلى وسط البربر ، فبدأت تلحس قطرات الدماء المتجمدة العالقة على عصص الأعضاء المبتورة التى لاتزال دافئة ، ثم تحولت إلى افتراس الجثث مبتدئة بقر بطونها .

وعاد الفارون إلى الظهور واحداً بعد واحد كما تظهر الأشباح والظلال ،

والنساء حاولن هن أيضاً أن يعدن لأنه كان لايزال منهن الكثيرات فى معسكر الليبيين ، رغم المذبحة التى أوقعها فيهن النوميديون .

وأشعل بعضهم أطراف الحبال ليستنيروا بها كالمصابيح ، وجعل بعضهم من أعواد الرماح محفات يبعدون بها الجثث عنهم .

وكانت هذه الجثث متمددة فى صفوف طويلة مستلقية على ظهورها، وأفواهها مفتوحة ، ورماحها إلى جانبها ، أو مكدسة فوق بعضها حتى انهم ليضطرون أن يحفروا فيها ليبحثوا عن جثة قتيل مفقود وأن يتفرسوا بوجوهها على ضوء مشعل وكان الكثيرون قد أثخنت فيهم الجراح البليغة من سلاح فتاك ، فهناك تناثرات لحم تتدلى من الجباه ، وجند ممزقة أجسامهم تمزيقا أو مزرقة وجوههم لموتهم خنقاً ، أو مسحوقة عظامهم حتى أمخاخها أو ممزقة أجسادهم بأنياب الفيلة . وهم وإن كانوا قد ماتوا فى وقت واحد فان البلاء قد دب فيهم بأشكال وفى ساعات مختلفة ، فأهل الشمال متورمون بورم أغبر اللون ، والافريقيون ، وهم عصبيو التكوين ، قد جفوا جفافا ، ويميز المرتزقة بالأوشام المطبوعة على أيديهم: فقدماء جنود انطوخيوس موشومون بصقر ، والذين حاربوا فى مصر برأس قرد كبير ، والذين خدموا أمراء آسيا بفأس أو رمانة أو مطرقة ، والذين عاشوا فى الجمهوريات الاغريقية بقلعة أو باسم أركون . وأخيراً كان بينهم من غطت أذرعتهم الأوشام والرموز المتعددة التى كانت تختلط بندباتهم وجراحهم الجديدة .

ورفعوا أكواما أربعة من الحطب لإحراق جثث السمنيين والأتروسك والكامبانيين والبروتيين وحفر الاغريق حفر موتاهم برؤوس سيوفهم ، وخلع السبارطيون معاطفهم وكفنوا بها موتاهم ؟ ودفن الاغريق قتلاهم موجهة إلى الشمس والكانتبر فى رجم من الحصى ، « والنساقون » طووهم بربطهم بسيور من جلد البقر ، وأخذ « الجوامند » موتاهم فدفنوهم على شاطىء البحر لتظل الأمواج تسقى قبورهم . وأسف اللاتينيون لعجزهم عن وضع رماد موتاهم فى الأوانى ، وشكا الرحل من حرارة الرمال التى تحول الأجسام إلى مومياء « والسلتيون » واروا أمواتهم تحت ثلاثة حجارة صم وسماء ممطرة وفى خليج مملوء بالجزر .

وكان الصراخ والعويل يرتفع ثم يليه صمت ليرغموا نفوس الأموات على العودة ، وهكذا كانت تتوالى الصرخات بلا انقطاع وبين فترات معينة .

ويعتذرون إلى الأموات لعجزهم عن تكريمهم التكريم الذى تقضى به طقوس العبادة ، لأنهم بهذا الحرمان سيضطرون أن يهيموا لمدة اوقات لا حد لها ، ويتعرضوا المفاجآت وتقمصات مختلفة ، وينادونهم طالبين منهم ما يرغبونه ويكيل لهم البعض الشتائم لأنهم لم يعرفوا أن يتقوا الهزيمة .

وعلى ضوء المحترقات الكبيرة تبدو صفراً وجوه الذين نضبت دماؤهم ، وهم مرتمون على بقايا أسلحتهم ، والدموع تبعث الدموع ، والزفرات تتصاعد أحد ، ومظاهر الوفاء والعناق أشد ، وبعض النساء يتمددن على الجثث والأفواه على الأفواه والجباه فوق الجباه ، حتى ليضطرون إلى ضربهن لأبعادهن فى ساعة الدفن ، وكذا يصبغن وجهوهن بالسواد ويقصصن شعورهن ويستخرجن من من أجسادهن الدماء ليرمينها فى القبور ، أو يحدثن بأجسامهن جروحا شبيهة بجراح الميت ، وأصوات العويل والنواح ترتفع كالزئير فتختلط بأصوات الصنوج وكان بعضهم ينزع تمائمه ويبصق عليها .والمحتضرون يتمرغون فى الوحل ، وهم يبكون ويعضون بحنق عصص قبضاتهم المبتورة ، وذبح ثلاثةوأربعون شابا بعضهم على طريقة المصارعين . وجاء وقت نفد فيه الحطب اللازم للمحرقات فانطفأت النيران ولم يبق محل لاحراق الجثث الأخرى ، وأنهكهم الصراخ ومسهم الضنى وخارت منهم القوى ، فناموا إلى جنب أخوتهم الموتى ، فالذين كانت لهم رغبة فى الحياة كانوا ممتلئين قلقا ، والآخرون رقدوا وهم يتمنون ألا يستيقظوا من رقادهم .

***

وعند انبثاق الفجر ظهر على حدود معسكر البربر جنود يسيرون وخوذهم مرفوعة على أسنة رماحهم ، وحيوا المرتزقة وسألوهم عما إذا كان لهم ما يعملونه فى أوطانهم .

وتقدم آخرون من البربر فعرفوا فيهم بعضا من رفاقهم القدامى .

وكان هاميلكار قد عرض على الأسرى جميعاً أن ينخرطوا فى سلك جيشه فرفض الكثيرون عرضه بشجاعة ، ولما كان لايود أن يسلمهم إلى انتقام المجلس الكبير ، ولا أن يقدم لهم الغذاء ، صرفهم بعد أن أمرهم بأن لا يعودوا إلى محاربة قرطاجة ، وأما الذين خافوا التعذيب فقد وزعوا عليهم سلاح البربر ، فجاءوا إلى المغلوبين مدفوعين بعامل الكبرياء والفضول ليستدرجوهم إلي صفوفهم .

فبدأوا يحدثون بحسن معاملة الزعيم لهم ، والبربر يصغون إليهم والحسد يملأ نفوسهم ، ولو أنهم كانوا يحتقرونهم ، ولما أخذ البربر يوبخونهم ثارت ثائرة الخونة وأخذوا يضعون تحت أعينهم أسلحتهم التى غنمها القرطاجيون منهم ويدعونهم — وهم يوجهون إليهم الشتائم — لأن يتقدموا نحوهم ليستردوا أسلحتهم ، فتناول البربر الحصى ليحصبوهم ، ففروا هاربين ، ومنذ تلك الساعة لم يعد يظهر على قمة الجبل إلا أسنة الرماح خارجة من وراء الحواجز .

واستولى على البربر ألم أشد وأنكى من ذل الانكسار ، ألم التفكير بعدم فائدة شجاعتهم وذهابها ضياعا ، فكانوا يحرقون الأدم ندما وعيونهم شاردة جامدة .

وخطر لهم خاطر عملوا كلهم على تحقيقه ، فانقضوا وهم يصخبون على الأسرى القرطاجيين . وكان جنود هاميلكار لم يتمكنوا من الاهتداء إليهم لأن البربر نحوهم عن ساحة القتال وتركوهم مرميين فى حفرتهم العميقة .

وصفهم البربر على الأرض فى مكان ممهد ، وأقاموا حولهم الحراس ، وتركوا النساء يدخلن عليهم زمراً مؤلفة من ثلاثين إلى أربعين امرأة ، وطاب لهن أن يغتنمن الوقت القليل الذى حدد لهن . فأخذن ينتقلن جاريات من أسير إلى أسير وهن حائرات هائجات ، وأخذن يعملن عملهن فيهم فيضربنهم ضرب الغاسلات لقطع الثياب القذرة ، وهن يرددن أسماء أزاوجهن ، ويمزقنهم باظفارهن . ثم فقأن

أعينهم برؤوس دبابيس شعورهم ، وجاء الرجال بمدهن فأخذوا يذيقونهم انواع التعذيب وأشكاله من أقدامهم التي كانوا يقطعونها إلى الكعوب ، إلى الجباه التى كانوا يسلخون جلودها ليستعملوها كتيجان تغطى رؤوسهم ، وكان آكلة الأشياء النجسة أشد قسوة وشراسة فيما تصوروه ، فكانوا يسممون الجراح بأن يصبوا عليها الخل ويضعوا فيها التراب وكسرات الأواني الخزفية . وكان غيرهم ينتظرون دورهم ، والدم يسيل من الأسرى فيزداد فرحهم ، كما يفعل عاصرو العنب وهم واقفون حول دسوتهم المتصاعد بخارها .

ولكن ماتو ظل جالساً على الأرض فى المكان الذى استقر فيه عند نهاية القتال وقد وضع مرفقيه على ركبتيه وصدغيه بين كفيه ، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يفكر بشىء .

واتصلت به صيحات فرح الجنود فرفع رأسه فرأى أمامه بقية من قماش منصوبة على مدارة وهى تتدلى من أسفلها فتظلل ، أو تكاد ، سلالاو بسطاًوجلد أسد ، فعرف خيمته والتصقت عيناه بالأرض كما لو كانت ابنة هاميلكار قد غاصت فى أعماقها عند اختفائها .

والنسيج الممزق تلاعبه الريح حتى لتلمس أطرافه فمه ، ولمح على النسيج علامة حمراء شبيهة ببصمة الكف ، كانت تلك يد نارهافاس ، رمز تحالفهما ، فوقف ماتو عند ذاك وأخذ جمراً لا يزال مشتعلا فرماه على بقايا خيمته باباء واحتقار ، وأخذ يجمع بطرف حذائه ما تبقى خارج النار ويدفعه إلى اللهب كي لا يبقى منه أثر ما .

وإذا بسبنديوس مقبلا ولم يكن بالامكان معرفة الجهة التى جاء منها .

وكان العبد القديم قد ربط على فخذيه كسرتى رمح ، وهو يعرج بشكل يدعو إلي الشفقة ، ويضج بالشكوى . فقال له ماتو :

— « انزع هذا عنك فانا أعرف أنك شجاع ! » لقد كانت قوة ظلم الآلهة قد سحقته حتى لم يعد له من القوة ما يمكنه أن يظهر اشمئزازه من الرجال .

واشار سبنديوس إلى ماتو بان يتبعه وقاده إلي نقرة فى تلة يختبىء فيها أوثاريت وزركساس .

لقد هربا من ساحة الوغى كما هرب العبد ، رغم شجاعة الأول وقسوة الثاني وكانا يقللان المزيمة بخيانة نارهافاس غير المنتظرة بحريق خيام الليبيين وخسارة الحجاب وهجوم هاميلكار المفاجىء ، ولا سيما لمناورته التى أرغمهم بها على الرجوع إلى أسفل الجبل حيث وقعوا تحت ضربات القرطاجيين المباشرة ، وكان سبنديوس ينكر أن الرعب قد حل به ويصر على الادعاء بكسر رجله .

وأخيراً أخذ الثلاثة الرئيسان والقائد العام يتشاورون فيما يجب الآن عمله .

كان هاميلكار يسد بوجوهم طريق قرطاجة كما أصبحوا محصورين بين جيشه و بين أقاليم نارهافاس .

ومن المتوقع أن تنضم المدينتان الصوريتان إلي هاميلكار ، وهكذا يرغمونهم على التجمع وظهر الجيش إلى البحر ، ثم تنقض عليهم جميع هذه القوات فتسحقهم وذلك ما لابد من وقوعه .

وليس من سبيل إلى اجتناب الحرب بل لابد من متابعتها بشدة حتى النهاية ، ولكن ما السبيل إلى إقناع الجنود بمتابعة قتال لا نهاية له وكلهم فقد شجاعته وأكثرهم لاتزال جراحهم تدمى ؟

— فقال سبنديوس : « أنا أتولى أمر ذلك ! » .

ولم تمض ساعتان على هذا الحديث حتى أقبل رجل من جهة هيبوزريت يتسلق الجبل وهو يجرى وبيده ألواح مكتوبة يرفعها إلى الهواء وهو يبعث الصيحات فتجمع البربر حوله .

كانت تلك ألواحاً مرسلة من الجنود الاغريقيين فى سردينيا يوصون بها رفقاءهم فى أفريقيا بان يسهروا علي مراقبة جيسكون ومن معه من الأسرى ، فإن تاجراً من ساموس اسمه هيبوناكس قدم إليهم من قرطاجة وأخبرهم بان

هناك مؤامرة تحاك لتسهيل فرار لأسرى وأنهم إنما يكتبون إليهم لكى يحرج
جيش البربر على إحباط المؤامرة ، لأن الجمهورية القرطاجية ذات قوة وسلطان.

ولم تنجح هذه المناورة التى كانت من وحى سبنديوس ، لأن خبر المؤامرة المزعومة لم يثر حفيظة الجند وضعفهم بل ملأ قلوبهم خوفا ، ولا سيما أنهم تذكروا انذار هاميلكار السابق لهم ، فأخذوا يتوقعون حدوث شيء مرعب . وانقضى الليل وهم قلقون ، بل أن الكثيرين منهم خلع عنه أسلحته استدراراً لشفقة هاميلكار فيما لو كر عليهم .

ولكن رسولا آخر ظهر فى الغداة وهو لاهث معفر بالتراب ، فانتزع الإغريقى من يده ملفاً من البردى ملىء بكتابة بالخط القرطاجى به يرجو شجعان تونس جنود البربر ألا يستسلموا إلى الجزع ، لأنهم فى طريقهم إلى نجدتهم .

فقرأ سبنديوس الرسالة ثلاث مرات ثم حملهم إثنان من الكبادوسيين على أكتافهما وسار من مكان إلى مكان يقرأ الرسالة على الجنود ، وظل هكذا يقرأ ويخطب فيهم مدة سبع ساعات ، فكان يذكر المرتزقة بوعود المجلس الكبير ، والافريقيين بقسوة الوكلاء والنظار ، وجميع البربر بمظالم قرطاجة ، ويؤكد لهم أن حلم هاميلكار طعم ليصطادهم به ، وأن الذين يسلمون إليه سيساقون عبيداً ويباعون ، وأن المغلوبين سيهلكون تحت أنواع التعذيب . وأما الهرب فكيف السبيل إليه ؟ فما من شعب يرضى بايوائهم . فهم إذا صمدوا وولوا الجهود سينالون الحرية والمال ويدركون الثأر ، ولن ينتظروا طويلا لأن رجال تونس بل وأهل ليبيا جميعا سيهبون إلى نجدتهم مرعبين ، ثم يقول وهو يبسط أمامهم ورق البردى :

— « هاكم انظروا ! اقرأوا ! هذه هى وعودكم ! أنا لا أكذب أبدا » .

كل هذا والكلاب شاردة هائجة ، وأفقاؤها السود ملطخة بالدماء ، والشمس المحرقة تلذع الرؤوس العارية ، والروائح الكريهة المهيجة للقيء تتصاعد من

الجثث غير المطمورة الطمر الكافي ، والتي كانت تخرج من حفرها حتى بطونها ، وسبنديوس يهيب بها أن تقوم فتشهد على صدق قوله ، وأخيراً يرفع قبضة يده ويمدها جهة هاميلكار .

وكان ماتو ينظر إليه ويراه ، ولكي يلقي سترا على تخاذله ، أخذ يتظاهر بالغضب ، ولكن هذا التظاهر تحول سريعا إلى غضب حقيقي ، وسلم أمره للآلهة وضاعف لعناته على قرطاجة ، وأخذ يفكر بأن تعذيب الأسرى لعب صبياني ، فلم يتركهم على قيد الحياة ؟ ويجر هكذا وراءه هذه البهائم التي لا تنفع . وقال . يجب أن نتخلص من هؤلاء فقد عرفت نواياهم نحونا ، وقد يكون هلاكنا على يد واحد منهم ، سأقدر بطولة الواحد منكم بسرعة جريه وقوة ضرباته » .

ووجه الجند أحقادهم جهة الأسرى ، وكان أكثرهم يحتضر ، فأجهزوا عليهم بأن أدخلوا أعقاب أقدامهم في أفواههم أو بطعنات متعددة برؤوس حرابهم ، وافتكروا بجيسكون وزاد قلقهم إذ لم يجدوه بين الأسرى وأصبح كل منهم يريد أن يراه وأن يشترك بقتله ، وأخيرا وجده ثلاثة رعاة من السمنيين منطرحا على بعد خمسة عشر قدما من مكان خيمة ماتو ، فعرفوه من لحيته الطويلة ونادوا الآخرين فوجدوه مستلقيا على ظهره ويداه على وركيه وركبتاه مضمومتان كميت ينتظر كفنه ، ولكن جنبيه المزيلين كانا ينبضان ، وعيناه منفتحتان في وسط وجهه الشديد الاصفرار ، وهما ترسلان النظرات بشكل مستديم مزعج ، فنظر إليه البربر بادىء ذي بدء بنظرات تنم عن الدهشة ، لأنهم كانوا قد نسوه لإقامته الطويلة في الأخدود ، فوقفوا منه بعيدا لعامل من ذكريات قديمة ولم يجسروا أن يرفعوا أيديهم عليه .

ولكن الواقفين إلى الوراء أخذوا يتذمرون ويتدافعون ؛ وإذا برجل من « جارامانت » يشق الزحام وبيده منجل حصاد ، فأدركوا كلهم غرضه فاحمرت وجوههم خجلا ، ومع ذلك أخذوا يصيحون : « أجل ! أجل » .

واقترب الرجل ذو السلاح المحدودب من جيسكون وأخذ رأسه بيديه وأسنده

إلى ركبته وأخـذ ينشر رقبته بحركات سريعة . فسقط الرأس ، وانفجر الدم فأحدث نقرة فى الأرض ، ووثب « زركاس » عليه باسرع من وثبة الببر وحمله وهو يجرى نحو معسكر القرطاجيين حتى إذا قطع ثلثى الجبل ، أخرج من جيب صدره رأس جيسكون ممسكا فيـه باللحية ، وأدار ذراعه مراراً بسرعة ورمى به فدار الرأس بشـكل نصف دائرة وسقط فى معسكر القرطاجيين . فبـدا على حافة الحاجز علمان مصلبان وهى الاشارة المتفق عليها لتبادل تسليم جثث الأسرى.

ورد البربر على القرطاجيين بان اختاروا أربعة رسل من المنادين ، عوض الصيد ، وأرسلوهم مع أبواقهم إلى القرب من القرطاجيين فخاطبوهم بمكبرات صوت أنبوبة من نحاس معلنين بانه منذ اليوم لم يبق بين البربر والقرطاجيين أمان ، ولا عهد ولا رحمة ولا آلهة ، وأنهم سيرفضون بعـد اليوم كل مفاوضة ويعيدون كل رسول مبتور اليدين .

وأرسلوا سـبنديوس كمندوب عنهم إلي هيبوزريت ليجيئهم بالمؤن ، فعجلت المدينة الصورية باجابة طلبهم فى مساء ذات اليوم ، فاكلوا بشراهة ولمـا شبعوا كل الشبـع أسرعوا بجمع ماتبقى من أمتعتهم وأسلحتهم المحطمة ، ووضعوا الغزو فى قلب الجيش وتركوا جرحاهم يبكون وراءهم ، ورحلوا متتبعين حافة الشاطىء مسرعين كانهم قطيـع من ذئاب خاطفة .

ساروا ليفتحوا مدينة هيبوزريت وقد عقـدوا العزم على الاستيلاء عليها لأنهم كانوا بحاجة إلى مدينة .

* * *

ولما لمحهم هاميلـكار من بعيـد راحلين أحس بخيبة أمل رغم ما كان فى رحيلهم من إرضاء لـكبريائه ، فلقـد كان يجب أن يهاجمهم بدون تاخير بجيش جديد غير متعب ، ولو تم له ذلك لانتهت الحرب بعد ذلك بيوم واحد ، وإذا طال

المطال فسيعودون أقوى مما هم ، وستضم إليهم المدن الصورية . وأدرك أن حلمه بمعاملة المغلوبين لم يأت بفائدة ، ولذلك عقـد العزم على أن يكون بلا شفقة ولا رحمة .

وفى ذات اليوم أرسل إلى المجلس الـكبير هجينا محملا بالأساور التى جمعت من جثث القتلى ، وأمرهم مهددا أشد تهديد بأن يجيشوا جيشا آخر ويسوقوه إليه .

وكانوا كلهم يحسبونه فى عداد الأموات حتى أنهم لـما اطلعوا على نبـأ انتصاره دهشوا دهشة تشبه الذعر ، وكان تمام المعجزة استرجاعه للحجاب ، وكان الالهة نفسها وقوة قرطاجة أصبحت بين يديه . ولم يجرؤ أحد من أعدائه أن يجأر بشكوى أو بانتقاد ، وهكذا فان حماس هؤلاء وجبن أولئك حملا قرطاجة على أن تجهز ، قبل الموعـد المضروب ، جيشا مؤلفا من خمسـة آلاف رجل .

وأسرع الجيش بالسفر إلى أوتيك ليسند مؤخرة هاميلـكار ، واستقل ثلاثة آلاف غيرهم من الوجهاء سفنا تحملهم إلى هيبوزريت ، ليردو عنهـا البربر .

وألقيت مقاليد القيادة لهنون ، ولـكنه عهد بقيادة جيش المشاة إلى نائبه « مجداسان » ليقود هو بنفسه جيش البحر ، لعجزه عن تحمل ارتجاج المحفة ، لأن داءه الوبيل كان قد نهش شفتيه وأنفه وأحدث فى وجهه نقرة واسعة حتى كان يمكن رؤية حنجرته على بعد عشر أقدام ، وحتى أصبح ، يضع كالنساء برقعا على وجهه ليخفى بشاعته .

ولم تخضع هيبوزريت لانذاره ولا لتهديد البربر بل كانت ترسـل إلى هؤلاء المؤن فى السلال معتـذرين لهم من أعلى الأبراج بكثرة ما تطالبهم به الجمهورية وراجين منهم الا بتعاد عن المدينة ، كما كانت ترسل بالاشارات ذات الطلبات للقرطاجيين الراسية سفنهم على شاطىء البحر .

واكتفى هنون بمحاصرة الميناء متقيا خطر الهجوم ، ولكنه توصل إلى إقناع قضاة هيبوزريت بأن يقبلوا ما بينهم ثلثمائة جندى ، ثم تحول إلى رأس « ريزان » ودار دورة طويلة فى البحر . ليحدق بالبربر ، رغم عدم فائدة هذه الدورة بل رغم ما به من الخطر . ومنعه حسده من هاميلكار أن يسير إلى نجدته بل أنه كان يحجز جواسيسه ويعرقل خططه . وأخيرا كتب هاميلكار إلى المجلس الكبير بأن يريحه من هنون ، فعاد يسير إلى قرطاجة حانقا على ذل المجلس وجنون زميله ، وهكذا وبعد تعليل النفوس بالآمال . وجد القرطاجيون أنفسهم فى مركز أسوأ مما كان ، ولكنهم صرفوا النظر عن التفكير به بل وعن التحدث عنه .

وكأن هذه الكوارث لم تكن كافية على توالبها واشتدادها فقد جاء النذير بأن المرتزقة فى سردينيا قد ضحوا بقائدهم واحتلوا الحصون وأعملوا حد السيف ، بالرجال المنحدرين من أصل كنعانى ، كما أن الشعب الرومانى أرسل يهددهم بالحرب العاجلة إن لم يدفعوا ألفا ومائتى « تالنت » من الذهب ويتنازلوا لهم عن جزيرة سردينيا كلها ، وذلك لان الرومان رضوا بأن يحالفوا البربر وأرسلوا إليهم سفنا تحمل الدقيق واللحوم المجففة ، فطاردها القرطاجيون وأسروا منها خمسمائة أسير ، ولكن أسطولا من السفن القرطاجية كان يحمل إليها مؤنا من « بزاسين » أغرقته زوابع البحر ، وكأن الآلهة قد أصبحوا كلهم أعداء لقرطاجة .

ولما ذاعت تلك الأنباء عمد أهل هيبوزريت إلى مكيدة للتخلص مما لديهم من جنود القرطاجيين فزعموا أن هناك هجوما على المدينة ودفعوا الجنود إلى الأسوار ومشوا من ورائهم حتى إذا بلغوها أخذوا بأرجلهم فدحرجوهم عن الحصون ، ونجا بعضهم من الموت فطاردهم السكان حتى البحر فماتوا غرقا .

وكانت أونيك تقاسى ما تقاسيه من جند « ماجداسانى » لأنه نحا نحو هنون مؤتمرا بأمره .

واكتفى بأن يحدق بالمدينة ، واصم أذنيه عن سماع صوت هاميلكار .

وفعل أهل أوتيك بما كان لديهم من الجنود القرطاجيين ما فعله أهل هيبوزريت ، فسقوا جنود ماجداسان عصير البيروح المخدر ممزوجا بالخمر وذبحوهم وهم نيام .

وأقبل البربر على المدينة فهرب « ماجداسان » وفتحت لهم أوتيك أبوابها ، ومنذ هذا اليوم بدا من المدينتين إخلاص وولاء لأصدقائهم الجدد وبغض وعداء ، لا مسوغ لهما ، لحلفائهم القدماء .

وكان انتقاض هاتين المدينتين على قرطاجة مثلا احتذاه غيرهما ، فلقد تجددت بهذا آمال الشعوب المغلوبة على أمرها ، ودفعت بالمترددين إلى الوقوف إلى جانب البربر ، فساءت الأمور وتزعزع كل شيء .

واتصل نبأ ذلك بهاميلكار فأيقن بفقد النصير وتحقق من قرب الهزيمة فأعاد نارهافاس إلى بلاده ليحافظ على حدود مملكته ، وعقد النية على الالتجاء إلى قرطاجة ليجند الجند ثم يعود إلى القتال .

ورأى البربر القرطاجيين ينحدرون من الجبل فتساءلوا إلى أين هم ذاهبون وحسبوا أن الجوع قد أمضهم فدفعهم إلى الهجوم ، رغم مابهم من ضعف وضيق .

ولكنهم رأوا الجيش يميل إلى اليمين ، فهو إذاً يركن إلى الفرار ، فخفوا إلى مطاردتهم .

واعترض القرطاجيين نهر ما كار وقد أصبح عريض المجرى لان الدبور لم تكن تهب عليه فى هذه المرة ، فعبره بعضهم سباحة والآخرون على ظهر خوذهم . واستأنفوا سيرهم جادين . وأظلم الليل واختفوا عن عيون البربر .

ولم يكف المرتزقة عن مطاردتهم ولكنهم مالوا إلى أعلى النهر يلتمسون مخاضة ضيقة ، ولحق بهم سكان تونس وأوتيك فتزايد عددهم بسكان هاتين

المدينين وبما كانو يتلقون من أمداد الرجال فى كل خطوة بل وراء كل عوسجة . وكان القرطاجيون ينبطحون على الأرض متخفين فيسمعون وقع اقدامهم فى الظلام ، وباركا يمطرهم بوابل من السهام حيناً بعد حين ليؤخر زحفهم ، فقتل منهم عدد وفير .

وأصبحوا وقد بلغوا جبال أريان حيث تميل الطريق فتكون منعطفاً شبيهاً بمرفق الذراع .

وكان ماتو يسير فى طليعة جيشه ، فرأى عند ذاك فى الأفق شيئاً أخضر اللون على قمة مرتفع ، ثم انخفضت الأرض وبدت مسلات . وقباب وبيوت ! كانت تلك قرطاجه !

فاستند إلى شجرة كى لا يسقط لشدة خفقان قلبه .

وأخذ يحلم بكل ما استجد فى حياته منذ الساعة التى مر بها هناك ! كانت مفاجأة وسكرة ! ثم تملكه الطرب لفكرة العودة إلى لقاء سلامبو ! وعادت إلى ذهنه الدواعي التى تدعو إلى مقتها ، ولكنه سارع إلى نكبتها بعيداً عنه ، وأخذ يتامل ، وهو يهتز حنينا وبؤبؤا عينيه ممدودتان يتأمل بشرفة عالية لقصر واقع بعد معبد أشمون وفوق شجرالنخل ، فاشرق محياه بابتسامة من اختطف بروحه وجذب ، كما لو كان نور وهاج قد وصل إليه ، فأخذ يفتح ذراعيه ويرسل القبلات مع النسيم ويتمتم : « تعالى ! تعالى ! إلى! إلى» .

وامتلأ صدره حسرة وتحدرت على لحيته دمعتان مستطيلتان كلؤلؤتين .

وإذا بسبنديوس يصيح به : « ما الذى يعيقك ! هلم وأسرع ! سيفلت من بيننا هاميلكار ! .. أرى ركبتيك تخـــونانك وأراك تنظر إلى نظرة سكران ! » .

وكان يفحص الأرض برجله لذهاب صبره ، ويستعجل ماتو ويغمز بعينيه كمن يشير إلى أمر قريب الوقوع طال انتظاره ، ثم يقول :

— « آه ! ها قد وصلنا ! لقد تحقق الامل ! أنهم فى قبضة يدى ! » .

وكانت ملامح وجهه تدل على اقتناعه وانتصاره ، فدهش ماتو لخمود همته وأحس بنفسه مدفوعا فى أثر سبندبوس لأن كلماته جاءت فى أشد ساعات يأسه ، فدفعته إلى الانتقام وهدفه إلى فريسة لغضبه .

فوثب إلى جمل يحمل أمتعة واختطف زمامه ، وأخذ يضرب بالحبل الطويل وبكل قوته ، المتباطئين فى السير ، ويجرى ذات اليمين وذات اليسار فى مؤخرة جيشه كـكلب يسوق أمامه قطيعا .

وفعل صوته الرنان فعله ، فأخذت صفوف الرجال تنضم وتضيق ، حتى أن العرجى منهم أخذوا يحثون الخطى .

وعند البرزخ قصرت المسافة بين الجيشين ، وأصبح أوائل البربر يسيرون تحت الغبار المتصاعد من القرطاجيين ، وزاد قرب الجيشين حتى أوشكا أن يتلامسا ، ولـكن أبواب مالجا وتاكست وبوابة خامون فتحت كلها على مصاريعها ، وانقسمت المربعات القرطاجية إلى فرق ثلاث غاصت كل واحدة منها فى باب ، ثم تجمعت وأخذت تدور فى الأروقة ، ثم وقفت لا تتقدم لشدة ازدحامها بعضها ببعض ، وتلامست الرماح فى الهـواء ، وأصبحت سهام البربر تنهل على الأسوار .

وعلى عتبة باب خامون وقف هاميلـكار والتفت إلى رجاله وأمرهم بأن يبتعدوا ، ثم ترجل عن جواده ووخزه برأس سـيفه فى كفله ودفعـه نحو البربر .

كان ذلك الجواد أصيلا يغذونه بكريات العجين ، يلوى قائمتيه الأماميتين ليعتلى فارسه صهوته ، فلم أرسله هاميلـكار إلى وسط البربر ؟ ! أ كانت تلك أضحية يضحيها ! .

وأخذ الجواد يعدو فى وسط الرماح فيقلب الرجال ثم تتعثر قوائمـه

باحشائه فيسقط ثم يعود فينهض حانقا ، والرجال حوله يحاولون الامساك به وهم يتنحون عن طريقه ، أو ينظرون إليه دهشين .

وضم القرطاجيون صفوفهم ودخلوا ، وأقفل وراءهم الباب الضخم وهو تخرج دويا .

ولم ينفتح الباب رغم ارتطام البربر به ، وأخذ الجيش يتذبذب على طول خطه وقتا ما ، ثم ارتخت الذبذبة وتوقفت .

وكان القرطاجيون قد حشدوا جنداً على قناة الماء ، فاخذوا يلقون بالحجارة ، والقذائف والعوارض ، ورأى سبنديوس أن لا داعى للاصرار فانسحب الجنود ليخيموا غير بعيد ، وقد عقدوا العزم على ضرب الحصار على قرطاجة .

***

وتعدت أصداء الحرب حدود الامبراطورية القرطاجية : فمن أعمدة هرقل حتى ما وراء القيروان أصبح الرعاة يحلمون بها وهم قائمون على حراسة قطعانهم ، والقوافل تستمر بها فى الليل على ضياء الكواكب: هذه قرطاجة العظيمة سيدة البحار ، متلألئة كالشمس مخيفة كالآلهة ومع ذلك يجسر رجال على مهاجمتها ! وسرت شائعات بسقوطها فصدقها الناس قاطبة لأنهم كانوا جميعا يتمنون لها هذا السقوط : من الشعوب الخاضعة المغلوبة والقرى المضروبة عليها الجزية ، والأقاليم المحالفة والقبائل المستقلة إلى الذين يكرهونها لاستبدادها أو يحسدونها لسلطانها أو يتطلعون إلى ثرواتها .

وكان الشجعان من جميع هؤلاء قد انضموا إلى البربر ، وظل الكثيرون مترددين بعد انهزامهم فى معركة ما كار ، ولكنهم اليوم قد استعادوا الثقة بانتصارهم ، فتألبوا واقتربوا من جيش البربر ، ووقف رجال المناطق الشرقية على كثبان رمال « كليبا » فى الجهة الأخرى من الخليج حتى إذا بلغ المرتزقة أسوار قرطاجة تقدموا للامتزاج بهم .

ولم يكن هؤلاء الرجال من سكان ليبيا المجاورين لقرطاجة الذين يتألف منهم الجيش الثالث ولـكنهم الرحل من سـكان نجود « باركا » وقطاع الطرق النازلون على رأس « فيسكوس » أو على مرتفعات درنة أو فزانة أو مارمريك .

لقد قطعوا فى مجيئهم الصحراء يشربون من مالح مياه الآبار المبنية جنباتها بعظام الجمال . فمنهم رجال « الزواسيس » المغطون بريش النعام الراكبون المركبات التى تجر كلا منها أربع أفراس ، ومنهم رجال « الحرامنت » المقنعون بأقنعة سود يقبلون اكفال خيلهم المصبغة أو يركبون حميراً أو حمر وحش أو جواميس ، وربما جرا البعض منهم نساءهم وأطفالهم وأصنافهم وسقوف أكواخهم المصنوعة بشكل زوارق ، ومنهم العمرنسيون المجعدو الوجوه لاكثارهم من شرب مياه الينابيع الساخنة ، « والاترنث » الذين يلعنون الشمس ، وسـكان الـكهوف الذى يدفنون موتاهم تحت أوراق الشجر وهم يضحكون ، « والأوانيان » البشعو الصور الذين يتغذون بالجراد «والأكريماشيد» الذين يأكلون القمل ، «والجيسانتز» المصبوغون باللون الأحمر ، أكلة القرود .

هؤلاء جميعا اصطفوا على البحر بخط طويل مستقيم ثم تقدموا كأنهم أعاصير رمال تدفعها الريح ، واستقرت جموعهم وسط البرزخ ، لأن البربر المعسكرين أمامهم لم يريدوا أن يفسحو لهم مجالا بينهم .

ثم قدم من صوب «الأريان» رجال المغرب الذين يؤلفون الشعوب النوميدية ، لأن نارهافاس لم يكن مسيطرا إلا على الماسيليين ، فضلاعن أن عادات هذه الشغوب تجيز لهـا التخلى عن ملوكها إذا أصابتهم هزيمة ، وجميع هؤلاء بدأوا يحتشدون على ضفاف نهر الزان ثم عبروه لما بدأ جيش هاميلـكار يتحرك وأول من تقدم منهم فرسان «ماتوتبعل» «وجرافوس» المرتدون جلود الآسود ، وهم يقودون بقوائم رماحهم أفراسا هزيلة ذات نواصى طويلة . وتلاهم « الجتول » وأدرعهم من جـلود الأفاعى ، ثم

«الفاروزيون» وعلى رؤوسهم تيجان من الشمع وصمغ الراتنج ، ثم «الفون» «والماكار» «والتيلابار» وكل منهم يحمل حربتين وخوذة مستديرة من جلد جاموس البحر .

ووقفوا كلهم عند مغاور القبور فى أوائل المستنقعات .

ولما تحول الليبيون عن أماكنهم ظهرت جموع الزنوج كغيوم تزحف على سطح الأرض . فمنهم من جاء من هاروش البيضاء ومن هاروش السوداء ، ومنهم من أقبل من صحراء «أوجيل» أو بلاد «أجازنيا» الواسعة الأرجاء التى تبعد عن «جارامانت» مسيرة أربعة أشهر بل ومن بلاد أكثر بعدا . وعلى الرغم مما كانوا يتحلون به من الأخشاب الحمر فان طبقات القذارة العالقة بجلودهم السود جعلتهم أشبه بثمار القوت السود التى مرغت طويلا بالتراب . وكانوا يلبسون سراويل من خيوط قشر الشجر وجلابيب من الأعشاب المجففة ، وعلى رؤوسهم أخطام لحيوانات ضارية وهم يعدون كالذباب ويحركون بأيديهم قصبات معلقة بها الخواتم أو يرفعون أذيال بقرات على رؤوس عصى ، هى أعلامهم فى حروبهم .

ووراء النوميديين يزدحم المغاربة والجيتوليون الصفر الوجوه ، المنتشرون وراء تاجير فى غابات الأرز ، وكناناتهم المصنوعة من وبر القطط تلاطم أكتافهم ، وهم يجرون بالأزمة كلابا لا تنبح ضخمة بعلو الحمير .

وكأن بلاد أفريقيا لم تفرغ بهذا ما بجوفها إلى حد الكفاية بل دعت الحال إلى مزيد من الهياج والحنق فتلاقت هناك أسفل الأجناس من رجال عليها ملامح الغباء والبهائم تقهقه كقهقهة المأخوذين الموسوسين ، من بؤساء قد برحت بهم الأدواء الوبيلة ، أو أقزام مشوهون أو خلاسيون خناث ، أو خلس برص تعشى عيونهم من الشمس ، وكلهم يتأتى بألفاظ لأنفسهم ، ويضع أصبعه فى فمه ليدل على جوعه .

ولم يكن خليط الاسلحة يقل عن خليط الملابس والأجناس ، فلم يكن هناك اختراع مما اخترعه الموت غير موجود لديهم : من الخناجر الخشبية والفؤوس الحجرية إلى السيوف الطويلة المسننة كأسنان المنشار ، رقيقة الشعار ذات نصال نحاسية قابلة للالتواء ، وإلى مدى طويلة متفرعة الرؤوس شبيهة بأرجل بقر الوحش ، ومناجل معلقة بأطراف حبال ، ومثلثات حديدية وهراوات مدملكة ، ومثاقب ، وكان الايتوبيون القادمون من « بنبوظي » يخبئون تحت شعورهم سهاما مسمومة ، وحمل بعضهم أكياسا مليئة بالحصى ، وكان بعضهم أعزل من السلاح يصرف بأسنانه .

وهناك اضطراب كتموج البحر يدفع هذه الجموع : فجمال محملة بالزفت تدفع إلى الارض نساء يحملن أطفالهن ومؤنا معبأة فى قفاف تنقلب على الأرض ، والسائرون يسحقون تحت أرجلهم شذرات الملح ولفائف الصمغ والبلح الفاسد والجوز ، ويرى الناظر على صدور مليئة بالقمل والصئبان ، شريطا علق فيه بعض حجارة من الماس حملها السترابيون وهى نفيسة متناهية فى الكبر ، يكفى ثمنها لمشترى مملكة من الممالك .

ولم يكن أحد منهم يدرى ما الذى يريده ولعل المدينة والفضول كانا يدفعانهم ، ورأى رجل منهم الأسوار فارتعد خوفا ، لأنه لم يكن قط رأى مدينة .

وأصبح البرزخ الآن مغطى بالرجال . وامتد هذا الفضاء الطويل ، الذى بدت فيه الخيام كأكواخ وسط ماء طاغ ، تمتد حتى خطوط البربر الأولى التى كانت تعج بالسلاح وتنتشر بنظام على جانبى قناة المياه .

وكان القرطاجيون لا يزالون يرتعدون فرقا من قدوم البربر وإذا بهم يرون أيضا مسوخا ومبانى تتجه نحو الأسوار هى أدوات الحصار المرسلة للبربر من المدن الصورية بصواريها وأذرعتها وحبالها ومحركاتها وتيجانها

وهيا كلها ، وتعدادها ستون مركبة للمنجنيقات وثمانون حمارا وحشيا من حديد وثلاثون عقربة من نحاس وخمسون قاذفة ، واثنا عشر كبشا،وثلاثة منجنيقات عظام تدفع إلى بعيد جلامد صخور ، زنة الواحدة منها خمسةعشر « تالنت » . والرجال أزواجاً وزرافات يدفعونها متمسكين بقواعدها ، وهم يهتزون فى كل خطوة ليصلوا بها أمام الأسوار .

وكان لا بد مع ذلك من مرور أيام لإنجاز أعمال الحصار ، لأن هزائم البربر السابقة علمتهم ألا يتعرضوا لمخاطرات هجمات سابقة لأوانها ، لاتجدى ولاتفيد . وكذلك كانت الحال عند القرطاجيين ، فلاهم ولا البربر راغبون فى التعجيل ليقينهم من أن اشتبا كا هائلا لابد أن يقع ، فتكون نتيجته نصراً حاسماً أو محقاً كاملا شاملا .

وكان فى مقدور قرطاجة أن تصمد وتثبت طويلا ، لأن أسوارها العريضة ذات الزوايا المتشابكة الداخلة الخارجة كانت متينة معدة لصد الهجمات ، ولكن جزءاً منها كان قد تداعى من جهة الديماميس ، وهكذا فان الأنوار كانت تظهر فى مواخير مالكا فى الليالى المظلمة من خلال الجدران المتشققة ، إن تلك المواخير كانت تعلو على الأسوار فى بعض المواضع وهناك تسكن مع أزواجهن الجدد نساء البربر اللائى طردهن ماتو . فصبت قلوبهن إلى أزواجهن الأوائل عند رؤيتهن لهم ، فكن يلوحن لهم من بعيد بشالاتهن ثم يدلفن فى الظلام فيتحدثن إليهم من شقوق الجدران ، وأخيرا نما إلى المجلس الكبير أنهن كلهن قد هربن ، مارات بين الشقوق أو متدليات على الحبال .

واستقر رأى سبنديوس على تنفيذ مشروع طالما فكر به .

وكان بعده عن قرطاجة حال بينه وبين القيام به ، فلما عاد إلى المدينة خيل إليه أن أهلها متنبهون إلى مشروعه ، ولكنهم ماعتموا أن خفضوا عدد حراس قناة المياه لعجزهم عن الدفاع عن الأسوار الخارجية لقلة الرجال.

وأخذ سبنديوس يتمرن أياما على رمى طيور البحر بالسهام ، وفى ذات ليلة قمراء طلب من ماتو أن يشعل فى نصف الليل أكواما من القش . وأن يوعز إلى جنوده بإرسال الصيحات عند اشتعال النار ، ثم اصطحب زركساس ومشى سائرا على شاطىء الخليج باتجاه تونس .

وعند وصولهما إلى جانب القناطر الأخيرة تحولا نحو قناة المياه ، ولما كان المكان مكشوفا أخذا يزحفان حتى قواعد الدعامات ، والحراس على المصطبة يمشون جيئة وذهابا مطمئنين .

وظهر لهب النيران . ونفخ فى الأبواق ، فظن جنود الاحتياط أن هنالك هجوماً ، فاتجهوا مسرعين نحو قرطاجة . وظل فوق القناة رجل واحد يبدو أسود فى خلفية السماء والقمر وراءه يعكس ظله المحدود إلى السهل فيبدو من بعيد كأنه مسلة تمشى .

وانتظرا حتى رأيا الحارس فى موقف يلائم ، فأخذ زركساس مقلاعه ، فأوقفه سبنديوس لحيطته أو لقسوته وقال له : « لا . إن رنين القذيفة يحدث ضجة ! دعنى أتولى أمره ! » .

وأخذ قوسه فوتره بجميع قواه بوضع أسفله على إبهام قدمه اليسرى ثم صوب وسدد ، وانطلق السهم ، فلم يسقط الحارس بل اختفى بكليته .

— « وقال سبنديوس : لو كان جريحا لسمعنا أنينه » ثم أخذ يتسلق الجدار من طابق إلى أعلى كما فعل فى المرة الأولى ، مستعيناً بحبل وبخطاف حتى وصل إلى المصطبة ، فدلى الحبل وربط به الباليار رمحا ودقماقا وعاد إلى المعسكر .

وسكت النافخون بالأبواق وعم السكون ، فرفع سبنديوس بلاطة وغاص فى الماء ثم رد البلاطة إلى محلها .

وحسب طول المسافة بعد خطواته فوصل بالضبط إلى المحل الذى كان

قد لحظ فيه شقا معوجا ، وأخذ يعمل ويعالج الشق ثلاث ساعات متوالية وحتى مطلع الفجر ، وهو يتنفس من خلال شقوق البلاط ، والقلق يملكه والهلاك يرقبه ، وأخيراً سمعت فرقعة وسقط حجر كبير كان يستند إلى الأقواس الداخلية ، وإذا بشلال عظيم بل بنهر بأ كمله يتساقط من السماء على السهل لقد انبجرت القناة من وسطها فسالت مياهها ، وفى ذلك موت قرطاجة وانتصار البربر .

وصعقت قرطاجه وهرع أهلوها فى لحظة إلى الأسوار وإلى سطوح المنازل والهيا كل ، وأخذ البربر يتدافعون ويصرخون ويرقصون ، وقد ملكتهم سورة الفرح ، حول شلال الماء المتحدر ويبلون رؤوسهم بمائه . ولمحوا فى أعلى القناة رجلا يلبس جلبابا أسمر ممزقا ، وهو ينحنى على حافة القناة ، ويداه على وركيه وهو ينظر إلى أسفل كأنه معجب بعمله ، ثم انتصب واقفا وأخذ يجيل نظره فى الأفق وكأنه يقول : كل هذا أصبح الآن ملكا لى ! » .

وعلا تصفيق البربر ، وأما القرطاجيون الذين تبينوا مدى كارثتهم فقد أرسلوا صيحات اليأس شبيهة بالهواء ، وحينذاك أخذ يجرى على المصطبة من بدايتها إلى نهايتها ، ثم رفع ذراعه وهو ثمل بكبريائه كمثل قائد مركبة أحرز سبق قصب السبق في الألعاب الأولمبية .

(١٣)
مولوخ

ولم يكن البربر بحاجة إلى خندق حصار يحفرونه فى جهة أفريقيا لأنها كانت ملكا لهم ، ولكنهم تسهيلا للاقتراب من الاسوار هدموا الحواجز التى كانت تحيط بحوافى الخندق ، وقسم ماتو جيشه إلى أقسام بشكل أنصاف دوائر ليتمكن من تطويق قرطاجة بشكل أتم وأكمل ، فوضع رجال المشاة الثقيلة فى الخط الأول ووراءهم حملة المقاليع والفرسان وفى الأقصى الأمتعة والمركبات والخيل ، وتلى بعد ثلاثمائة قدم من الابراج ووراء هذه الجموع رفعت أدوات الحصار .

ونظراً إلى تغير أسماء هذه الأدوات باختلاف العصور يمكن حصرها فى نوعين تبعاً لطريقة استعمالها : فبعضها يعمل عمل المقاليع والبعض الآخر عمل الأقواس .

فأما النوع الأول وهو من المنجنيقات فيتكون الواحد منها من إطار مربع له قائمتان عموديتان وقصبة أفقية ، وفى الجزء المقدم أسطوانة ذات حبال ثخينة تمسك بمقبض دفة كبيرة ذات يد تستقبل القذائف ، والقاعدة ملفوفة بكبة من خيطان مبرومة ، فاذا أرخيت الحبال ارتفعت وأخذت تلطم القصبة التى تصدمها باهتزازها تضاعف قوتها .

وأما الأنواع الثانية فهي معقدة التركيب في آلاتها ، فعلى عمود صغير عارضة خشب مثبتة فيه من وسطها ، تتصل بزاوية مستقيمة بما يشبه القناة ، وعلى طرفي العارضة يرتفع تاجان محتويان على لفات من شعر الخيل . أثبت فيها رافدتان (كمرتان) ممسكتان بطرفي حبل مجرور إلى أسفل القناة على لوح من الفلز . وبواسطة زنبلك يدفعه يفلت هذا اللوح ليزحف على خطوط فيدفع السهام .

وكان يطلق أيضاً على المنجنيقات اسم حمير الوحش . يشبهها بهذه الحيوانات التي تقذف الحجارة بقائمتيها الخلفيتين ، أو اسم العقارب لوجود كلاب مثبت باللوح المعدني . إذا دفع إلى الأسفل حرك الزنبلك وأطلقه .

وكان وضع هذه الآلات وتركيبها يتطلب علماً بالحساب الدقيق . فأخشابها يجب أن تنتقى بين الأنواع الأشد صلابة . وتروسها كلها من النحاس وأربطتها من الأمخال والعتلات والعيارات المخمسة (موفل) والرحويات ، وكانت لها محورات تغير من اتجاه رمياتها . وأسطوانات دائرية ضخمة تدفعها إلى الأمام ، وهم يجيئون بها قطعة فقطعة ويركبونها على مرأى من العدو .

ووجه سبنديوس المنجنيقات الثلاثة الضخمة جهة الزوايا الثلاث الأكثر أهمية ، ووضع كبش حصار أمام كل باب ، وعقربة أمام كل برج ، ووراء هذه الآلات مركبات حملها ونقلها . وكان لا بد له أن يؤمن ، قبل كل شيء ، حمايتها من نيران المحاصرين وأن يردم الخندق الفاصل بينها وبين الأسوار .

فمدوا أروقة من أعواد الخيزران الأخضر واقواساً من شجر السنديان ، بشكل خوذ كبيرة تسير على ثلاث عجلات . ورفعوا أكواخاً صغيرة مغطاة

بالجلود الطرية ومحشوة بمقذوفات البحر من النبات لتقي العمال . وغطوا المنجنيقات على أنواعها بستور مصنوعة من الحبال المحبوكة التي نقوها بالخل لتصير غير قابلة الالتهاب ، وكانت النساء والأولاد يذهبون إلى شاطىء البحر فيحملون الحصى أو يجمعون التراب بأكفهم ويجيئون به إلى الجنود .

والقرطاجيون هم أيضا كانوا يستعدون :

بعث هاميلكار الطمأنينة إلى نفوسهم إذ أكد لهم أن في الآبار مياهاً تفي بحاجاتهم مدة مائة وثلاثة وعشرين يوما ، فأعاد هذا التأكيد ولا سيما استرداد الحجاب ، الرجاء إلى نفوسهم ، وأفاقت قرطاجة من غيبوبة الوهن والضنك ، وسرت عدوى النشاط إلى من لم يكونوا من أصل كنعاني .

فسلح هاميلكار العبيد وأخلى دور الصناعات وأفرد لكل مواطن عملا أو وظيفة ، وكان لا يزال على قيد الحياة ألف ومائتا رجل من الفارين من معسكر البربر ، فرقاهم هاميلكار إلى رتب ضباط وعهد بالآلات إلى النجارين وصناع الأسلحة والحدادين والصياغ . وكان القرطاجيون قد احتفظوا رغم شروط صلحهم مع الرومان ، ببعض هذه الآلات فقاموا باصلاحها لحذقهم لأمثال هذه الأعمال .

والبحر والخليج يحميان الجهتان الشمالية والشرقية لاستحالة الهجوم منها ، فصرفوا عنايتهم إلى الأسوار المواجهة للبربر ، فحملوا إليها جذوع الأشجار وأرحاء المطاحن والآنية الملأى بالكبريت والطشوت المفعمة بالزيت ، وبنوا الأفران . وكدسوا الحجارة على المصاطب وملأوا البيوت التي تلاصق الأسوار بالرمال لتدعيمها وزيادة صفاقتها .

ويرى البربر هذه الأعمال والاستعدادات فتثور ثائرتهم ويلحون بالإسراع

فى الهجوم . ولـكن الأثقال التى وضعوها فى المنجنيقات كانت فوق حد احتمالها ، فتحطمت مجراتها ودخانها وهكذا تأخر الهجوم .

وأخيراً وفىاليوم الثالث عشرمن شهر شابار وعند شروق الشمس سمعت ضربات هائلة على باب خامون ، فان خمسة وسبعين جنديا كانوا يشـدون حبالا لفت على قاعدة جسر جبار (عارضة) علق أفقيا بسلاسـل تنحدر من ذراع المرفاع ، وأثبت فى طرفه رأس كبش من النحاس ، مغطى بجلود البقر ، وبالحلقات الحديدية تربطه وتشده هنا وهناك . وكان هـذا الجسر (العارضـة) أضخم من جسم الرجل ثلاث مرات ، وطوله مائة وعشرون ذراعاً ، وهو يتذبذب بنظام باندفاعه وانسحابه تحت عشرات من الأذرعة العارية تدفعه ثم تشده . دواليك دواليك .

وتحركت الأكباش أمام الأبواب الأخرى ، وبان فى دواليب الطنابير المجوفة رجال يصعدون السلالم درجة فدرجة ، وصرت البكرات والتيجان ورفعت ستور الجبال ، واندفعت رميات الحجارة والسهام تنصب كالبرد وأقبل حملة المقاليع المنتشرون هنا وهناك . فاقترب بعضهم من الاسـوار ، وهم يخبئون وراء خوذهمأوانى مليئة بصموغ الصنوبر القلفونية ، ثم يلقون بها بمـا أوتوه من قوة . وكان هذا السيل من القذائف والسهام والنيران يمر ما فوق رجال الصف الاول بخط معوج ثم يسقط وراء الأسـوار ، وإذا بمرافيع (ونشات) من ناصيات صوارى المراكب ، ترتفع على أعلى الأسوار ، وتنحدر منها كلاليب هائلة تنتهى بنصفى دائرتين ذات أسـنان من داخلها ، فتعض عل الأكباش بفكيها ، وتعلق البربر بالجسر يشـدونه إلى الوراء ، وأخذ القرطاجيون يلهثون وهم يحاولون رفعه إليهم . ودام الاشتباك حتى المساء .

ولما استأنف البربر عملهم فى الغداة كانت اعالى الأسوار مكسوة كلها بأكياس القطن وبالأقمشة والمساند، وفتحات المرامى، والمتاريس مسدودة بالحصر، وعلى الحصن وإلى جانب المرافيع أكداس من عصى مدملكة ومن أوضام جزارين ركبت بها قبضات، وبدأ الدفاع شديداً، فكانت جذوع الأشجار المربوطة بالحبال الضخمة تتدلى وترتفع مرة بعد مرة، منهالة ضرباً على الأكباش، والكلاليب المدفوعة بقوة المنجنيقات تنتزع سقوف الأكواخ، ومن مصاطب الأبراج ينحدر سـيل من حجارة الصوان والحصى.

وأخيراً خلعت الأكباش بابى خامون «وتاجست» ولكن مصراعيهما لم ينفتحا لأن القرطاجيين كانوا قد كدسوا وراءهما الكثير من المواد، فظل المصراعان واقفين. فعمد البربر إلى مثاقب عالجوا بها محلات التحام الحجارة ففكوها، وعملوا على إتقان إدارة الآلات، وعهدوا بها إلى شراذم تعمل مناوبة من الصباح إلى المساء، فأخذت تعمل بدون انقطاع، على نغم واحد ممل كمثل مكوك الحياك. وسبنديوس لا يكل ولا يمل، فهو الذى يربط كيات المنجنيقات، وهو الذى يهيمن على شد الحبال ليكون هناك تناسق فى الضغط المزدوج الذى يستدل عليه من تشابه أصوات صرير الحبال، وكان يصغى إلى هذا الصوت كأنه موسيقى ينظم أوتار عوده. فاذا ارتفع مجر المنجنيق، واهتز عمود الكبش باهتزاز زنبلكاته، أو انقذفت الحجارة بنصف قطر دائرتها، أو سالت النبال كالجداول، كان سبنديوس ينحنى بكليته، ويرفع ذراعيه إلى الهواء كأنه يريد أن يلحق بها.

وكان الجنود المعجبون بلباقته ومهارته ينفذون أوامره، ويؤدون أعمالهم عن طيبة خاطر، وهم يحرصون على إطلاق الألقاب على آلاتهم فالكلاليب الممسكة بالاكباش يسمونها «الذئاب» والأروقة المسقوفة «أعراش

دوالى العنب» أويلهون وبتسمية أنفسهم «حملانا» أو بأنهم « سائرون إلى الحصاد » أو بمخاطبة آلاتهم بمثل قولهم « ياحمار الوحش ارفس جيداً ويا أيتها العقارب أنفذى إلى قلوبهم» ، وهذه الملح والنكات المكررة كانت تسند شجاعتهم .

ومع ذلك لم تكن الآلات تهدم الأسوار فهى مزدوجة الجدران ومليئة بالتراب وإذا هدمت جزءا من قممها أسرع القرطا جيون إلى ترميمه . فأمر ماتو بأن تبنى أبراج من خشب بارتفاع علو الاسوار . والقوا فى الخندق الأعشاب والأوتاد والحصى والرمال ومركبات النقل بدواليبها حتى يتوصلوا إلى ردمه بأسرع وقت ، وقبل أن يمتلىء تماما تحرك جمع البربر فى السهل كالأمواج وبوثبة واحدة على أرجل الأسوار ، كبحر طغا فغمر .

وجروا سلالم الحبال والسلالم المستقيمة والسنابك وأعنى بها صاريتين ينحدر منهما ، بآلات رافعة ، مجموعة من الغاب الهندى تنتهى إلى جسر متحرك ، وهكذا يمتد منها خطوط كثيرة مستقيمة تلتصق بالأسوار ، فأخذ البربر يصعدون عليها الواحد تلو الآخر واسلحتهم بأيديهم . ولم يظهر على على الأسوار أحد من القرطا جيين ، ووصل البربر إلى ثلثى الحصن وإذا بفوهات المتاريس تنفتح كاشداق الحيتان وتتقيأ عليهم نيراناً ودخانا ، والرمال تنتشر فتدخل فى ثنايا مسكات الأسلحة ولحاماتها ، والبترول يعلق بالثياب ، والرصاص السائل يقفز على الخوذ فيحدث نقراً فى اللحم ، ورذاذ الشرر يلطخ الوجوه ، وتبدو محاجر بلاعيون كأنها تفيض بدموع بأحجام ثمرات اللوز ، ورجال غطى الزيت وجوههم بلون الصفرة تحترق شعور رؤوسهم فيجرون فتتصل نيرانهم بغيرهم ، فكان رفقاؤهم يطفؤونهم بأن يرموا عليهم من بعيد أردية مبللة بالدماء ، وبعض الذين سلموا من الجراح يقفون

جامدين أشد تصلباً من الأوتاد ، مشدوقين وأذرعتهم متقلصة مرتخية .

ودام الهجوم أياماً متوالية ، لأن المرتزقه كانوا يأملون بالظفر ببذل المزيد من شدة القوة والجرأة .

ويحدث فى بعض الأحيان أن يعتلي رجل كتفى آخر فيدق وتداً بين الحجارة فيستخدمه كرقاة يرقى بها ويتدرج عليها إلى الأعلى ومن وتدثان إلى ثالث ويتبعه غيره محتمين بحوافى فتحات المتاريس الناتئة . ولكنهم كانوا كلهم يسقطون بعد بلوغهم غاية من الارتفاع ، وكان الخندق قد امتلأ حتى فاض بالرجال ، فكان الجرحى يتكومون مع الموتى المحتضرين ، تحت أقدام الأحياء وأعالى الهيا كل البشرية المحترقة تبدو نقطاً سودا بين الأحشاء المندلقة ، والأمخاخ المبعثرة والدماء المتفجرة بركا على الأرض ، وهناك أذرعة وأرجل خرجت أنصافها من كومة ، تقف منتصبة كأنها مشاحط دوال فى كرم محترق .

وأعوزتهم السلالم فلجأوا إلى جسر كبير اثبتوا عليه بالعرض رافدة تحمل فى طرفها سلة كبيرة مربعة الزوايا تتسع لثلاثين رجلا ولاسلحتهم . وأراد ماتوان يكون أول الصاعدين فمنعه سبنديوس :

ومال رجال على هذه الآلة الرافعة للاثقال التى أسموها « تولينون » ، فارتفع الجسر الكبير وأصبح أفقياً ثم أوشك أن ينتصب عاموديا ، وأخذ يلتوى من الوسط كأنه قصبة لكثره ما حمل عليه من الرجال وهؤلاء مغطون فيه حتى ذقونهم لا يبين منهم إلا الريش والخوذ ، ولما ارتفع إلى علو خمسين ذراعاً دارت ذات اليمين وذات اليسار ثم انحنى ووضع سلة الرجال على حافة السور ، كأنه ذراع جبار يحمل فى يده شرذمة من الأقزام . وقفز الرجال على الأسوار بين الجموع ، ولكنهم لم يعودوا قط .

ونصبوا آلات أخرى من هذه الرافعة ولكنهم رأوا أن لابد من مئات غيرها ليمكنهم الاستيلاء على المدينة ، فاكتفوا بأن يستخدموها للتقتيل ، فرفعوا عليها نبالة آيتوبيين استقروا في السلال وربطوا الآلة بالحبال ، فظل الجند بها معلقين وأخذوا يرمون المحاصرين بنبالهم المسمومة ، وكانت الخمسون آلة التي رفعوها تحيط بقرطاجة وتتسلط على المتاريس وكأنها عقبان ممسوخة ، فكان حرس الحصون يتساقطون ميتين وهم يتشنجون لآلامهم الفظيعه ، والزنوج الايتوبيون يضحكون فرحين .

فبعث هاميلكار برجال المشاة المدرعين إلى الأسوار وكان يسقيهم كل صباح عصيراً من بعض الأعشاب تقيهم شر السموم .

وفي ذات ليلة وتحت الظلام الدامس حمل خيرة رجال جيشه على زوارق كبيرة وعلى أطواف من خشب ، فدار عن يمين المرفأ ونزل برجاله عند « ثونيا » ثم تقدم على رأسهم إلى أول خطوط البربر وهجم عليهم جانبياً فأوقع فيهم مذبحة كبيرة . وكان يدلى في الليل رجالا على الحبال وفي أيديهم المشاعل فيحرقون منشآت البربر ثم يرجعون .

وظل ماتو متمسكا بعزمه وتصميمه تمسك الوحش بفريسته ، فكل مانع يثير غضبه فيقوم بأشياء مخيفة غريبة بعيدة عن الصواب : دعا مرة سلامبو بفكره إلى موعد حدده وأخذ يرقب حضورها فلم تحضر ، فبدا له أن في تخلفها خيانة جديدة فاصبح يمقتها أشد المقت ولو أنه رأى جثتها لكان يمكن أن يرفع الحصار . وضاعف عدد الطلائع ، وغرز أوتاداً قوية في أسفل الحصون ، وطمر فخاخاً في الأرض وأمر الليبيين أن يأتوه بغابة من الشجر ليحرق بها قرطاجة كما يحرق وجار الثعالب .

وسبنديوس مصر كل الاصرار على متابعة الحصار وهو يفكر فى اختراع آلات جديدة هائلة لم يسبق لأحد أن صنع مثلها .

والبربر الآخرون المخيمون بعيداً فى الجهة الثانية من الخليج يستغربون هذا التباطؤ ويتذمرون ، فأطلقوا سراحهم فهجموا وبأيديهم مداهم الطويلة وحرابهم يقرعون بها الأبواب ، ولكن عرى أجسامهم كان يسهل إثخانهم بالجراح ، فأوقع فيهم القرطاجيون مذبحة عظيمة سر لها البربر لحسدهم إياهم على النهب . فأفضى ذلك إلى المشاجرات بل إلى التقاتل بينهم . وعم الخراب بلاد الريف فأخذوا يتخاطفون الأقوات ، ونفدت شجاعتهم ، فرحل منهم قوم كثيرون لم يلحظ رحيلهم لكثرة ما كان هناك من الجموع والحشود .

وخطر لأكثرهم شجاعة وحيلة أن يبثوا الألغام ولكن الأرض كانت رخوة فانهارت ، فجددوا محاولتهم فى أماكن أخرى . ولكن هاملكار كان يتبين مواقع اتجاهها بوضع مجن من القلز على أذنه ، فأخذ هو أيضاً يبث ألغاماً تحت الطرق التى كانت أبراج الخشب مزمعة أن تسلكها ، فتغوص الابراج فى الممرات كلما حاولوا دفعها .

وأخيراً اقتنعوا كلهم باستحالة فتح المدينة إلا إذا رفعوا بحذاء أعلى الأسوار مصطبة طويلة تمكنهم من قتال القرطاجيين وهم على مستوى واحد ، فيفرشون أعلاها بالبلاط لكي يمكنهم جر الآلات عليها ، وعند ذاك يستحيل على قرطاجة أن تصمد لهم وتثبت أمامهم .

وبدأت قرطاجة تشكو من العطش . فأصبح الماء الذى كان يساوى الحمل منه فى أول الحصار اثنين « كيزيتا » يباع الآن « بسكيل » من الفضة ، واخذت مؤن اللحم والقمح تنفد أيضاً ، فخافوا الجوع واخذ البعض يهمسون بأن هناك من لا فائدة منه بين الآكلين ، مما بعث الرعب فى قلوب

جميع الناس . ومن ميدان خامون إلى معبد مالكارث جثث تضيق بها الشوارع والوقت آخر الصيف فأخذ الذباب الكبير الاسود يزعج المقاتلين. والشيوخ ينقلون الجرحي والمتعبدون يقومون بمراسيم جنازات صورية لاقرباء وأصدقاء ماتوا أثناء الحرب من زمن بعيد ، وتماثيل من الشمع والشعور والملابس تنشر أمام الابواب فتذوب هذه التماثيل بحرارة الشموع الموقدة إلى جانبها ، وعلى أكتافهم يجرى الصباغ المختلف الالوان ، وعلى وجوه الأحباء تسيل الدموع وهم يرتلون على وتيرة واحدة أنغامهم الدينية المكربة . وفى ذات الوقت تجرى الجماهير فى الشوارع ، وتمر عصابات مسلحة وضباط يلقون الأوامر ، وأصوات صدمات الا كباش على الاسوار تسمع دائمة دائبة .

وبلغ الطقس من الرطوبة حداً كانت تنتفخ معه الاجسام حتى لا تعود التوابيت تتسع لها . فيحرقون الجثث فى وسط الاحواش .

وزاد مجال النيران المضطرمة فأصبح الحريق يتصل إلى جدران المنازل المجاورة فيرتفع اللهب في البيوت ويتفجر تفجر الدم من الشرايين ، وهكذا كان مولوخ يسود قرطاجة فيشد على الاسوار ويتدحرج فى الشوارع ويلتهم كل شيء حتى جثث الاموات .

*

واستقر فى زوايا ملتقى الطرقات رجال يلبسون ، ليدللوا على يأسهم ، أطماراً التقطوها بين المهملات وأخذوا ينحون باللائمة على القدماء وعلى هاميلكار ويتنبأون للشعب بقرب دمار شامل كامل ، ويحثون على التخريب وعلى إستباحة كل شيء . وكان أخطرهم شاربو منقوع حشيشة الدجاج المخدرة ، فاذا ماملكهم البحران شبه لهم أنهم وحوش ضوار ، فأخذوا يرتمون على المـــارة ويمزقونهم تمزيقاً . ويتجمع الناس حولهم زرافات وينسون الدفاع عن قرطاجة . فبدأ للزعيم القائد أن يشترى رجالا يقفون إلى

جانبه ليؤيدوا سياسته .

وفكروا فى أن يحتفظوا فى المدينة بعبقرية الآلهة ، فغطوا بالسلاسل الحديدية أنصابهم ، ووضعوا ستوراً سوداً على تماثيل الالهة « باتوك » ومسوحا حول المذابح وأخذوا يبعثون الكبرياء والغيرة إلى أنفس البعول كأن يهمسوا فى آذانهم قولهم : « أتترك نفسك تغلب ! إن الالهة الاخرين أقوى منك ! أرنا قوتك ! ساعدنا ! لئلا تقول الشعوب الاخرى أين هى آلهتهم الآن » .

واستولى القلق الدائم على أحبار الكهنة ولا سيما أحبار ربتنا تانيت ، لأن عودة الحجاب إلى مكانه لم تجد نفعاً ، فقبعوا يحبسون أنفسهم فى حظيرة المعبد الثالثة المحصنة كقلعة من القلاع ، على أن واحداً منهم كان يجازف فى الخروج وهو الكاهن الاكبر شاهبريم .

كان يتردد على سلامبو ولكنه يظل صامتاً ساكتاً ، يتأمل بها ، وإنسانا عينيه محدقتان مصوبتان ، أو يسترسل إلى الثرثرة ويشتد فى تأنيبها بما لم يسبق له مثيل من قبل .

فهو لايغتفر للفتاة ما عملته إطاعة لامره ، فيناقض نفسه بنفسه ، وهو قد دبر كل شيء فأصبحت هذه الفكرة الملحة الملازمة تزكى الغيرة التى يبعثها فيه ضياع رجولته ، فكان يتهمها بأنهاهى التى سببت الحرب ، ويزعم أن ماتو إنما يحاصر قرطاجة ليسترد الحجاب ، ثم ينزل اللعنات على هذا البربرى ويتناوله بالتعريض والتلميح لما يدعيه من حيازة أشياء مقدسة . ولم يكن هذا ما يريد أن يقوله شاهبريم ...

وسلامبو لم تعد الان تحس برعب من الكاهن ، فقد زال عنها القلق والاضطراب اللذان كانت تحسهما من قبل ، واستولت عليها سكينة غريبة

واصبحت نظراتها غير تائهه ، بل تلمع ببريق صاف .

وعاد إلى الثعبان مرضه ، واعتقدت طناش ـ وقد رأت سيدتها تستعيد عافيتها ـ بأن الثعبان قد انتزع منها لنفسه ذبول سلامبو ـ ففرحت فرحا شديداً .

ورأته ذات صباح ملتفا وراء السرير المصنوع من جلد البقر ، وهو أشد برودة من الرخام ، ورأسه مخفى تحت كومة من زجاج ، فصرخت فأقبلت سلامبو وأخذت تقلبه وقتا ما بطرف خفها ، فدهشت الجارية لما رأته من جمود عواطف سيدتها .

ولم تعد ابنة هامليكار تطيل صيامها بورع وحرارة كذى قبل ، فهى تقضى أكثر أيامها فى أعلى شرفتها على السطح مستندة بمرفقيها إلى الجلفق، متسلية بالنظر إلى ما يبدو أمامها : فهذه قمم الاسوار الواقعة فى طرف المدينة ترسم على صفحات السماء خطوطا متقطعة غير متساوية ، ورماح الحراس كسنابل القمح تنبت على طول حوافيها . وهى ترى من حيث هى ومن وراء الاسوار مناورات البربر ، وفى الايام التى تبدأ فيها المناوشات ، تتبين ما يقومون به من أعمال . فهم يصلحون أسلحتهم ويدهنون بالشحم شعورهم أو يغسلون فى البحر أذرعتهم الدامية . والخيام مقفلة والبهائم تأكل علفها ، وهناك بعيداً تبدو مناجل المركبات المصفوفة بشكل نصف دائرة ، كسيف عريض النصل من فضة ملقى على سفوح الجبال . وهى تستعيد أقوال شاهبريم وتنتظر إياب خطيبها نارهافاس . وتود أن تعود فترى ماتو رغم بغضها إياه ، فهى وحدها ، دون سائر القرطاجيين ، التى خاطبته بلا خوف ولا وجل .

وكثيراً ما كان يجىء والدها إلى مخدعها فيرتمى ، وهو يلهث تعبا على الوسائد ويرسل إليها نظرات يكاد الحنان يتجلى فيها ، وكأنه يجد فى رؤيتها

راحة بعد تعب ، ويسألها بعض الأحيان عن حديث سفرها إلى معسكر البربر وهل من رجل ما دفعها إلى ذلك ، فتجيبه سلباً باشارة من رأسها ،وهى معجبة بنفسها لأنها أنقذت الحجاب .

ولـكن القائد كان يعود دائماً إلى حديث ماتو مدعياً بأن أسئلته هى استعلامات حربية ، لأنه كان مشوقاً إلى معرفة ما جرى فى الخيمة مدة الساعات التى أمضتها فيها ، وهى لم تحدثه بحديث جيسكون لأنهـا تعتقد أن للـكلام نفسه قوة ذات أثر، وأن تـكرار كلمات اللعنة لشخص ما قد تجر اللعنة على الشخص الذى يسمعها ، كما أنهـا كتمت أمر الخاطر الذى حفزها لقتل ماتو ، خشية أن تلام على إحجامها عن إجابة داعىذلك الخاطر فهى إذاً تجتزىء على الرد بأن القائد العام للبربر كان يبدو هائجاً ، وأنه أكثر من الصياح ثم نام . ولم تزد على ذلك إما لخجلها من نفسها وإما لشدة عفافها الذى جعلها لا تعلق اليوم أقل أهمية على قبلات الجندى ، فضلا عن أن جميع هذه الذكريات كانت تطفو فى رأسها كئيبة مغطاة بضباب كذكرى حلم مزعج ولم يكن باستطاعتها أن تجد الـكلمات للتعبير عنها على كل حال.

وبينما كانا جالسين هكذا فى ذات يوم ، دخلت عليهما طناش مرتعدة وأنبأتهما أن فى الحوش شيخاً معه غلام ، يريد أن يقابل القائد ، فامتقع لون هاملیكار وقال « ليصعد » .

ودخل إيديبعال دون أن يسجد ، وهو ممسك بيـد غلام يلبس معطفا من وبر الماعز ، فرفع الشيخ طرطور المعطف وقال — « هذا هو يا سيدى ، نفذه » ! .

وانفرد القائد بالشيخ فى ناحية من المـكان ، وظل الغلام واقفاً وسط الغرفة وهو يجيل نظرات المدقق لا المتعجب،فى السقف وفى الرياش وعقود

اللؤلؤ المنتشرة على وسائد الأرجوان وفى هذه السيدة الشابة الممتلئة جلالا المنعطفة إليه .

عمره عشر سنوات على وجه التقريب وطوله لا يجاوز طول حـــربة رومانية وشعره المجعد يظلل جبهة مسنمة ، وإنسانا عينيه يبدوان كأنهما يبحثان عن آفاق جديدة ، وقناتا أنفه الدقيق يلتفضان بشدة ، وينبسط على كامل شخصه الاشراق الفائق عن الوصف الذى يشع من أولئك الذين خلقوا لعظائم الأمور . ولما خلع معطفه الثقيل بدا تحته جلد فهد مربوط إلى قامته ، وبدأ يشد على البلاط برجليه الصغيرتين الحافيتين المعفرتين ، ولا شك أنه أحس بأهمية ما كان يبحثه الرجلان فظل واقفاً جامداً ، وإحدى يديه وراء ظهره وذقنه محنية ، وإحدى أصابعه فى فمه .

وأشار هاميلكار بيده إلى سلامبو فاقتربت منه فقال لها « ستحتفظين به عندك ! أسامعة أنت ! يجب ألا يشك أحد بوجوده حتى ولا خدم القصر » ولما بلغ إيديبعال عتبة الغرفة عاد فسأله : « أواثق أنت جيداً من أنه لم يره أحد » .

فقال العبد : « نعم ، كانت الشوارع مقفرة » .

لقد عمت الحرب جميع الأقاليم فخاف إيديبعال على ابن سيده ، وحار فى أمر اختيار مكان يخبئه فيه ، فجاء به عابراً البحر على شواطئه على ظهر زورق ، وظل ثلاثة أيام فى الخليج يراقب الأسوار ، حتى اتضح له فى ذلك اليوم أن نواحي خامون مقفرة ، فعبر المضيق ونزل إلى البر بالقرب من دار الاسلحة ، لخلو المرفأ من الناس .

ولم يلبث البربر أن أقاموا أمام المرفأ طوقا ليمنعوا القرطاجيين من الخروج كما كانوا يعملون على رفع الأبراج الخشبية والمصطبة أمام الأسوار .

وهكذا قطعت المواصلات مع الخارج ، وبدأت مجاعة لاتطاق . فقتلوا الكلاب وجميع البغال والحمير حتى الخمسة عشر فيلا التي كان الزعيم قد جاء بها معه ، وهاجت أسود معبد مولوخ ولم يعد مروضوها يجسرون على الاقتراب منها . فبدأوا باطعامهما جرحى البربر ثم أخذوا يرمون إليهما بالجثث فعافت أكلها ونفقت كلها . و كان أناس يخرجون بعد الاصيل هائمين يبحثون على طول خط التحصينات القديم عن الاعشاب والازهار النابتة بين الحجارة فيلتقطونها ويقلونها مع الخمر ، لان الخمر كانت أرخص ثمناً من المياه . وغيرهم كانوا يتسللون حتى طلائع جيش العدو وحتى خيامهم ليسرقوا الاقوات ، وصعق البربر لهذا وتركوهم يرجعون . وجاء أخيراً اليوم الذى عزم فيه القدماء على ذبح خيل أشمون واقتسام لحومها بينهم ، وهذه الخيول مقدسة يقوم الاحبار بتمشيط نواصيها بشرائط من ذهب ، وهى ترمز بوجودها عن دورة الشمس . فقطعوا اللحوم قطعا متساوية خبأوها وراء المذابح ، ثم أخذوا يدلفون كل مساء ، بداعي القيام بواجب العبادة ، فيصعدون وراء المذبح ويأكلون حصصهم سراً ، ويجيئون بقطع منها لاولادهم مخبأة تحت ثيابهم . وفى الاحياء المقفرة البعيدة عن الاسوار كان السكان أقل بؤسا ، فأقاموا الحواجز على حيهم ومنعوا الآخرين من دخوله .

وتكدست فى الشوارع حجارة المنجنيقات وأنقاض المبانى المتهدمة لضرورة الدفاع ، وفى أهدأ ساعات النهار تعلو صيحات طبقات الشعب إذ يرون فى أعلى مرتفعات الاكربول الحرائق تشتعل فتبدو كأنها أطهار ملابس من الارجوان قدنشرت على السطوح والهواء يعصرها .

ومع قيام أعمال الحصار لم تتوقف المنجنيقات عن العمل ، فاشتد ويلها وخطرها ، وهكذا فإن رجلا طارت رأسه لتصطدم بواجهة « السيسيت » ، وأن امرأة كانت تلد فى حي « كينسيدو » نزلت عليها كتلة من رخام

فسحقتها وأطارت سرير المولود إلى حي جيناسين حيث وجدوا غطاءه .

وشر ما بليت به المدينة قذائف المقاليع ، فقد كانت تتساقط على السطوح والحدائق والاحواش ، والناس جالسون إلى كسرات من خبز ، وصدورهم تصعد الحسرات . وعلى قذائف هذه المقاليع أحرف محفورة تنفذ فى الاجسام والجثث ، تفيد كلمات جارحة مهينة كمثل : «خنزير ، وابن آوى ودود » أو ألفاظ مزاح مثل استلم ! أو « لقد كنت استحق هذا » .

وأحدث البربر ثغرات فى الحصن الممتد من زوايا الميناء إلى مواقع الآبار ، فأصبح سكان حي مالكا محصورين بحصن بيرسا القديم من الوراء ، وبالبربر من الأمام ، وكان على القرطاجيين أن يعلوا الأسوار ويزيدوها صفاقة ، فلم يأبهوا لأولئك السكان بل تركوهم ، فهلكوا جميعاً ، فسرت فى المدينة موجة مقت لها ميلكار ولو أن أهلها كانوا يكنون البغضاء لسكان ذلك الحى .

وفتح هاميلكار فى غداة ذلك اليوم صوامع الغلال وأمر نظاره بأن يوزعوها على الشعب ، فأكلوا وأصابهم شبع مدة ثلاثة أيام .

وزادت شدة العطش وهم يرون أمامهم شلال ماء القناة ينحدر بمائه الصافى وأشعة الشمس ترتمى عليه فيتصاعد منه بخار خفيف يكون قوس سحاب وعلى الأرض يسيل منه جدول ملتو يسير حتى يرتمى فى البحر .

وكان هاميلكار يتوقع حدثاً ويقدر وقوع شىء حاسم خارج عن حدود الطبيعة . وأمر عبيده فانتزعوا صفائح الفضة عن أبواب معبد مالكارث ، وسحبوا من الميناء أربعة مراكب كبيرة ، بمرافيع ورحويات ، وجروها إلى أسفل حي « مابال » وخرقوا السور المؤدى إلى الشاطئ وسافروا إلى بلاد « الجول » ليشتروا منها جنوداً مرتزقة مهما بلغ الثمن ، ولكنه مكتئب

يائس لعدم استطاعته الاتصال بملك النوميديين الذى لايشك بأنه متربص وراء البربر ، مستعد للانقضاض عليهم ، ولكنه أضعف منهم فلن يجازف بالهجوم وحده .

وأمر بتعلية الأسوار بمقاس « اثنتى عشرة نخلة » وبتكديس جميع مواد دور الأسلحة فى أعالى الآكروبول وباعادة إصلاح أدوات الحصار .

ولاصلاح تروس المنجنيقات لابد من أطراف عضلات حيوانات تؤخذ عادة من رقاب البقر أو من عراقيب الوعول ، وليس فى قرطاجة هذا ولا ذاك ، فطلب هاميلكار من القدماء أن يقدموا شعور نسائهم ففعلوا ولكنها لم تكن كافية . وفى مبانى (السيسيت) ألف ومائتا جارية مراهقة من اللائى يخصصن كمومسات تباع فى أسواق بلاد الأغريق وإيطاليا ، وشعورهن التى أصبحت مرنة باستعمال الدهون والشحوم تصلح لآلات الحصار ، ولكن الخسارة تبدو جسيمة ، فاستقر الرأى على اختيار أجمل الشعور بين نساء طبقة الشعب فأخذن يولولن يائسات لما جاء عبيد المائة القدماء يقصون شعورهن ، ولم يبالين بحاجة الوطن الماسة لأمثال هذه الشعور .

والبربر من جهتهم مقبلون على تشديد الحصار بهمة وحماس يستخرجون شحم الجثث ليزيتوا بها الآلات ، وينتزعون منها أظافرها ويخيطونها إلى بعضها ليصنعوا منها أدرعا . ولجأوا إلى حيلة جديدة فأخذوا يضعون فى المنجنيقات أوانى ملئت بالثعابين التى يجيئهم بها الزنوج ثم يقذفون بها قرطاجة فتتكسر الأوانى على البلاط وتخرج منها الحيات تسعى فى كل مكان فامتلأت منها المدينة وأخذت تزحف بين الحيطان ، وزاد البربر فألقوا جميع انواع القاذورات وبراز الآدميين والجثث والفضلات المتعفنة ، فعاد الطاعون فظهر وأصبحت أسنان القرطاجيين تتساقط من أفواههم وتعفنت لثاتهم واختفى لونها كما يحدث للجمال بعد سفر طويل .

وارتفعت آلات الحصار على المصاطب ولو أنها لم تبلغ فى كل مكان علو

الاسوار ، وبدا أمام الثلاثة والعشرين حصناً ثلاثة وعشرون مصطبة عليها أبراج من خشب فرفعوا هكذا جميع الآلات المكونة من دعامة خشب ضخمة تعلوها عارضة واسمها « تولينون » كما ظهر في الوسط برج الحصار الجبار الذي اخترعه الاغريقي « ديمتريوس بوليوست » واسمه (هليوبول) أي (فاتح المدن) وقد صنعه سبنديوس بشكل هرمي كمنارة الاسكندرية . وكان علوه مائة وثلاثين ذراعا وعرضه ثلاثة وعشرين ، وله عشرة طوابق يضيق كل منها عن الآخر كلما ارتفع نحو القمة ، وهو مصفح بقشور من نحاس . وله أبواب كثيرة ملأى بالجنود ، وتلي مصطبته العليا منجنيق للحجارة وآخران لرمي السهام والحراب .

ورفع هاميلكان صلبانا لمن تحدثهم نفوسهم بالتسليم ، وضم النساء إلى فرق الجيش ، وأخذ الجميع ينامون في الشوارع منتظرين قلقين .

وفي صباح ذات يوم هو السابع من شهر نيسان، وقبل أن تشرق الشمس بقليل سمعوا صراخاً هائلا خرج من جميع أفواه البربر بوقت واحد تصحبه أصوات الأبواق ذات الأنابيب الرصاصية الرنانة ، وأبواق القرون التي تعج عجيج الثيران ، فصحا البربر جميعا وأقبلوا يترامون على الأسوار ، فبدت قواعدها غابة من الرماح والمزاريق والسيوف وارتفعت هذه الغابة إلى الأسوار فتعلقت بها السلالم وبدت رؤوس البربر من فوهات المتاريس .

وأخذت الدعامات الخشبية الضخمة تصدم الأبواب وهي ترتكز إلى أذرع صف طويل من الرجال يدفعونها ، وفي الأماكن التي لم يكن فيها مصاطب كان المرتزقة في سبيل هدم السور ، يقبلون جماعات متراصة فيقرفص منهم رجال الصف الأول ويلوى رجال الصف الثاني عراقيبهم ، ويقف عليهم تباعا وتدريجا غيرهم حتى يرتفع الصف فيجيء الآخرون واقفين ،

وفى مكان آخر يتقدم أطول الرجال قامات ويتأخر أقصرهم حتى آخر الصف ، وكلهم يشدون تروسهم على خوذهم بأذرعتهم اليسرى ويضمونها إلى بعضها عند أطرافها حتى ليظنهم الناظر ضفادع كبيرة وهكذا كانت القذائف تنزلق عن هذه الكتلة المائلة المنحرفة .

والقرطاجيون يرمونهم بأرحاء المطاحن والمدقات والدقاميق والطشوت والبراميل والأسرة وبكل ذى وزن قتال ، وآخرون يتربصون عند الفتحات ومعهم شباك صيادين فاذا وصل البربرى حاطته الشبكة فأخذ يضطرب كالسمكة . وأخذوا يهدمون المتاريس بأيديهم فتتساقط أجزاء الحيطان مثيرة للغبار . ومنجيقات السطوح تتضارب بالحجارة فتصدم ببعضها وتتحطم فتصب على المهاجمين سيلا من الشظايا ينهل عليهم كالأمطار . وأصبح الجمعان بعد قليل سلسلة ضخمة حلقاتها الأجسام البشرية فضاقت بها مصاطب السطوح . ولارتخاء هذه السلسلة عند طرفيها أخذت تلف على نفسها بدون انقطاع ، والرجال يضم بعضهم بعضا وهم منبطحون على الأرض كالمصارعين ، والنساء المنحنيات على المتاريس يولولن فيجذبهن جاذب كن يراقصهن فيبدو بياض خواصرهن يلمع بين أيدى زنوج يغمدون فيها الخناجر . وهناك جثث شدها الزحام فى وسطه فلم تسقط وسندتها اكتاف رفاقها فسارت تمشى بضع دقائق وهى منتصبة وعيونها جامدة محدقة ، وجثث أخرى نفذت باصداغها حربات صغيرة فبدت تتمايل برؤوسها كما تتمايل الدببة وهناك أفواه فتحت لترسل صراخاً فهمدت فظلت فاغرة ، وأيد بترت فطارت .

ولقد كان ذلك اليوم مشهوداً ظل يتحدث بأهواله أولئك الذين نجوا من الموت .

كل ذلك والاسهم تنهل من قمم أبراج الخشب وأبراج الحجر، وآلة «التولينون» تمد بسرعة حبالها وسلالها وترمي القرطاجيين ببلاط القبور لأن البربر كانوا قد انتهكوا حرمة قبور المواطنين ، ويحدث أن تنقطع الحبال لثقل ما تحمل السلال ، فيتساقط الرجال جميعاً من الجو إلى الأرض وهم يرفعون أذرعتهم .

ووجه قدماء مشاة الأغريق جميع قواهم منذ الصباح حتى الظهيرة ، إلى موقع « تونيا » لكي يتمكنوا من دخول المرفأ وتدمير الاسطول . فأشعل هاميلكار النار في قش رطب مبلل فتصاعد منها الدخان الكثيف فأعماهم عن النظر فتحولوا يسرة فزادوا من حدة التحام الصفوف في ناحية مالكا ،وتوصلت شراذم من الرجال الأقوياء الأشداء المنتقين إلى خلع ثلاثة أبواب فصدتهم عنها حواجز عالية وراءها مصنوعة من الخشب المليء بالمسامير، وخلعوا باباً رابعا سهل عليهم خلعه فارتموا يجرون منه إلى الداخل وإذا بهم يسقطون فى حفرة طمرت فيها الفخاخ . وتمكن أوتاريت ورجاله من هدم السور فى الزاوية القبلية الشرقيه لأن شقوقه كانت مرممة باللبنات والأرض وراءها تمتد صعداً فاعتلوا فيها خفافاً ، ولكنهم وجدوا فى أعلاها سوراً مبنياً بالحجارة وجذوع أشجار ضخمة مكدسة هنا وهناك ، كما لو كانت الأرض رقعة من الشطرنج ، وكان ذلك من اختراع الجوليين واقتباس الزعيم ، فظن الجوليون أنهم فى مدينة من مدنهم وهاجموا بضعف فردوا إلى الوراء . وأصبحت المسافة الممتدة من شارع خامون إلى سوق الاعشاب بما فى ذلك الطريق فى حوزة البربر وأخذ السمنيون يجهزون بحرابهم على الجرحى المحتضرين وعيونهم تتطلع إلى ما تحتهم حيث الأنقاض يتصاعد منها الدخان ، وإلى بعيد حيث لا يزال القتال على أشده . وحملة المقاليع لا يزالون يرمون القذائف وهم فى المؤخرة منتشرون ، ولكن زنبلكات

المقاليع تحطمت لكثرة الاستعمال ، فأخذوا يرمون الحصى بأيديهم كما يفعل الرعاة ، أو يلقون كريات الرصاص مدفوعة بمسكات السياط . وزر كساس ينتقل من مكان إلى آخر ، وشعره الأسود الطويل مرسل على كتفيه وهو يدفع الحماس إلى نفوس الباليار ، وعلى وركيه كنانتان لا تنفك يده اليسرى من الامتداد إليهما ويده اليمنى تدور بمقلاعة كعجلة مركبة سباق .

وامتنع ماتو بادىء ذى بدء عن الاشتراك فى القتال بنفسه ليتفرغ إلى قيادة جميع جيوش البربر ، فكان يظهر مرة بعد مرة على امتداد الخليج مع المرتزقة أو بجانب المستنقعات مع النوميديين أو على شاطىء البحيرة بين الزنوج ، أو فى أقصى السهل وهو يدفع إلى الأمام صفوف الجنود السائرة تباعاً وبدون قصد نحو الأسوار . وأخذ يقترب من ساحة القتال شيئاً فشيئاً فقفز قلبه لرائحة الدم ومنظر المذبحة وأصوات الأبواق فعاد إلى خيمته وخلع درعه ولبس جلد الأسد إيثاراً منه له لملاءمته للقتال ، فغطى شدقا الأسد الوجه وكست الأنياب طرفيه ، وتصلبت على الصدر القائمتان الأماميتان ، وامتدت البراثن إلى القائمتين الخلفيتين حتى ما تحت ركبتيه ، واحتفظ بمنطقته وقد شك فيها فأساً ذات حدين ، وأرتمى يدخل من فجوة السور مندفعا اندفاع السيل ممسكا بسيفه الكبير بكلتا يديه ، ومشى مشية مشذب يقطع أغصان الصفصاف ويجتهد بأن يقطع منها أكبر عدد لينال أكبر أجر . فأخذ يحصد القرطاجيين حوله وأمامه ، فاذا حاولوا الامساك به من جانبيه قلبهم بمقبض سيفه ، وإذا واجهوه نفذ فيهم حده ، وإذا حاولوا الهرب لقهم به ، ووثب اثنان معاً على ظهره ، فارتد القهقرى واستند إلى جدار فسحقهما سحقا ، وكان سيفه يعلو ويسفل ، فتكسر على زاوية حائط ، فتناول فأسه الثقيله وأخذ يشق البطون من أمامه وخلفه كأن القرطاجيين قطيع من الغنم ، فتراجعوا من أمامه ووصل وحده

إلى منطقة الحصون الثانية فى أسفل الاكروبول . وكانت المواد الملقاة من الاعلى تزحم الدرج وترتفع حتى قمة السور . فوقف ماتو بين الانقاض ومال برأسه إلى الوراء لينادى رفاقه .

فأبصر قنابر خوذهم مشتتة بين الجموع وهم غائصون وعلى وشك الهلاك فارتد نحوهم ، فأخذت تيجان الريش الحمر تتجمع فأدركهم وأحاطوا به ، وإذا بحشد من الجند كبير يخرج من الشوارع المتقابلة فيمسكونه من نخذيه ويحملونه ويمشون به حتى خارج الحصن إلى مكان مصطبة عاليه .

فأصدر ماتو أمراً وإذا بجميع التروس قد وضعت فوق الخوذ فقفز فوقها ليتعلق بشيء يمكنه من دخول قرطاجة ، وأخذ يجرى وهو لا يزال رافعا فأسه فوق التروس الشبيهة بأمواج من القلز ، كأنه إله من آلهة البحر وقف على أمواج عاتية يحرك خطافه المثلث الشوكات .

وبدا رجل بثوب أبيض يمشى جيئة وإيابا على حافة السور رابط الجأش لا يبالى بالموت الذى يحدق به ، وهو يجيل عينيه من وقت إلى آخر ليتبين بين الجموع شخصا ما ومر ماتو تحته فاذا بعينيه تقدحان شرراً وبوجهه الشاحب ينقبض ثم يرفع يديه نحو ماتو ويوجه الشتائم بصوت صارخ .

ولم تصل الشتائم إلى أذنى ماتو ولكنه أحس بنظرات قاسية حادة تجتاز قلبه فتخرج من فمه زئيراً ، فرمى نحوه بفأسه الطويلة ورأى أناسا يرتمون على شاهبريم ولكنه لم يعد يراه ، فسقط على ظهره وقد أخذ منه الأعياء كل مأخذ .

وسمعت قعقعة هائلة تقترب وتختلط بنغم أصوات جشاء تغنى بايقاع ،

تلك فرقعة البرج الجبار وقد تحرك يحيط به حشد من الجند يجره كل منهم بكلتا يديه بالحبال ، أو يدفعه بالكتف ، لأن المنحدر كان يتجه صعدا من السهل إلى ما فوق على أرض شديدة الانحدار تجعل من العسير جر أمثال هذه الآلات ذات الوزن الثقيل الهائل ، ولو أن لها ثمانية دواليب ملبسة بالحديد . ويتقدم البرج ببطء كجبل يرتفع فوق جبل ، ثم يخرج من قاعدته كبش ضخم وتنفتح ابوابه الثلاثة التى تواجه المدينة فيبدو فى داخلها جنود مدرعون فمنهم رجال يتسلقون السلمين المجتازين لجنباته أو ينحدون منهما وبعضهم ينتظر أن تنشب كلاليب الأبواب بالأسوار لكى يشرعوا بالهجوم ، وفى أعلى السطح الأول أخذت كبات الأكباش تدور وحجر المنجنيق الكبير ينخفض .

وفى ذات الوقت وقف هاميلكار على سطح معبد مالكارت لأنه قدر أن البرج الجبار سيهاجم هذه الناحية من الأسوار لمتانتها ولخلوها من الحراس وكان عبيده يملأون بماء القرب شبه حوض أقامه بين حيطان من الطوب ، والماء يجرى على مصطبة السور ، وهاميلكار لا يعير ذلك اهتماما فى الظاهر ولكنه لما رأى البرج الجبار على بعد ثلاثين خطوة أمر بأن تمتد ألواح خشب من سطح منزل إلى آخر فوق الشوارع ، ومن الآبار حتى الاسوار وأخذ الناس الواقفون بالصف يناول بعضهم الجرات والأباريق المليئة بالماء فيفرغونها بلا انقطاع ، والقرطا جيون يتذمرون من إضاعة الماء سدى مع شدة حاجتهم إليه ، وكان البرج يهدم الأسوار بكبشه ، وإذا بينبوع ماء يتفجر من بين الحجارة المتقلقلة ، فأخذت كتلة النحاس المشيدة ذات الطوابق الأربعة تتأرجح كالسفينة لأن الماء المنحدر من المصطبة كان قد بل الأرض وتغلغل فيها ، فانهارت الطريق وغاصت دواليب البرج فى الوحل ، فبدا رأس سبنديوس من الطابق الاعلى وهو ينفخ بملء رئيته بصفارة من

عاج ، وتقدمت الآلة نحواً من عشر خطوات كأن تشنجات عصبية تدفعها ولكنها عادت فتوقفت ومالت ميلا مخيفا على إحدى جنباتها ، وذلك لأن الأرض تحتها ازدادت ابتلالا وزاد الوحل التصاقا بالدواليب . ومال المنجنيق ميلا شديداً حتى حافة السطح وزاد فى ميله ثقل ما يحمله ، فسقط وهشم تحته الطوابق السفلي فهوى من هم واقفون علي الأبواب من الجنود أو تعلقوا بأطراف الدعامات الخشبيةالطويلة المتراصة فزاد هذا الثقل من ميل البرج الجبار الذى تفككت أجزاؤه وأخذت مواضع التحامها تقعقع .

وخف الجند الآخرون لنجدة الاولين وتجمعوا صفوفا متراصة فنزل القرطاجيون عن الاسوار فى مؤخرتهم وقتلوا منهم الخلق الكثير ، ولكن المركبات المليئة بالحراب أقبلت وأخذت تدور حول هذا الحشد الملتحم وثبتالقرطاجيون علي الاسوار ، وأظلم الليل فبدأ البربر ينسحبون .

ولم تعد العين ترى فى السهل إلا تحركات سود كتجمعات النمال ، من الخليج ، إلى المستنقع الابيض إلى البحيرة التى سالتفيها الدماء فبدت من بعيد كقميص من الأرجوان .

وتراكمت الجثث علىالمصطبة حتى ليخيل للناظر أنها قد بنيت بالاجسام البشرية ، وفى الوسط وقف البرج الجبار يتساقط منه الفينة بعد الفينة أجزاء كبيرة كحجارة أهرام تتداعي . وتبدو على الاسوار آثار مجارى جداول الرصاص ، وهنا وهناك برج خشب حطم فهو يحترق ، والبيوت بادية الرسوم كدرجات مدرج خرب ، والدخان يتصاعد وهو يرسل شراراً تصل فى السماء السوداء .

وأجهد العطش القرطاجيين فهجموا على الآبار وحطموا أبوابها فبدا

وشل من وحل الماء فى أعماقها لخاروا فيما يصنعون ، والبربر لاعداد لهم وسيستأنفون الهجوم بعد أن يأخذوا قسطاً من الراحة .

وتشاور السكان فيما بينهم طول الليل وقد تجمعوا أسرابا أسرابا فى الشوارع ، فقال قوم نخلى المدينة من النساء والمرضى والشيوخ واقترح آخرون هجرها والالتجاء إلى إحدى المستعمرات البعيدة ، ولكن السفن كانت تعوزهم ، وهكذا أقبل الصباح ولم يستقر رأيهم على شيء . ولم يقع قتال فى هذا اليوم لأنهم كلهم كانوا متعبين . فاستغرقوا فى النوم كأنهم جثث .

وفكروا فاذا هم يفطنون إلى أن السبب فى وقوع الكارثة هو أنهم لم يرسلوا إلى فينيقيا التقدمة الواجبة لملكارث بعل صور فاستولى عليهم الرعب الشديد وأيقنوا أن الآلهة ، لغضبها على الجمهورية ، ستتابع انتقامها منها .

وكانوا يعتبرون الآلهة أسياداً قساة تلينهم الضراعات ، ويقبلون الرشوة وكل هؤلاء الالهه ضعاف أمام « مولوخ المفترس » الذى يملك حياة الناس وحتى لحومهم ، ولذلك وتهدئة لغضبه كانوا يقدمون له قطعا من هذه اللحوم البشرية ، وكانوا يكوون الأولاد بالنار فى جباههم أو نقر رقابهم بذبالات من صوف ، وهذا العمل يرضى البعول ويدر المال على الكهنة الذين كانو يوصون الآباء باللجوء إليه لسهولته .

ولكن الكارثة الان نازلة بالجمهورية نفسها ، ولا بد لجر الغنم من غرم ، والتبادل يكون على أساس حاجة الضعيف وطلب القوى ، ومهما بلغ الألم من شدة لا يستكثر على الاله مولوخ لأن تلذذه يتم بأقسى الآلام وأشنعها ،

وهم الآن بيده وتحت رحمته فيجب إذن أن تشبع لذته وتنقع غلته ، وقد دلّت الأمثال والسوابق على أن هذه هى الطريقة المثلى لرد الكارثة ودفع النازلة ثم هم يعتقدون أن تضحية الضحية بالحرق تطهر قرطاجة. فاستهوت هذه الفكرة قسوة الشعب وضراوته ، ولا سيما أن الضحايا يجب أن ينتقوا من الأسر الكبيرة ذات الجاه والغنى .

واجتمع القدماء وطال اجتماعهم ، وكان هنون وهو مستلق بالقرب من الباب ، مختف تحت أخمال الطنافس الطويلة العالية ولما سألهم حبر مولوخ إذا كانوا يرضون بتسليم أولادهم للتضحية بهم ارتفع صوته من ظلال مجلسه يرن كصوت جنية فى أعماق كهف وقال : « كم أنا آسف ألا يكون لى ولد فأضحى من دمى » قال هذا وهو يحملق بعينيه هاميلكار الجالس أمامه فى الناحية الأخرى من القاعة . وسببت نظرات هنون إضطرباً لهاميلكار بلغ من شدته أن غض عينيه. ووافق المجتمعون كلهم على الاقتراح بحنى رؤوسهم وأضطر هو عملا بالطقوس الدينية أن يجيب صراحة فقال : « نعم ليكن ذلك » .

وعلى هذا قرر القدماء التضحية بأولادهم وكتب القرار بكنايات تقليديه لابصراحة ، لان التنفيذ فى بعض الأحيان أسهل من ترديد عبارات تقريره .

وشاع النبأ حالا فى قرطاجة ، فعلا النواح والعويل ، وسمعت صيحات النساء فى كل مكان ، وأزواجهن يحاولون تعزيتهن وينتقدون سلوكهن .

ولما تمض ثلاث ساعات حتى طار نبأ آخر أدعى إلى الدهشة . فان القائد وجد ينابيع ماء فى أسفل مرتفعات الشاطىء فهرع الناس إلى المكان

فوجدوا الماء يخرج من ثلاث حفر فى الرمل ، فانبطح بعضهم على بطونهم يعبون . ولم يدر ميلكار ما الذى دعاه إلى البحث عن الماء أهو إلهام من الآلهة ، أم تذكر حديث قديم لوالده الذى كان يرجح وجود ماء تحت تلك الرمال ، والواقع أنه لم يكد يغادر اجتماع مجلس القدماء حتى سار توا إلى الشاطىء وأمر عبيده بالحفر طلباً للمياه .

وفى الغداة أخذ يوزع على أبناء الشعب الملابس والأحذية وما كان متوفراً لديه من القمح والحبوب ، وفتح أبواب قصره للجماهير وأدخلهم إلى المطابخ والمخازن والغرف مستثنياً منها مخدع سلامبو .

وأعلن للملأ أن هناك ستة آلاف جندى جولى قادمون إلى قرطاجة ، وأن ملك مكدونيا قد وعد أيضاً بارسال الجنود .

ولكن ينابيع الماء بدأت تنضب منذ اليوم الثانى وجفت فى مساء الثالث ، فراوا وجوب تنفيذ قرار مجلس القدماء ، وشرع كهنة مولوخ يأخذون الأهبة لذلك ، فأوفدوا إلى المنازل خدم المعبد يطوفون بثيابهم السود طلباً للذكور ، وكان نفر قليل من القرطاجيين يغادرون بيوتهم متعللين بقضاء حاجة أو بشراء حلوى . فيستولى خدم المعبد على أولادهم فى غيابهم ، على أن الكثيرين كانوا يدفعون لهم بأبنائهم راضين لشدة ما كانوا عليه من غباوة .

ويقاد الصبية إلى معبد تانيت لتتولى الكاهنات تغذيتهم وتسليتهم حتى يوم المحرقة .

وجاءوا على حين فجأة إلى قصر هاملكار فوجدوه فى الحدائق فقالوا له :

— « يا باركا ! نحن قادمون للامر الذى تعلمه . . . لطلب ابنك ! »

وزادوا فقالوا إن أناسا رأوه فى مساء يوم من الشهر القمرى المنصرم فى وسط مابال ومعه شيخ يقوده . فكاد يختنق بادىء ذى بدء ، ولكنه عرف أن الانكار لا يجديه نفعاً ، فاظهر القبول وأدخل خدم البعل إلى محل وأشار إلى عبيد له فأقبلوا يراقبون المحل والجوار.

ودخل إلى غرفة سلامبو يائسا مذعوراً وأمسك «بهانيبال» بيدو التقط ذيل ثوب فربط به يديه ورجليه ووضع فى فمه كامة وخبأه تحت جلود البقر ودلى عليه غطاء واسعا ليخفيه .

ثم أخذ يذرع المخدع جيئة وذهابا وهو حيران يرفع بيديه إلى الهواء ويدور على نفسه ويعض على شفتيه ، لاهثا وإنسانا عينيه جامدتان كالوأنه قارب أن يموت . . وأخيرا صفق بيديه فأقبل رئيس العبيد جيدنيم فقال له :

« أصغ الى ! أذهب وجئنى بولد من أبناء العبيد ذكر يتراوح عمره بين الثامنة والتاسعة ، أسود الشعر مسنم الجبين ! هيابه إلى ! أسرع ! »

ولم يعتم جيدنيم أن عاد ومعه ولد مسكين هزيل الجسم متورمه ، وجلده مغبر بلون الاطمار القذرة المعلقة على خاصرتيه وهو يغض الطرف ، ورأسه بين كتفيه ويداه تفركان عينيه المتجمع عليهما الذباب .

وتساءل هاميلكار كيف يمكن أن يلتبس أمر هذا الغلام مع هانيبال؟ ولكن الوقت يمر سريعا وليس لديه متسع ليختار غيره ونظر إلى جيدنيم وفى نفسه شهوة لخنقه وصاح به : « اغرب عنى » فسارع رئيس العبيد بالهرب .

إذاً لقد نزلت به البلية التى كان يخشى وقوعها منذ بعيد ! وأخذ يفكر فى المهرب والمخرج ، بجهد لا يماثله جهد .

وإذا بأبدا لونيم ينبئه من وراء الباب بأن خدم مولوخ ينتظرونه ، وقد عيل صبرهم .

فكتم هاميلكار زفرة كزفرة من يكوى بالنار الملتهبة ، وأخذ يذرع الغرفة من جديد كمن اختل عقله ، ثم ارتمى على حافة الجانق ومرفقاه على ركبتيه وأخذ يشد على رأسه بقبضتي يديه . وكان لايزال فى حوض البرفير المعد لوضوء سلامبو قدر من الماء الصافى ، وعلى الرغم من أنفته وكبريائه أخذ هاميلكار الولد وغطسه فى الحوض ، وكنخاس يتاجر بالعبيد ، أقبل يغسله وينتزع الأقذار عن جسمه بمقشط ويفركه بالتراب الأحمر ، ثم تناول من رفوف الحائط قطعتى أرجوان مربعتين ووضع إحداهما على صدره والأخرى على ظهره وربطهما إلى بعضهما من الامام بمشبكين من الماس ، وصب عطراً على رأسه وقلده قلادة من ذهب وفضة فى عنقه وألبسه خفين كعباهما محليان باللؤلؤ أمام سلامبو ، ولكنه كان يضرب الارض برجليه لخجله وثورة نفسه . وسلامبو تساعده فى عمله ، وهى ممتقعة اللون مثله ، والولد يبتسم معجبا ببهاء تلك الاشياء ، بل يصفق بيديه وقد عادت إليه جرأته .

وأخذه هاميلكار بذراعه وخرج به وهو يشده إليه كأنه يخشى أن يفلت منه ، والولد يبكي قليلا من ألم الشد وهو يجرى بالقرب منه :

وعند بلوغه سجن العبيد وبالقرب من نخلة سمع صوتا حزينا يتوسل إليه قائلا : « سيدى ! آه يا سيدى » فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى رجلا بادى الشناعة والقذارة ، من جماعة البؤساء الطفيليين الذين يعيشون فى داره فسأله الزعيم : « ما الذى تريده ؟ »

فأجاب الرجل وهو يرتعد « أنا أبوه »

وظل هاميلكار يتابع سيره والرجل يتبعه والظهر محنى ، والعرقوبان مرتخيتان ، والرأس ممدود إلى الأمام ، والوجه مشنج بغم وقلق لا يوصفان والزفرات التى يكتمها تكاد تخنقه وهو متلهف لأن يصيح طالبا « الرحمة » وأخيرا دفعته الجرأة فلمس ذراع القائد لمساً خفيفاً وسأل : «هل ستسلمه .» ولم يعد يقوى على إتمام سؤاله . ووقف هاميلكار دهشاً من هذا الألم .

لم يكن ليدور فى خلده ـ والهوة بينهما سحيقة ـ أنه يمكن أن يكون بينه وبين رجل كهذا صلة جامعة ، بل لقد بدا له أن التفكير بهذا وحده هو اعتداء على امتيازاته ، فرد على الرجل بنظرة أكثر برودة واشد ثقلا من فأس الجلاد ، فأغمي على العبد وسقط على الحضيض بين رجليه ، فمر هاميلكار من فوق جسده وتابع السير . وكان الثلاثة المرتدون السواد ينتظرونه فى القاعة الكبيرة إلى جانب القرص الحجرى . وما إن رآهم حتى مزق ثيابه وارتمى يتمرغ على البلاط وهو يصيح :

« آه ! ياحبيبى هانيبال المسكين ! أيا ولدى وعزائى ! ورجائى وحياتى اقتلونى أنا أيضا ! خذونى معه ! يا المصاب ! يا المصاب ! » وكان يمزق وجهه بأظافره ويقتلع شعره ويولول كالنوائح فى المآتم . وعاد يصيح :

ـ « كفانى ! خذوه ! خذوه ! ما أقسى آلامى ! اغربوا عنى ! أقتلونى كما تقتلونه ! وكان خدم مولوخ يتعجبون من رقة قلب هاميلكار الكبير ، حتى أن قلوبهم أوشك أن يتسرب إليها الحنان .

وسمع وقع أقدام حافية وحشرجة متتابعة شبيهة بتنفس حيوان ضار يجرى ، وعلى عتبة باب السجن الثالث وبين الدرج العاجى ظهر رجل شاحب اللون هائل المنظر مبسوط الذراعين يصيح : « ولدى ! ولدى » !

فوثب هاميلكار بأسرع من البرق على العبد وغطى فمه بيديه وهو يقول.

ـ « هـذا هو الشيخ الذى رباه وقد اعتاد أن يدعوه باسم « ولدى » سيطير عقله لهذا المصاب ! كفى ! كفى » ودفع بكفتيه الكهان الثلاثة والولد وخرج معهم وأقفل الباب وراءه بعنف . وظل هاميلكار منصتاً بأذنه بعض الدقائق خشية أن يرى الـكهان يعودون ، ثم فـكر بأن يوقع بالعبد ليضمن سكوته ، ولـكنه خاف أن يغضب الالهة فينتقمون من ابنه ، فغير فـكره وأمر طناش بأن تأخذ للعبد خير مافى المطبخ من مأكولات فحملت إليه ربع جدى وفولا ولحوما محفوظة ، ولما كان لم يذق القوت منذ زمن فقد أقبل على الطعام يزدرده ، والدموع تتساقط من عينيه على صفحتى خديه .

وعاد هاميلـكار إلى مخدع سـلامبو ففك رباط هانيبال ، فعضه الولد الحانق فى يده فأدماها ، فدفعه عنه برفق . وأحبت سلامبو أن تهدىء ثائرته فأخذت تخيفه « بلاما » وهو غول من غيلان القيروان ، فقال لها : « أين هو ؟ ليأت » .

وقالوا له إن قطاع الطريق سيجيئون ليضعوه فى السجن فقال : « فليأتوا وأنا أتـكفل بقتلهم » .

فاضطر والده إلى أن يفضى إليه بحقيقة الأمر ، فثارت ثائرته على والده لزعمه أن بامكانه وهو الحاكم المطلق ، أن يلاشى الشعب كله ، وأخيراً أنهك التعب والجهد قواه فاستسلم إلى نعاس مضطرب وأخـذ يتكلم فى نومه . وظهره مستند إلى وسادة قرمزية ، ورأسه إلى الوراء ، وذراعه الصغيرة ، المنحاة عن جسمه مرفوعة مستقيمة كأنه فى موقف الآمر .

ولما أظلم الليل حمله هاميلـكار برفق ونزل به بدون مشعل على سـلالم السجن ، ماراً من المحل التجارى ، فأخذ قفة من عنب وأبريقا من ماء صالح للشرب ، ولم يستيقظ الصبى إلا أمام تمثال « أليتس » فى قبو الحجارة

الـكريمة ، وهو يفتر ابتساما على ذراع والده ، بين لألآء الحجارة التى كانت تحيط به .

وأصبح هاميلـكار أمينا على ولده موقناً إلا أحـد يستطيع الاهتداء إلى مقره ، فالمـكان لا يمكن اكتشافه وهو يتصل بالبحر بسرداب لا يعرفه غيره . فتنفس الصعداء ووضع الصبى على موطىء بالقرب من مجنات الذهب. والان ما من أحد يراه إو هو مضطر إلى التقيد بنظام أو عرف ! فسكن وملك العزاء نفسه ، وكمثل أم تعود فترى بكرها المفقود بعـد غيبة طويلة ارتمى هاميلـكار على ابنه يضمه الى صـدره وهو يبكي ويضحك بوقت واحد ، ويناديه بأعذب يالأسمـاء ويغطيه بقبلاته .وأزعبت هانيبال الصغير هذه القبلات ، فلزم الصمت .

وعاد هاميلـكار وهو يكتم وقع خـطواته ويتحسس الحيطان حوله ، فوصل إلى القاعة الـكبيرة حيث كان ضوء الهلال يتسلل من شقوق القبة فأبصر العبد ، وقد أكل فشبع ، نائمـا فى وسطها على الرخام ، فنظر إليـه فخالجته عاطفة من شفقة ، فزحلق بطرف حذائه بساطا وضعه تحت رأسه ثم رفع رأسه إلى الأفق وتأمل بتانيت وهلالها الضئيل يلمع فى السماء ، فأحس بأنه أقوى من البعول وأن نفسه ملأى باحتقارهم .

وكانت الاستعدادات لتقديم المحرقات قد بدأت .

* * *

هدموا فى معبد مولوخ جزءاً من جدار ليجروا منه الأله النحاسى دون أن يمشوا على رماد المذبح .

ولما أشرقت الشمس جره الـكهنة إلى ميدان خامون فسار يمشى

للقهقرى على زحافات ، ومنكباه تتجاوزان علو الاسوار، وكان القرطاجيون إذا لمحوه من بعيد ركنوا إلى الفرار ، لأنه ليس بجائز شرعاً أن ينظر إليه ناظر إلا فى ساعة إطلاقه لغضبه .

ومرت فى الشوارع نكهات العطور ، وفتحت جميع المعابد أبوابها بوقت معاً وخرج منها مظلات أقداس محمولة على عربات ، أو مرفوعة على محفات يحملها الأحبار ، وربات العرش تتمايل على أركانها والأشعة تنتشر من ذراها المسنونة المنتهية بكرات من البلور أو الذهب أو الفضة أو النحاس.

تلك كانت البعول الكنعانية ، الشخصيات المزدوجة للبعل الاسمى تفد اليوم نحو أصلها لتظهر تواضعها أمام قدرته وتتلاشى أمام بهائه .

فراية مالكارت «المصنوعة من الأرجوان الناعم» تظلل شعلة من البترول ، وعلى راية خامون الملونة بلون الياقوت ذكر من العاج وسط دائرة من الحجارة الكريمة ، وبين سجف راية أشمون الزرقاء كالأثير حية نائمة تكون بذنبها دائرة ، والآلهة « باتوك » المحمولة على أذرعة كهانها تبدو كأنها أطفال كبار ملفوفة بالأقمطة تتدلى أعقابها على الأرض .

وتلا ذلك مختلف أشكال الألوهية من الدرجات الدنيا : فبعل « سمين » إله الفضاءات السماوية ، وبعل « بعور» إله الجبال المقدسة ، وبعل «زبوب » إله الفساد. ومشت بعدها بعول البلاد المجانسة « إيرابال ليبيا» «وادرا ملخ» الكلدانيين وكيجون « سوريا ، ثم الاله رستو » بوجه عذراء ، يزحف على زعانف ، وجثة تموز مسجاة فى تابوت بين المشاعل والشعور . وتوصلا إلى إرغام ملوك الجو بعبوديه الشمس ، ومنعاً لمضادة تأثيراتهم لتأثيرها ، رفعوا على أسنة حرابهم كواكب من معدن مختلفة التلوين ، منها « نسيبو »

السوداء جنية زحل ، والقبيح الشكل « رهاب » الذى هو برج التمساح ، وحجارة « الأبادير » النيازك الساقطة من القمر تدار فى مقاليع من خيوط الفضة ، وأرغفة الخبز بشكل فروج النساء يحملها فى سلال كهنة « سيريس » . وبدا غيرهم يحملون تمائمهم وانصابهم أو أوثانا لهم أصبحت منسية ، حتى أنهم نزعوا من المراكب رموزها السحرية ، وكأن قرطاجة اليوم قد حصرت تفكيرها وشعورها بالموت والخراب .

وأمام كل مظلة من تلك المظال يقف رجل يحمل على رأسه آنية يحترق فيها البخور ، والغيوم تحوم هنا وهناك فى السماء ، وبين البخار الكثيف المتصاعد تبدو الطنافس والجواهر المدلاة وزركشة الأروقة المقدسة . كل هؤلاء يتقدمون ببطء لثقل ما يحملون ، ودواليب المركبات تعلق بالشوارع فيغتنم المتعبدون هذه الفرصة السانحة لكي يمسوا البعول بأثوابهم ليدخروها كأشياء مقدسة .

وتابع التمثال النحاسى سيره نحو ميدان خامون ، وجاء الأغنياء الممسكون الصولجانات ذات المقابض القرمزية ، من أقصى حي ميجارا ، واحتشد القدماء وعلى رؤوسهم التيجان فى كنسدو ، وأقبل رجال المال وحكام الاقاليم والجنود والملاحون ، وعمال الجنازات العديدون يحملون شارات وظائفهم أو أدوات صناعاتهم ومهنهم ، يتجهون نحو المظال النازلة من مرتفعات الاكروبول ، محوطة بهيئة الأحبار .

وتكريما لمولوخ تحلوا بأنفس حلاهم ، فحجارة الماس تتلألأ على أثواب سود والخواتم الواسعة تتساقط من أصابعهم ، وفى أيديهم الهزيلة ، ولم يكن من شيء أدعى إلى انقباض النفس من هذا الجسد الصامت الذى كانت فيه

الأقراط تلاطم وجوها شاحبة ، وتيجان الذهب تنعقد على جباه منكمشة من يأس طاغ قتال .

وأخيراً بلغ البعل وسط الميدان بالضبط ، فأقام الاحبار حوله حظيرة ذات سياج ، ليحولوا دون تدفق الجماهير عليه ، وجلسوا تحت رجليه ، واحتفظ كهنة خامون بأثواب من الصوف صفر فاقعة اللون ، تحت عمد الرواق ، وعليهم أردية الكتان ، وبأعناقهم القلائد وعلى رؤوسهم القلانس المقرنة ، واحتلوا درج الاكروبول . وكهنة مالكارث بقمصانهم البنفسجية وقفوا جهة الغرب ، ووقف كهنة أبادير جهة الشرق وهم مكتسون بأثواب ضيقة من نسيج بلاد « فيرجيا » وصفوا إلى الجنوب السحرة والرقاة المغطين الاجسام بالوشوم ، والمصوتين بأثوابهم المرقعة ، وكذلك خدمة باتوك « والايدونيم » الذين يقرأون الغيب بوضعهم لعظم ميت فى أفواههم . وأما « كهنة سيريس » اللابسون الفساتين الزرق ، فقد حرصوا على أن يقفوا فى شارع « ساتب » وهم يرتلون بصوت منخفض نشيداً باللغة الميجارية العامية .

ويهرع إلى المكان من وقت لآخر صفوف من الرجال عراة وأذرعتهم مبسوطة يستند الواحد منهم إلى كتف الآخر ، فيخرجون من أعماق صدورهم زمجرة بحاء مدوية وحدقات عيونهم شاخصة للصنم الضخم ، تلمع به الغبار ، وأجسامهم تتمايل معا بعد فترات منتظمة مدفوعين بحركة واحدة ، وكانوا هائجين حتى أن خدمة الهيكل محافظة على النظام أضطروهم بضرب العصى إلى أن ينطرحوا على بطونهم ، ووجوههم إلى جلفق النحاس .

وإذا برجل فى جلباب أبيض يخرج من أقصى الميدان ويشق الجموع ببطء ، هو كاهن تانيت الأكبر شاهبريم . فارتفعت أصوات الهزء والسخرية

من كل جانب لان احتفال اليوم كان للذكور دون الاناث والأفكار متجهة كلها إليه حتى أنهم نسوا تانيت نفسها ولم يفطنوا إلى غياب كهنتها وراياتها وزاد فى سخط الجماهير أن رأوا شاهبريم يدفع باب الحظيرة المخصص لدخول مقدمى الضحايا ، وإقدامه على مثل هذا يعد فى اعتقاد كهنة مولوخ إثما وإهانة لربهم ، فاخذوا يسخرون منه ويحاولون منعه من الدخول . فنشأت مشادة بين رجال يعلفون بلحوم الذبائح ويغطون كالملوك بالأرجوان ويعقدون على رؤوسهم التيجان المثلثة الطبقات وبين خصى هزيل الجسم شاحب اللون منهوك القوى لكثرة ما يمارسه من ضروب التقشف ، وكانت سخريتهم تهز لحاهم السود المدلاة على صدورهم وشاهبريم صامت يتقدم خطوة خطوة حتى وصل إلى ما تحت أقدام الصنم فلمسه من الجهتين وهو يباعد بين يديه ، وتلك صيغة علنية من طقوس العبادة .

وإنما فعل شاهبريم فعلته تلك لأن ربته تانيت كانت تعذبه من زمن طويل فبلغ به اليأس حده أو لأنه لم يجد فيها الاله الذى يتمشى مع تفكيره فقرر بعد لأى أن يستبدل منها هذا الاله . فصعق الشعب لهذا الجحود والكفر وأبدى تذمراً عميقا ، وأحس بانقطاع آخر رباط يربط النفوس بآلهة ذوى حلم وسعة صدر .

ولكن شاهبريم لا يستطيع الاشتراك بطقوس عبادة البعل بسبب فقد رجولته ، فاخرجه الرجال ذوى الأردية الأرجوانية من الحظيرة ، فلما صار خارجها أخذ يدور تباعا حول كل هيئة من هيئات العبادات المختلفة ، فاصبح هكذا لا إله له ، ثم توارى بين الجموع الذين كانوا يتنحون عنه عند مروره .

واشتعلت نار من أعواد الصبر والند والأرز والغار بين أرجل الصنم ،

فغاصت أطراف أجنحته فى اللهب وأخذت الأدهان التى طلى بها تسيل كالعرق على أعضائه النحاسية . وحول البلاطة المدورة التى يشد عليها بأقدامه ، وقف الصبية الضحايا بشكل حلقة ثابتة وعليهم البراقع السود ، ومد الاله أذرعه المتناهية بالطول حتى الصبية كأنها تريد أن تمسك بهذا التاج لتحمله إلى السماء .

وترا كمت جموع الأغنياء والقدماء والنساء والحشود وراء الكهنة وعلى سطوح البيوت ووقفت الكواكب الكبيرة المصبغة عن الدوران ، ووضعت المظال على الأرض ، وارتفع دخان المباخر عموديا وكأن أشجارا ضخمة تعرض فروعها المزرقة فى وسط الجو .

وأغمى على الكثيرين وأصبح الناس جامدين لا حراك بهم أو مأخوذين لشدة حماسهم . وجثم على الصدور رغم ثقيل ، وانقطعت أصوات الهتاف صوتاً بعد صوت وأخذ شعب قرطاجة ينوء تحت شهوة رعبه لا هثاً مرتقبا .

وأخيراً مد كاهن مولوخ الأكبر يده اليسرى تحت براقع الصبية وجمع من شعور نواصيهم خصلة ألقى بها على اللهب ، فارتفعت أصوات ذوى الأردية الحمر بالنشيد المقدس :

— « لك الاكرام والاجلال أيتها الشمس ! ملكة المنطقتين ، الخالقة التى تحبل نفسها وتلد ! أيها الأب والأم معا ! الوالد والولد ، الاله والالهة» وضاعت أصواتهم بين أصوات الآلات الموسيقية التى انفجرت تخرج دقاتها وزمجرتها بوقت معا لتكتم صرخات الضحايا : فالقوانين ذات الأوتار الثمانية والقفازات ذات العشرة وغيرهما من ذوات الاثنى عشر وترا تصر وتصفر وتدوى ، والقرب الكبيرة المثبتة فيها الأنانيب تخرج دويا حادا ! والدفوف

المضروب عليها بشدة ترن وتتجاوب تحت ضربات صم سريعة متتابعة ، وتسمع أصوات الجلاجل متصاعدة كتصفيف أجنحة الطيور رغم شدة ارتفاع صفير الأبواق .

وفتح خدمة المذبح ، بصنارة طويلة ، الرفوف السبعة المتدرجة على جسم البعل . وأدخلوا فى العليا دقيقا . وفى الثانية يمامتين ، وفى الثالثة قرداً ، وفى الرابعة كبشا ، وفى الخامسة نعجة ، ولما لم يكن لديهم ثيران ألقوا فى السادسة جلود بقر مدبوغة كان مودعة فى بيت القدس . وظل الرف السابع مفتوح الفوهة خاليا .

وقبل الشروع فى رفع المحرقات كان لابد من اختبار ذراعى الاله : فهناك سلاسل رفيعة تمتد من أصابعه فتتصل بظهره وتتدلى من ورائه حيث يشد بها رجال فتترفع يداه المفتوحتان حتى مرفقيه ثم تنضمان حتى تصلا إلى بطنه . فأسفرت التجربة عن حركات مضبوطة . وكانت النيران تشتعل فيسمع لها أزيز ، وأحبار مولوخ يقبلون ويدبرون فى تنقلهم على البلاطة الكبيرة وهم يتفرسون فى الجماهير .

ولا بد من تضحية يتطوع بها متطوع ، فتكون مثلا يحتذيه غيره من الناس ، فلم يتقدم أحد وظلت الممرات السبعة التى تؤدى إلى الحواجز خالية ، فأخرج الكهنة من أحزمتهم مخارز أخذوا يمزقون بها وجوههم ليشجعوا الناس على الاقتداء بهم ، وأدخلوا إلى الحظيرة المتعبدين المستلقين فى الخارج على ظهورهم وألقوا بين أيديهم رزمة مليئة بمختلف قطع الحديد ليختار كل منهم ما يحلو له لتعذيب نفسه . فأخذوا يدخلون السياخ بين ثندواتهم أو يشقون خدودهم أو يضعون أكاليل الشوك على رؤوسهم ثم ربطوا بعضهم ببعض باذرعتهم ، وأحدقوا بالصبية فتكونت منهم حلقة

ثانية تضيق مرة وتتسع أخرى وبدأوا يرتطمون على جلفق الحظيرة ويرتجعون عنه دواليك ، جاذبين إليهم الجماهير تحت تأثير ما تحدثه هذه الحركات المشبعة بالدم والصراخ من بحران وغيبوبة .

ولم يطل المطال حتى أخذ بعض الناس يدخلون إلى آخر الممرات فيرمون وسط اللهب لآلىء وآنية ذهبية وأكوابا ومصابيح وما يقتنون . وازدادت النذور وتضاعفت شيئا فشيئا ، وأخيرا تقدم رجل وهو لا يكاد يقوى على الوقوف ، ممتقع اللون ذو وجه شوهه الرعب فدفع بولد ، وإذا به فى يد الصنم كتلة سوداء غاصت فى الفوهة المظلمة ، فانحنى الكهنة وهم بجانب البلاطة الكبيرة وعالوا بنشيد جديد يشيدون فيه بافراح الموت وبالنشر الأبدى .

وكان الصبية يرتفعون على الذراع الحديدية ببطء ، ولما كان الدخان بارتفاعه يدور كالدردار . فقد كان يخيل للرائى من بعيد أنهم يختفون وراء الغيم ، ولم يكن أحد منهم يقوى على الحركة لأنهم موثقون من أيديهم وكانت أرجلهم والبرقع القاتم يعيقهم عن الرؤية ويحول دون التعرف إليهم .

وهاميلكار يرتدى رداءه الأحمر ككهنة مولوخ ، ويقف قريبا من البعل على أطراف أصابع قدميه ، فلما دفعوا بالصبى الرابع عشر بدت منه انتفاضة رعب تنبه إليها الجمهور ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وصلب يديه وأخذ ينظر إلى الأرض . ومن جهة التمثال الثانية يقف الحبر الأكبر جامداً مثله وهو محنى الرأس المثقل بتاج أحشورى يتامل بصفحة الذهب المعلقة على صدره المغطاة بالحجارة الرمزية التى ينعكس عليها اللهب فتشع بالوان قوس السحاب ، وهو أصفر اللون مشرد الفكر . وهاميلكار

يطأطيء الرأس ، وكلاهما جد قريب من المحرقة حتى أن ذيول ردائيهما ترتفع من وقت إلى آخر فتلمس جانباً منها .

وأخذ ذراع الصنم النحاسى يسرع فى عمله بلا توقف ، وكلما وضعوا عليه صبيا مد كهنة مولوخ أذرعتهم فوق رأسه ليحملوه آثام الشعب وهم يصيحون : « ليس هؤلاء ببشر بل هم بقر » والجماهير حولهم تردد : «بقرا بقر ! والمتعبدون يصرخون « كل أيها المولى » وكهنة « بروسبرين » المدفوعون بعامل الرعب المدركون لحاجة قرطاجة ، يرددون الألفاظ الدينية المصطلح عليها فيتمتمون : « اسكب المطر ! أولد » .

ولا يكاد الصبى يبلغ حافة الفوهة حتى تتلقفه ، فيتبخر كنقطة من ماء على صفيحة محمية ويتصاعد دخان أبيض ممتزج باللون الاحمر القانى .

ولكن شهية الاله لم تخف بل كان يريد أن يطعم أيضا ، فنزولا على إرادته ولا عطائه المزيد ، وضعوهم جماعة على يديه ووضعوا فوقهم سلسلة حديد ضخمة لتمسك بهم . وأراد المتعبدون أن يعدوهم فى أول الامر ليعرفوا إذا كان عددهم يوافق أيام السنة الشمسية ولكنهم أضافوا آخرين إلى الاولين فصعب عليهم تمييز العد بين الذراعين السريعتين المرعبتين ، ودام هذا طويلا وإلى ما لا حد له وحتى المساء . ولحظوا أن لون الاجزاء الداخلية قد ازدادت قتاما لان اللحم لايزال يحترق بل أن بعضهم زعم أنه تعرف إلى شعور وأعضاء بل أجسام كاملة .

وولى النهار وتجمعت غيوم فوق البعل وأصبحت المحرقة الآن بلا لهب تكون أهراما من الجمر تعلو حتى ركبتيه والصنم أحمر وبكامل أجزائه كجبار مغطى بالدماء يخيل إلى من رآه ، ورأسه منقلب إلى الوراء ، أنه سكران ينوء تحت عبء سكرته .

وكلما زادت سرعة الكهنة زاد لهب حماس الشعب . وقل عدد الضحايا الباقين فطلب البعض استبقاءهم أحياء وطلب آخرون المزيد ، وكان يخيل أن الجدران المحملة بالناس آخذة بالانهيار تحت صراخ الرعب والتلذذ

الروحى . ثم جاء بعض المؤمنين إلى الممرات وجروا أولادهم وهم معلقون بثيابهم والآباء يضربونهم ليتركوا الثياب كى يتمكنوا من تسليمهم إلى الرجال الحمر . وكان الموسيقيون يتوقفون أحيانا عن اللعب لشدة تعبهم فيسمع عويل الأمهات وبقبقة الشحم على الجمر . وأخذ شراب عصير حشيشة الدجاج يدبون على الأربع ويدورون حول الصنم وهم يزمجرون كالنمور ، « الأيدونيم » يرجمون للناس بالغيب ، والمتعبدون يغنون بشفاه شرم ، وقدحطموا الحواجز الحديدية ، وطالبوا كلهم بنصيبهم فى التضحية ، وأخذ الآباء الذين فقدوا أولاداً منذ زمن بعيد يرمون إلى النار بصورهم ولعبهم وعظامهم المحفوظة ، وانقض الذين كانوا يحملون المدى على غيرهم ، وتذابح الناس ، وجمع خدم الاله الرماد المتساقط على حافة البلاطة وأخذوا يذرونه فى الهواء بمذارى من القلز ، حتى تنتثرا لضحية على المدينة وتتصل بأرجاء الكواكب .

وهذه الضوضاء وتلك الأنوار الوهاجة جذبت البربر حتى أسفل الاسوار فاعتلوا بقايا البرج الجبار ليتمكنوا من تدقيق النظر فى مايحدث ، فرأوا مارأوه وأفواههم فاغرة تقززاً واشمئزازاً .



(١٤)

مضيق الفأس

قبل أن يأوى القرطاجيون إلى بيوتهم اشتد تكاثف الغيوم وأحس الذين كانوا يرفعون رؤوسهم نحو الصنم بقطرات ماء كبيرة تتساقط على جباههم ، وانهمر المطر ، وظل ينهل غيثاً وسحا ، والرعد يقصف : كان ذلك صوت مولوخ فقدغلب تانيت فأخصبها بلقاحه فهى الآن تفتح من السماء اثدائها الواسعة ، وبدا للناس أنهم يلمحونها الفينة بعد الفينة فى انقشاع من الغيم منير ، وهى مستلقيه على وسائد من غيم ثم يعود الظلام فينطبق ، فهى لاتزال متعبة يعاودها النوم . ولما كان القرطاجيون يعتقدون أن للماء مولود من القمر فقد أخذوا يعالون بالصياح لكى يسهلوا عليه الولادة .

والماء يلاطم السطوح ويفيض منها فيكون بحيرات فى الاحواش ، وشلالات على السلالم ، ودرادير فى أركان الشوارع ، ينهمر دماً دافئةولمحات أمل عجلى ، ويتدفق من زوايا المبانى سيل منه مزبد ، وعلى الجدران أسمطة بيض تبدو منشورة عليها ، وأسطح المعابد المغسولة به تلمع لمعانا أسود عند وميض البرق ، وتنحدر المياه من مرتفعات الاكروبول ، وهى تشق آلافا من السبل ، وانهارت بيوت على حين فجأة ، وشوهدت عوارض من الجبسين وأثاث تحملها الجدوال الجارية باندفاع على البلاط .

ووضعوا لالتقاط المطر أباريق وجراراً ومنسوجات ولكن المشاعل كانت تنطفىء فأخذوا من قبس نيران محرقة البعل ، وأخذ القرطاجيون يقلبون رقابهم إلى الوراء ويفتحون أفواههم ليلتقطوا المطر، ووقف آخرون

على حوافى برك موحلة يغطسون فيهـا أذرعتهم حتى الآباط ويكثرون من الشرب حتى يتقيأو الماء كأنهم جواميس .

وانتشرت رطوبة الجو فأخذوا يستنشقون الهواء الرطب وهم يمرنون أعضاء أجسامهم ، وامتلأت نفوسهم بأمل لا حد له بتأثير من نشوة هذه السعادة ، ونسوا جميع مصائبهم . وأحسوا بأن الوطن عاد فولد مرة ثانية .

ونشأت فيهم رغبة بأن يصبوا فورة هيجانهم وحنقهم على آخرين لعدم استطاعتهم صبهما على بعضهم ، فان ما بذلوه من ضحايا يجب ألا يضيع سدى وهم وإن لم يشعروا بتبكيت ضمائرهم فقد اندفعوا كلهم بثورة جنون شاملة كأولئك الذين يتواطئون على ارتكاب جرائم لا تعوض .

واستقبل البربر الزوبعة فى خيامهم غير المقفولة قفلا محكما ، ومع أنهم كانوا لا يزالون مبللين بالمطر . فقد أسرعوا منذ الغداة يبحثون عن ذخائرهم وأسلحتهم الضائعة او المتلفة وهم غارقون فى الوحل .

وذهب هاميلكار من تلقاء نفسه لمقابلة هنون ليوليه — بماله من سلطة — قيادة الجيش فتردد قليلا لما كان ينازعه من عاطفة الحقد وشهوة الحكم ، ولكنه قبل بذلك رغم حقده .

وأخرج هاميلكار من المرفأ سفينة مسلحة بمنجنيق فى كل جنب من جنباتها ، فأرساها فى الخليج أمام الطوف وأنزل إلى البحر على مراكب أقوى الجنود وأشدهم مراسا فهو إذاً يركن إلى الفرار . ثم اتجه إلى الشمال واختفى وراء الضباب .

ولكن بعد ثلاثة أيام قدم على البربر رجال من الشاطىء الليبى صاخبين فأنبأوهم بان باركا قد دخل بلادهم وجمع أقواتا وانتشر جيشه فى مكان .

فحنق البربر كأنهم يحملون موجدة عليه لفراره ، منهم والذين كانو متأففين لطول الحصار ولا سيما الجوليون لم يترددوا بالتخلى عن الاسوار واللحاق به وأصر سبنديوس على اصلاح برج الحصار الجبار ووضع ماتوخطة لا مثيل

لها للتقدم ، من خيمته إلى ميجارا وآلى على نفسه أن ينقذها ، ولم يرد أحد من رجالهما أن يتحرك من مكانه ، ولـكن الآخرين الذين يقودهم أوثاريت رحلوا تاركين حصار القسم الغربى من الأسـوار . وكان الجنـود مخيما عليهم فلم يفكروا باستبدال الراحلين بغيرهم فى المواقع التى أخلوها .

وكان نارهافاس يرقب حركاتهم من الجبال من بعيد . فاغتنم حلول الليل وفر بجنوده من جهة المستنقعات الداخلية وسلك طريق الشاطىء فدخل إلى قرطاجة دخول المنقذ على رأس ستة الآف رجل يحملون بأرديتهم الدقيق ،

ومعهم أربعون فيلا محملة علفاً ولحما مقدداً . فأحاط القرطاجيون بالفيلة وفرحوا بها أكثر من فرحهم بالنجدة غير المنتظرة ، لأنهم كانوا يعدون هذه الحيوانات القوية مكرسة للبعل ويرون فى قدومها عربوناً لحنانه ودليلا على مشاركته لهم فى قتالهم .

وتقبل نارهافاس ترحيب القدماء وتحياتهم ثم اتجه إلى قصر سلامبو ولما يكن بعد قد رآها منذ الساعة التى قابلها فيها بخيمة هاميلكار يوم أحس بيدها النحيفة الباردة مربوطة إلى يده لأن سلامبو رجعت بعد عقـد الخطبة إلى قرطاجة ، ولأنه شغل وقتاً ما عن حبها بمطامع أخرى . والآن وقد استيقظ حبه يطمع بممارسة حقه بزواجها وعبثاً حاولت سلامبو أن تقنع نفسها بأن مثل هذا الفتى يستطيع أن يصبح يوماً سيداً لها ، فانها وإن كانت تلتمس كل يوم من تانيت أن تمن عليهـا بموت ماتو إلا أن موجـدتها عليه قد خفت وأصبحت تحس إحساسا مبهما بأن ما بدا منه نحوها هو من الدين وهى ترى فى شخص نارهافاس إنعـكاسا من ذلك الأكراه الذى وقـع عليها والذى لا تزال واقعة تحت تأثيره ، ومهما يكن الأمر فهى تريدان أن تختبره وتعرف المزيد منه ، ومقابلتها إياه الان ستزيد من اضطرابها وارتباكها . فردت معتذرة بأن الواجب يقضى عليها بأن لا تراه .

ومن جهة أخرى فان هاميلكار كان قد حذر على رجاله بأن يسمحوا لابنته بمقابلة ملك النوميديين ، لأنه بتأجيله منح هذه المكافأة له يستديم إخلاصه،

فعاد اداراجه خوفا من الزعيم .

وأبدى نارهافاس ترفعا مع المائة القدماء فغيروبدل فى ما قرروه وطالب بامتيازات لرجاله وعهد إليهم بأكثر المناصب أهمية ودهش البربر لرؤيتهم النوميديين على أبراج الأسوار وكانت دهشة القرطاجيين أشد لما رأوا سفينة قرطاجية قديمة تحمل إليهم أربعمائة أسير من رجالهم الذين كانوا اسروا فى حرب صقلية : ذلك أن هاميلكار كان قدأعاد سراً إلى المواطنين الرومانيين رجال بحريتهم الذين أسروا قبل إنتقاض المدينتين الصوريتين ، فعاملته روما معاملة المثل وأعادت إليه أسراه ، كما أنها رفضت ما عرضه عليها مرتزقة سرديليا لعقد تحالف معهم كما أبت أن تعد سكان أوتيكا من رعاياها .

وكانت لهذه المعاملة اثرعلى موقف هيرون حاكم سرقسطة فانه رأى وجوب حفظ التوازن بالقوة بين روما وقرطاجة لكى يمكنه الاحتفاظ بأقاليمه وأن مصلحته تقتضى سلامة الكنعانيين ، فأظهر صداقته نحوهم بأن أرسل إليهم ألفا ومئة ثور وثلاثة وخمسين « نوبلا » من القمح النقى الخالص .

على أن هناك دواعي أبلغ عمقا وأبعد أثراً حفزت بالرومان وغيرهم إلى نصرة قرطاجة ، فانهم قدروا أن إنتصار البربر سيفضى إلى ثورات يقوم بها الوضعاء ، من الجندى إلى غاسل القصاع مما يعم شره كل حكومة وكل بيت .

وفى هذه الأثناء يتنقل هاميلكارفى الأقاليم الشرقية فيهزم الجوليين ويصبح البربر أنفسهم شبه محصورين ثم ينهك قواتهم ويطاردها ، فيقترب منهم ثم يبتعد مرة بعد مرة حتى فصلهم شيئا فشيئا عن معسكراتهم،فأخطرسبنديوس إلى اللحاق بهم ، وتبعه ماتو بعد لأى ، ولكنه لم يتجاوز تونس بل قبع وراء أسوارها لحكمة منه ولم يلبث نارهافاس أن خرج بفيلته وجنوده من باب خامون استجابة لطلب هاميلكار ، ولكنه لم يلتحم مع البربر بقتال لأنهم كانو يهيمون فى الأقاليم بحثا عن الزعيم .

وتلقى هاميلكار نجدة من ثلاثة آلاف جولى ، وجلب فيلة من القيروان وشكات سلاح من بروسيوم ، فاستأنف القتال . ولم تكن عبقريته يوما بأشد خصوبة مما هى عليه اليوم ، فقد جرهم وراءه مدة خمسة أشهر قمرية ، تحقيقا لغرض يرمى إليه ، فى مكان يعرفه وحده .

وحاول البربر بادىء ذى ، بدء أن يطوقوه بفصائل صغيرة ، فكان يفلت دائما من أيديهم ، فلم يعودوا إلى التفرق . وكان تعداد جيشهم نحوا من أربعين الف جندى يتقهقر القرطاجيون أمامه كلما التقوا به فيطرب لذلك البربر .

وفرسان نارهافاس يناوشونهم ويقلقون راحتهم : ففى أثقل ساعات النهار وهم يتقدمون فى السهول ، والنعاس يغالبهم والأسلحة تنشل كواهلهم يفاجأون برؤية خط عريض من مثار الغبار يرتفع فى الأفق ، وبخيل تقبل عدواً ، وبمطر من الحراب ينهل عليهم من غيم ملىء بحدقات العيون المتلألئة لا يلبث أن ينقشع عن النوميديين ، وهم بأرديتهم البيض يطلقون الصيحات ويرفعون الأذرع ، ويشدون بركبهم على أصائل جياد مغبرة لا يلبثون أن يلووا اعناقها ويختفوا عن أعينهم ،ولدى هؤلاء الفرسان على مسافات قريبة وعلى ظهور هجنهم مخزنات من الحراب يتناولونها ثم يعيدون الكرة . وهم أشد هولا يعوون عواء الذئاب ويسرعون فى الفرار كالعقبان . والبربر السائرون فى آخر الصفوف يتساقطون واحداً بعد واحد ،وهكذا ينقضى النهار ويحل المساء فيتغلغلون فى فلج الجبال .

وسلك هاميلكار طرق الجبال ولو أن فى سلوكها خطراً على الفيلة وأخذ يجتاز السلسلة الطويلة التى تمتد بين مرتفع هارموم وبين قمة جبل (زجوان) وجنوده يعتقدون أن فى ذلك تغطية لقلة عدد جيشه وأوشك الشك الذى يساورهم أن ينال منهم أكثر مما تناله كل هزيمة على أنهم لم يفقدوا شجاعتهم بل ظلوا سائرين وراءه .

وأخيراً وفى ذات مساء، بين جبل الفضة وجبل الرصاص، وفى وسط جلاميد من

الصخور،وعلي مدخل مضيق ، فاجأ البربر فرقة من المشاة الخفاف ، فلم يشكوا بأن الجيش كله يتقدمها،لأنهم يسمعون وقع اقدام وأصوات وأبواق، وعجل القرطاجيون بالهرب دون تردد سالكين المضيق الذى كان يفضى إلى سهل شبيه الشكل بحديد الفأس ، تحدق به أجواف صخرية عالية ، فدخل البربر فى المضيق ليطردوا المشاة ، وبدا أمامهم فى أقصى المضيق ثيران تجرى وحولها قرطاجيون يجرون ويضحكون ولمحوا رجلا مرتديا رداء أحمر ظنوه الزعيم فأخذوا يتنادون باسمه ، ودفعهم نحوه دافع من فرح وحنق وظل بعضهم واقفا عند مدخل المضيق لكسلهم أو لحذرهم ، ولكن كوكبة من الفرسان خرجت من غابة فدفعتهم وراء الآخرين بطعن الحراب وضرب السيوف فأصبح البربر جميعا داخل المضيق فى السهل .

وتذبذبت هذه الكتلة البشرية وقتاً ما ، ولما لم تجد مخرجا وقفت وسط السهل .

وعاد أقرب الجند من المدخل أدراجهم، ولكنهم وجدوا المدخل قد اختفى فنادوا على المتقدمين يطلبون منهم متابعة المسير إلى الامام فتراصوا فى أسفل الجبل حتى كاد بعضهم يسحق بعضا واخذوا يتراشقون بالشتائم لعجزهم عن الاهتداء إلى مخرج .

ذلك أنه لم يكد البربر يتوغلون حتى أسرع رجال مختبئون بدحرجة الصخور يزيحونها من أماكنها بعوارض قوية ، ولما كان المنحدر هاوياً فسرعان ماسدت هذه الصخور فوهة المضيق سداً محكما لتراكمها .

وكان طرف السهل الآخر ينتهي إلى ممر طويل تتخلله فلقان تفضى إلى مجرى سيل يمتد صعداً حتى النجد الأعلى حيث كان الجيش القرطاجى، وفى هذا الممر وعلى جوانب الجبل وضعوا قبل ذلك سلالم . فاستطاع المشاة الخفاف وهم محتجبون فى سيرهم عن عيون البربر بفلقان الجبل — أن يصلوا إلى هذه السلالم ويتسلقوها، والذين توغلوا فى مجرى السيل رفعوهم إلى النجد بالحبال، لأن الأرض كانت هناك رملية رخوة وشديدة الانحدار يستحيل تسلقها حتى

زحفاً على الركب ، ووصل البربر إثر المشاة ، ولكن نورجاً ضخما يعلو أربعين ذراعاً صنع خصيصاً هبط أمامهم من شاهق فسد الممر ، كما لو أن حاجزاً قد سقط من السماء .

وهكذا نجحت مكيدة الزعيم لأن أحداً من المرتزقة لم يكن يعرف ذلك الجبل وهم يسيرون فى الطليعة ، فجروا الآخرين إلى هذا المـأزق ، بينما كان الجيش القرطاجى يرسل من الأفق الأعلى صيحات اليأس . وقد كان من الممكن أن يخدر هاميلـكار فرقة مشاته كلها ولكن نصفهم فقط ظل فى المضيق ولو دعت الحال لضحى بكثير أكثر لنجاح خطته .

وظل البربر حتى الصباح يتزاحـون متراصين فى طرف السهل وهم يتحسسون جوانب الجبـل بأيديهم ، علهم يجـدون مخرجا ، وطلع النهار فرأوا حولهم فى كل مكان جداراً أبيض كأنه منحوت بالمنقار ، فلا سبيل إلى النجاة ولا أمل ! فان مخرجى هذا المأزق كانا مقفلين بالصخور وبالنورج فنظر بعضهم إلى بعض واجمين وانكمشوا على أنفسهم وأحسوا ببرد الجليد فى كلاهم وبثقل فى جفونهم على أنهم وثبوا على الصخور فلم تتزحزح لضغط العليا منها على السفلى ، فحاولوا التسلق عليها لبلوغ القمة فعجزوا لأنها كانت بشكل بطون منتفخة ، وأحبوا أن يشقوا سبيلا من الطرفين فتحطمت أدواتهم ، وأشعلوا نارا قوية من عمد خيامهم ، وهل تقوى النار على حرق الجبل ! .

فارتدوا إلى النورج فوجدوه مليئاً بمسامير طويلة ، غليظة كأعواد الرماح ، حادة مسنونة كرؤوس حراب القنفذ ومضمومة كشعور الفرش ولكنهم أصروا على الصعود عليه فغاص الأولون فيه حتى فقار ظهورهم وعلا الآخرون فوقهم ، ولكنهم سقطوا كلهم تاركين على فروعه المرعبة نثرات من اللحوم البشرية وخصلا دامية من شعورهم .

ولما زال عنهم بعض اليأس أخذوا يفتقدون مالديهم من المؤن ، فالمرتزقة وقد

فقدوا امتعتهم ، يملكون زاد يومين أو أقل ، والآخرون لازاد عندهم لأنهم كانوا ينتظرون وصول مؤن من قرى الجنوب .

وبدت لهم الأبقار السارحة التي تركها القرطاجيون فقتلوها طعناً برماحهم وملأوا بطونهم فأصبحت أفكارهم أقل ظلاما . وفى الغداة ذبحوا البغال الاربعين وكشطوا الوبر عن جلودها وغلوا أحشاءها ودقوا عظمها وظلوا يعللون النفوس بقدوم جيش تونس لنصرتهم ، لأنه لا بد قد عرف ما وقع لهم .

وأشتد الجوع عليهم فى اليوم الخامس فأكلوا حمائل السيوف وقطع الاسفنج المبطنة بها حوافي خوذهم من الداخل .هؤلاء الأربعون ألف رجل مزدحمون فى ميدان يحدق به الجبل من كل صوب . وأستقر بعضهم فى جانب النورج أو عند اسفل الصخور ، وغطى الآخرون السهل ، وأخذ الأقوياء يجتنب بعضهم بعضاً وضعاف النفوس يلجأون إلى الشجعان مع علمهم بعجزهم عن إنقاذهم.وكانوا قد دفنوا جثث قتلي المشاة القرطاجيين فأختفت الحفر التى دفنوهم فيها .

وتملك السبربر الضنى والذبول وانطرحوا على الأرض مستلقين وهم يصبون اللعنات على القرطاجيين وعلى هاملكار حتى على ماتو ، وإن لم يكن له شأن فى مصابهم ، لما خيل لهم من أنه لو اشترك معهم فيه لخف عليهم وطأته وكانوا يشهدون بل آن بعضهم يبكون بصوت منخفض مثل صغار الصبية ، ويهرعون إلى ضباطهم يلتمسون منهم شيئاً يخفف من آلامهم ، فلا يردون عليهم جواباً بل قد يأخذهم الغضب فيلتقطون حجارة ويرمونهم بها فى وجوههم

وكثيرون يخبئون في نقرة من الأرض بعض الاقوات كمثل ثمرات من التمر وقليلا من الدقيق ، فيتناولون منها أثناء الليل وهم يغطون رؤوسهم بأرديتهم وسيوفهم مسلولة في أيديهم ، وأشدهم يقظة وحذراً يأكل واقفاً وظهره مستند إلى الجبل .

وبداوا يعالون بالشكوى من ضباطهم ويهددون ، وأوتاريت يخشى الظهور أمامهم بل يغدو ويروح عشرين مرة فى النهار نحو الصخور ، مدفوعاً بعامل العناد الذى اشتهر به البربر ، على أمل أن يرى تلك الصخور مزحزحة من أماكنها ، وهو يؤرجح على كتفيه الجلود الثقيلة المغطاة بالفراء كدب خرج من كهفه فى أوائل الربيع ليتحقق من ذوبان الثلوج .

واختبأ سبنديوس فى شق من الشقوق وحوله الاغريق ، وأذاع لشدة خوفه ، نبأ موته : واصبحوا على هزال مخيف ، وطفت على جلودهم بقع مزرقة ومات منهم فى مساء اليوم التاسع ثلاثة من « الايبوريين » وذعر رفاقهم فتركوا جثثهم حيث كانت بعد أن جردوها من الملابس وظلت هذه الأجسام البيض العارية على الرمال تحت الشمس .

فأخذ الجنود « الجرامنت » يحومون حولها ، وكانوا رجالا قد ألفوا العيش فى الوحدة والعزلة ، لا يحترمون إلها ولا يمارسون عبادة ، وترددوا قليلا ثم أشار أكبرهم سناً إلى جماعته ، فانحنوا على الجثث يقطعون لحومها بمداهم وجلسوا القرفصاء ، وأخذوا يأكلون والآخرون ينظرون إليهم من بعيد . فعلت صيحات الاستبكار والاستفظاع، ولكن الكثيرين كانوا يحسدونهم فى قرارة نفوسهم على جرأتهم .

وعند منتصف الليل أقبل بعض هؤلاء وطلبوا منهم قطعاً صغيرة يتذوقونها وتبعهم رجال أكثر جرأة فاصبحوا جمهوراً ، فكان نفر منهم إذا أحس بطعم هذا اللحم البارد بين شفتيه ألقاه على الأرض ، وآخرون يجدون فيه لذة فيزدردونه . وأخذ البعض يشجع البعض الآخر فأصبح الجندى الذى يذهب لزيارة الجرامنت لايعود ، وكانوا يشوون قطع اللحم على الجمر وهى مشكوكة برؤوس سيوفهم ويملحونها بالتراب ويتخاطفون أكثرها جودة ، ولما نفد لحم الجثث الثلاث أخذوا يبحثون عن غيرها .

وتذكروا أن لديهم أربعين اسيراً قرطاجياً أسروهم فى المناوشة الأخيرة فما عتم هؤلاء أن اختفت آثارهم . ولا بد لهم أن يظلوا أحياء ، ونوع هذا

الطعام قد اعتادته أذواقهم ، فذبحوا حملة المياه وسياس الخيل وجميع خدم القرطاجيين ، وأصبح لديهم كل يوم ذبيح جديد . وأكثر بعضهم من الأكل فعاد إليهم النشاط وزالت عنهم الكآبه .

ونفدت مصادر هذه اللحوم ، فاتجهت شهوتهم إلى الجرحى والمرضى وقالوا لانفسهم ، ليحللوا فعلتهم : هؤلاء كلهم لا أمل لهم بالشفاء ، فجدير بنا أن ننقذهم من عذابهم ، وهكذا أصبحوا إذا رأوا رجلا خائر القوى صاحوا لا أمل بشفاء هذا فهلم ننقذ بموته الآخرين . وتعجيلا لذبح أمثال هؤلاء كانوا يلجأون إلى الحيل فيسرقون منهم قليلا من الطعام الباقى لديهم ليزدادوا ضعفاً ، أو يدوسونهم بأرجلهم وهم يتظاهرون بأنهم لم يتعمدوا ذلك ، والمحتضرون يجتهدون بأن يمدوا أذرعتهم أو ينتصبوا واقفين أو يقهقهوا ضاحكين ليظهروا أنهم لايزالون أقوياء ، وكم من أناس أغمى عليهم فاستيقظوا للمس نصل مسنن بنشر عضوا من أعضائهم ، وأفظع من هذا أنهم كانوا يقتلون عن ضراوة وبدون ماحاجة ليشبعوا شهوة هيجانهم وضعفهم .

وأطبق على الجيش فى اليوم الرابع عشر ضباب ثقيل دافىء ، وذلك مايحدث عادة فى هذه الأقطار فى أواخر الشتاء ، فسبب هذا موت الكثيرين وسرعان ما كان يطرأ على الجثث الفساد بعامل الرطوبة الساخنة التى تحتفظ بها جنبات الجبل ، فالرذاذ المتساقط على الجثث كان يكسبها رخاوة فاستحال السهل إلى حمأة من النتانة ، والبخار الأبيض ينتشر فوقه فيقرض الآناف ويخترق الجلد ويهيج العيون . والبربر يتوهمون بأنهم يرون من خلال هذا البخار أنفاساً تتصاعد هى أرواح رفاقهم ، فتقززوا من الحياة وأصبحوا يؤثرون الموت .

وصفا الجو بعد يومين وعاد الجوع يمض بهم . فهم يشعرون أحيانا أن هناك أيديا تمزق أحشاءهم بالكلاليب ، فيرتمون على الأرض متقلبين متشنجين ويضعون فى أفواههم حفنات من تراب ويعضون على أذرعتهم ويسترسلون فى ضحك عصبى .

واجهدهم العطش وزاد فى تعذيبهم أكثر من الجوع ، فليس لديهم قطرة واحدة لأن ماء القرب كان قد نضب من اليوم السابع ، ولتخفيف حدته أخذوا يضعون على ألسنتهم الأصداف الحديدية المثبتة فى أحزمتهم . وقبضات سيوفهم العاجية وحديد حرابهم . وسواقو القوافل الأقدمون يشدون بطونهم بالحبال ، وغيرهم يمتص الحصى أو يشرب البول المبرد فى الخوذ .

وهم لا يزالون ينتظرون قدوم جيش تونس ، وطول مطال قدومه دليل على قربه ، وماتو الشجاع المقدام لاينساهم فهو قادم غداً . وجاءت الغداة ولم يجىء ماتو .

وكانوا فى البدء قد رفعوا الصلوات والنذور ورقوا الرقى فاصبحوا الآن لايكنون للالهة سوى البغضاء وأصبحوا لايفكرون بهم لينتقموا منهم .

وكان أول المالكين ذوو الطباع الحادة . وقوة الاحتمال عند الافريقيين كانت أشد منها عند الجوليين ، وزركساس بين الباليار متمدد على طول جسمه ، وشعره فوق ذراعه وهو ساكن بلا حراك . ووجد سبنديوس عشبة ذات أوراق عريضة ، حلوة العصير غزيرته فأخذ يتغذى بها ويوهم الجند أنها سامة ليستأثر بها وحده .

وتناهى بهم الضعف فلم يقووا على صيد الغربان الحائمة بالحجارة . ويحدث أحيانا أن كاسراً من عقبان الطير ينقض على جثة فيطيل فى تمزيقها فيزحف نحوه رجل وحربته بين أسنانه ثم يستند إلى إحدى يديه ويسدد الرمية ويقذفه بالحربة . فينتفض الطائر ذو الريش الأبيض قليلا لصوت الحربة ويتوقف عن النقر ويجيل بنظرة حواليه وهو هادىء ، كعلجوم واقف على صخر فى البحر ، ثم يعود إلى تغطيس منسره الأصفر البشع فى الأحشاء ، ويسقط الرجل على الحضيض منكباً على بطنه . وتوصل بعضهم إلى اكتشاف حيات وضباب . ولكن الذى كان يبعث فيهم الحياة هو حب الحياة

كانوا يعلقون نفوسهم على هذا وحده ، ويتعلقون بالوجود بمجهود من إرادة يدينون بذله .

ويجلس أشد الرجال صبراً على المكاره الواحد إلى جانب الآخر فى حلقات فى وسط السهل ، هنا وهناك بين الأموات وهم ملتحفون بأرديتهم ويستسلمون إلى غمهم . والذين ولدوا فى المدن يتذكرون الشوارع الصاخبة المدوية والحانات والمسارح والحمامات ودكاكين الحلاقين حيث كانوا ينصتون إلى الأقاصيص . ويستعيد غيرهم إلى أذهانهم مناظر الحقول عند غياب الشمس وقتما تتماوج السنابل الصفر وتعود كبار الثيران تتسلق الآكام وعلى رقابها سكك المحاريث ، ويحلم ذوو الأسفار بالآبار ، والصيادون بغاباتهم وقدماء الجند بالمعارك. وفى استرخائهم المخدر كانت أفكارهم تصطدم بثورة الأحلام ووضوحها ، وتضفى عليهم على حين فجأة تخيلات وهمية فيسيرون مع الأوهام باحثين فى الجبل عن مخرج ثم يهمون بالخروج منه ، وآخرون يتظننون أنهم مسافرون بحراً فى يوم عاصفة وقد عهد إليهم بتسيير السفينة ، أو يرتدون رعباً إلى الوراء لرؤيتهم كتائب قرطاجية بين الغيوم ، وغيرهم يتصورون أنهم فى وليمة فيمالون بالغناء .

وكثيرون اصيبوا بلوثة غريبة فاخذوا يرددون نفس الكلمات أو يبدون مكررين ذات الحركات وكانوا إذا رفعوا رؤوسهم ونظر بعضهم إلي بعض تخنقهم الزفرات لرؤيتهم ماحل بوجوههم من التلف، وآخرون لم يعودوا يحسون بالآلام يقتلون الوقت بتعداد الأخطار التى أفلتوا منها .

وأيقنوا بالموت المخيف العاجل . فقد كثر ما حاولوه عبثا لفتح مخرج ينفذون منه ، وهم لايعرفون السبيل إلي التماس شروط الغالب حتى ولا أين هو هاميكار .

وكانت الريح تهب فى جهة مجرى السيل فتسفى عليهم الرمال من فوق النورج كشلالات وبدون انقطاع فتغطى أرديتهم وشعورهم كما لو أن الأرض علت فوقهم اندفنهم تحتها . وكل شىء جامد لا يتحرك والجبل الأبدى يبدولهم كل صباح

اشد علوا من ذى قبل ، وتمر فوقهم أحياناً أسراب من الطيور مبسوطة الاجنحة فى قلب السماء الزرقاء وفى حرية الاجواء فيغمضون عيونهم كيلا يروها .

ويحس الواحد منهم طنيناً فى أذنيه وتسود أظافره ويسرى البرد إلى صدره فينام على جنبه ثم يتمطى دون صراخ .

وبلغ عدد الموتى فى اليوم التاسع عشر ألفى أسيوى وألفاً وخمسمائة من جزر الارخبيل وثمانية آلاف ليبى ، كما مات جميع صغار السن من المسترزقة ، وقبائل كثيرة من الرحـــل ، وتعداد ذلك جميعه عشرون ألف جندى أى نصف الجيش .

ويفكر أوتاريت بالانتحار إذ لم يبق له إلا خمسون رجلا من الجوليين ، وإذا به يلمح شيئاً على قمة الجبل ظنه رجلا ، ولعلو القمة كان يبدو قزماً ، ورأى أوتاريت على ذراعه اليمنى ترساً على شكل زهرة الخندقوق فصرخ قائلا: قرطاجى ! فانتصب الجنود كلهم واقفين فى السهل امام الصخور وأمام النورج ، والرجل يمشى على شفير الهاوية والبربر ينظرون إليه من الأسفل.

فالتقط سبنديوس رأس ثور وأخذ حزامين لف كلا منهما على شكل تاج وعلقهما على قرني الثور ثم رفع الرأس على سنـــان رمح . وتلك دلالة على نواياهم السلمية . واختفى القرطاجى وظلوا ينتظرون .

وأخيراً وعند المساء سقطت حمالة سيف من قمة الجبل كأنها حجر وكانت مصنوعة من الجلد الأحمر موشاة مزركشة وعليها ثلاثة نجوم من المـــاس ومختومة فى الوسط بشارة المجلس الكبير وهى : « جواد تحت نخلة » كان ذلك جواب هاميلكار وسمة الأمان الذى يرسله إليهم .

وما الذى يخشونه ؟ فان كل تغيير يطرأ على حالتهم تكون به نهاية مصائبهم!؟ فهزتهم نشوة الفرح وأخذوا يتعانقون ، وقبلوا ما عرضه عليهم سبنديوس أن يكون وفد المفاوضين مؤلفاً منه ومن أوتاريت وزركساس ومن زنجى وأربعة

إيطاليين وإسبارطيين . ولكنهم لم يهتدوا إلى سبيل يوصلهم إلى القرطاجيين . وإذا بقرقعة تدوى من جهة الصخور وإذا بالصخر الأعلى يتحرك ثم يهوى لأنه إذا كان لا يمكن زحزحة هذه الصخور من جهة البربر لتراكمها فى محل ضيق فقد كان ذلك ممكنا من الجهة الأخرى بأن تدفع دفعاً شديداً فتتهاوى . وهكذا فعل القرطاجيون فاصبحت هذه الصخور مندفعة إلى الأمام فى السهل كأنها درج سلم طويل متداع ، ومع هذا لم يستطع البربر أن يتسلقوا عليها ، فمدوا لهم سلما فتهافتوا عليه ولكن رمية من حجارة المنجنيق أوقفتهم ولم يسمح بالصعود إلا للعشرة المفاوضين . فساروا بين فرسان الكليناِر وهم يستندون على أكفال الخيل لئلا يسقطوا لشدة إعيائهم .

وأصبحوا وقد حل التفكير محل الفرح ، قلقين لما كانوا يتوقعونه من قسوة شروط هاميلكار ، فسكن سبنديوس قلقهم بقوله « أنا الذى سيتكلم وأخذ يفتخر بأنه يعرف ما سيقوله من الكلام المعسول لينقذ الجيش . وتبينوا وهم سائرون أن وراء كل عوسجة ديدباناً يترصد ، فاذا مروا أمامهم سجدوا لحمالة السيف التى يضعها سبنديوس على كتفه .

ولما وصلو إلى معسكر القرطاجيين احتشد الجنود حولهم وتعالت المسبات والضحكات ، ثم فتح باب خيمة وظهرها مليكار جالساً فى أقصاها على موطىء بالقرب من منضدة وطيئة ، عليها حسام مسلول ، وحوله ضباط يحدقون به.

فلما لمح هؤلاء الرجال بدت منه حركة ارتداد إلى الوراء ثم مال نحوهم يتفحصهم : فحدقات عيونهم متمددة إلى أبعد حد ، وما حول أعينهم دوائر سود كبيرة تمتد حتى أطراف آذانهم ، وأنوفهم المزرقة ناتئة بين خدودهم المجوفة التى شققتها الغضون ، وجلود أجسامهم اوسع مما يجب لاحتواء عضلاتهم ، وهى مغطاة بغبار بلون ألواح الحجر الأسود المزرق وشفاههم لاصقة بأسنانهم الصفر ، ومنهم تتصاعد رائحة كريهة حتى كأنهم قبور متفتحة أو أضرحة حية .

وفى وسط الخيمة ، وفوق حصيرة معدة لجلوس الضباط ، صحن كوسى

يتصاعد منه البخار ، فعلقت به عيون البربر وهم يرتجفون والدمع يترقرق بين جفونهم ، ولكنهم تمالكوا أنفسهم .

ومال هاميلكار برأسه فتحدث إلى أحد الضباط وإذا بهم يرتمون على الصحن منبطحين على بطونهم ، ووجوهم تتلوث بالدهن وأصوات البلع تمتزج بزفرات الفرح التى كانوا يصعدونها وتركوهم يلتهمون مافى الصحن ، مدفوعين بعامل من دهشة لا بعاطفة من شفقة ، حتى إذا انتهوا وقفوا فأمرها ميلكار حامل الحمالة باشارة منه أن يتكلم، وكان سنبديوس خائفا وأخذ يتلعثم وهاميلكار يدير فى أصبعه خاتمه الذهبى الكبير الذى ختم به وبخاتم قرطاجة حمالة السيف ، فتركه يسقط من أصبعه على الأرض ، فأسرع سبنديوس بالتقاطه لتغلب طبع العبد عليه أمام سيده ، فانتفض رفاقه استنكاراً لضعفه .

ورفع الاغريقى صوته وأخذ يعدد جرائم هنون لمعرفته بالعداء المستحكم بينهما ، ويجتهد بأن يثير فى قلبه الشفقة بتفصيل المصائب التى نزلت بهم وبتذكيره باخلاصهم له ، وأسهب فى الكلام مسرعاً مخادعاً بل ومحتدا حتى لم يعد يتميز مايقول لاندفاعه مع حرارة فكره ، وأجاب هاميلكار بأنه يقبل اعتذارهم ، فاستنتجوا من كلامه أن الصلح واقع وأنه سيكون صلحاً نهائيا . ولكنه تشدد بطلب تسليمه عشرة منهم عزلا من السلاح ، مجردين من لباسهم الحربى يختارهم هو .

وما كانوا يتوقعون أن يبلغ به الحلم هذا المبلغ ، فصاح سبنديوس « بل عشرين أيها السيد إذا كانت تلك إرادتك » .

فأجاب هاميلكار بنعومة « بل يكفينى عشرة » .

وأخرجوهم من الخيمة كى يتشاوروا فيما بينهم فلما أصبحوا منفردين احتج أوتاريت على تضحية الرفاق وقال زركساس لسبنديوس :

« لم لم تقتله فقد كان سيفه هناك قريباً منك » .

فصاح سبنديوس : « أقتله ! هو . هو » وكرر هذه الكلمات مراراً كما لو كان

ذلك مستحيلا ، وكأن هاميلكار خالد لا يموت .

وتراكمت عليهم دواعى الإعياء فارتموا علي الأرض مستلقين علي ظهورهم حيارى لا يدرون ما يصنعون ، وسبنديوس يلح عليهم بالقبول ، فقبلوا بعد لأى ، وعادوا إلى الخيمة .

فوضع هاميلكار يده فى يد البربر العشرة واحداً بعد واحد وهو يشد على أباهمهم ثم فرك يده على ثوبه لأن لمس جلودهم اللزجة أحسه بخشونه ورخاوة وسبب لكفه نملا تقزز منه . ثم قال لهم :

أنتم كلكم رؤساء البربر، أليس كذلك ؟ وقد أقسمتم باسمهم وبالنيابة عنهم .

فأجابوا « نعم ».

« وقسمكم صادر بدون إكراه ومن أعماق نفوسكم وبنية تنفيذ ما تعهدتم به» »

فأكدوا له بأنهم سيعودون الي رفاقهم لينفذوا ما تعهدوا به .

فقال لهم : « بناء على هذا الاتفاق الذى عقد بينى أنا باركا ، وبينكم أنتم، مندوبي المرتزقة المفوضين ، قد اخترتكم أنتم ، وها إنى أحتفظ بكم .

فسقط سبنديوس على الأرض مغمي عليه وتراجع الآخرون عنه منضمين إلى بعضهم وكأنهم قد خذلوه ولم ينبس أحدهم ببنت شفة أو يرسل شكوى .

واستبطأ البربر رفاقهم ولما رأوا أنهم لم يعودوا رموهم بالخيانة وقالوا لا شك بان المندوبين قد أنضموا إلى الزعيم. وانتظروهم مدة يومين وفى صباح اليوم الثالث عقدوا العزم على الرحيل ، فجمعوا الحبال والرماح والنبال واتخذوا من هذه درجا وبطوه باطهار من قماش ، فامكنهم أن يتسلقوا الصخور تاركين وراءهم نحواً من ثلاثة الاف من الضعفاء ومشوا لينضموا إلي جيش تونس .

وفى أعلى المضيق مرج نمت فيه هنا وهناك شجيرات ، فارتموا عليها يأكلون طلعها وبراعمها ثم مروا بحقل مزروع فولا فمحوا نباتاته كما لو أن غيما من

جراد قدمر به وبعد ثلاث ساعات وصلوا إلى نجد ارتفع على جنباته نطاق من تلال خضر فأبصروا بين تموجات هذه التلال باقات بلون الفضة متباعد بعضها عن بعض ولمحوا لمحاً وقد بهرت السحب عيونهم تحت هذه الباقات ، كتلا سوداً كثيفة تحملها ما عتمت حتى وقفت كأنها تتفتح وإذا بها رماح فى أبراج على ظهور فيلة مسلحة تسليحاً مخيفا .

وكأن الحراب المثبتة فى صدورها ، ومناقب أنيابها والمصفحات النحاسية لخواصرها والخناجر المشكوكة فى أغطية ركبها لم تكن كافية للتقتيل ، فركبوا فى أطراف خراطيمها أساور من جلد أثبتت فيها سواطير عريضة وأخذت هذه الفيلة تتقدم من أقصى السهل فى صفين متقابلين .

فحل بالبربر رعب لا سبيل إلى وصفه ولم يحاولوا الهرب لأنهم أصبحوا مطوقين وسط هذه الكتلة من الرجال فأخذت مهاميز صدورها تجزئهم ، وأسنة أنيابها كسكك المحاريث تحرثهم ، ومناجل خراطيمها تقطعهم وتمزقهم وتحصدهم وأبراجها المليئة بشعل النار تبدو كبراكين تسير ، ولا ترى العين الا كومة واسعة يبدو اللحم فيها نقطاً ، وقطع النحاس صفائح غبراً والدماء صواريخ حمراً وتمر الفيلة وسط هذه الكومة فتحفر فيها اتلاماً سوداً . وكان أشدها حنقاً نوميدى على رأسه تاج من ريش يقذف بحرابه بسرعة مخيفة ، وهو يرسل صفيراً حاداً طويلا بين الفينة والفينة ، وهذه الحيوانات الضخمة المطيعة كالكلاب تميل نحوه بعين فى أثناء تلك الملحمة .

وأخذت حلقتها تضيق شيئاً فشيئاً ، والبربر المستضعفون لا يبدون مقاومة ووصلت الفيلة إلى وسط السهل وضاق عليها المجال فازدحمت حتى أضطرت إلى رفع قائمتيها الأماميتين وتلاحمت أنيابها . وأقبل نارهافاس يهدؤها ثم لوى عنان جواده فعادت الفيلة تخب نحو التلال .

واحتمت فصيلتان من الاغريق فى ثنية إلى اليمين وألقتا سلاحهما ، وجثا رجالهما على ركبهم متجهين بعيونهم إلى خيام القرطاجيين ورافعين اذرعتهم

مسلمين طالبين العفو . فأوثقوهم بأيديهم وأرجلهم وطرحوهم على الأرض الواحد بجنب الآخر وردوا عليهم الفيلة ، فأخذت الصدور تفقع كصناديق الخشب التى تحطم ، وكل قدم من أقدام الفيلة كان تسحق جنديين ، وإذا غاصت أرجلهن فى الأجسام بحركة من اوراكهن بدون كأنهن يعرجن ، وظللن دواليك حتى انتهين .

وعاد مستوى السهل كما كان ، لا حركة فيه ، وأقبل الليل وهاميلكار ينعم برؤية مشهد انتقامه ، وإذا به ينتفض .

ذلك أنه أبصر كما أبصر غيره على مسافة ستمائة قدم منه ، على اليسار وعلى تل ، رجالا من البربر لا يزالون أحياء . كانوا نحواً من أربعمائة من الأشداء من مرتزقة الأوترسك والليبين والسبارطيين لجأوا منذ البدء إلى المرتفعات ووقفوا عليها حتى الساعة مترددين ، فلما رأوا المذبحة التى أوقعها القرطاجيون برفاقهم صمموا علي شق طريق لهم فى قلب جيشهم ، وهاهم الآن بدأوا ينحدرون بصفوف متراصة وبشكل مدهش ومرعب .

فعجل إليهم الزعيم رسولا يقول لهم إنه يقبل تسليمهم دون أن يشترط عليهم شروطا لاعجابه ببسالتهم وإنه يمكنهم أن يقتربوا من مكان حدده لهم حيث يجدون أقواتا ، فهرع البربر إلى ذلك المكان وصرفوا الليل وهم يأكلون . فسرت بين القرطاجيين شائعات يؤاخذون بها الزعيم لمحاباته للمرتزقة . فهل استجاب الزعيم لداع من بغضاء دفينة تأصلت فى نفوس القرطاجيين؟ أم أحب أن يتفنن فى الغدر ؟ فانه أقبل فى الغداة على المرتزقة وهو عارى الرأس أعزل ، ومعه حرس من فرسان الكلنبار وقال لهم : إن لديه كثيراً من الرجال ولا يعرف كيف يوفر لهم الأقوات ، ولذلك فهو لا ينوى أن يستبقيهم ولكنه مع ذلك بحاجة إلى الجند ولا يدرى كيف ينتقى الأشداء ، فلذلك يأمرهم بأن يتجالدوا فيما بينهم حتى الموت ، ومن خرج منهم سالماً من هذا الصراع فسيلحقه بحرسه الخاص ، والموت على هذه الصورة لا يفرق عن الموت بشكل آخر ، ثم نحى

جنده لأن أعلامهم كانت تخفى الفيلة ، وأشار بيده إلى الألف والمائتين والاثنين والتسعين فيلا التي جاء بها نارهافاس المصطفة إلى اليمين بخط مستقيم والتي كانت خراطيمها تحمل حديداً عريضاً ، فتشبه أذرعة جبابرة يرفعون فوق رؤوسهم فؤوساً .

ونظر البربر بعضهم إلى بعض ساكتين، وما كان الموت يخيفهم بل هذا هو الخيار الذي فرض عليهم . فإن عيشهم معاً أوجد بينهم صداقات عميقة ! فالمعسكر عند أكثرهم يعوضهم عن الوطن ، وعيشهم بدون أسرة يصرف إلى صديق حاجتهم إلى الحنان ، وهم ينامون جنباً إلى جنب تحت رداء واحد وعلى ضياء الكواكب وفي خلال تطوافهم الدائم في البلاد ، أفاقين سفاحين ، نشأت بينهم علاقات خليعة منحرفة تقوم عندهم مقام الزواج ، فالقوي يدافع عن الضعيف في ميدان القتال ويعاونه على اجتياز الوهاد ، ويمسح عن جبينه عرق الحميات ويسرق له الأقوات والضعيف لقيط التقط على قارعة طريق ثم أصبح جنديا مرتزقا ، فهو يدفع ثمن إخلاص صديقه رقيق عناية وتسامح زوجة .

فتبادلوا قلائدهم وأقراطهم ، وهي تلك الهدايا التي تهادوها بالأمس ، بعد نجاة من خطر داهم أو في ساعات نشوة سكر ، وكلهم طلب أن يقتل وأبى أن يقتل ، هذا فتى يقول لرجل أشيب : « لا . لا . أنت أشد مني ! وستنتقم لنا فاقتلني » ويجيب الآخر : « لم يبق لي كثير من السنين أعيشها ! فاضرب في القلب ولا تفكر ! » والأشقاء يرمقون بعضهم والأكف تشد الأكف ، والعاشق يودع معشوقه الوداع الأبدي ، وهو واقف يبكي ورأسه على كتفه !

وخلعوا دروعهم كي تسرع الحراب في النفاذ إلى صدورهم ، فبدت عليها آثار الطعنات التي أصيبوا بها في سبيل قرطاجة ، وكأن تلك الجراح نقوش تاريخية حفرت على أعمدة .

ووقفوا كالمصارعين على أربعة صفوف متساوية وبدأوا يشتبكون برخاوة ، بل أن رجالا منهم عصبوا أعينهم فبدت سيوفهم تلعب فى الهواء برفق كأنها عصى عميان . فصاح القرطاجيون صياح السخرية ورموهم بالجبن ، فامتلأوا حماسا ، ولم يلبث القتال أن أصبح عاما ، مريعاً حامى الوطيس .

وكم من مدة كف فيها المتجادلان عن القتال والدم يتدفق منهما فارتميا على بعضهما يتعانقان ثم سقطاميعاً الواحد بين ذراعى الآخر وهما يتعانقان . ولم يتراجع أحد منهم بل كانوا يرتمون على النصال المسلولة وكلهم فى بحران هياج ، حتى أن القرطاجيين الواقفين بعيداً اعتراهم الخوف .

وأخيراً توقفوا عن القتل وصدورهم تصعد أصواتا جشاء ، وحدقاتهم بين شعورهم الطويلة ، تتدلى كما لو كانوا خارجين من حمام أرجوان . وكثيرون منهم كانوا يدورون حول أنفسهم كأنهم نمور جرحت فى جباهها . وآخرون يقفون جامدين بلا حراك وهم يحدقون النظر فى جثة مطروحة عند أقدامهم ، ثم يأخذون بتمزيق وجوههم بأظفارهم ويمسكون بسيوفهم بكلتا اليدين فيغمدونها فى بطونهم .

ولم يبق منهم الاستون رجلا . فاستسقوا ! فصاحوا بهم أن ألقوا أسحلتكم فألقوها وجاؤوهم بالماء ، وبينما هم يشربون ووجوههم فى الآنية ، انقض عليهم من الوراء ستون قرطاجيا فقتلوهم طعناً بالمدى .

وفعل هاميلكار فعلته هذه ليرضى شهوة جنوده ويجتذبهم بهذه الخيانة إلى التعلق بشخصه .

إذاً قد انتهت الحرب لأن ماتو لن يقف فى وجهه ، وذلك ما كان يظنه الزعيم .

وأمر جيشه بالرحيل دون إبطاء .

وقدم كشافة الجيش ينبئونه بأنهم رأوا قوافل ذخيرة ومؤن تسير متجهة إلي جبل الرصاص ، فلم يأبه لهذا النبأ ، لأن الرحل أصبحوا لاخطر لهم بعد هلاك جيش المرتزقة ، وأهم ما يهمه الان أن يستولي على تونس . فجد السير والسرى فى الزحف عليها .

وأرسل نارهافاس إلي قرطاجة ليحمل إليها بشرى انتصاره ، وكان ملك النوميدين فخوراً بنجاحه فأسرع إلى لقاء سلامبو .

* * *

قابلته فى خمائلها فى ظل شجرة من الجميز ، بين وسائد من جلد ، وبالقرب منها جاريتها طناش ، وقد ألقت على وجهها قناعا أبيض يغطى فمها وجبينها فلا يسفر منها إلا عيناها . ولكن شفتيها كانتا تلمعان من خلال النسيج الشفاف لمعان جواهر أصابعها ، لأن يديها كانتا أيضا محجبتين ولم تبد منهما حركة مادام حديثهما . فنقل إليها نارهافاس بشرى انهزام البربر ، فشكرته داعية له للخدمات التى أداها لوالدها ثم أخذ يقص عليها بالتفصيل أنباء الحملة .

ويمض الحمائم فوقهن وحولهن يهدلن على النخيل ، وطيور أخرى تدرج على العشب ، فمن دراديج مطوقة إلي يمان « طرتسيس » إلي غرغر قرطاجي ، والحديقة التى بعد عهدها بالحرث ضاعفت فى خضرتها فعلا الحنظل على خيار الشنبر ، ونبت الصقلاب بين حقول الورود ، وكونت النباتات المختلفة شبكات أو مهودا . وأشعة الشمس الضاربة على أوراق الشجر بخط منحرف طبعت علي الأرض ، كما تطبع فى الغابات ، ظل تلك الأوراق ، والحيوانات الداجنة ، وقد أصبحت آبدة ، تسارع فى الفرار لأقل حركة . ورب غزال يبدو وهو يجر بأظلافه الصغيرة ريش طاووس منثور ، وضوضاء المدينة البعيدة تضل بين هدير الأمواج ، والسماء زرقاء وما علي البحر من شراع .

ولم يعد نارهافاس يتكلم وسلامبو لاتجيبه بل تنظر ملياً إليه . كانت ترتدى ثوبا من الكتان ، مرسوم عليه أزهار وذيوله من ذهب ويمسك سهمان من فضة فرع رأسها المجدل من مهوى أذنيها، وهو مستند بيده اليمنى علي عود رمحه القصير المزدان بحاقات ذهبية وفضية وبخصل من شعر.

ومر بخاطرها أسراب من الأفكار المبهمة وهى تنظر إليه ، فهذا الفتى العذب الصوت البادية قامته كقامات النساء يبهر عينيها برشاقة جسمه ويبدو لها كأنه شقيقة كبرى بعث به البعول ليتولى حمايتها ، وعاودتها ذكرى ماتو فلم تتمالك أن تسأل عن حاله ومآله .

فاجاب ماتو بأن القرطاجيين يزحفون على تونس للاستيلاء عليها ، وكلما زاد فى بيان إمكانيات نصرهم وضعف قوات ماتو كلما بدا عليها فرح مبعثه أمل ، وكانت شفتاها ترتجفان وصدرها يلهث .

ولما وعد بان يقتله بيده صاحت قائلة : « أجل أقتله ! يجب أن يقتل » .

فرد عليها النوميدى بأن قتله هو غاية مايتمناه لأنه سيصبح زوجاً لها بعد نهاية الحرب .

فارتعدت سلامبو وطأطأت برأسها .

وواصل نارهافاس حديثه بتشبيه شوقه إليها بشوق الأزهار الذابلة إلى المطر وبشوق السراة التائهين إلى طلوع النهار ، وقال لها إنها أجمل من القمر وأطيب من نسيم الصباح وطلعة الضيف وأنه سيحمل إليها من بلاد الزنوج أشياء لا وجود لها فى قرطاجه وسيفرش لها بيت الزوجية بالتبر .

ومالت الشمس إلي المغيب ، ونفحات الطيب تتصاعد وطال نظرهما إلى بعض وعينا سلامبو تبدوان من وراء براقعها الطويلة ككوكبين بارزين من فرجة غيم

فى السماء . وأنصرف نارهاقاس من قبل غروب الشمس .

وأحس القدماء بلذة التخلص من قلق عند مغادرته للمدينة ، لأن الشعب كان أكثر حفاوة به وهتافاً له منه فى المرة الأولى ، وقالوا بأنفسهم إذا حقق هاميلكار ونارهافاس النصر علي البربر وحدهما فلا يعود باستطاعتهم أن يقفوا بوجهيهما ، فعقدوا العزيمة — فى سبيل إضعاف باركا — على أن يشركوا فى إنقاذ الجمهورية ذلك الرجل الذى يحبونه : « الزعيم هنون » .

فزحف بجيشه على الأقاليم الغربية ليحقق الأخذ بثأره فى تلك البقاع التى رأت عار الهزيمة يلحق به ، ولكن السكان ومعهم البربر كانوا قد ماتوا أو أختبأوا أو لاذوا بالفرار . فصرف غضبه إلى الريف وأخذ يحرق أنقاض الأنقاض ، فلم يترك شجرة ولا ساق عشبة ، وينزل أنواع التعذيب بالنساء والاطفال ، ويدفع بالنساء إلى جنده ليغتصبوهن قبل ذبحهن ، ويختار هو أجملهن فيضعهن فى محفته . وكان مرضه الشنيع يملأ نفسه بالشهوة القوية الجامحة فيشبعها بلهفة الرجل اليائس .

وكم من خيام سود كانت تبدو على قمم الآكام وقد أخذت تتقوض كما لو أن ريحاً عاصفة هبت عليها ، وكم من أقراص عريضه ذات أطراف لماعة هى عجلات مركبات غاصت فى الأودية !

تلك كانت خيام الرحل ومركباتهم أخذت تهيم فى البرية بعد رفع الحصار عن قرطاجة وهى تتحين الفرص للانضمام إلى البربر إذا ماهم احرزوا نصرا ، ولكنهم بعد أن يئسوا أو بعد أن امضهم الجوع ، هرعوا إلى سلوك طرقات بلادهم واختفوا عن الانظار .

ولم يحس هاميلكار قط بعاطفة حسد لانتصارات هنون وكان يريد أن يعجل

نهاية الحرب ، فأمر هنون بأن يتحول إلى تونس بجيشه ، فعجل الوصول إليها في الموعد المضروب ولا سيما أنه كان يحب وطنه تونس .

والمدافعون عن هــذه المدينة هم سكانها الأصليــون واثنا عشر ألفا من المرتزقة وآ كلو الأشياء النجسة التي كانت قرطاجة تجتذبهم إليها كما تجتذب ماتو ، لمــا كانوا يتطلعون إليه من الملذات العديدة التي تنتظرهم وراء أسوارها العالية . واجتمعت أحقادهم فشدت عزائمهم وأخــذوا يعــدون العدة للحصار . فاستعملوا القرب ليصنعوا خوذا من جلودها، وقطعوا النخل في الحدائق ليصنعوا رماحاً وحفروا الـكثير من الآبار ، وتوفيراً للأقوات أقبلوا على صيد الأسماك من البحيرة وكلها مغذى بالجثث والأقذار ، وكانت حصون تونس ضعيفة ، وقد تركت كلها مهدمة لحسد قرطاجة لها ، حتى كان من الممكن هدم أسوارها بدفعة من كتف دافع ، فأمر ماتو بسد ثغراتها بحجارة البيوت ، لأنه كان يعلم أن المعركة المقبلة آخر سهم في كنانته وهو وإن لم يكن له كبير أمل بالنصر إلا أنه كان يعتقد بأن البخت قلب .

وأبصر القرطاجيون عند اقترابهــم من تونس برجل على الحصن يتجاوز بعلو موقفه جميع المتاريس ، وكانت الاسهم الطائرة حواليه لا تخيفــه كما لو أنها سرب من السنونو الطائر . ومن المعجز أنه لم يصب بسهم واحد .

ونزل هاميلـكار بجيشه في الجهة الشرقية وإلى يمينه جيش نارهافاس يحتل سهل راديس وهنون شاطىء البحيرة . واتفقوا على أن يحتفظ كل منهم بمركزه لـكي يهاجموا الحصن كلهم دفعة واحدة .

وأحب هاميلـكار أن يرى المرتزقة قبل كل شيء أنه ينزل بهم من العقوبات ما ينزل بالعبيد الارقاء ، فأمر بصلب العشرة المفوضين الواحد بعد الآخر على أكمة تقع أمام المدينة ، ولمــا رأى المحاصرون هذا المشهد تركوا الاسوار .

ورأى ماتو أن باستطاعته أن يمر بين الأسوار وبين خيام جيش نارهافاس بسرعة خاطفة قبل أن يتمكن النوميديون من الخروج من خيامهم فيتاتى له بهذا بان يضرب المشاة القرطاجيين من مؤخرتهم فيحصرهم بين فرقته وبين المحصورين داخل المدينة فارتمى خارجاً مع قدماء المحاربين .

فلمحه نارهافاس وأسرع فاجتاز شاطىء البحيرة ونبه هنون ليخف إلى نجدة هاميلكار . فهل كان يعتقد أن هاميلكار أضعف من أن يتلقى صدمة المرتزقة ؟ أم هل كان عمله هذا خيانة أم غباوة : لم يدر أحد حتى اليوم السر فى ذلك .

فلم يتردد هنون فى السير إلى نجدة هاميلكار ايكسر من أنفته ويذله ، فأمر بالنفخ فى الأبواق وكرّ جيشه على البربر فأرتدوا عليهم وأخذوا يجندلونهم على الثرى ويدوسونهم بأقدامهم فردوهم إلى الوراء وطاردوهم حتى خيمة هنون فوجدوه فى وسط ثلاثين قرطاجياً من أشهر رجالات القدماء . فبدت عليه الدهشة لجرأتهم وأخذ ينادى ضباطه ، والبربر مقبلون عليه مهددين وقبضات أيديهم تحت حنجرته وهم منهالون عليه بأقبح الشتائم ، ووراءهم حشود من رفاقهم يتزاحمون للوصول إليه حتى كادت الأيدى الممسكة به تفلت وهو يحاول أن يهمس بآذانهم « سأعطيكم كل ماتطلبونه ! أنا غنى ! أنقذوني » وهم يجرونه رغم ثقله ويدفعون أمامهم القدماء . فزاد رعبه وأخذ يردد : « لقد هزمتمونى فانا أسيركم وهأنذا على استعداد لدفع الفدية ! اسمعوا يا أصدقائى . . ! » وحملوه على أكتافهم وهم يشدون على خاصرتيه وهو يقول ويقرر : « ما الذى تعملونه بى ؟ ما الذى تريدونه وإنى كما ترون لا أعاندكم ؟ لقد كنت دائماً طيباً معكم ! » .

وكان منصوبا على الباب صليب ضخم ، والبربر يصيحون : « هنا . هنا . »

وعلا صوته أصواتهم وهو يصيح ويستحلفهم باسم آلهتهم أن يقودوه أمام « الشاليشيم » أى القائد العام لأن لديه ما يقوله له ، مما به سلامتهم جميعاً .

فتوقفوا ورأى بعضهم من الحكمة أن يستدعوا ماتو ، فذهبوا فى طلبه .

وسقط هنون على العشب ورأى حوله صلباناً أخرى فضاعف ذلك فى عذابه وأخذ يقنع نفسه بان ليس هناك إلا صليب واحد بل ليس من صليب قط .

وأوقفوه وقال له ماتو : تكلم ! .

فعرض عليه أن يسلمه هاميلكار وأن يسيرا بعد ذلك معاً إلى قرطاجنة وينادبا بنفسيهما ملكين .

فابتعد ماتو وهو يشير إلى رجاله بأن يتعجلوا . وكان ماتو يعتقد فى قرارة نفسه أن ماعرض عليه ليس إلا خدعة لكسب الوقت . ولكنه كان مخطئاً فى فيما اعتقده : لأن هنون كان قد بلغ من بأسه حداً لا يقدر معه قيمة لشىء فضلا عن أنه يكره هاميلكار كرهاً بلغ فى شدته أنه كان جديراً بتسليمه للبربر مع جيشه لو بدت له صبابة أمل فى النجاة من مصيره .

وكان الثلاثون القدماء يحسون بألم النزع وهم ملقون على الأرض بجانب صلبانهم ، وبدت الحبال تشدهم من تحت آباطهم ، فأيقن الزعيم إذ ذاك بالموت فاجهش بالبكاء .

ونزعوا عنه ما بقى عليه من الملابس ، فبدت للناظرين فظاعة جسمه ، فالقروح تغطى هذه الكتلة اللحمية التى لا اسم لها ، وشحم رجليه يخفى عن عينيه رؤية أظافر قدميه ، ومن أصابعه تتناثر قطع مخضرة ، والدموع التى كانت تجرى

جداول بين درنات خديه تكسو وجهه بشيء بالغ حد الكآبة المخيفة ، لأنها كانت تحتل مكاناً أكبر مما يتسع له وجه بشرى ، وعصبة رأسه الملكية ، وقد أنفكت حتى نصفها ، تتمرغ مع شعوره البيض على الغبراء .

ورأوا أن ليس لديهم حبال تبلغ من المتانة حداً يمكنهم معه أن يرفعوه إلى أعلى الصليب ، فسمروه عليه قبل رفعه على الطريقة القرطاجية . وأيقظ الألم كبرياءه فأخذ يقذفهم بالشتائم ويرغى ويتلوى والزبد يخرج من فمه ، كمسخ من المسوخ البحرية يذبح على الشاطىء ويتنبأ لهم بأنهم سيموتون كلهم ميتة أشنع من ميتته وأنه سيؤخذ بثأره .

ولقد كان يؤخذ حقاً بثأره ، فان مفوضي المرتزقة كانوا فى هذه الساعة فى حشرجة النزع فى الناحية الأخرى من المدينة حيث كان يرتفع لهب النار وعمد الدخان .

أغمى على بعضهم ثم أيقظتهم برودة الهواء ، وظلت ذقونهم على صدورهم ولكن أجسادهم هوت قليلا رغم مسامير أيديهم التى دقت فى مواضع تعلو رؤوسهم والدم يتساقط من جراحهم نقطاً كبيرة و بيطء كما تتساقط من أغصان الأشجار الثمار الناضجة ، وقرطاجة والخليج والجبال والسهول تبدو لهم كأنها تلف وتدور كدولاب ضخم ، والغبار يرتفع أحياناً كغيم فيغطيهم فى دورانه ونار العطش تحرقهم وألسنتهم تتلوى فى أفواههم ، ويحسون على أجسادهم بتصبب عرق بارد يسيل سيل نفوسهم الراحلة .

ومع ذلك يتوهمون انهم يرون من بعد سحيق شوارع وجنوداً تسير للقتال وتأرجحات سيوف ، ويصل لغب المعركة مبهماً إلى اسماعهم كما يصل هدير الموج إلى آذان غرقى يموتون بين صوارى السفينة .

والمنحدرون من أصل إيطالى وهم اقوى بقية لايزالون يصرخون ،

واللاسيديميون سكوت يطبقون أجفانهم ، وزركساس الذى كان بالأمس معتزاً بشدته ، مائل كأنه قصبة ، والايتوبى إلي جانبه قلب رأسه بحيث يتدلى إلى الوراء فوق ذراع الصليب ، وأوتاريت جامد الحركة يدير حدقات عينيه فى محجريهما ، وشعره الطويل ، وقد عاق بين شقى الخشب ، مستقر مستقيم على جبينه والحشرجات التى يصعدها أولى بأن تسمى زمجرات غضب لا حشرجات .
وأما سبنديوس فقد أوتي اليوم شجاعة غريبة فهو يحتقر الحياة لثقته بتحرر عاجل أبدى ، وهو ينتظر الموت بدون تألم وبلا مبالاة .

وكانوا على ماهم من ضنى يرتعدون للمسة خفيفة لريش طائر يمس أفواههم فهناك أجنحة كبيرة تذبذب ظلالا حولهم وأصوات نعيب ترتفع فى الجو . ولما كان صليب سبنديوس أعلى الصلبان فقد كان أول ما انقضت عليه أولى العقبان ، فال عنـد ذاك برأسه نحـو أوتاريت وقال له بجهـد ، وعلى شفتيه ابتسامة لا يمكن وصفها :

— « أتتذكر الاسود على طريق سيكا » ؟

— فأجابه أوتاريت وهو يلفظ أنفاسه :

« لقد كانت بمثابة أخوة لنـا ! » .

وفي هذه الأثناء كان هاميلكار قد خرق الاسوار ووصـل إلى القلعـة . وتهب الريح شديدة فتجلو الدخان وينكشف الافق حتى أسوار قرطاجة حتى ليخيل إليه أنه يرى أناساً يتطلعون من إفريز معبد أشمون ولمح وهو يجيل عينيه إلى الشمال ثلاثين صليباً ضخاماً على شاطىء البحيرة ، ذلك أن البربر للمبالغة فى الارهاب ، صنعوا تلك الصلبان من صوارى خيامهم بعد أن ربطوا أطرافها ، فبدت جثث القدماء الثلاثين كأنها فى كبد السماء وظهر على صدورهم شبه فراش أبيض هو ريش السهام التى رموهم بها وهم على صلبانهم .

وفى ذروة أعلى الصلبان ارتفاعاً تلمع شريطة عريضة من الذهب ، وهى تتدلى على كتف فقدت ذراعها من هذه الجهة ، وأكثر هاميلكار من التحديق حتى تبين أن المعلق على الصليب هو هنون ، لأن عظامه المنخورة كالاسفنج لم تحتمل الاحزمة الحديدية ، فتناثرت أعضاء من جسمه وتساقطت ولم يبق منه على الصليب سوى بقايا ضئيلة شبيهة ببقايا الحيوانات المعلقة على أبواب الصيادين .

ولم يستطع أن يلم بشىء مما حدث ، لأن المدينة كانت تحجب عن نظره كل ما وراءها من بعيد ، والضباط الذين عجلهم الواحد تلو الآخر إلى القائدين لم يعودوا ، وإذا بالهاربين يقبلون فينقلون نبأ الهزيمة ، فوقف الجيش القرطاجى فى مكانه ، وصعقوا لهذه الكارثة التى نزلت بهم ساعة انتصارهم حتى أنهم لم يعودوا يستمعون أوامر هاميلكار . وانتهز ماتو الفرصة فاخذ يوقع ضرباته بالنوميديين : فبعد أن تضعضع معسكر « هنون » أرتد عليهم بجيشه وخرجت الفيلة . فاسرع البربر إلى الاسوار وجاؤوا منها بشعل النار وتقدموا فى السهل يلوحون باللهب أمامها فذعرت ونفرت إلى الخليج فارتمت فيه وارتطم بعضها ببعض فرزحت تحت أعباء أدرعها وغرقت ، وكر عليهم نارهافاس بفرسانه فانبطحوا كلهم على الأرض حتى إذا صارت الخيل على بعد ثلاث خطوات ارتموا على بطونهم يشقونها بخناجرهم . وكان نصف الجيش النوميدى قد هلك حين أقبل باركا .

وكان المرتزقه قد أنهكوا قواهم فلم يستطيعوا الثبات أمام الجيش القرطاجى فارتدوا بنظام حتى جبل المياه الساخنة ، ودعت الفطنة هاميلكار إلى الاحتراز من مطاردتهم فاتجه إلى مصب نهر ماكار .

لقد أصبحت تونس فى يده ولكنها غدت كومة من الانقاض المحترقة ،

وأمتد الخراب من ثغرات الاسوار حتى وسط السهل ، وفى أقصى المكان و بين شواطىء الخليج كانت الريح تدفع جثث الفيلة فتتلاطم مكدسة كأنها مجموعة جزر من صخور سود تطفو على وجه المياه .

وفى سبيل كسب هـذه الحرب ، كان نارهافاس قد ترك غاباته قفـرا من الفيلة ، فصاد صغارها وكبارها وذكورها وأناثها ، فضعفت بهذه الخسارة قوته الحربيه ولم تعد تقوم لها قائمة . وشعب قرطاجة الذى شهد من بعيد هلاكها تملكه اليأس والحسـرة ، فأخذ الرجال يعـولون فى الشوارع وينادونها باسمائها كما لو كانوا ينادون أصدقاء لسهم أدركتهم المنية : فهم يصيحون مثلا : آه ! يا من لا يغلب ! : آه يا نصر ! آه أيتها الصاعقة ! ياجد السنونو ! .

وبلغ من شدة حزنهم أنهم لم يتحدثوا فى يومهم الأول إلا بحديث هؤلاء المواطنين الخالين ، ولـكنهم فى الغـداة رأوا خيام المرتزقة منصوبة على جبـل المياه الساخنة فبلغ بهم اليأس مبلغـه حتى أن الـكثير منهم ولاسيما النساء ألقـوا بأنفسهم من أعالى مرتفعات الأكروبول .

وما من أحد يدرك نوايا هاميلـكار : فهو يعيش وحيداً فى خيمته مع صبى صغير لا يجلس أحد معهما الطعام أو شراب حتى ولا نارهافاس الذى أصبـح مع ذلك محـط عناية الزعيم منـذ هزيمة هنون . ولـكن نارهافاس كانت تساوره الظنون لأن له مصلحة بأن يصبح ابناً له .

وجود هاميلـكار يخفى وراءه مناورات لبقة وخدعاً ومكايد متنوعة ، لقد أغوى رؤساء القرى واستمالهم إليه فأصـبح المرتزقة يطردون ويردون عن كل مكان ويطاردون كالوحوش الضارية ، فإذا مروا بغابة اشتعلت حولهم النيران وإذا شربوا من بئر فالمـاء مسموم ، وإذا أووا إلى كهف سدت فوهته بالحجارة وهم نائمون ، وعامة الشعب التى حالفتهم بالأمس تطاردهم اليوم ،

وكان البربر يرون دائما اسلحة القرطاجيين في ايدى مطارديهم .

وظهرت القوبات في وجوه الكثيرين منهم فاعتقدوا بأن هذا المرض قد اتصل بهم من ملامستهم لمنون كما أعتقد آخرون بأنه مسبب من أكلهم لسمك سلامبو ، وهذا الأعتقاد لم يحرك بهم عاطفة ندامة بل بالعكس زادهم تصميماً على اقتراف آثام أفظع وعلى انتهاك حرمة المقدسات ليذلوا الآلهة القرطاجية إذلالا أوجع وأشد لأنهم يتوقون إلى محو ذكرهم وملاشاتهم لو أمكنهم ذلك .

وظلوا هكذا ثلاثة أشهر يجرون أنفسهم جراً على طول الشاطىء الشرقى ثم على جبل السلام وحتى أول رمال الصحراء وهم يبحثون عن ملجأ مهما كان شكله. وظلت أوتيك وهيبوزريت وحدهما مواليتين لهم ، ولكن هاميلكار كان يطوقهما . واتجهوا بعد ذلك جهة الشمال هائمين على وجوههم لايعرفون معالم الطرق . فاضطربت أفكارهم لشدة ماحل بهم من بؤس ، ولم تعد تخالجهم إلا عاطفة يأس تنمو يوماً بعد يوم ، وأخيرا وجدوا أنفسهم فى مضايق كوبيس وأمام قرطاجة مرة ثانية .

فتكاثرت عند ذاك المناوشات وتساوت نتائج الاشتباكات ولم يقف البحث إلي جانب دون جانب ، وبلغ الاعياء من الجيشين حده حتى تاق كل منهما إلى معركة بدلا من هذه المناوشات على شرط أن تكون معركة نهائية حاسمة .

وأراد ماتو أن يحمل بنفسه هذا الاقتراح إلي الزعيم القائد ، ولكن ليبياً من جنده عرض أن يقوم عنه بحمل الرسالة ، واعتقدوا كلهم بأنه لن يعود، ولكنه رجع فى مساء ذات اليوم . فقد قبل هاميلكار إقتراح البربر وحدد لهم الغداة موعداً للقتال ، عند شروق الشمس وفى سهل راديس .

وبدا الفضول المرتزقة لسؤال الرسول عما قاله الزعيم فأجاب :

« لما رآني لاأزال قائماً أمامه بعد أداء الرسالة سألنى : « ما الذى تنتظره» .

فقلت : « أن أقتل » فقال : « لا ! » أنصرف ! سيكون ذلك غداً مع الآخرين » .

فأدهش هذا الحلم البربر وأرعب بعضهم ، وأسف ماتو لعدم قتل الرسول .

* * *

كان لايزال باقياً لديه ثلاثة آلاف إغريقي ، وألف ومائتان وخمسة عشر كامباني ومائتا أيبيرى وأربعمائة أوترسكى ، وخمسمائة مننيت ، وأربعون جولياً وشرذمة من « النافور » وهم قطاع طرق رحل عثر عليهم فى مناطق البلح ، وتعداد ذلك كله سبعة آلاف ومائتان وتسعة عشر جندياً ولكن لم يكن لديه أية كتيبة كاملة . وكانوا قد سدوا ثقوب دروعهم بامشاط من اكتاف الحيوانات واستبدلوا أحذيتهم النحاسية بنعال من خرق ممزقة ، وصفائح النحاس أو الحديد تثقل ملابسهم وزرود حديدهم تتدلى كالاطمار حول أجسامهم وندوب جراحهم تبدو كخيوط الأرجوان بين شعور أذرعتهم أو على وجوههم ، وذكرى القتلى من رفاقهم تمر بخواطرهم فتملأ نفوسهم عزما وشدة ، وهم يشعرون شعوراً خفياً بانهم عباد إله مستقر فى قلوب المظلومين والمضهدين وأحبار الانتقام العالمى ، ويزيد غضبهم سعيراً شعورهم بالم ظلم فادح حاق بهم ، ولا سيما عند رؤيتهم قرطاجة بادية فى الأفق ، فاقسموا فيما بينهم أن يقاتل الواحد منهم فى سبيل الآخر حتى الموت .

وقتلوا البهائم المعدة للنقل وأكلوا ما أمكنهم أن ياكلوا ليزدادوا قوة ثم ناموا وصلى بعضهم مولين وجوههم نحو أبراج فى السماء مختلفة .

وأقبل القرطاجيون إلى السهل قبلهم ، فعركوا بالزيت أطراف مجناتهم لتزل عنها السهام بسهولة ، وقص المشاة نواصى شعورهم الطويلة حيطة منهم ورمى هاميلكار ماتحويه القصاع منذ الساعة الخامسة لعلمه بانه ليس من مصلحة الجندى

أن يقاتل وهو ممتلىء البطن . وكان تعداد جيشه أربعة عشر ألف رجل أى ضعف عدد البربر ، ومع ذلك كان يشعر بقلق لم يشعر به قط من قبل ، لأن انكساره يؤدى إلى فناء الجمهورية وإلى موته مصلوباً ، وأما إذا انتصر فسيخترق جبال البيرينيس و بلاد الجول وجبال الألب ويصل إلى إيطاليا فتصبح إمبراطورية آل بركا أبدية . ولقد صحا من نومه أكثر من عشرين مرة فى ليلته هذه ليتفقد ويراقب بنفسه كل شىء حتى أتفه الأمور ، وأما القرطاجيون فقد كانوا موغرى الصدر حنقاً لطول ما نالهم من رعب .

وكان نارهافاس يشك فى إخلاص جنده ويخشى على كل حال أن يتغلب عليهم البربر ، فاستولى عليه وهن غريب ، وأخذ يكثر من شرب أكواب الماء .

ولكن رجلا لا يعرفه دخل إلى خيمته ووضع على الأرض تاجاً من جوهر الملح مزداناً برسوم كهنونية قدسية مرسومة بالكبريت وبخطوط معينة من العاج . وقد جرت العادة أن ترسل الخطيبة إلى خطيبها تاج الزواج قبل وقوعه وفى ذلك دليل الحب وشىء من الدعوة إلى لقاء الحبيب .

وابنة هاميلكار لم تكن تشعر بعاطفة حنان نحو نارهافاس ، وذكرى ماتو كانت تسبب لها ضنكا وضيق صدر ، ويخيل لها أن موت هـذا الرجل يريح بالها ويطلق فكرها كما يداوى الملسوع نهشات الأفاعى بان يسحقها فوق جرحه . وملك النوميديين طوع امرها ، وهو يرقب حلول يوم عرسه بذاهب الصبر ، وهذا اليوم سيكون غداة الانتصار ، وإنما ارسلت إليه سلامبو هذه الهدية لتثير شجاعته . . وهكذا تلاشت آلام نار هافاس النفسية وزال قلقه ولم يعد يتجه تفكيره إلا إلى السعادة التى سيحوزها بامتلاكه لأمرأة بالغة حد الجمال .

وبدت لماتو نفس الرؤيا ، ولكنه عجل باطراحها ، وتحول حبه المكبوت إلى رفاق السلاح رفاقه ، فهو يحبهم احمق حب كحبه لأجزاء جسده وذرات بغضه

فاحس بسمو فى فكره وبقوة فى ذراعيه . وبدا له بوضوح كل ما كان متوجبا عليه أن يعمله وينفذه . وإذا كان صدره يصعد التنهدات من وقت إلى وقت فلأنه كان يفكر بسبنديوس .

صف البربر ستة صفوف متساوية، وضع « الأوترسك » فى القلب وعقدهم بسلسلة من القلز ، وأوقف النبال فى المؤخرة ، ووزع على الجانبين رجال النافور الراكبين على جمال محلوقة الوبر ومغطاة بريش النعام .

وصف هاميلكار جندة بنظام شبيه بنظام البربر ، وفى خارج صفوف المشاة وقريباً من المشاة الخفاف وضع فرسان « الكلينبار » وصف غبر بعيد عنهم «النوميديين» . ولما طلع النهار كان هؤلاء وأولئك مصطفين وجهاً لوجه حسب الترتيب المذكور. وتردد الجيشان قليلا ثم تحركا .

وتقدم البربر متباطئين لئلا ينالهم التعب وهم يضربون الأرض بأقدامهم . وقلب القرطاجيين يكون خطا أعوج مقبقباً . ووقع اصطدام هائل كاصطدام أسطولين يتلامسان ، وانكشف الصف الأول للبربر سريعاً ، فأخذ عمال النقل المختبئون وراءه يرمون بالقذائف والسهام والحراب ، ولكن خط القرطاجيين المقبقب أخذ ينفلطح شيئا فشيئا حتى أصبح مستقيما ثم منحرفا ، فتقاربت إذ ذاك فصيلتا المشاة الخفاف بخطين متقابلين كطرفى بيكار ينقفلان ، وكانت ضربات البربر موجهة إلى الكتيبة باصرار فولجوا فى الفجوة وأوشكوا أن يحيق بهم الهلاك فأوقفهم ماتو عن التغلغل . وبينما كان جناحا القرطاجيين يواليان التقدم ، أخرج الصفوف الثلاثة الداخلية خارج مواقفها الأصلية ومدها على جناحيه ، فبدا جيشه ثلاث مرات أطول صفا مما كان عليه .

ولكن البربر المصطفين فى أقصى الجناحين ظهر ضعفهم ولاسيما الذين كانوا على الجناح الأيسر ، لنفاد السهام من كناناتهم ، ولأن مشاة القرطاجين الخفاف

وصلوا إليهم فشقوا صفوفهم شقاً خطيرا . فسحبهم ماتو إلي الوراء . وكان فى الأيمن «الكنبانيون» المسلحون بالفؤوس فشد بجناحه هذا على ميسرة القرطاجيين بينما كان القلب يهاجم والطرف الآخر من جيشه يصمد للمشاة الخفاف .

فعند ذاك قسم هاميلكار فرسانه إلى كوكبات يتخللها مشاة مسلحون بالأسلحة الثقيلة ، وأطلقهم على البربر .

وهذه الكتل كانت بشكل كرز صنوبر جبهتاخيل ، وجنباتها الواسعة مجموعة من رماح ، فاستحال على البربر أن يصمدوا لها ، لأن المشاة الأغريق وحدهم كانوا مسلحين بأسلحة من نحاس ، ولم تكن اسلحة الآخرين إلا سواطير مرفوعة على أعواد ومناجل مسلوبة من المزارع أو حراباً مصنوعة من أطارات الدواليب فكانت هذه الأسلحة اللينة تلتوى لدى الضرب ، وبينما هم يحاولون تقويمها تحت أعقابهم ينقض عليهم القرطاجيون من اليمين واليسار فيفتكون بهم فتكا ذريعا .

ورجال « الأوترسك » المربوطون بسلسلتهم لايتزحزحون ، والذين قتلوا منهم لايسقطون ، فيكونون من جثثهم حاجزاً ، وهذا الخط الكثيف من القلز ينفرج حينا وينضم متجمعا حينا ، مرنا كالحية ثابتا كالجدار ، والبربر يحتمون وراءه ليعيدوا تنظيم وحداتهم ويستريحوا لحظة ثم يعودوا للقتال وبأيديهم بقايا أسلحتهم . وأصبح الكثيرون منهم بغير سلاح فكانوا يثبون على القرطاجيين فيعضونهم بوجوههم كما تعض الكلاب . ودفعت الكبرياء الجوليين فخلعوا خوذهم وكشفوا من بعيد عن أجسامهم الكبيرة الناصعة البياض ، وأخذوا يوسعون جراحهم بأيديهم لإرهاب أعدائهم ، وفى وسط الفصائل القرطاجية لم تعد تسمع أصوات المنادين الناقلين أوامر القائد، فأخذت الرايات المرفوعة فوق منار الغبار

تردد إشاراتهم . وكل من المحاربين يسير مدفوعا بتذبذبات الكتلة الكبيرة المحدقة به .

وأمر هاميلكار «النوميديين» بالكر على العدو ولكن «النافور» أسرعوا لمقابلتهم . كانوا يلبسون جلابيب سوداً فضفاضة وقد رفعوا فى أعلى جماجمهم خصلا من الشعر أشبه بالشراريب . وبأيديهم تروس من جلد الكركدن . وسيوفهم بلا مقابض تمسك بها حبال . وجمالهم المنثور عليها الريش تخرج أصواتا جشاء . يضربون بنصالهم فتصيب أهدافها بالضبط ثم يردونها وقد قطعت عضواً . والحيوانات المحنقة المائجة تعدو ما بين الفصائل وبعضها ، وقد كسرت قائمة له ، يسير بقفزات صغيرة كالنعام المجروح .

وعاد مشاة القرطاجين جميعاً فكروا على البربر فشطروهم ، وفرقهم تدور وهى بعيدة عن بعضها ، وأسلحة القرطاجين اللامعة تطوقهم كتيجان من ذهب ، وفى الوسط تموجات كتموج التمثال والشمس فوقهم تسكب على رؤوس الحراب أشعة بيضاء تتطاير فى الجو . وظلت صفوف متتابعة من جثث «الكلينبار» مطروحة فى السهل . والمرتزقة ينزعون عنها أسلحتها فيتمنطقونها ويعودون إلى القتال ، ولكن خدع القرطاجيون فولجوا بين صفوفهم . وكأنهم أصيبوا بالخيبة فيقفون لا يتحركون ثم يهجمون جماعات وهم يسمعون هتافات النصر من بعيد وكأنها تدفع بهم أمامها دفع العاصفة بقايا السفينة الغارقة .

وأدرك اليأس هاميلكار فكل شيء صائر إلى الهلاك بفضل عبقرية ماتو وشجاعة البربر التى لا تغلب .

وإذا بأصوات الدفوف تعلو إلى الأفق ، وبجماعات تتدفق من شيوخ ومرضى وصبية ونساء ، فاضت آلام نفوسهم واشتد قلقهم ، فاندفعوا من قرطاجة مقبلين ، وأحبوا أن يحتموا بشيء له هوله وخطره فروا فى طريقهم

على قصرها ميلكار وساقوا أمامهم الفيل الوحيد الذى كان كل ما تملكه الجمهورية اليوم ، وهو الفيل المقطوع الخرطوم .

فخيل حينئذ إلى القرطاجيين بأن الوطن قد هجر أسواره وجاء يأمرهم بأن يموتوا فى سبيله ، فتضاعفت ثورة حنقهم وحماسهم ومشى « النوميديون » فى الطليقة يجرون الآخرين .

وكان البربر فى وسط السهل قد استندوا بظهورهم إلى تل ولم يعد لهم أمل بالانتصار حتى ولا بالحياة ، ولكنهم كانوا خيرة رجالهم وأكثرهم إقداما وأصلبهم عوداً .

فأخذ شعب قرطاجة يرميهم بالسفافيد ومقاشط الشحم والشواكيش فكان أولئك الذين ارتعد منهم فرقاً قناصل الرومان يموتون بضربات العصى التي كانت تقذفها النساء عليهم ! وهكذا فإن العامة من شعب قرطاجة كانت تلاشى المرتزقة واحتموا بقمة التل وأخذت حلقتهم تضيق وتنكمش كلما فتحت فيها نقرة ، وحاولوا النزول مرتين فردتهم صدمات القرطاجيين وهم متجمعون بلا نظام يبسطون أيديهم ويمدون رماحهم بين أرجل رفاقهم باحثين أمامهم عن أجسام البربر ، وربما تزحلقوا على الدماء ، والجثث تتدحرج من أعلى لانحدار منحنى الأرض ، وهى تغطى حتى البطن ذلك الفيل الذى كان يحاول تسلق الأكمة متلذذاً يبسط جثته فوق القتلى ، وخرطومه المبتور العريض الطرف يرتفع بشكل علقة ضخمة .

وتوقفوا جميعاً والقرطاجيون يصرفون بأسنانهم ويتطلعون إلى الأكمة التى لجأ إليها البربر .

وأخيراً اندفعوا هاجمين فعاد الاشتباك، وكثيراً ما كان المرتزقة يتركونهم يقتربون وهم يتظاهرون بالاستسلام حتى إذا اقترب القرطاجيون منهم أرسلوا صيحات

الاستهزاء وقتلوا أنفسهم بضربة واحدة ، وكلما تساقط القتلى علا رفاقهم فوق جثثهم ، ليدافعوا عن أنفسهم ، وتعالت الجثث بشكل هرم أخذ يزداد ارتفاعاً .

ولم يطل المطال حتى أصبحوا خمسين ثم عشرين فثلاثة فاثنين فقط : رجل من السمنيين يحمل فأساً وماتو الذى كان سيفه لا يزال فى يده .

وكان السمنيت مقعياً علي عرقوبيه وبيده فأسه ، يدفعها يمنة ويسرة ، محذراً ماتو من الضربات التى كانت توجه إليه صائحاً به : « أيها السيد ! من هنا ! من هناك ! انحن ! » .

وكان ماتو قد عرى من غطائي كتفيه وخوذته ودرعه ومن ثيابه وأصبح لونه أشد صفرة من لون الموتى . وشعر رأسه منتصب ، وعلى طرفى فمه طبقات من زبد ، وحسامه السريع فى دورانه يرسم هالة حوله ، وأصيب السيف بضربة حجر فكسر مقبضه ، وقتل « السمنيت » وتجمع القرطاجيون حوله حتى لامسوه . فرفع نحو السماء يديه الخاليتين وأغمض عينيه ثم فتح ذراعيه كرجل يلقى بنفسه إلى البحر من حالق ، وارتمى بين الرماح فكانت تتنحى من أمامه ، وهجم على القرطاجيين مرة بعد مرة فتراجعوا وهم يحولون عنه سلاحهم ، وعثرت رجله بسيف فانحنى ليلتقطه فأحس برباط يوثق يديه وركبتيه .

كان ذاك نارهافاس الذى كان يتتبع خطاه منذ حين وبيده شبكة عريضة من الشباك التى تصاد بها الوحوش الضارية ، فاغتنم فرصة انحنائه إلى الأرض فغطاه بها .

وربطوه إلى ظهر الفيل وأعضاؤه الأربعة علي شكل صليب ، وواكبه الذين سلموا من الجراح وأسرعوا به وهم يضجون ويصيحون إلى قرطاجة .

وكانت بشرى الانتصار قد وصلت إليها منذ الساعة الثالثة ليلا ، والساعة

المائية الموضوعة بمعبد خامون آ ذنت بالخامسة عند وصولهم إلي «مالكا» وهناك فتح ماتو عينيه .

وكانت المشاعل والمصابيح تملأ البيوت ضياء ، حتى بدت المدينة شعلة من لهب ، والضوضاء الصاخبة تصل إلى أذنيه وهو ملقى على ظهره ينظر إلى النجوم .

وأقفل عليه باب واكتنفته الظلمات . . .

وفى الغداة لفظ روحه آخر رجل من البربر ظل حياً في مضيق الفأس ، ففى اليوم الذى رحل فيه رفاقهم مر بهم رجال من قبائل « زوايس » فدحرجوا الحجارة عن مدخل المضيق وجادوا عليهم بالأقوات بعض الوقت وظلوا ينتظرون قدوم ماتو ولم يريدوا أن يغادروا مكانهم فى الجبل إما لما بهم من ضنى وإما للعناد الذى يستولى عادة على المرضى فيحبب إليهم البقاء فى المكان الذى هم به قابعون؛ ونفد الزاد ورحل رجال « زوايس » وكان القرطاجيون يعلمون أن عددهم لا يزيد على الثلثمائة وأن لاداعى إذا لإرسال جنود ليفتكوا بهم لأن الوحوش الضارية ، ولا سيا الأسود ، قد ازداد عددها منذ ثلاث سنوات الحرب ، ونارهافاس قام بمطاردة تلك الوحوش حتى تجمعت ثم ربط الامعاز على أبعاد متفاوتة باتجاه مضيق الفأس وساق الضوارى باتجاهها . ووصل إلي المضيق الرجل الذى أوفده القدماء ليرى ما بقى فيه من رجال البربر .

فعلى مدى السهل ترقد الأسود والجثث ، وتختلط الملابس بشكات السلاح ، وكل جثة قد جردت من وجه أو من ذراع ، وقليل منها ما ظل سليما ، وبعضها بدأ مجففاً . والجماجم التى استحالت إلى تراب لا تزال تملأ الخوذ والأرجل التى عرت من اللحم تخرج من طماقاتها ، والهياكل العظيمة لا تزال محتفظة بأرديتها ، والعظام التى جلتها الشمس تبدو نقطاً لامعة بين الرمال .

والأسود رابضة على صدورها إلى الحضيض وقوائمها ممدودة وهي تغض جفونها اتقاء لوهج النهار الذي زادته حدة انعكاسات حرارة الصخور البيض وأسود أخرى أقعت على أعجازها وأخذت تحدق فيما أمامها أو انكمشت في لبداتها مختفية حتى أنصافها ، ونامت مستديرة على أنفها كالكرات وجميعها ظاهرة بمظهر المشبع لنهمه المتعب المتبرم ، وكلها ثابت جامد كالجبل أو كالأموات ، وأخذ الليل يرخي سدوله وبدت شرائط حمر ترقش السماء في جهة الغرب .

وفي مرتفع من هذه المرتفعات التي يحددودب بها السهل وقف شيء أكثر غموضاً من الشبح ، فتحرك أسد من الأسود وأخذ يمشي مرسلا بشكله المخيف ظلا أسود إلى خلفية السماء المصبوغة بالأرجوان ، ولما اقترب من الرجل قلبه على ظهره بضربة واحدة من مخلبه ثم ربض عليه بعرض بطنه ، وأخذ ينتزع أحشاءه بطرف أنيابه ، ثم فتح شدقيه على سعتهما وأخذ يرسل لمدة بضع دقائق ، زئيراً طويلا تجاوبت في الجبل أصداؤه ثم ضاع في الخلاء الموحش .

وإذا بالحصى تتدحرج من الأعلى وبوقع أقدام مسرعة يسمع ، ومن جهة النورج عند مدخل المضيق أفقام بمقرنة وآذان مستقيمة وحدقات ضارية تلمع ، كانت تلك بنات آوى مقبلة لتأكل فضلات الأسد .

والقرطاجي الذي كان يشهد جميع هذا عاد أدراجه إلى قرطاجة .



(١٥)

ماتـــو

كانت قرطاجة ترقص فرحا وفرحها عميق عام لا حد له . وكانوا قد سـدوا الثغرات التى أحدثها الخراب وأعادوا طلاء تماثيل الآلهة . وأغصان الآس تملأ الشوارع ، وفى زوايا مفارق الطرق يرتفع دخان البخور ، والجماهير المحتشدة على السطوح تبدو بملابسها المرقشة كباقات من أزهار تزدهر فى الهواء ، ونباح الأصوات المتواصل تعلوه صيحات حملة المياه يرشون بهـا البلاط وعبيد هاميلكار يقدمون باسمه الشعير المحمص وقطع اللحم النيء والناس يتبادلون التحيات أو يتعانقون وهم يبكون . لقد فتحت المدن الصورية وتمزق شمل الرحل وأبيد البربر . واختفى الأكروبول تحت مختلف الألوان ، وصفت السفن المثلثة خارج المرفا وهى تتلألأ كأنها سد من الملس ، وعم النظام كل مرفق ، وبدأت حياة جديدة ، وانتشرت السعادة الوافية ، وكان كل ذلك فى يوم زفاف سلامبو إلى ملك النوميديين .

وعلى شرفة معبد خامون تراكمت مصوغات ضخمة على ثلاث مناضد سيجلس إليها الكهنة والقدماء والأغنياء ، فضلا عن منضدة رابعة فى مكان أعلى لهاميلكار ولنـارهافاس ولها ، لأن سـلامبو إذ استرجعت الحجاب وأنقـذت الوطن استحقت أن يجعـل الشعب يوم زفافهـا يوم فرح وطنى ، وأبناء هـذا الشعب وقوف فى الميدان ينتظرون ظهورها .

ولـكن هناك شهوة أشد إلحاحا تستنفد صبرهم ، هى موت ماتو الموعودون برؤيته فى هذه الحفلة: وعدوهم فى أول الأمر بأن يسلخوا جلده وهو حى ، وأن

يسيلوا الرصاص فى احشائه ، وأن يميتوه جوعاً ، وأن يربطوه إلى شجرة ويضعوا وراءه قرداً يتولى ضربه بحجر على رأسه لأنه هتك حرمة تانيت وقردة تانيت ينتقمن لها . واقترح آخرون بأن يسيروا به على جمل بعد أن يضعوا فى أجزاء من جسمه فتائل مشتعلة من كتان مغموسة بالزيت ، فيطربهم هكذا أن يروا حيواناً ضخما بينهم فى الشوارع ، وعلى غاربه هذا الرجل وهو يتلوى من الألم تحت النار كشمعدان تتلاعب به الريح .

ولكن من هو المواطن الذى سيتولى تعذيبه ، ولم يحرمون غيره من المواطنين ، فهم يشتهون نوعاً من التعذيب تشترك فيه المدينة كلها وأن تجتمع جميع الأيدى وجميع الأسلحة والأشياء القرطاجية حتى بلاط الشوارع وأمواج الخليج لتمزقه وتسحقه وتلاشيه . وعلى ذلك قرر القدماء أن يخرج من سجنه إلى ميدان خامون دون حراس ويداه مشدودتان إلى ظهره ، ومنعوا من ضربه على قلبه ليطيلوا حياته ، ومن سمل عينيه ليتمكن حتى النهاية من رؤية أصناف تعذيبه كما حذروا الناس أن يقتذفوه بأى شىء أو أن يضربوه بأكثر من ثلاثة من أصابعهم فى الضربة الواحدة .

وعلى الرغم من علمهم بأنه لن يظهر لهم إلا فى آخر النهار ، فقد شبه لهم أنهم يلمحونه ، فهرعوا جماعات نحو الأكروبول ثم رجعوا وهم يتذمرون . ولزم أناس الوقوف فى مكان واحد منذ العشية ، وهم يتنادون عن بعد ، ويستعرضون أظفارهم التى تركوها بدون تقليم ليغرسوها فى جسمه ، وآخرون يذهبون ويجيئون مضطربين صفر الوجوه كما لو أنهم ينتظرون تنفيذ الحكم بهم .

وإذا بمراوح الريش العالية تبدو وراء « مابال » مرتفعة فوق الرؤوس . كانت تلك سلامبو تخرج من قصرها . فتنفس الناس تنفس الارتياح ، ولكن الموكب طال وصوله لتقدمه خطوة بخطوة ..

مر فى الطليعة كهنة « باتوك » فآمون « فالكارث » وتلاهم الآخرون بنفس الشارات والأعلام والنظام كمثل يوم تقدمة المحرقات ، وكان كهنة مولوح مطأطىء الرؤوس والجماهير تتنحى عنهم عند مرورهم بدافع من تبكيت الضمير ولكن كهنة « ربتنا » كانوا يتقدمون بخطى المعجب بنفسه ، وأعوادهم فى ايديهم وورائهم الكاهنات بفساتين شفافة صفر وسود ، وهن يقلدن غناء الطيور ، ويتلوين كالأفاعى أو يبرمن برماً على أصوات الشبابات ليقلدن رقصات الكواكب . وملابسهن الرقيقة تنشر فى الشوارع هبات من النكهات الرخوة . ويصفق الشعب عند مرورهن لنساء « الكديشيم » ذوات الحواجب المزججة المصبغة اللائي يرمزن عن اخنات الالهة . وقد كن ، وهن معطرات ولابسات مثلهن ، يشبهنهن رغم أثدائهن المفلطحة وأردافهن الضيقة .

ولا عجب فان مبدأ الاشوية كان يسود فى هذا اليوم كل شىء ويخلط بين كل شىء لأن روح شهوة سرية كان منتشرة فى الهواء المثقل ، وقد بدأوا يشعلون المصابيح فى أقصى الغابات المقدسة ، فلا بد إذاً من قيام سوق فسق كبيرة فى هذا الليل ، لأن هناك ثلاثة مراكب جلبت من صقلية عدداً من المحظيات كما جاء بعضهن من الصحراء .

وكلما وصلت طائفة إصطفت فى دور المعبد على الأروقة الخارجية وعلى السلالم المزدوجة التى ترتفع مستندة إلى الجدران حتى تتلاقى عند أعلاها . وبدت صفوف من الفساتين البيض بين الأعمدة ، وامتلأ المكان بالتماثيل البشرية الجامدة كالتماثيل الحجرية .

وأقبل أساطين المالية وحكام الاقاليم وجميع الأغنياء . وعلت الضوضاء من أسفل . ومن الشوارع المجاورة خرجت الحشود ، وخدمة المعبد يدفعونهم إلى

الوراء بضرب العصى ليحولوا بينهم وبين القدماء ، وعلى محفة تعلوها مظلةمن أرجوان ، لاحت للناظرين سلامبو متوجة بتاج من ذهب .

فارتفعت عندذاك الأصوات وتعالت ضربات الصنوج ودقات الجلاجل أكثر من ذى قبل وضربت الدفوف وتغلغلت مظلة الارجوان الكبيرة واختفت فى المعبد المربع الضخم .

وعادت المظلة فظهرت فى الطابق الأول وتحتها تتقدم سلامبو يبطء حتى اجتازت الشرفة لتجلس فى أقصاها على عرش منحوت بشكل ذبل السلحفاة ، ووضعوا تحت قدميها موطئاً من عاج ذى ثلاث درجات ، على طرفى الأولى منها غلامان زنجيان جاثيان ، فكانت تسند إلى رأسيهما ذراعيها المثقلتين بالخواتم من وقت إلى وقت .

ومن الكعبين إلى الردفين يشدها خط من حلقات ضيقة هى تقليد لقشور السمك ،ولكنها تلمع كالعاج كما يشدقامتها نطاق أزرق أبرز نهديها فبديا من خلال تجويفتين كأنهما هلالان ، وغطى حلمتيهما أقراط من الياقوت الجمرى مدلاة وصفف فرع رأسها بريش طاووس علقت فيه حجارة كريمة بشكل نجوم ، وتدلى وراءها رداء أبيض شبيه بالثلج ، وكانت جالسة منتصبة القامة وبالشكل الذى تفرضه الطقوس الدينية ومرفقاها ملقيان على جسمها ، وركبتاها مضمومتان ويطوق معصميها حلقات من الماس .

وعلى مقعدين دون مقعدها جلس أبوها وزوجها . يلبس ناهارفاس « سياراً » أشقر اللون وقد عقد على رأسه تاجاً من جوهر الملح مرصعاً بالجواهر نفرت من تحته خصلتا شعر مجدلتان على شكل قرنى آمون، وعلى هاميلكاز حلة بنفسجية طرزت عليها بالذهب غصون عنب مورقة ، وهو لا يزال يتقلد سيفه .

وفى المجال المتروك بين المناضد رقدت حية آمون بين بقع من الزيت وردية رخوة ، وقد عضت ذنبها فاستحال إلى دائرة سوداء ، فى وسطها عمود من نحاس يحمل بيضة من بلور سطعت عليها الشمس فعكست أشعتها فيما حولها .

ووراء سلامبو يصطف كهنة تانيت بأثوابهم الكتانية ، وإلى يمينها القدماء يشكلون مع تيجانهم خطا طويلا من الذهب ، وأمامهم فى الجهة الثانية الأغنياء بصولجاناتهم الزمردية يشكلون خطاً طويلاً أخضر ، وفى أقصى المكان أصطف كهنة مولوخ بأرديتهم الحمر كأنهم جدار من أرجوان . والطوائف الأخرى تحتل الشرفات السفلى ، والجماهير تملأ الشوارع ، ولربما تسلقوا السطوح ليصلوا صفوفاً صفوفاً إلى أعلى الاكروبول .

فأما وقد وقف الشعب تحت أقدامها ، وأمتد الفلك فوق رأسها . وانبسط حواليها البحر المتناهى باتساعه ، والخليج والجبال ومنظر الأقاليم البعيدة ، فإن سلامبو المشرقة قد امتزجت بتانيت بل أصبحت عبقرية قرطاجة وروحها المتجسدة .

والمأدبة ستدوم طوال الليل ، والمصابيح ذات الفروع الكثيرة أنبتت على قواعدها كأنها اشجار على تلك الأبسطة الصوفية المصبغة التى كانت تغطى المناضد الوطيئة ؛ وأزدحمت قوارير الفضة والذهب وأباريق الزجاج الخضر والملاعق من خراشيف الأسماك وأرغفة الخبز الصغيرة المدورة ترتمى فى أنواع من الصحون ذات الحوافى اللؤلؤية ، وعناقيد العنب وأوراقها معها ملفوفة كالشماريخ المعلقة على دوالى من عاج ، وكتل الثلج تذوب على صوانى الآبنوس ، والليمون والرمان والكوسى والبطيخ ترتفع شبه تلال على آنية الفضة ، وخنازير برية مفتوحة الفناطيس تلعق غبار مسحوق الأفاويق ، وأرانب برية مغطاة بالوبر تبدو

كأنها تقفز بين الأزهار ، ولحوم مختلفة تملأ الأصـداف ، وللحلويات صورة رمزية ، وجلاجل فى الصحاف إذا نزعت طارت منها الحمائم البيض .

والعبيد مشمرون عن أكمامهم يروحون ويجيئون على أطراف الأصـابع ، ومن وقت إلى وقت تضرب الأعواد نغماً أو ترتفع أصوات جوقة بالغناء ، وضوضاء الشعب تستمر استمرار هدير البحر ، وتطفو بغموض حول المأدبة كأنها تهزها بأنغام أكثر طولا . وتذكر بعضهم مأدبة المرتزقة .

واستسلم المدعوون إلى أحلام السعادة ، وبدأت الشمس تنزل والهلال يصعد فى الجهة الأخرى من السماء .

وكأن هاتفاً أهاب بسلامبو فمالت برأسها ، ورآها الشعب فتتبع مرمى نظرها .

ففى قمة الأكروبول انفتح باب السجن المظلم المنحوت فى الصخر فى أسفل المعبد ، وعلى عتبة هذه الظلمة وقف رجل . خرج من سجنه محنى الظهر وعليه ملامح الوحوش المذعورة الضارية التى يطلق سراحها على حين فجأة ، وكان النور يبهر عينيه فظل حيناً جامداً لا يتحرك . وعرفه جميع الناس فأخذوا يكتمون أنفاسهم . فجسم هذه الضحية ذو صفة خاصة لديهم ، موسوم بلألاء يكاد يكون دينياً . فأخذوا يتتبعون لسيره ، ولاسيما النساء منهم ، فهن متلهفات لرؤية قاتل ابنائهن وأزواجهن ، ومن قرارة أنفسهن يخرج فضول مرذول هو إشتهاؤهن معرفته معرفة كاملة ، ولكنها شهوة ممزوجة بتبكيت الضمير تتحول إلى اشتداد لكرههن إياه .

وأخيراً تقدم إلى الإمام فزال أثر صدمة المفاجأة . وارتفعت اذرع لاعداد لما فأختفى وراءها .

وسلم الأكروبول عشرون درجة تدرك عليها كما لو كان يتخبط فى وسط سيل متدفق من جبل . ولحوه يطفر ثلاث مرات ثم يسقط فى أسفل الدركات على عقبيه ، وكتفاه تدميان وصدره يلهث بانتفاضات واسعة ، وهو يبذل مجهود الجبابرة ليقطع وثاقه حتى بدت ذراعاه المصلبتان على كليتيه العاريتين منتفختين كقطع من حيات مقطعة . ومن المكان الذى كان فيه بدت أمامه شوارع عديدة فى كل منها سلاسل من القلز ذات ثلاثة صفوف مثبتة فى سور الآلهة باتوك تمتد من أول الشارع إلى آخره بخطين متقابلين ، والجماهير متراصة على الجدران ، وفى الوسط خدم القدماء يمشون جيئة وذهابا وبأيديهم سياط من جلد مرفوعة .

ودفعه أحدهم إلى الأمام بضربة قوية ، فأخذ ماتويعشى وهم يمدون أذرعتهم من فوق السلاسل ويصرخون شاكين مما تركوا له من سعة فى طريقه ، وهو يمشي والأيدى تتحسسه والأظافر تقرصه وتمزقه ، فإذا بلغ نهاية شارع بداغيره وكثيراً ما كان يرتمى نحوهم لينهشهم بأسنانه فيتنحون مسرعين ، والسلاسل تمسك به فيستغرق الحشد بالضحك .

ومزق صبى أذنه ، وشقت فتاة خده برأس مغزل كانت تخبئه فى كمها ، وانتزعوا بملء قبضاتهم خصلا من شعره وتتفا من لحمه ، وأخذ غيرهم يدمغون وجهه باسفنج ممتص للأقذار محمول على عصي ، وتدفق سيل من الدماء من الجانب الأيمن لحنجرته فبدأت حشرجة الموت تأخذه . فهذا الرجل آخر البربر ، كان يمثل جميع البربر ، وكل الجيش ، فهم يثأرون منه لهزائمهم ورعبهم وخزيهم وعارهم ، وسعر الشعب يزداد شدة إذا أشبع . وأخذت سلاسل الشوارع المبالغ فى شدها تلتوى وتكاد تنقطع وهم عليها لايحسون لشدة توترهم بضربات العبيد الذين يحاولون ردهم إلى الوراء . وكثيرون صعدوا فوق نتوءات البيوت . وسدت

الرؤوس فتحات الجدان . والأذى الذى ما كان يمكنهم ان يلحقوه به بايديهم قذفوه به بعوائهم : كانت تلك شتائم مقذعة مفحشة قاسية قذرة مليئة بالتعريض والتلميح وباللعنات . وكأنهم رأوا أن ماحل به اليوم من ألم حاضر ليس فيه الكفاية فأخذوا يبشرونه بعذاب آلم وأوجع فى الأبدية .

وهذا النباح يملأ قرطاجة ويستمر استمرارا يدل على الحمق والغباوة . وكثيراً ما كانوا يرددون جميعاً لمدة دقائق . مقاطع كلة أو نبرة صوت جشاء عميقة شديدة تتجاوب أصداؤها على الجدران تهزها من قواعدها حتى ذراها . وكان يخيل لماتو أن جانبى الشارع يتحركان نحوه ليخطفاه من الأرض ويرفعاه كذراعين لاحد لطولهما فيخنقاه فى الهواء .

وتذكر أنه قد أحس بالأمس شيئا مثيلا ، فالشعب هو هو على السطوح ، ونظراته لم تختلف ولا تبدل غضبه ولكنه كان يوم ذاك يمشى حراً فيتنحون عن طريقه لأن إلها كان يغطيه . وأخذت هذه الذكرى تتبلور أمام عينيه شيئا فشيئا فتحمل إليه غما ساحقا . وتمر أمامه ظلال ، وتدور المدينة فى رأسه ، وتسيل الدماء من جرح فى فخذه فأحس بقرب الموت . وألتوى عرقوباه وهوى شيئا فشيئا إلى الحضيض على البلاط .

وأسرع رجل إلى رواق الأعمدة فى معبد مالكارث وتناول من موقدة قضيب حديد حمى بالجمر حتى أحمر ، ومده من خلال السلسلة الأولى وشد به على جرحه العميق ، فتصاعد الدخان من اللحم المكوى وكتم صراخه هتاف السخرية والتشفى الذى ارتفع من الشعب . وانتصب ماتو واقفاً .

وسقط مرة ثانية على بعد ست خطوات وتوالى سقوطه ثالثة ورابعة . فكان يوقفه فى كل مرة شكل من التعذيب جديد . رشوا عليه من أنابيب نقطاً من الزيت المغلى . ونثروا تحت أقدامه العارية شظايا من الزجاج المكسر .

وظل ماتو يسير حتى وصل إلى زاوية شارع « ساتب » فاستند إلى الحائط تحت طنف حانوت وتوقف عن السير ، فجلده العبيد بسياط من جلد جاموس البحر جلداً مبرحاً دام طويلا حتى تبللت أثوابهم بالعرق، وهو فاقد الإحساس ، وإذا به يتحفز ويأخذ فى الجرى بلا هدى ويخرج من شفتيه صريفاً كصريف من يقشعر من البرد ، واجتاز شارع « بوديس » فشارع « سوبو » فسوق الأعشاب ووصل أخيراً إلى ميدان خامون . فأصبح الآن مملوكا للكهنة ، وكان العبيد قد نحوا جماهير الشعب فاتسع المجال .

ونظر ماتو إلى ما حوله فوقعت عيناه على سلامبو .

كانت قد انتصبت واقفة منذ الخطوة الأولى التى خطاها ، وكلما اقترب تقدمت هى شيئاً فشيئاً وبدون إرادة منها نحو حافة الشرفة ، وبعد قليل امحت أمامها جميع الأشياء الخارجية فلم تعد ترى إلا ماتو . لقد خيم الصمت على نفسها ، وتلك وهدة من هذه الوهدات يختنق فيها العالم بأسره تحت ضغط فكر متسلط أو ذكرى أو نظرة . فهذا الرجل السائر نحوها كان يجتذبها .

لم يبق له من مظهر الإنسان إلا عيناه ، فهو شكل من الأشكال طويل أحمر كل الحمرة ، يتدلي وثاقه المقطوع على طول فخذيه ولا يمكن التمييز بين هذه الحبال وبين أطراف عضلات قبضتى يديه المجردتين من اللحم كل التجرد ، وفمه لا يفتأ فاغراً ، ومن محجريه يخرج لهبان كأنهما يرتفعان حتى شعر رأسه وهذا البائس دائب فى مشيه .

وصل إلى أسفل الشرفة بالضبط وسلامبو منحنية على الجلفق ، وإنسانا عينيه يتأملان بها ، فانفجر من وجدانه ذكر ما قاساه من العذاب فى سبيلها ، وعلى الرغم من أنه كان يلفظ أنفاسه ، رأته كما كان فى خيمته جاثياً أمامها محيطاً قامتها بذراعيه متمتما كلمات عذبة . لقد كانت عطشى للإحساس بعذوبة

تلك الكلمات ولسماعها مرة ثانية ، ولم تكن تريد أن يموت . وفى هذه اللحظة انتفض ماتو انتفاضة شديدة فأوشكت أن تصرخ ، وهوى منطرحاً على ظهره وفارقته الحركة إلى الأبد .

وأوشك أن يغمى عليها ، فحملها إلي عرشها الكهنة المتهافتون حولها ، وهم يهنئونها لأن كل هذا عمل يديها . وكانت الجماهير كلها تصفق وتضرب الأرض بأقدامها هاتفة باسمها .

وأنقض رجل علي الجثة ولم يكن ملتحياً ولكنه كان يلقى على كتفه رداء كهنة مولوخ ، وفى منطقته مدية من المدى التى يستخدمونها لسلخ جلود اللحوم المقدسة ، وفى طرف مقبضها شبه ملعقة كبيرة من الذهب ، فشق صدر ماتو بضربة واحدة وانتزع منه قلبه ووضعه على الملعقة . ورفع شاهبريم ذراعه وقدم القلب تقدمة للشمس .

والشمس تنحدر وراء الامواج ، وأشعتها تضرب كأسهم طويلة قلب ماتو الأحمر كل الحمرة ، ويغوص الكوكب فى البحر بنسبة تلاشى خفقات القلب ويختفى مع الخفقة الأخيرة .

ومن الخليج إلى المستنقع ومن البرزخ إلي المنارة ، وفى جميع الشوارع ، وعلى اسطح المنازل والمعابد ارتفعت عند ذاك صرخة واحدة تخفت حيناً ثم تعود فتدوى فتهتز منها المباني . كانت قرطاجة كلها تهتز بتشنجات فرح جبار وأمل غير محدود .

وأخذت نارهافاس نشوة الكبرياء فلف ذراعه اليسرى حول قامة سلامبو إشعاراً بامتلاكه إياها ، وأخذ بيمناه جاماً من الذهب وشرب نخب قرطاجة .

ووقفت سلامبو كما وقف زوجها وبيدها جام لتشرب هى ايضاً ، فهوت على عرشها ورأسها إلى الوراء فوق مسند العرش شاحبة اللون كل الشحوب متصلبة ، وشفتاها منفتحتان ، وفرع رأسها المرخى يتدلى على الأرض .

هكذا ماتت إبنة هاميلكار لأنها لمست وشاح تانيت ! .



دار النصر للطباعة والنشر والإعلان
٨ شارع محمد سعيد ـ القاهرة